

المِيزَانُ
نَفْسِيَّةُ الْقُلُوبِ

لِلْعَلَامَةِ الشَّيخِ مُحَمَّدِ حَسَنِ الطَّبَّاطِبَايَنِيِّ

المجلد التاسع عشر

منشورات
مؤسسة الأمل للطبوعات
بمبوم - بستان



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الميزان في تفسير القرآن

كتاب علمي ، فني ، فلسفي ، أدبي ،
تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث

يفسر القرآن بالقرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد التاسع عشر

منشورات

مؤسسة الأعلى للطبوعات

بيروت - لبنان

ص ب : ٧١٢٠

الطبعة الثانية
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للنشر
١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م



مركز تحقيقات كتابية وعلوم إسلامية

تتماز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة الطور مكية ، وهي تسع وأربعون آية)

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالطُّورِ — ١ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ — ٢ .
فِي رَقٍّ مَنشُورٍ — ٣ . وَالْبَيْتِ الْمَغْمُورِ — ٤ . وَالسَّيْفِ الْمُرْفُوعِ — ٥ .
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ — ٦ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ — ٧ . لَمَّا لَهُ مِنْ
دَافِعٍ — ٨ . يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا — ٩ . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا — ١٠ .

(بيان)

غرض السورة إنذار أهل التكذيب والعناد من الكفار بالعذاب الذي أعد لهم يوم
القيامة فتبداً بالإنباء عن وقوع العذاب الذي أنذروا به وتحققه يوم القيامة بأقسام مؤكدة
وأيمان مغلظة ، وأنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم ولا مناص .

ثم تذكر نبذة من صفة هذا العذاب والويل الذي يعمهم ولا يفارقهم ثم تقابل ذلك
بشمة من نعم أهل النعم يومئذ وهم المتقون الذين كانوا في الدنيا مشفقين في أهلهم يدعون
الله مؤمنين به موحدين له .

ثم تأخذ في توبيخ المكذبين على ما كانوا يرمون النبي ﷺ وما أنزل عليه من
القرآن وما أتى به من الدين الحق .

وتختتم الكلام بتكرار التهديد والوعيد وأمر النبي ﷺ بتسبيح ربه . والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها .

قوله تعالى : « والطور » قيل : الطور مطلق الجبل وقد غلب استعماله في الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، والأنسب أن يكون المراد به في الآية جبل موسى عليه السلام أقسم الله تعالى به لما قدسه وبارك فيه كما أقسم به في قوله : « وطور سين » التين : ٢ ، وقال : « وناديناه من جانب الطور الأيمن » مريم : ٥٢ ، وقال في خطابه لموسى عليه السلام : « فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » طه : ١٢ ، وقال : « نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » القصص : ٣٠ .

وقيل : المراد مطلق الجبل أقسم الله تعالى به لما أودع فيه من أنواع نعمه قال تعالى : « وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها » حم السجدة : ١٠ .

قوله تعالى : « وكتاب مسطور في رق منشور » قيل : الرق مطلق ما يكتب فيه وقيل : هو الورق ، وقيل : الورق المأخوذ من الجلد ، والنشر هو البسط ، والتفريق . والمراد بهذا الكتاب قيل : هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه ما كان وما يكون وما هو كائن تقرأه ملائكة السماء ، وقيل : المراد به صحائف الأعمال تقرأه . حفظة الأعمال من الملائكة ، وقيل : هو القرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ ، وقيل : هو التوراة وكانت تكتب في الرق وتنشر للقراءة .

والأنسب بالنظر إلى الآية السابقة هو القول الأخير .

قوله تعالى : « والبيت المعمور » قيل : المراد به الكعبة المشرفة فإنها أول بيت وضع للناس ولم يزل معموراً منذ وضع إلى يومنا هذا قال تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين » آل عمران : ٩٦ .

وفي الروايات المأثورة أن البيت المعمور بيت في السماء بجذاء الكعبة تزوره الملائكة . وتنكير « كتاب » للإيماء إلى استغنائها عن التعريف فهو تنكير يفيد التعريف ويستلزمه .

قوله تعالى : « والسقف المرفوع » هو السماء .

قوله تعالى : « والبحر المسجور » قال الراغب : السجر تهيج النار ، وفي المجمع : المسجور المملوء يقال : سجرت التنور أي ملأته ناراً ، وقد فسرت الآية بكل من المعنيين وبؤيد المعنى الأول قوله : « وإذا البحار سجرت » التكوير : ٦ ، أي سمعت وقد ورد في الحديث أن البحار تسمر ناراً يوم القيامة ، وقيل : المراد أنها تفيض مياهها بتسجير النار فيها .

قوله تعالى : « إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع » جواب القسم السابق والمراد بالعذاب الخبر بوقوعه عذاب يوم القيامة الذي أوعده الله به الكفار المكذبين كما تشير إليه الآية التالية ، وفي قوله : « ما له من دافع » دلالة على أنه من القضاء المحتوم الذي لا يحيص عن وقوعه قال تعالى : « وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » الحج : ٧ .

وفي قوله : « عذاب ربك » بنسبة العذاب إلى الرب المضاف إلى ضمير الخطاب دون أن يقال : عذاب الله تأييد للنبي ﷺ على مكذبي دعوته وتطبيب لنفسه أن ربه لا يخزيه يومئذ كما قال : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » التحريم : ٨ .

قوله تعالى : « يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً » ظرف لقوله : « إن عذاب ربك لواقع » .

والمور - على ما في المجمع - تردد الشيء بالذهاب والمجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل ، ويقرب منه قول الراغب : إنه الجريان السريع .

وعلى أي حال فيه إشارة إلى انطواء العالم السهوي كما يذكره تعالى في مواضع من كلامه كقوله : « إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت » الانفطار : ٢ ، وقوله : « يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب » الأنبياء : ١٠٤ ، وقوله : « والسموات مطويات بيمينه » الزمر : ٦٧ .

كما أن قوله : « وتسير الجبال سيراً » إشارة إلى زلزلة الساعة في الأرض التي يذكرها تعالى في مواضع من كلامه كقوله : « إذا رجفت الأرض رجاً ويسّت الجبال بسّاً فكانت هباء منبثّاً » الواقعة : ٦ ، وقوله : « وسيرت الجبال فكانت سراباً » النبأ : ٢٠ .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور » قال : الطور جبل بطور سيناء .

وفي الجمع « والبيت المعمور » وهو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة يعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة . عن ابن عباس ومجاهد ، وروي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبداً .

أقول : كون البيت المعمور بيتاً في السماء يطوف عليه الملائكة واقع في عدة أحاديث من طرق الفريقين غير أنها مختلفة في محله ففي أكثرها أنه في السماء الرابعة وفي بعضها أنه في السماء الأولى ، وفي بعضها السابعة .

وفيه : « والسقف المرفوع » وهو السماء عن علي عليه السلام .

وفي تفسير القمي « والسقف المرفوع » قال : السماء ، « والبحر المسجور » قال : تسجر يوم القيامة .

وفي الجمع « والبحر المسجور » أي المملوء . عن قتادة ، وقيل : هو الموقد المحمى بمنزلة التنور . عن مجاهد والضحاك والأخفش وابن زيد . ثم قيل : إنه تحمى البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً ثم تفجر بعضها في بعض ثم تفجر إلى النار . ورد به الحديث .

* * *

قَوْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ - ١١. الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ - ١٢.
يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً - ١٣. هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ - ١٤. أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ - ١٥. إِنْصَلَوْهَا
فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ١٦.
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ - ١٧. فَالْكِهِنَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُنَّ وَوَقَاهُمْ

رَبِّهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ - ١٨. كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ١٩.
 مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ - ٢٠. وَالَّذِينَ آمَنُوا
 وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ
 مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ - ٢١. وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ
 مِّمَّا يَشْتَهُونَ - ٢٢. يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ - ٢٣.
 وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ - ٢٤. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
 عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ - ٢٥: قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ - ٢٦.
 فَنَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَيْنَ وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ - ٢٧. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ
 نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ - ٢٨.

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی
 (بیان)

تذكر الآيات من يقع عليهم هذا العذاب الذي لا ريب في تحققه ووقوعه ، وتصف حالهم إذ ذاك ، وهذا هو الغرض الأصيل في السورة كما تقدمت الإشارة إليه وأما ما وقع في الآيات من وصف حال المتقين يومئذ فهو من باب التطفل لتأكيد الإنذار المقصود .

قوله تعالى : « فويل يومئذ للمكذبين » تفريع على ما دلت عليه الآيات السابقة من تحقق وقوع العذاب يوم القيامة أي إذا كان الأمر كما ذكر ولم يكن محيص عن وقوع العذاب فويل لمن يقع عليه وهم المكذبون لا محالة فالجملة تدل على كون المعذبين هم المكذبين بالاستزمام وعلى تعلق الويل بهم بالمطابقة .

أو التقدير إذا كان العذاب واقعاً لا محالة ولا محالة لا يقع إلا على المكذبين لأنهم الكافرون بالله المكذبون ليوم القيامة فويل يومئذ لهم ، فالدال على تعلق العذاب بالمكذبين

هو قوله : « عذاب ربك » لأن عذاب الله إنما يقع على من دعاه فلم يجبه وكذب دعوته .

قوله تعالى : « الذين هم في خوض يلعبون » الخوض هو الدخول في باطل القول قال الراغب : الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ، ويستعار في الأمور وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه انتهى ، وتنبؤ التنكير في « خوض » يدل على صفة محذوفة أي في خوض عجيب .

ولما كان الاشتغال بباطل القول لا يفيد نتيجة حقة إلا نتيجة خيالية يزيناها الوهم للغائص سماء لعباً - واللعب من الأفعال ما ليس له إلا الأثر الخيالي - .

والمعنى : الذين هم مستمرون في خوض عجيب يلعبون بالمجادلة في آيات الله وإنكارها والاستهزاء بها .

قوله تعالى : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » الدعاء هو الدفع الشديد ، والظاهر أن « يوم » بيان لقوله : « يومئذ » .

قوله تعالى : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون » أي يقال لهم : هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، والمراد بالتكذيب بالنار التكذيب بما أخبر به الأنبياء عليهم السلام بروحي من الله من وجود هذه النار وأنه سيمذب بها المجرمون ومحصل المعنى : هذه مصداق ما أخبر به الأنبياء فكذبتم به .

قوله تعالى : « أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون » تفريع على قوله : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون » والاستفهام للإنكار تفريعاً لهم أي إذا كانت هذه هي تلك النار التي كنتم تكذبون بها فليس هذا سحراً كما كنتم ترمون إخبار الأنبياء بها أنه سحر وليس هذا أمراً موهوماً خرافياً كما كنتم تتفوهون به بل أمر مبصر معين لكم فالآية في معنى قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » الأحقاف : ٣٤ .

وبما مر من المعنى يظهر أن « أم » في قوله : « أم أنتم لا تبصرون » متصلة وقيل : منقطعة ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون » ، الصلي بالفتح فالسكون مقاسة حرارة النار فعنى اصلوها قاسوا حرارة نار جهنم .

وقوله : « فاصبروا أو لا تصبروا » تفريع على الأمر بالمقاساة ، والترديد بين الأمر والنهي كناية عن مساواة الفعل والترك ، ولذا أتبعه بقوله : « سواء عليكم » أي هذه المقاساة لازمة لكم لا تفارقكم سواء صبرتم أو لم تصبروا فلا الصبر يرفع عنكم العذاب أو يخففه ولا الجزع وتترك الصبر ينفع لكم شيئاً .

وقوله : « سواء عليكم » خبر مبتدأ محذوف أي هما سواء وإفراد « سواء » لكونه مصدراً في الأصل .

وقوله : « إنما تجزون ما كنتم تعملون » في مقام التعليل لما ذكر من ملازمة العذاب ومساواة الصبر والجزع .

والمعنى : إنما يلزامكم هذا الجزاء السيئ ولا يفارقكم لأنكم تجزون بأعمالكم التي كنتم تعملونها ولا تسلب نسبة العمل عن عامله فالعذاب يلزامكم أو إنما تجزون بتبعات ما كنتم تعملون وجزائه .

قوله تعالى : « إن المتقين في جنات ونعيم » الجنة البستان تجنبه الأشجار وتستره ، والنعيم النعمة الكثيرة أي إن المتصفين بتقوى الله يومئذ في جنات يسكنون فيها ونعمة كثيرة تحيط بهم .

قوله تعالى : « فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » الفاكهة مطلق الثمرة ، وقيل : هي الثمرة غير العنب والرمان ، ويقال : تفكه وفكه إذا تعاظمى الفكاكة ، وتفكه وفكه إذا تناول الفاكهة ، وقد فسرت الآية بكل من المعنيين فقيل : المعنى : يتحدثون بما آتاهم ربهم من النعيم ، وقيل : المعنى : يتناولون الفواكه والثمار التي آتاهم ربهم ، وقيل : المعنى : يتلذذون بإحسان ربهم ومرجعه إلى المعنى الأول ، وقيل : معناه فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم ، ولعل مرجعه إلى المعنى الثاني .

وتكرار « ربهم » في قوله : « ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » لإفادة مزيد العناية بهم . قوله تعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » أي يقال لهم : كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً ، فهنيئاً وصف قائم مقام مفعول مطلق أو مفعول به .

وقوله : « بما كنتم تعملون » متعلق بقوله : « كلوا واشربوا » أو بقوله : « هنيئاً » .

قوله تعالى : « متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين » الاتكاء الاعتماد على الوسادة ونحوها ، والسرر جمع سرير ، ومصفوفة من الصف أي مصطفة موصولة بعضها ببعض ، والمعنى : متكئين على الوسائد والتمارق قاعدين على سرر مصطفة .

وقوله : « وزوجناهم بحور عين » المراد بالتزويج القرن أي قرناتهم بهن دون النكاح بالعقد ، والدليل عليه تعديه بالباء فإن التزويج بمعنى النكاح بالعقد متعدي بنفسها ، قال تعالى : « زوجناكها » الأحزاب : ٣٧ ، كذا قيل .

قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء » الخ ، قيل : الفرق بين الاتباع واللاحق مع اعتبار التقدم والتأخر فيها جميعاً أنه يعتبر في الاتباع اشتراك بين التابع والتابع والمتبوع في مورد الاتباع بخلاف اللحق فاللاحق لا يشارك الملحق في ما لحق به فيه .

ولات وآلات بمعنى نقص فمعنى ما ألتناهم ما نقصناهم شيئاً من عملهم بالإلحاق . وظاهر الآية أنها في مقام الامتنان فهو سبحانه يمتن على الذين آمنوا أنه سيلحق بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان فتقر بذلك أعينهم ، وهذا هو القرينة على أن التنوين في « إيمان » للتنكير دون التعظيم .

والمعنى : اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن قصر عن درجة إيمان آبائهم إذ لا امتنان لو كان إيمانهم أكمل من إيمان آبائهم أو مساوياً له .

وإطلاق الاتباع في الإيمان منصرف إلى اتباع من يصح منه في نفسه الإيمان ببلوغه حداً يكلف به فالمراد بالنزيرة الأولاد الكبار المكلفون بالإيمان ، فالآية لا تشمل الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ ، ولا ينافي ذلك كون صغار أولاد المؤمنين محكومين بالإيمان شرعاً .

اللهم إلا أن يستفاد العموم من تنكير الإيمان ويكون المعنى : واتبعتهم ذريتهم بإيمانٍ مما سواء كان إيماناً في نفسه أو إيماناً بحسب حكم الشرع .

وكذا الامتنان قرينة على أن الضمير في قوله : « وما ألتناهم من عملهم من شيء » للذين آمنوا كالضميرين في قوله : « واتبعتهم ذريتهم » إذ قوله : « وما ألتناهم من عملهم من شيء » مسوق حينئذ لدفع توهم ورود النقص في الثواب على تقرير الإلحاق وهو ينافي

الامتنان ومن المعلوم أن الذي ينافي الامتنان هو النقص في ثواب الآباء الملحق بهم دون الذرية .

فحصل أن قوله : « والذين آمنوا » الخ ، استثناف يمتن تعالى فيه على الذين آمنوا بأنه سيلحق بهم أولادهم الذين اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن كان قاصراً عن درجة إيمانهم لتقر به أعينهم ، ولا ينقص مع ذلك من ثواب عمل الآباء بالإحاق شيء بل يؤتيهم مثل ما آتاهم أو ينحو لا تراحم فيه على ما هو أعلم به .

وفي معنى الآية أقوال أخر لا تخلو من سخافة كقول بعضهم إن قوله : « والذين آمنوا » معطوف على « حور عين » والمعنى : وزوجناهم بحور عين وبالذين آمنوا يتمتعون من الحور العين بالنكاح وبالذين آمنوا بالرفقة والصحبة ، وقول بعضهم : إن المراد بالذرية صغار الأولاد فقط ، وقول بعضهم : إن الضميرين في « وما ألتناهم من عملهم من شيء » للذرية والمعنى : وما نقصنا الذرية من عملهم شيئاً بسبب إلحاقهم بآبائهم بل نوفيهم أعمالهم من خير أو شر ثم نلحقهم بآبائهم .

وقوله : « كل امرئ بما كسب رهين » تعليل لقوله : « وما ألتناهم من عملهم من شيء » على ما يفيد السياق ، والرهن والرهين والمرهون ما يوضع وثيقة للدين على ما ذكره الراغب قال : ولما كان الرهن يتصور منه حبسه استعير ذلك لحبس أي شيء كان . انتهى .

ولعل هذا المعنى الاستعاري هو المراد في الآية والمرء رهن مقبوض ومحفوظ عند الله سبحانه بما كسبه من خير أو شر حتى يوفيه جزاء ما عمله من ثواب أو عقاب فلو نقص شيئاً من عمله ولم يوفه ذلك لم يكن رهين ما كسب بل رهين بعض ما عمل وامتلك بعضه الآخر غيره كذريته الملحقين به .

وأما قوله تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين » المذثر : ٣٩ ، فالمراد كونها رهينة العذاب يوم القيامة كما يشهد به سياق ما بعده من قوله : « في جنات يتساءلون عن المجرمين » المذثر : ٤١ .

وقيل : المراد كون المرء رهين عمله السيء كما تذلل عليه آية سورة المذثر المذكورة آنفاً بشهادة استثناء أصحاب اليمين ، والآية أعني قوله : « كل امرئ بما كسب رهين » جملة معارضة من صفات أهل النار اعترضت في صفات أهل الجنة .

وحمل صاحب الكشف الآية على نوع من الاستعارة فرفع به التنافي بين الآيتين قال : كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه فإن عمل صالحاً فكها وخلصها وإلا أوبقها . انتهى .

وأنت خير بأن مجرد ما ذكره لا يوجه اتصال الجملة أعني قوله : « كل امرئ بما كسب رهين » بما قبلها .

قوله تعالى : وأمددناهم بغاكة ولحم مما يشتهون « بيان لبعض تمنياتهم وتمتعهم في الجنة المذكورة إجمالاً في قوله السابق : « كلوا واشربوا هنيئاً » الخ .

والإمداد الإتيان بالشيء وقتاً بعد وقت ويستعمل في الخير كما أن المد يستعمل في الشر قال تعالى : « ونمد له من العذاب مداً » مريم : ٧٩ .

والمعنى : أنا نرزقهم بالفاكة وما يشتهونه من اللحم رزقاً بعد رزق ووقتاً بعد وقت من غير انقطاع .

قوله تعالى : « يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » التنازع في الكأس تعاطيها والاجتماع على تناولها ، والكأس القدح ولا يطلق الكأس إلا فيما كان فيها الشراب . والمراد باللغو لغو القول الذي يصدر من شارب الخمر في الدنيا ، والتأثيم جعل الشخص ذا إثم وهو أيضاً من آثار الخمر في الدنيا ، ونفي اللغو والتأثيم هو القرينة على أن المراد بالكأس التي يتنازعون فيها كأس الخمر .

قوله تعالى : « ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » المراد به طوافهم عليهم للخدمة قال بعضهم : قيل : « غلمان لهم » بالتنكير ولم يقل : غلمانهم لئلا يتوهم أن المراد بهم غلمانهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فهم كالخمر من مخلوقات الجنة كأنهم لؤلؤ مكنون مخزون في الحسن والصباحة والصفاء .

قوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » أي يسأل كل منهم غيره عن حاله في الدنيا وما الذي ساقه إلى الجنة والنعم ؟

قوله تعالى : « قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين » قال الراغب : والإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى : « وهم من الساعة

مشفقون ، فإذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدي بغي فمعنى العناية فيه أظهر قال تعالى : « إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين » ، انتهى .

فالمعنى : إنا كنا في الدنيا ذوي إشفاق في أهلنا نعتني بسعادتهم ونجأتهم من مهلكة الضلال فنعاشرهم يحميل المعاشرة ونسير فيهم ببث النصيحة والدعوة إلى الحق .

قوله تعالى : « فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم » المن على ما ذكره الراغب الإنعام بالنعمة الثقيلة ويكون بالفعل وهو حسن ، وبالقول وهو قبيح من غيره تعالى ، قال تعالى : « ينشئون عليك أن أسلموا قل لا تمننوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » الحجرات : ١٧ .

ومنه تعالى على أهل الجنة إسماعه إيابهم لدخولها بالرحمة وتمامه بوقايتهم عذاب السموم .

والسموم - على ما ذكره الطبرسي - الحر الذي يدخل في مسام البدن يتألم به ومنه ريع السموم .

قوله تعالى : « إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم » تعليل لقوله : « فمن الله علينا » الخ ، كما أن قوله : « إنه هو البر الرحيم » تعليل له .

وتفيد هذه الآية مع الآيتين قبلها أن هؤلاء كانوا في الدنيا يدعون الله بتوحيده للعبادة والتسليم لأمره وكانوا مشفقين في أهلهم يقرّبونهم من الحق ويحنتبونهم الباطل فكان ذلك سبباً لمن الله عليهم بالجنة ووقايتهم من عذاب السموم ، وإنما كان ذلك سبباً لذلك لأنه تعالى برّ رحيم فيحسن لمن دعاه ويرحمه .

فآيات الثلاث في معنى قوله : « إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » العصر : ٣ .

والبر من أسماء الله تعالى الحسنى ، وهو من البر بمعنى الإحسان ، وفسره بعضهم باللطيف .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي بكر عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » قال : فقال : قصرت الأبناء

عن عمل الآباء فالحقوا الأبناء بالآباء لتقر بذلك أعينهم .

أقول : ورواه أيضاً في التوحيد بإسناده إلى أبي بكر الحضرمي عنه عليه السلام .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن سليمان الديلمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن أطفال شيعتنا من المؤمنين تربيتهم فاطمة عليها السلام ، وقوله : « ألحقنا بهم ذريتهم » قال : يهدون إلى آباءهم يوم القيامة .

أقول : وروى في المجمع ذيل الحديث عنه عليه السلام مرسل .

وفي التوحيد بإسناده عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إذا مات الطفل من أطفال المؤمنين نادى مناد في ملكوت السماوات والأرض ألا إن فلان بن فلان قد مات فإن كان قد مات والداه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين دفع إليه يغذوه ، وإلا دفع إلى فاطمة تغذوه حتى يقدم أبواه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين فيدفعه إليه .

وفي الفقيه : وفي رواية الحسن بن محبوب عن علي عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى كفّل إبراهيم وسارة أطفال المؤمنين يغذوانهم بشجرة في الجنة لها أخلاف كأخلاف البقر في قصر من درة فإذا كان يوم القيامة ألبسوا وطبّبوا وأهدوا إلى آباءهم فهم ملوك في الجنة مع آباءهم ، وهذا قول الله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » .

وفي المجمع روى زاذان عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، ثم قرأ هذه الآية .

وفي الدر المنثور أخرج البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله قال : إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل ثم قرأ « والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء » قال : وما نقصنا الآباء بما أعطينا الأبناء .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال : إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به وقرأ ابن عباس : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان » الآية .

أقول : والآية لا تشمل الآباء المذكورين في الحديث ، والأنسب للدلالة عليه ما ذكره تعالى في دعاء الملائكة « ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » الآية المؤمن : ٨ .

وفي تفسير القمي قوله : « لا لغو فيها ولا تأثيم » قال : ليس في الجنة غناء ولا فحش ، ويشرب المؤمن ولا يأثم « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » قال : في الجنة .

* * *

فَذَكَرْ فَإِنَّكَ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا تَجْتُنِي - ٢٩ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ - ٣٠ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ - ٣١ . أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلُائِهِمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ - ٣٢ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ - ٣٣ . قَلِيلًا تَوَاجَدَ بِحَدِيثٍ مُثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ - ٣٤ . أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ - ٣٥ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ - ٣٦ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ - ٣٧ . أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ - ٣٨ . أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ - ٣٩ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ - ٤٠ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ - ٤١ . أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ - ٤٢ . أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ — ٤٣ . وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ — ٤٤ .

(بيان)

لما أخبر عن العذاب الواقع يوم القيامة وأنه سيصيب المكذبين، والمتقون في جنات ونعيم قريرة العيون أمر النبي ﷺ أن يمضي في دعوته وتذكرته مشيراً إلى أنه صالح لإقامة الدعوة الحقّة ، ولا عذر لهؤلاء المكذبين في تكذيبه ورد دعوته ..

فنفي جميع الأعذار المتصورة لهم وهي ستة عشر أمراً شطر منها راجع إلى النبي ﷺ لو تحقق شيء منه فيه سلب صلاحيته للاتباع وكان مانعاً عن قبول قوله ككونه كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو متقولاً مفترياً على الله وكسؤاله الأجر على دعوته وشطر منها راجع إلى المكذبين أنفسهم مثل كونهم خلقوا من غير شيء أو كونهم الخالقين أو أمر عقولهم بالتكذيب إلى غير ذلك ولا تخلو الآيات مع ذلك عن توبيخهم الشديد على التكذيب .

قوله تعالى : « فذكر فما أنت، بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » تقريع على ما مرّ من الإخبار المؤكد بوقوع العذاب الإلهي يوم القيامة ، وأنه سيفشى المكذبين والمتقون في وقاية منه متلذذون بنعيم الجنة .

فالآية في معنى أن يقال : إذا كان هذا حقاً فذكر فإنما تذكر وتنذر بالحق وليست كما يرمونك كاهناً أو مجنوناً .

وتقييد النفي بـ : « بنعمة ربك » يفيد معنى الامتنان على النبي ﷺ خاصة وليس هذا الامتنان الخاص من جهة مجرد انتفاء الكهانة والمجنون فأكثر الناس على هذه الصفة بل من وجهة تلبسه ﷺ بالنعمة الخاصة به المانع من عروض هذه الصفات عليه من كهانة أو جنون وغير ذلك .

قوله تعالى : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » أم منقطعة ، والتربص

الانتظار، وفي مجمع البيان : التربص الانتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها والمنون المنية والموت ، والريب القلق والاضطراب . فريب المنون قلق الموت .

ومحصل المعنى : بل يقولون هو أي النبي ﷺ شاعر ننتظر به الموت حق يموت ويحمد ذكره وينسى رسمه فنستريح منه .

قوله تعالى : « قل تربصوا فإني معكم من المتربصين » أمر النبي ﷺ أن يأمرهم بالتربص كما رضوا لأنفسهم ذلك ، وهو أمر تهديدي أي تربصوا كما ترون لأنفسكم ذلك فإن هناك أمراً من حقه أن ينتظر وقوعه ، وأنا أنتظره مثلكم لكنه عليكم لا لكم وهو هلاككم ووقوع العذاب عليكم .

قوله تعالى : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » الأحلام جمع حلم وهو العقل ، وأم منقطعة والكلام بتقدير الاستفهام والإشارة بهذا إلى ما يقولونه للنبي صلى الله عليه وآله ويتربصون به .

والمعنى : بل أتأمرهم عقولهم أن يقولوا هذا الذي يقولونه ويتربصوا به الموت ؟ فأي عقل يدفع الحق بمثل هذه الأباطيل ؟

قوله تعالى : « بل هم قوم طاغون » أي أن عقولهم لم تأمرهم بهذا بل هم طاغون حلمهم على هذا طغيانهم .

قوله تعالى : « أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون » قال في المجمع : تقول تكلف القول ولا يقال ذلك إلا في الكذب ، والمعنى بل يقولون : افعل القرآن ونسبه إلى الله كذباً وافتراء . لا بل لا يؤمنون فيرمونه بهذه الفرية .

قوله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » جواب عن قولهم : « تقوله » بأنه لو كان كلاماً للنبي ﷺ كان كلاماً بشرياً مماثلاً لسائر الكلام ويمثله سائر الكلام فكان يمكنهم أن يأتوا بحديث مثله فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في دعواهم تقول بل هو كلام إلهي لائحة عليه دلائل الإعجاز يعجز البشر عن إتيان مثله ، وقد تقدم الكلام في وجوه إعجاز القرآن في تفسير سورة البقرة الآية ٢٣ تفصيلاً .

ويمكن أن تؤخذ الآية رداً لجميع ما تقدم من قولهم المحكي أنه كاهن أو مجنون أو

شاعر أو متقول لأن عبقر البشر عن الإتيان بمثله يأبى إلا أن يكون كلام الله سبحانه لكن الأظهر ما تقدم .

قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » إتيان « شيء » منكرًا بتقدير صفة تناسب المقام والتقدير من غير شيء خلق منه غيرهم عن البشر .

والمعنى : بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شيء خلق منه غيرهم عن البشر فصلح لإرسال الرسول والدعوة إلى الحق والتلبس بعبوديته تعالى فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف ولا يتوجه اليهم أمر ولا نهى ولا تستتبع أعمالهم ثواباً ولا عقاباً لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم .

وفي معنى الجملة أقوال آخر .

ف قيل : المراد أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق فلا حاجة لهم إلى خالق يدبر أمرهم .

وقيل : المراد أم خلقوا من غير شيء حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات .

وقيل : المعنى أم خلقوا من غير علة ولا لغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لا يسمعون .

وقيل : المعنى أم خلقوا باطلاً لا بحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون .

وما قدمناه من المعنى أقرب إلى لفظ الآية وأشمل .

وقوله : « أم هم الخالقون » أي لأنفسهم فليسوا مخلوقين الله سبحانه حتى يربهم

ويدبر أمرهم بالأمر والنهي .

قوله تعالى : « أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون » أي أم أخلقوا العالم

حتى يكونوا أرباباً آلهة ويحلوا من أن يستعبدوا ويكلفوا بتكليف العبودية بل هم قوم لا يوقنون .

قوله تعالى : « أم عندهم خزائن ربك أم هم المهيضون » أي بل أعتدهم خزائن

ربك حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ويمسكوها عن شاءوا فيمنعوك النبوة والرسالة .

وقوله : « أم هم المهيضون » السيطرة — وربما يقلب سينها صاداً — القلبية والقهر

والمعنى : بل أهم الغالبون القاهرون على الله سبحانه حتى يسلبوا عنك ما رزقك الله من

النبوة والرسالة .

قوله تعالى : « أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين » السلم المرقاة ذات الدروج التي يتوسل بالصعود فيه إلى الأمكنة العالية ، والاستماع مضمن معنى الصعود ، والسلطان الحجة والبرهان .

والمعنى : بل أعندهم سلم يصعدون فيه إلى السماء فيستمعون بالصعود فيه الوحي فيأخذون ما يوحى اليهم ويردّون غيره ؟ فليأت مستمعهم أي المدعي للاستماع منهم بحجة ظاهرة .

قوله تعالى : « أم له البنات ولكم البنون » قيل : فيه تسفيه لمقولهم حيث نسبوا إليه تعالى ما أنفوا منه .

قوله تعالى : « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » قال الراغب : الغرم - باضم فالنسكون - ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جنابة منه أو خيانة انتهى والإثقال تحميل الثقل وهو كناية عن المشقة .

والمعنى : بل أفسألهم أجراً على قبليغ رسالتك فهم يتخرجون عن تحمل الغرم الذي ينوبهم بتأدية الأجر ؟

قوله تعالى : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ذكر بعضهم أن المراد بالغيب اللوح المحفوظ المكتوب فيه الغيوب والمعنى : بل أعندهم اللوح المحفوظ يكتبون منه ويخبرون به الناس فما أخبروا به عنك من الغيب الذي لا ريب فيه .

وقيل : المراد بالغيب علم الغيب ، وبالكتاب الإثبات والمعنى : بل أعندهم علم الغيب فهم يثبتون ما علموه شرعاً للناس عليهم أن يطيعوهم فيما أثبتوا ، وقيل : يكتبون بمعنى يحكمون .

قوله تعالى : « أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون » التكيد ضرب من الاحتيال على ما ذكره الراغب ، وفي الجمع : الكيد هو المكر ، وقيل : هو فعل ما يوجب القبض في خفية . انتهى .

ظاهر السياق أن الكفرة بكيدهم هو مكترهم بالنبي ﷺ بما رموه به من الكهانة والجنون والشعر والتقول ليعرض عنه الناس ويبتعدوا عنه فتبطل بذلك دعوته وينطفئ نوره ، وهذا كيد منهم ومكر بأنفسهم حيث يحرمون لها السعادة الخالدة والركوب على

صراط الحق بذلك بل كيد من الله بقطع التوفيق عنهم والصبغ على قلوبهم .
 وقيل: المراد بالكيد الذي يريدونه هو ما كان منهم في حقه ﷺ في دار الندوة
 والمراد بالذين كفروا المذكورون من المكذبين وهم أصحاب دار الندوة ، وقد قلب الله
 كيدهم إلى أنفسهم فقتلهم يوم بدر ، والكلام على هذا من الإخبار بالغيب لنزول السورة
 قبل ذلك بكثير ، وهو بعيد من السياق .

قوله تعالى : « أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون » فإنهم إذا كان لهم إله
 غير الله كان هو الخالق لهم والمدير لأمرهم فاستغنوا بذلك عن الله سبحانه واستجابة دعوة
 رسوله ونصرهم إلههم ودفع عنهم عذاب الله الذي أوعده به المكذبين وأنذرهم به رسوله .
 وقوله : « سبحانه الله عما يشركون » تنزيه له تعالى أن يكون له شريك كما
 يدعون ، وما في قوله : « عما يشركون » مصدرية أي سبحانه عن شركهم .

قوله تعالى : « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مراكوم » الكسف
 بالكسر فالسكون القطعة ، والمراكوم المتراكم الواقع بعضه على بعض .
 والمعنى : أن كفرهم وإصرارهم على تكذيب الدعوة الحققة بلغ إلى حيث لو رأوا
 قطعة من السماء ساقطاً عليهم لقالوا سحاب مراكوم ليس من آية العذاب في شيء فهو
 كقوله : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا »
 الحجر : ١٥ .

* * *

فَذَرُّهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ — ٤٥ . يَوْمَ لَا
 يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ — ٤٦ . وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
 عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ — ٤٧ . وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ
 رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ — ٤٨ . وَمِنَ
 اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ — ٤٩ .

(بيات)

الآيات تحتم السورة وتأمّر النبي ﷺ أن يترك أولئك المكذبين وشأنهم ولا يتعرض لحالهم ، وأن يصبر لحكم ربه ويسبح بحمده ، وفي خلاها مع ذلك تكرار إبعادهم بما أوعدهم به في أول السورة من عذاب واقع ليس له من دافع ، وتضيف إليه الإبعاد بعذاب آخر دون ذلك للذين ظلموا .

قوله تعالى : « فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون » : ذرهم ، أمر بمعنى اتركهم وهو فعل لم يستعمل من تصريفاته إلا المستقبل والأمر ، و « يصعقون » من الإصعاق بمعنى الإماتة وقيل : من الصعق بمعنى الإماتة .

لما أُنذر سبحانه المكذبين لدعوته بعذاب واقع لا ريب فيه ثم رد جميع ما تعلل به أو يفرض أن يتعلل به أولئك المكذبون ، وذكر أنهم في الإصرار على الباطل بحيث لو عاينوا أوضح آية للحق أو لوه وردّوه ، أمر نبيه ﷺ أن يتركهم وشأنهم ، وهو تهديد كنائي بشمول العذاب لهم وحالهم هذه الحال .

والمراد باليوم الذي فيه يصعقون يوم نفخ الصور الذي يصعق فيه من في السموات والأرض وهو من أشراط الساعة قال تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض » الزمر : ٦٨ .

ويؤيد هذا المعنى قوله في الآية التالية : « يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون » فإن انتفاء إغناء الكيد والنصر من خواص يوم القيامة الذي يسقط فيه عامة الأسباب والأمر يومئذ الله .

واستشكل بأنه لا يصعق يوم النفخ إلا من كان حياً وهؤلاء ليسوا بأحياء يومئذ والجواب أنه يصعق فيه جميع من في الدنيا من الأحياء ومن في البرزخ من الأموات وهؤلاء إن لم يكونوا في الدنيا ففي البرزخ .

على أنه يمكن أن يكون ضمير « يصعقون » راجعاً إلى الأحياء يومئذ ، والتهديد إنما هو بالعذاب الواقع في هذا اليوم لا بالصعقة التي فيه .

وقيل : المراد به يوم بدر وهو بعيد ، وقيل : المراد به يوم الموت ، وفيه أنه لا

يلائم السياق الظاهر في التهديد بما وقع في أول السورة وهو عذاب يوم القيامة لا عذاب يوم الموت .

قوله تعالى : « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون » لا يبعد أن يكون المراد به عذاب القبر ، وقوله : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » مشعر بأن فيهم من يعلم ذلك لكنه يصّر على كفره وتكذيبه عناداً وقيل : المراد به يوم بدو لكن ذيل الآية لا يلائم تلك الملامة .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » عطف على قوله : « فذرهم » وظاهر السياق أن المراد بالحكم حكمة تعالى في المكذبين بالإمهال والإملاء والطبع على قلوبهم ، وفي النبي ﷺ أن يدعو إلى الحق بما فيه من الأذى في جنب الله فالمراد بقوله : « فإنك بأعيننا » أنك بمنى منا نراك بحيث لا يخفى علينا شيء من حالك ولا نفعل عنك ففي تعليل الصبر بهذه الجملة تأكيداً للأمر بالصبر وتشديد للخطاب .

وقيل : المراد بقوله : « فإنك بأعيننا » أنك في حفظنا وحراستنا فالعين مجاز عن الحفظ ، ولعل المعنى المتقدم أنسب للسياق .

قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » الباء في « بحمد » للمصاحبة أي سبح ربك ونزهه حال كونه مقارناً لمحمد .

والمراد بقوله : « حين تقوم » قيل هو القيام من النوم ، وقيل : هو القيام من القائلة ، فهو صلاة الظهر ، وقيل : هو القيام من المجلس ، وقيل : هو كل قيام ، وقيل : هو القيام إلى الفريضة وقيل : هو القيام إلى كل صلاة ، وقيل : هو الركعتان قبل فريضة الصبح سبعة أقوال كما ذكره الطبرسي .

وقوله : « ومن الليل فسبحه » أي من الليل فسبح ربك فيه ، والمراد به صلاة الليل ، وقيل : المراد صلاتا المغرب والعشاء الآخرة .

وقوله : « وإدبار النجوم » قيل : المراد به وقت إدبار النجوم وهو اختفاؤها بضوء الصبح ، وهو الركعتان قبل فريضة الصبح ، وقيل : المراد فريضة الصبح ، وقيل : المراد تسبيحه تعالى صباحاً ومساءً من غير غفلة عن ذكره .

(بحث رواني)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم » قال : لصلاة الليل « فسبحه » قال : صلاة الليل .

أقول : وروى هذا المعنى في مجمع البيان عن زرارة وجران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليها السلام .

وفيه بإسناده عن الرضا عليه السلام قال : ادبار السجود أربع ركعات بعد المغرب وإدبار النجوم ركعتان قبل صلاة الصبح .

أقول : وروى ذيله في المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليها السلام ، والقمي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام .

وقد ورد من طرق أهل السنة في عدة من الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا قام من مجلسه سبّح الله وحمده ويقول : إنه كفارة المجلس لكنها غير ظاهرة في كونها تفسيراً للآية .

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

(سورة النجم مكية ، وهي اثنان وستون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ - ١ . مَا ضَلَّ
صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ - ٢ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ - ٣ . إِنْ هُوَ
إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ - ٤ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ - ٥ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ - ٦ .
وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ - ٧ . ثُمَّ دَنَىٰ قَدْلَىٰ - ٨ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَىٰ - ٩ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ - ١٠ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ

مَا رَأَى — ١١ . أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى — ١٢ . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً
 أُخْرَى — ١٣ . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى — ١٤ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى — ١٥ .
 إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى — ١٦ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى — ١٧ .
 لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى — ١٨ .

(بيان)

غرض السورة تذكير الاصول الثلاثة : وحدانيته تعالى في ربوبيته والمعاد والنبوة
 فتبدأ بالنبوة فتصدق الوحي إلى النبي ﷺ وتصفه ثم تتعرض للوحدانية فتنتفي الأوثان
 والشركاء أبلغ النفي ثم تصف انتهاء الخلق والتدبير اليه تعالى من إحياء وإماتة وإضحاك
 وإبكاء وإغناء وإقناء وإهلاك وتعذيب ودعوة وإنذار ، وتختتم الكلام بالإشارة إلى المعاد
 والأمر بالسجدة والعبادة .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها ولا يصحى إلى قول بعضهم بكون بعض آياتها أو
 كلها مدنية ، وقد قيل : إنها أول سورة أعلن النبي ﷺ بقراءتها فقرأها على المؤمنين
 والمشركين جميعاً ، ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى : « وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » وقوله :
 « وَأَنْ لِّسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى » .

وما أوردناه من الآيات هي الفصل الأول من فصول السورة الثلاثة وهي الآيات
 اللاتي تصدق الوحي إلى النبي ﷺ وتصفه ، لكن هناك روايات مستفيضة عن أئمة أهل
 البيت عليهم السلام ناصة على أن المراد بالآيات ليس بيسان صفة كل وحي بل بيسان وحي
 المشافهة الذي أوحاه الله سبحانه إلى نبيه ﷺ ليلة المعراج فالآيات متضمنة لقصة المعراج
 وظاهر الآيات لا يخلو من تأييد لهذه الروايات وهو المستفاد أيضاً من أقوال بعض الصعابة
 كابن عباس وأنس وأبي سعيد الخدري وغيرهم على ما روي عنهم وعلى ذلك جرى كلام
 المفسرين وإن اشد الخلاف بينهم في تفسير مفرداتها وجملها .

قوله تعالى : « وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ » ظاهر الآية أن المراد بالنجم هو مطلق الجرم

الساوي المضيء وقد أقسم الله في كتابه بكثير من خلقه ومنها عدة من الأجرام السماوية كالشمس والقمر وسائر الدسيارات ، وعلى هذا فالمراد بهوي النجم سقوطه للغروب .
وقيل : المراد بالنجم القرآن لنزوله نجوماً ، وقيل : الثريا ، وقيل : الشعرى ،
وقيل : الشهاب الذي يرمى به شياطين الجن لأن العرب تسميه نجماً ، واللهوي ما يناسب لكل من هذه الأقوال من المعنى ، لكن لفظ الآية لا يساعد على شيء من هذه المعاني .

قوله تعالى : « ما ضل » صاحبكم وما غوى ، الضلال الخروج والانحراف عن الصراط المستقيم ، والغى خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع ، قال الراغب : الغي جهل من اعتقاد فاسد ، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً ، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد ، وهذا النحو الثاني يقال له غي ، قال تعالى : « ما ضل » صاحبكم وما غوى . انتهى . والمراد بالصاحب هو النبي ﷺ .

والمعنى : ما خرج صاحبكم عن الطريق الموصل إلى الغاية المطلوبة ولا أخطأ في اعتقاده ورأيه فيها ، ويرجع المعنى إلى أنه لم يخطئ ، لا في الغاية المطلوبة التي هي السعادة الإنسانية وهو عبوديته تعالى ، ولا في طريقها التي تنتهي إليها .

قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » المراد بالهوى هوى النفس ورأياها ، والنطق وإن كان مطلقاً ورد عليه النفي وكان مقتضاه نفي الهوى عن مطلق نطقه ﷺ لكنه لما كان خطاباً للمشركين وهم يرمونه في دعوته وما يتلو عليهم من القرآن بأنه كاذب متقول مفتر على الله سبحانه كان المراد بقريئة المقام أنه ﷺ ما ينطق فيما يدعوكم إلى الله أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه ورأيه بل ليس ذلك إلا وحياً يوحى إليه من الله سبحانه .

قوله تعالى : « علمه شديد القوى » ضمير « علمه » للنبي ﷺ أو للقرآن بما هو وحي أو لمطلق الوحي والمفعول الآخر لعلمه محذوف على أي حال والتقدير علم النبي الوحي أو علم القرآن أو الوحي إياه .

والمراد بشديد القوى - على ما قالوا - جبريل وقد وصفه الله بالقوة في قوله : « ذي قوة عند ذي العرش مكين » التكوير : ٢٠ ، وقيل : المراد به هو الله سبحانه .

قوله تعالى : « ذو مرة فاستوى » المرة بكسر الميم الشدة ، وحصافة العقل

والرأي ، وينام نوع من المرور وقد فسرت المرة في الآية بكل من المعاني الثلاثة مع القول بأن المراد بذئ مرة جبريل ، والمعنى : هو أي جبريل ذو شدة في جنب الله أو هو ذو حصافة في عقله ورأيه ، أو هو ذو نوع من المرور بالنسبة لله وهو في الهواء .

وقيل : المراد بذئ مرة النبي ﷺ فهو ذو شدة في جنب الله أو ذو حصافة في عقله ورأيه أو ذو نوع من المرور غشح فيه إلى السماوات .

وقوله : « فاستوى » بمعنى استقام أو استولى وضمير الفاعل راجع إلى جبريل والمعنى : فاستقام جبريل على صورته الأصلية التي خلق عليها على ما روي أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ في صور مختلفة ، وإنما ظهر له في صورته الأصلية مرتين أو المعنى : فاستولى جبريل بقوة على ما جعل له من الأمر .

وإن كان الضمير للنبي ﷺ فالمعنى فاستقام واستقر .

قوله تعالى : « وهو بالافق الأعلى » ، الأفق الناحية قيل : المراد بالافق الأعلى ناحية الشرق من السماء لأن أفق المشرق فوق المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء وهو كما توى والظاهر أن المراد به أفق أعلى من السماء من غير اعتبار كونه أفقاً شرقياً .

وضمير هو في الآية راجع إلى جبريل أو إلى النبي ﷺ ، والجملة حال من ضمير « استوى » .

قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى » الدنو القرب ، والتدلى للتعلق بالشيء ويكسب به عن شدة القرب ، وقيل : الإمتداد إلى جهة السفلى مأخوذة من الدلو .

والمعنى : على تقدير رجوع الضميرين لجبريل : ثم قرب جبريل فتعلق بالنبي ﷺ ليخرج به إلى السماوات ، وقيل : ثم تدلى جبريل من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ ليخرج به .

والمعنى : على تقدير رجوع الضميرين إلى النبي ﷺ : ثم قرب النبي من الله سبحانه وزاد في القرب .

قوله تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » قال في الجمع : القاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن مقدار الشيء انتهى . والقوس معروفة وهي آلة الرمي ، ويقال قوس على الذراع في لغة أهل الحجاز على ما قيل .

والمعنى : فكان البعد قدر قوسين أو قدر ذراعين أو أقرب من ذلك .

وقيل : القاب ما بين مقبض القوس وسيتها ففي الكلام قلب والمعنى : فكان قايي قوس ، واعترض عليه بأن قايي قوس وقاب قوسين واحد فلا موجب للقلب .

قوله تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » ضمير أوحى في الموضعين لجبريل على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى جبريل ، والمعنى : فأوحى جبريل إلى عبده الله وهو النبي ﷺ ما أوحى ، قيل : ولا ضمير في رجوع الضمير إليه تعالى من عدم سبق الذكر لكونه في غاية الوضوح . أو الضمائر الثلاث لله والمعنى : فأوحى الله بتوسط جبريل إلى عبده ما أوحى أو الضمير الأول لجبريل والثاني والثالث لله والمعنى فأوحى جبريل ما أوحى الله إليه إلى عبد الله .

والضمائر الثلاث كلها لله على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى النبي ﷺ والمعنى : فأوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وهذا المعنى أقرب إلى الذهن من المعنى السابق الذي لا يرضيه الذوق السليم وإن كان صحيحاً .

قوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » الكذب خلاف الصدق يقال : كذب فلان في حديثه ، ويقال : كذبه الحديث بالتعدي إلى مفعولين أي حدثه كذباً ، والكذب كما يطلق على القول والحديث الذي يلفظه اللسان كذلك يطلق على خطأ القوة المدركة يقال : كذبه عينه أي أخطأت في رؤيته .

ونفي الكذب عن الفؤاد إنما هو بهذا المعنى سواء أخذ الكذب لازماً والتقدير ما كذب الفؤاد فيما رأى أو متعدياً إلى مفعولين ، والتقدير ما كذب الفؤاد - فؤاد النبي - النبي ما رآه أي إن رؤية فؤاده فيما رآه رؤية صادقة .

وعلى هذا فالمراد بالفؤاد فؤاد النبي ﷺ ، وضمير الفاعل في « ما رأى » راجع إلى الفؤاد والرؤية رؤيته .

ولا بدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان إلى الفؤاد فإن للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة والتخيل والتفكير بالقوى الباطنة كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى وليست هذه المشاهدة للعيانية إبصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر ، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا

نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإننا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منها لمدرَكها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد .

وليس في الآية ما يدل على أن متعلق الرؤية هو الله سبحانه وأنه المرئي له ﷺ بل المرئي هو الأفق الأعلى والدنو والتدلي وأنه أوحى إليه فهذه هي المذكورة في الآيات السابقة وهي آيات له تعالى ، ويؤيد ذلك ما ذكره تعالى في النزلة الأخرى من قوله : « ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

على أنها لو دلّت على متعلق الرؤية به تعالى لم يكن به بأس فإنها رؤية القلب ورؤية القلب غير رؤية البصر الحسية التي تتعلق بالأجسام ويستحيل تعلقها به تعالى وقد قدمنا كلاماً في رؤية القلب في تفسير سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

وما قيل : إن ضمير « ما رأى » للنبي ﷺ والمعنى : ما قال فؤاده ﷺ لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره ، ومحصله أن فؤاده صدق بصره فيما رآه .
وكذا ما قيل : إن المعنى أن فؤاده لم يكذب بصره فيما رآه بل صدقه واعتقد به ، ويؤيده قراءة من قرأ « ما كذب » بتشديد الذال .

ففيه أن الذي يعطيه سياق الآيات تأييده تعالى صدق النبي ﷺ فيما يدّعيه من الوحي ورؤية آيات الله الكبرى ، ولو كان ضمير « ما رأى » للنبي ﷺ كان محصل معنى الآية الاحتجاج على صدق رؤيته باعتقاده ذلك بفؤاده وهو بعيد من دأب القرآن وهذا بخلاف ما لو رجع ضمير « ما رأى » إلى الفؤاد فإن محصل معناه تصديقه تعالى لفؤاده فيما رآه ويحري الكلام على السياق السابق الآخذ من قوله : « ما ضلّ صاحبكم وما غوى إن هو إلا وحي يوحى » الخ .

فان قلت : إنه تعالى يحتاج في الآية التالية « أفطارونه على ما يرى » برؤيته ﷺ على صدقه فيما يدّعيه فليكن مثله الاحتجاج باعتقاد فؤاده بما يراه بعينه .

قلت : ليس قوله : « أفطارونه على ما يرى » مسوقاً للاحتجاج برؤيته على صدقه بل لتوبيخ على مماراتهم إياه ﷺ على أمر يراه ويبصره ومجادلتهم إياه فيه ، والممارسة والمجادلة

إنما تصح - لو صححت - في الآراء النظرية والاعتقادات الفكرية وأما فيما يرى ويشاهد عياناً فلا معنى للمهارة والمجادلة فيه ، وهو ﷺ إنما كان يخبرهم بما يشاهده عياناً لا عن فكر وتعقل .

قوله تعالى : « أفتمارونه على ما يرى » الاستفهام للتوبيخ والخطاب للمشرّكين والضمير للنبي ﷺ ، والمهارة الإصرار على المجادلة ، والمعنى : أفتصرّون في جدالكم على النبي ﷺ أن يدّعن بخلاف ما يدّعيه ويخبركم به وهو يشاهد ذلك عياناً .

قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى » النزلة بناء مرة من النزول فمعناه نزول واحد ، وتدل الآية على أن هذه قصة رؤية في نزول آخر والآيات السابقة تقصّ نزولاً آخر غيره . وقد قالوا : إن ضمير الفاعل المستكن في قوله « رآه » للنبي ﷺ ، وضمير المفعول لجبريل ، وعلى هذا فالنزلة نزول جبريل عليه ﷺ ليعرج به إلى السماوات ، وقوله : « عند سدره المنتهى » ظرف للرؤية لا للنزلة ، والمراد برؤيته رؤيته وهو في صورته الأصلية . والمعنى : أنه نزل عليه ﷺ نزلة أخرى وعرج به إلى السماوات وتراهى له ﷺ عند سدره المنتهى وهو في صورته الأصلية .

وقد ظهر مما تقدم صيغة إرجاع ضمير المفعول إليه تعالى والمراد بالرؤية رؤية القلب والمراد بنزلة أخرى نزلة النبي ﷺ عند سدره المنتهى في عروجه إلى السماوات فاللفاد أنه ﷺ نزل نزلة أخرى أثناء معراجة عند سدره المنتهى فرآه بقلبه كما رآه في النزلة الأولى . قوله تعالى : « عند سدره المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدر ما يغشى » السدر شجر معروف والتاء للوحدة ، والمنتهى - كأنه - اسم مكان ولعل المراد به منتهى السماوات بدليل كون الجنة عندها والجنة في السماء ، قال تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » الذاريات : ٢٢ .

ولا يوجد في كلامه تعالى ما يفسر هذه الشجرة ، وكأن البناء على الإيهام كما يؤيده قوله بعد : « إذ يغشى السدر ما يغشى » وقد فسر في الروايات أيضاً بأنها شجرة فوق السماء السابعة اليها تنتهي أعمال بني آدم وستمر ببعض هذه الروايات .

وقوله : « عندها جنة المأوى » أي الجنة التي يأوي إليها المؤمنون وهي جنة الآخرة فإن جنة البرزخ جنة معجلة محدودة بالبعث ، قال تعالى : « فلهم جنات المأوى

نزلاً بما كانوا يعملون» السجدة : ١٩ ، وقوله : « فإذا جاءت الطامة الكبرى - إلى أن قل - فإن الجنة هي المأوى » النازعات : ٤٤ وهي في السماء على ما يدل عليه قوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » الذاريات : ٢٢ ، وقيل : المراد بها جنة البرزخ .

وقوله : « إذ ينفث المنيرة » ما ينفث : غشيان الشيء ، الإحاطة به ، هو « ما » موصولة ، والمعنى : إذ يحيط بالمنيرة ما يحيط بها ، وقد أبهم تعالى هذا الذي ينفث المنيرة ولم يبين ما هو كما تقدمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « ما زاع البصر وما طغى » الزينغ الميل عن الاستقامة ، والطغيان تجاوز الحد في العمل ، وزينغ البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه ، وطغيانه إدراكه ما لا حقيقة له ، والمراد بالبصر بصر النبي ﷺ .

والمعنى : أنه ﷺ لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقية ولا أبصر ما لا حقيقة له بل أبصر غير خاطيء في إبصاره .

والمراد بالإبصار رؤيته ﷺ بقلبه لا بجارحة العين فإن المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله : « ولقد رآه نزلة أخرى » المشير إلى بمائة هذه الرؤية لرؤية النزلة الأولى التي يشير إليها بقوله : « ما كذب الفؤاد ما رأى » أفخارونه على ما يرى ، فافهم ولا تنقل .

قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » « من » للتبويض ، والمعنى : أقسم لقد شاهد بعض الآيات الكبرى لربه ، وبذلك تم مشاهدة ربه بقلبه فإن مشاهدته تعالى بالقلب إنما هي بمشاهدة آياته بما هي آياته فإن الآية بما هي آية لا تحكي إلا ذا الآية ولا تحكي عن نفسه شيئاً وإلا لم تكن من تلك الجهة آية .

وأما مشاهدة ذاته المتعالية من غير توسط آية وتخلل حجاب فمن المستحيل ذلك قال تعالى : « ولا يحيطون به علماً » طه : ١١٠ .

(بحث روائي)

في تفسير اللقيمي في قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » قال : للنجم رسول الله ﷺ « إذا هوى » لما أسري به إلى السماء وهو في الهوى .

أقول : وروى تسميته عليه السلام بالنجم بإسناده عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام ، وهو من البطن .

وفي الكافي عن القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن مسلم قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : قول الله عز وجل : « والليل إذا يغشى » « والنجم إذا هوى » وما أشبه ذلك ؟ قال : إن الله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء ، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به .

أقول : وفي الفقيه عن علي بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني مثله .

وفي المجمع وروى العامة عن جعفر الصادق أنه قال : إن محمداً عليه السلام نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء إلى النبي عليه السلام وطلق ابنته وتفل في وجهه وقال : كفرت بالنجم ورب النجم ، فدعا عليه السلام عليه وقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك .

فخرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق وألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه أنيموني بينكم ليلاً ففعلوا فجاء أسد فافترسه من بين الناس .
أقول : ثم أورد الطبرسي شعر حساس في ذلك ، وروى في الدر المنثور القصة بطرق مختلفة .

وفي الكافي بإسناده إلى هشام وحماد وغيره قالوا : سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول : حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله عليه السلام وحديث رسول الله عليه السلام قول الله عز وجل .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى ابن سنان في حديث : قال أبو عبد الله عليه السلام : وذلك أنه يعني النبي عليه السلام أقرب الخلق إلى الله تعالى وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسري به إلى السماء : تقدم يا محمد فقد وطأت موطئاً لم يطأه ملك مقرئ ولا نبي مرسل ، ولولا أن روحه ونفسه كان من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه ، وكان من الله عز وجل كما قال الله عز وجل : « قاب قوسين أو أدنى » أي بل أدنى .

وفي الاحتجاج عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل : أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدره المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى .

أقول : وقد ورد هذا المعنى في كثير من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام .
وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما
أسري بالنبي ﷺ اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى . قال : ألم تر إلى القوس ما
أقربها من الوتر ؟

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « ثم دنا
فتدلى » قال : هو محمد ﷺ دنا فتدلى إلى ربه عز وجل .

وفي المجمع وروى مرفوعاً عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ في قوله : « فكان
قاب قوسين أو أدنى » قال : قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » قال : وحي مشافهة .
وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال : سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى
رسول الله ﷺ ربه عز وجل ؟ فقال : نعم بقلبه رآه ، أما سمعت الله عز وجل يقول :
« ما كذب الفؤاد ما رأى » ؟ لم يرَ بالبصر ولكن رآه بالفؤاد .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب
القرظي عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال : قالوا : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال :
لم أرَ بعيني ورأيتُه بفؤادي مرتين ثم تلا « ثم دنا فتدلى » .

أقول : وروى هذا المعنى النسائي عن أبي ذر - على ما في الدر المنثور - ولفظه
رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يرَ ببصره .

وعن صحيح مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ :
هل رأيت ربك ؟ فقال : نوراني أراه .

أقول : « نوراني » منسوب إلى النور على خلاف القياس كجسماني في النسبة إلى
جسم ، وقرئ « نور إني أراه » بتنوين الراء وكسر الهمزة وتشديد النون ثم ياء المتكلم ،
والظاهر أنه تصحيف وإن أئيد برواية أخرى عن مسلم في صحيحه وابن مردويه عن أبي ذر
أنه سأل رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نوراً .

وكيف كان فالمراد بالرؤية رؤية القلب فلا الرؤية رؤية حسية ولا النور نور حسي .
وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال : سألتني أبو قرّة المحدث أن ادخله إلى

أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام . إلى قوله : قال أبو قرّة : فإنه يقول : « ولقد رآه نزلة أخرى » فقال أبو الحسن عليه السلام : إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال : « ما كذب الفؤاد ما رأى » يقول : ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » وآيات الله غير الله .

أقول : الظاهر أن كلامه عليه السلام مسوق لإلزام أبي قرّة حيث كان يريد إثبات رؤيته تعالى بالعين الحسية فالزمه بأن الرؤية إنما تعلقت بالآيات وآيات الله غير الله ولا ينافي ذلك كون رؤية الآيات بما هي آياته رؤيته وإن كانت آياته غيره ، وهذه الرؤية إنما كانت بالقلب كما مرّت عدة من الروايات في هذا المعنى .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظلّ أمة من الأمم فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : انتهيت إلى السدرة فإذا نبقها مثل الجراد ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحوّلت ياقوتاً وزمرداً ونحو ذلك .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى اسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل : فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : في هذا الموضع تخذاني ؟ فقال : تقدّم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك قرأيت من نور ربي وحال بيني وبينه السبحة .

قلت : وما السبحة جعلت فداك ؟ فأومى بوجهه إلى الأرض وأوماً بيده إلى السماء وهو يقول : جلال ربي جلال ربي ثلاث مرات .

أقول : السبحة الجلال كما فسّر في الرواية ، والسبحة ما يدل على تنزهه تعالى من خلقه ومرجعه إلى المعنى الأول ، ومحصل ذيل الرواية أنه عليه السلام رأى ربه برؤية آياته . وفيه في قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » قال : في السماء السابعة .

وفيه في قوله تعالى : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » قال : لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله ﷺ غشي نور السدرة .

أقول : وفي المعاني السابقة روايات أخرى وقد تقدم في أول تفسير سورة الإسراء روايات جامعة لقصة معراجة ﷺ .

وقد نقلنا هناك في ذيل الروايات الاختلاف في كيفية معراجة ﷺ أنه كان في المنام أو في اليقظة وعلى الثاني يحسبه وروحه معاً أو بروحه فحسب ، ونقلنا عن صاحب المناسقب أن الإمامية ترى أن إسراءه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالروح والجسم معاً على ما تدل عليه آية الإسراء ، وأما من المسجد الأقصى إلى السماوات فقد قال قوم بكونه بالروح والجسم معاً أيضاً ووافقهم كثير من الشيعة ومال بعضهم إلى كونه بالروح ومال إليه بعض المتأخرين .

ولا ضير في القول به لو أيدته القرائن الحافة بالآيات والروايات غير أن من الواجب حينئذ أن يحمل قوله تعالى : « عندها جنة المأوى » على جنة البرزخ ليحمل كونها عندها على نحو من التعلق كما ورد أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، أو توجه الآية بما لا ينافي كون العروج في السماوات روحياً .

وأما كون الإسراء في المنام فقد تقدم في تفسير آية الإسراء أنه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه .

وأما تطبيق الإسراء إلى السماوات على تسميره ﷺ ليلاً في الكواكب الأخرى غير الأرض من منظومتنا الشمسية أو في منظومات أخرى غير منظومتنا أو في مجرات أخرى غير مجرتنا فهذا لا يلائم الأخبار الواردة في تفصيل القصة البتة بل ولا يحصل مضامين الآيات المتقدمة .

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ — ١٩ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ — ٢٠ .
أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ — ٢١ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ — ٢٢ . إِنْ

هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
 يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى - ٢٣ .
 أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى - ٢٤ . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى - ٢٥ . وَكَمَ
 مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ
 اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى - ٢٦ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ
 الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى - ٢٧ . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً - ٢٨ . فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّى
 عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا - ٢٩ . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى - ٣٠ .
 وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا
 وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى - ٣١ . الَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ
 وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ
 مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ
 هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى - ٣٢ .

(بيان)

شطر من آيات الفصل الثاني من الفصول الثلاثة في السورة تتعرض لأمر الأوثان وعبادتها
 بدعوى أنها مستشفع لهم والرد عليهم أبلغ الرد ، وفيها إشارة إلى أمر المعاد وهو مقصد
 الفصل الثالث .

قوله تعالى : «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» لما سجل في الآيات السابقة صدق النبي ﷺ وأنه وحى يوحى إليه وترتب عليه حقيقة النبوة المبينة على التوحيد ونفي الشركاء ، فترع عليه الكلام في الأوثان : اللات والعزى ومناة وهي عند المشركين تماثيل للملائكة بدعوى أنهم إناث أو بعضها للملائكة وبعضها للإنسان كما قاله بعضهم ونفي ربوبيتها وألوهيتها واستقلال الملائكة الذين هم أرباب الأصنام في الشفاعة وأنوثيتهم وأشار إلى حقائق أخرى تنتج المعاد وجزاء الأعمال .

واللات والعزى ومناة أصنام ثلاث كانت معبودة لعرب الجاهلية ، وقد اختلفوا في وصف صورها ، وفي موضعها الذي كانت منصوبة عليه ، وفي من يعبدونها من العرب ، وفي الأسباب التي أوجبت عبادتهم لها ، وهي أقوال متدافعة لا سبيل إلى الاعتماد على شيء منها ، والمتيقن منها ما أوردناه .

والمعنى : إذا كان الأمر على ما ذكرناه من حقيقة الدعوة وصدق النبي ﷺ في دعوى الوحي والرسالة من عند الله سبحانه فأخبروني عن اللات والعزى ومناة التي هي ثلاثة الصنمين وغيرهما - وهي التي تدعون أنها أصنام الملائكة الذين هم بنات الله على زعمكم - .

قوله تعالى : «ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى» استفهام إنكاري مشوب بالاستهزاء ، وقسمة ضيزى أي جائزة غير عادلة .
والمعنى : إذا كان كذلك وكانت أرباب هذه الأصنام من الملائكة بنات الله ، وأنتم لا ترضون لأنفسكم إلا الذكر من الأولاد فهل لكم الذكر والله سبحانه الأنثى من الأولاد ؟ تلك القسمة إذا قسمة جائزة غير عادلة - استهزاء - .

قوله تعالى : «إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» الخ ، ضمير «هي» للات والعزى ومناة أولها بما هي أصنام ، وضمير «سميتوها» للأسماء وتسمية الأسماء جعلها أسماء ، والمراد بالسلطان البرهان .

والمعنى : ليست هذه الأصنام الآلهة إلا أسماء جعلتموها أسماء لها أنتم وآباؤكم ليست لهذه الأسماء وراءها مصاديق ومسميات ما أنزل الله معها برهاناً يستدل به على ربوبيتها وألوهيتها .

ومحصل الآية الرد على المشركين بعدم الدليل على ألوهية آلهتهم .

وقوله : «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس» «ما» موصولة والضمير العائد

اليها محذوف أي الذي تهواه النفس ، وقيل : مصدرية والتقدير هوى النفس والهوى الميل الشهواني للنفس والجملة مسوقة لذمتهم في اتباع الباطل وتأكيده لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك .

ويؤكد كده قوله : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » والجملة حالية .
والمعنى : إن يتبع هؤلاء المشركون في أمر آلهتهم إلا الظن وما يميل اليه أنفسهم شهوة يتبعون ذلك والحال أنه قد جاءهم من الله وهو ربهم الهدى وهي الدعوة الحققة أو القرآن الذي يهديهم إلى الحق .

والالتفات في الآية من الخطاب إلى الغيبة للإشعار بأنهم أخط فهماً من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لأن يخاطبوا بكلام برهاني وهم أتباع الظن والهوى .
قوله تعالى : « أم للإنسان ما تمنى » « أم » منقطعة والاستفهام إنكاري ، والكلام مسوق لنفي أن يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه أي ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعة الملائكة الذين هم أرباب أصنامهم وبنات الله بزعمهم أو يملكونا الوهية آلهتهم بمجرد التمني .
وفي الكلام تلويح إلى أنهم ليس لهم للدلالة على صحة الوهية آلهتهم أو شفاعتهم إلا التمني ، ولا يملك شيء بالتمني .

قوله تعالى : « قلله الآخرة والاولى » تفريعه على سابقه من تفريع العلة للمعلول للدلالة على التعلق والارتباط ففيه تعليل للجملة السابقة ، والمعنى : ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد التمني لأن الآخرة والاولى لله سبحانه ولا شريك له في ملكه .

قوله تعالى : « وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » الفرق بين الإذن والرضا أن الإذن إعلام ارتفاع المانع من قبل الآذن ، والرضا ملاءمة نفس الراضي للشيء وعدم امتناعها فربما تحقق الإذن بشيء مع عدم الرضا ولا يتحقق رضا إلا مع الإذن بالفعل أو بالقوة .

والآية مسوقة لنفي أن يملك الملائكة من أنفسهم الشفاعة مستغنين في ذلك عن الله سبحانه كما يروم اليه عبدة الأصنام فإن الأمر مطلقاً إلى الله تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى له في الشفاعة ورضاه بها .

وعلى هذا فالمراد بقوله : « لمن يشاء » الملائكة ، ومعنى الآية : وكثير من الملائكة

في السماوات لا تؤثر شفاعتهم أفرأ إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم أي من الملائكة ويرضى بشفاعته .

وقيل : المراد بمن يشاء ويرضى الإنسان ، والمعنى : إلا من بعد أن يأذن الله في شفاعته من يشاء أن يشفع له من الإنسان ويرضى ، وكيف يأذن ويرضى بشفاعة من كفر به وعبد غيره ؟

والآية تثبت الشفاعاة للملائكة في الجملة ، وتقيد شفاعتهم بالإذن والرضا من الله سبحانه . قوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسئون الملائكة تسمية الانثى » رد لقولهم بانوثة الملائكة بعد رد قولهم بشفاعتهم .

والمراد بتسميتهم الملائكة تسمية الانثى قولهم : إن الملائكة بنات الله فالمراد بالانثى الجنس أعم من الواحد والكثير .

وقيل : إن الملائكة في معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسئون كل واحد من الملائكة تسمية الانثى أي يسمونه بنتاً فالكلام على وزان « كسانا الأمير حلة » أي كسا كل واحد منا حلة .

قال بعضهم : في تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفضاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجزى عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً . انتهى .

قوله تعالى : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » العلم هو التصديق المانع من النقيض ، والظن هو التصديق الراجع ويسمى المرجوح وهما ، وقولهم بانوثة الملائكة كما لم يكن معلوماً لهم كذلك لم يكن مظنوناً إذ لا سبيل إلى ترجيح القول به على خلافه لكنه لما كانت عن هوى أنفسهم أثبتته الهوى في أنفسهم وزينه لهم فلم يلتفتوا إلى خلافه ، وكلما لاح لهم لائح خلافه أعرضوا عنه وتعلقوا بمسا هوونه ، وهذه العناية سمي ظناً وهو في الحقيقة تصور فقط .

وبهذا يظهر استقامة قول من قال : إن الظن في هذه الآية وفي قوله السابق : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » بمعنى التوهم دون الاعتقاد الراجع وأثبت بما يظهر من كلام الراغب : إن الظن ربما يطلق على التوهم .

وقوله : « إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » الحق ما هو عليه الشيء وظاهر أنه لا يدرك إلا بالعلم الذي هو الاعتقاد المانع من النقيض لا غير وأما غير العلم مما فيه احتمال

الخلاف فلا يتعين فيه المدرك على ما هو عليه في الواقع فلا يجوز لأن يعتمد عليه في الحقائق قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أسرى : ٣٦ .
وأما العمل بالظن في الأحكام العملية فإنما هو لقيام دليل عليه يقيد به إطلاق الآية ، وتبقى الأمور الاعتقادية تحت إطلاق الآية .

قال بعضهم : وضع الظاهر موضع المضمحل في قوله : « إن الظن لا يغني » ليجري الكلام مجرى المثل .

قوله تعالى : « فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » تفريع على اتباعهم الظن وهوى الأنفس ، فقوله : « فأعرض عن » الخ ، أمر بالإعراض عنهم وإنما لم يقل : فأعرض عنهم ، ووضع قوله : « من تولى عن ذكرنا » الخ ، موضع الضمير للدلالة على علة الأمر بالإعراض كأنه قيل : إن هؤلاء يتركون العلم ويتبعون الظن وما تهوى الأنفس وإنما فعلوا ذلك لأنهم تولوا عن الذكر وأرادوا الحياة الدنيا فلا هم لهم إلا الدنيا فهم مبلغهم من العلم ، وإذا كان كذلك فأعرض عنهم لأنهم في ضلال .

والمراد بالذكر إما القرآن الذي يهدي متبعينه إلى الحق الصريح ويرشدكم إلى سعادة الدار الآخرة التي وراء الدنيا بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي لا تبقى معها وصمة شك . وإما ذكر الله بالمعنى المقابل للغفلة فإن ذكره تعالى بها يليق بذاته المتعالية من الأسماء والصفات يهدي إلى سائر الحقائق العلمية في المبدء والمعاد هداية علمية لا ريب معها .

قوله تعالى : « ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » الإشارة بذلك إلى أمر الدنيا وهو معلوم من الآية السابقة وكونه مبلغ علمهم من قبيل الاستعارة كأن العلم يسير إلى المعلوم وينتهي إليه وعلمهم انتهى في مسيره إلى الدنيا وبلغها ووقف عندها ولم يتجاوزها ، ولأزم ذلك أن تكون الدنيا متعلق إرادتهم وطلبهم ، وموطن همهم ، وغاية آمالهم لا يطمنون إلى غيرها ولا يقبلون إلا عليها .

وقوله : « إن ربك هو أعلم » الخ ، تأكيد لمضمون الجملة السابقة وشهادة منه تعالى عليه .

قوله تعالى : « والله ما في السموات وما في الأرض ليعجزني الذين أسأوا بما عملوا ويعجزي الذين أحسنوا بالحسنى » يمكن أن يكون صدر الآية حالاً من فاعل « أعلم » في الآية السابقة والواو للحال ، والمعنى : إن ربك هو أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين والحال أنه يملك ما في السموات وما في الأرض فكيف يمكن أن لا يعلم بهم وهو مالكهم ؟

وعلى هذا فالظاهر تعلق قوله : « ليجزي » الخ ، بقوله السابق : « فأعرض عن تولى » الخ ، والمعنى : أعرض عنهم وكل أمرهم إلى الله ليجزيهم كذا وكذا ويحزيك ويحزي المحسنين كذا وكذا .

ويمكن أن يكون قوله : « والله ما في السماوات » الخ ، كلاماً مستأنفاً للدلالة على أن الأمر بالإعراض عنهم لا لإهمالهم وتركهم سدى بل الله سبحانه يحزي كلاً بعمله إن سيئاً وإن حسناً ، ووضع اسم الجلالة وهو ظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال العظمة .

وقوله : « الله ما في السماوات وما في الأرض » إشارة إلى ملكه تعالى للكل ومعناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم فالملك ناشئ من الخلق وهو مع ذلك منشأ للتدبير فالجملة دالة على الخلق والتدبير كأنه قيل : والله الخلق والتدبير .

وبهذا المعنى يتعلق قوله : « ليجزي » الخ ، واللام للغاية ، والمعنى : له الخلق والتدبير وغاية ذلك والفرض منه أن يحزي الذين أسأوا الخ ، والمراد بالجزاء ما يخبر عنه الكتاب من شؤون يوم القيامة ، والمراد بالإساءة والإحسان المعصية والطاعة ، والمراد بها عملوا جزاء ما عملوا أو نفس ما عملوا ، وبالحسنى المثوبة الحسنى .

والمعنى : ليجزي الله الذين عصوا بمعصيتهم أو يجزاء معصيتهم ويحزي الذين أطاعوا بالمثوبة الحسنى ، وقد أوردوا في الآية احتمالات أخرى وما قدمناه هو أظهرها .

قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغم إن ربك واسع المغفرة » الخ ، الإثم هو الذنب وأصله - كما ذكره الراغب - الفعل المبطىء عن الثواب والخير ، وكبائر الإثم المعاصي الكبيرة وهو على ما في الرواية (١) ما أوعده الله عليه النار ، وقد تقدم البحث عنها في تفسير قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » الآية ، النساء : ٣١ .

والفواحش الذنوب الشنيعة الفظيعة ، وقد عدّ تعالى في كلامه الزنا واللواط من الفواحش ولا يبعد أن يستظهر من الآية اتحادها مع الكبائر .

وأما اللغم فقد اختلفوا في معناه فقيل : هو الصغيرة من المعاصي ، وعليه فالاستثناء منقطع ، وقيل : هو أن يلمّ بالمعصية ويقصدها ولا يفعل والاستثناء أيضاً منقطع ، وقيل :

(١) رواها في ثواب الاعمال عن عباد بن كثير التوا عن أبي جعفر عليه السلام .

هو المعصية حيناً بعد حين من غير عادة أي المعصية على سبيل الاتفاق فيكون أعم من الصغيرة والكبيرة وينطبق مضمون الآية على معنى قوله تعالى في وصف المتقين المحسنين : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » آل عمران : ١٣٥ .

وقد فسر في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام بثالث المعاني (١) . والآية تفسر ما في الآية السابقة من قوله : « الذين أحسنوا » فهم الذين يمتنعون كبائر الإثم والفواحش ومن الجائز أن يقع منهم لم .

وفي قوله : « إن ربك واسع المغفرة » تطيعهم في التوبة رجاء المغفرة . وقوله : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض » قال الراغب : النشء والنشأة إحداث الشيء وتربيته . انتهى . فإنشاؤهم من الأرض ما جرى عليهم في بدء خلقهم طوراً بعد طور من أخذهم من المواد العنصرية إلى أن يتكونوا في صورة المني ويردوا الأرحام . وقوله : « وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم » الأجنة جمع جنين ، والكلام معطوف على « إذ » السابق أي وهو أعلم بكم إذ كنتم أجنة في أرحام أمهاتكم يعلم ما حقيقتكم وما أنتم عليه من الحال وما في سرّكم وإلى ما يؤل أمركم . وقوله : « فلا تركتوا أنفسكم » تفريط على العلم أي إذا كان الله أعلم من أول أمر فلا تركتوا أنفسكم بنسبتها إلى الطهارة هو أعلم بمن اتقى .

* * *

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى - ٣٣ . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى - ٣٤ .

أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى - ٣٥ . أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ

مُوسَى - ٣٦ . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى - ٣٧ . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

(١) ففي اصول الكافي عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام : اللبس الرجل يلم بالذنوب فيستغفر الله منه ، وفيه بإسناده عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال : هو الذنب يلم به الرجل فيمكنك ما شاء الله ثم يلم به بعد ، وفيه بإسناده عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام قال : اللهم العبد الذي يلم بالذنوب بعد الذنب أيس من سليقته أي من طبعه .

أُخْرَى — ٣٨ . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى — ٣٩ . وَأَنْ سَعْيُهُ
 سَوْفَ يُرَى — ٤٠ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى — ٤١ . وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ
 الْمُنْتَهَى — ٤٢ . وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى — ٤٣ . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ
 وَأَحْيَا — ٤٤ . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى — ٤٥ . مِنْ
 نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى — ٤٦ . وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَى — ٤٧ . وَأَنَّهُ هُوَ
 أَغْنَى وَأَقْنَى — ٤٨ . وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى — ٤٩ . وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا
 الْأُولَى — ٥٠ . وَثَمُودَ فَلَمَّا أَبَى — ٥١ . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ
 كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى — ٥٢ . وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى — ٥٣ . فَغَشَّاهَا
 مَا غَشَى — ٥٤ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى — ٥٥ . هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ
 النَّذْرِ الْأُولَى — ٥٦ . أَزِفَتِ الْآزِفَةُ — ٥٧ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 كَاشِفَةٌ — ٥٨ . أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ — ٥٩ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا
 تَبْكُونَ — ٦٠ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ — ٦١ . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا — ٦٢ .

(بَيَان)

سياق التسع آيات الواقعة في صدر هذا الفصل يصدق ما ورد في أسباب النزول أن
 رجلاً من المسلمين كان ينفق من ماله في سبيل الله فلامه بعض الناس على كثرة الإنفاق
 وحذره وخوفه بنفاد المال والفقر وضمن حمل خطاياهم وذنوبهم فأمسك عن الإنفاق
 فنزلت الآيات .

أشار سبحانه بالتعرض لهذه القصة ونقل ما نقل من صحف إبراهيم وموسى عليهما

السلام إلى بيان وجه الحق فيها ، وإلى ما هو الحق الصريح فيما تعرض له الفصل السابق من أباطيل المشركين من أنهم إنما يعبدون الأصنام لأنها تماثيل الملائكة الذين هم بنات الله يعبدونهم ليسفحوا لهم عند الله سبحانه وقد أبطلتها الآيات السابقة أوضح الإبطال .

وقد أوضحت هذه الآيات ما هو وجه الحق في الربوبية والالوهية وهو أن الخلق والتدبير لله سبحانه ، إليه ينتهي كل ذلك ، وأنه خلق ما خلق ودبر ما دبر خلقاً وتدبيراً يستعقب نشأة أخرى فيها جزاء الكافر والمؤمن والمجرم والمنتقي ومن لوازمه تشريع الدين وتوجيه التكليف وقد فعل ، ومن شواهد إهلاك من أهلك من الأمم الدارجة الطاغية كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكة .

ثم عقب سبحانه هذا الذي نقله عن صحف النبيين الكريمين بالتنبيه على أن هذا النذير من النذر الأولى الخالية وأن الساعة قريبة ، وخاطبهم بالأمر بالسجود لله والعبادة ، وبذلك تحتم السورة .

قوله تعالى : « أفرايت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى » التولي هو الإعراض والمراد به بقرينة الآية التالية الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله ، والإعطاء الإنفاق والإكداء قطع العطاء ، والتفريع الذي في قوله : « أفرايت » مبني على ما قدمنا من تفرع مضمون هذه الآيات على ما قبلها .

والمعنى : فأخبرني عن أعرض عن الإنفاق وأعطى قليلاً من المال وأمسك بعد ذلك أشد الإمساك .

قوله تعالى : « أعنده علم الغيب فهو يرى » الضائر لمن تولى والاستفهام للإنكار والمعنى : أيعلم الغيب فيرتب عليه أن يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ذنوبه ويعذب مكانه يوم القيامة لو استحق العذاب . كذا فسروا .

والظاهر أن المراد نفى علمه بما غاب عنه من مستقبل حاله في الدنيا والمعنى : أيعلم الغيب فهو يعلم أنه لو أنفق ودام على الإنفاق نفد ماله وابتلى بالفقر وأما تحمل الذنوب والعذاب فالمتعرض له قوله الآتي : « أن لا تزر وازرة وزر أخرى » .

قوله تعالى : « أم لم يذبا بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى » صحف موسى التوراة ، وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الكتاب والجمع للإشارة إلى كثرة أجزائه . والتوفية تأدية الحق بتمامه وكأله ، وتوفيته بتمامه تأديته ما عليه من الحق في العموم .

أتم التأدية وأبلغها قال تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن » البقرة : ١٢٤ . وما نقله الله سبحانه في الآيات التالية من صحف إبراهيم وموسى عليها السلام وإن لم يذكر في القرآن بعنوان أنه من صحفها قبل هذه الآيات لكنه مذكور بعنوان الحكم والمواعظ والقصص والعبر فمعنى الآيتين : أم لم ينبأ بهذه الأمور وهي في صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : « ألا تزر وازرة وزر أخرى » الوزر الثقل وكثر استعماله في الإثم ، والوازره النفس التي من شأنها أن تحمل الإثم ، والآية بيان ما في صحف إبراهيم وموسى عليها السلام ، وكذا سائر الآيات المصدرة بأن وأن إلى تمام سبع عشرة آية . والمعنى : ما في صحفها هو أنه لا تحمل نفس إثم نفس أخرى أي لا تتأثم نفس بما لنفس أخرى من الإثم فلا تؤاخذ نفس بإثم نفس أخرى .

قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » قال الراغب : السعي المشي السريع وهو دون العدو ، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً قال تعالى : « وسعى في خرابها » . انتهى واستعماله في الجد في الفعل استعمال استعاري .

ومعنى اللام في قوله : « للإنسان » الملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياماً باقياً ببقائه يلزمه ولا يفارقه بالطبع وهو الذي يكتسبه الإنسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر ، وأما ما يراه الإنسان مملوكاً لنفسه وهو في ظرف الاجتماع من مال وبنين وجاه وغير ذلك من زخارف الحياة الدنيا وزينتها فكل ذلك من الملك الاعتباري الوهمي الذي يصاحب الإنسان ما دام في دار الغرور ويودعه عند ما أراد الانتقال إلى دار الخلود وعالم الآخرة .

فالمعنى : وأنه لا يملك الإنسان ملكاً يعود إليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضرر حقيقة إلا ما جده فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه وأما ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيراً أو شراً .

وأما الانتفاع من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لأهل الكبائر فلهم في ذلك سعي جميل حيث دخلوا في حضيرة الإيمان بالله وآياته ، وكذا استفادة المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له ، والأعمال الصالحة التي تهدي إليه مثوباتها هي مرتبطة بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين وتكثير سوادهم وتأييد إيمانهم الذي من آثاره ما يأتون به من الأعمال الصالحة .

وكذا من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فإن له سعياً في عملهم حيث سن السنة وتوسل بها إلى أعمالهم كما تقدم في تفسير قوله تعالى : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » يس : ١٢ ، وقد تقدم في تفسير قوله : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم » النساء : ٩ ، وتفسير قوله : « ليميز الله الحبيث من الطيب » الأنفال : ٣٧ ، كلام نافع في هذا المقام .

قوله تعالى : « وأن سمعته سوف يرى » المراد بالسعي ما سعى فيه من العمل والرؤية المشاهدة ، وظرف المشاهدة يوم القيامة بدليل تعقيبه بالجزاء فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ ، وقوله : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » الزلزال : ٨ . وإتيان قوله : « سوف يرى » مبنياً للمفعول لا يخلو من إشعار بأن هناك من يشاهد العمل غير عامله .

قوله تعالى : « ثم يحزاء الجزاء الأوفى » الوفاء بمعنى التمام لأن الشيء التام يفي بجميع ما يطلب من صفاته ، والجزاء الأوفى الجزاء الأتم . وضمير « يحزاء » للسعي الذي هو العمل والمعنى : ثم يحزي الإنسان عمله أي بعمله أتمّ الجزاء .

قوله تعالى : « وأن إلى ربك المنتهى » المنتهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء وقد أطلق إطلاقاً فيفيد مطلق الانتهاء ، فما في الوجود من شيء موجود إلا وينتهي في وجوده وآثار وجوده إلى الله سبحانه بلا واسطة أو مع الواسطة ، ولا فيه أمر من التدبير والنظام الجاري جزئياً أو كلياً إلا وينتهي إليه سبحانه إذ ليس التدبير الجاري بين الأشياء إلا الروابط الجارية بينها القائمة بها وموجد الأشياء هو الموجد لروابطها المجري لها بينها فالمنتهى المطلق لكل شيء هو الله سبحانه .

قال تعالى : « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل له مقاليد السماوات والأرض » الزمر : ٦٣ ، وقال : « ألا له الخلق والأمر » الأعراف : ٥٤ .

والآية تثبت الربوبية المطلقة لله سبحانه بإنهاء كل تدبير وكل التدبير إليه وتشما

انتهاء الأشياء إليه من حيث البسطة وهو النطر ، وانتهاءها إليه من حيث العود والرجوع وهو الحشر .

ومما تقدم يظهر ضعف ما قيل في تفسير الآية إن المراد بذلك رجوع الخلق إليه سبحانه يوم القيامة ، وكذا ما قيل : إن المعنى أن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمر ، وكذا ما قيل : المعنى أن إلى حساب ربك منتهاهم ، وكذا ما قيل : إليه سبحانه ينتهي الأفكار وتقف دونه ، ففي جميع هذه التفاسير تقييد الآية من غير مقيد .

قوله تعالى : « وأنه هو أضحكك وأبكى » الآية وما يتلوها إلى تمام اثني عشرة آية بيان لموارد من انتهاء الخلق والتدبير إلى الله سبحانه .

والسياق في جميع هذه الآيات سياق الحصر ، وتفيد انحصار الربوبية فيه تعالى وانتفاء الشريك ، ولا يتنافى ما في هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أخر طبيعية أو غير طبيعية فيها كتوسط السرور والحزن وأعضاء الضحك والبكاء من الإنسان في تحقق الضحك والبكاء ، وكذا توسط الأسباب المناسبة الطبيعية وغير الطبيعية في الإحياء والإماتة وخلق الزوجين والغنى والقنى وإهلاك الأمم الهالكة وذلك أنها لما كانت مسخرة لأمر الله غير مستقلة في نفسها ولا منقطعة عما فوقها كانت وجوداتها وآثار وجوداتها وما يترتب عليها لله وحده لا يشاركه في ذلك أحد .

فمعنى قوله : « وأنه هو أضحكك وأبكى » أنه تعالى هو أوجد الضحك في الضاحك وأوجد البكاء في الباكي لا غيره تعالى :

ولا منافاة بين انتهاء الضحك والبكاء في وجودهما إلى الله سبحانه وبين انتسابهما إلى الإنسان وتلبسه بهما لأن نسبة الفعل إلى الإنسان بقيامه به ونسبة الفعل إليه تعالى بالإيجاد وكما بينهما من فرق .

ولا أن تعلق الإرادة الإلهية بضحك الإنسان مثلاً يوجب بطلان إرادة الإنسان للضحك وسقوطها عن التأثير لأن الإرادة الإلهية لم تعلق بمطلق الضحك كيفاً كان وإنما تعلقت بالضحك الإرادي الاختياري من حيث أنه صادر عن إرادة الإنسان واختياره فإرادة الإنسان سبب لضحكه في طول إرادة الله سبحانه لا في عرضها حتى تتزاحما ولا تجتمعا معاً فنضطر إلى القول بأن أفعال الإنسان الاختيارية مخلوقة لله ولا صنع للإنسان فيها كما يقوله الجبري أو أنها مخلوقة للإنسان ولا صنع لله سبحانه فيها كما يقوله المعتزلي .

ومما تقدم يظهر فساد قول بعضهم : إن معنى الآية أنه خلق قوتي الضحك والبكاء ، وقول آخرين : إن المعنى أنه خلق السرور والحزن ، وقول آخرين : إن المعنى أنه أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر ، وقول آخرين : إن المعنى أنه أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار .

قوله تعالى : « وأنه هو أمات وأحيا » الكلام في انتساب الموت والحياة إلى أسباب أخر طبيعية وغير طبيعية كالملائكة كاللحلام في انتساب الضحك والبكاء إلى غيره تعالى مع انحصار الإيجاد فيه تعالى ، وكذا الكلام في الأمور المذكورة في الآيات التالية .

قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة إذا تمنى » النطفة ماء الرجل والمرأة الذي يخلق منه الولد ، وأمنى الرجل أي صب المنى ، وقيل : معناه التقدير ، وقوله : « الذكر والانثى » بيان للزوجين .

فيل : لم يذكر الضمير في الآية على طرز ما تقدم - أنه هو - لأنه لا يتصور نسبة خلق الزوجين إلى غيره تعالى .

قوله تعالى : « وأن عليه النشأة الاخرى » النشأة الاخرى الحلقة الاخرى الثانية وهي الدار الآخرة التي فيها جزاء ، وكون ذلك عليه تعالى قضاؤه قضاء حتم وقد وعده ووصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد .

قوله تعالى : « وأنه هو أغنى وأقنى » أي أعطى الغنى وأعطى القنية ، والقنية ما يدوم من الأموال ويبقى ببقاء نفسه كالدار والبستان والحيوان ، وعلى هذا فذكر « أقنى » بعد « أغنى » من التعرض للخاص بعد العام لنفاسته وشرفه .

وقيل : الإغناء التمويل والإقناء الإرضاء بذلك ، وقال بعضهم : معنى الآية أنه هو أغنى وأفقر .

قوله تعالى : « وأنه هو رب الشعري » كأن المراد بالشعري الشعري اليابسة وهي كوكبة مضيئة من التوابت شرقي صورة الجبار في السماء .

قيل : كانت الحزاعة وحير تعبد هذه الكوكبة ، ومن كان يعبد أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من جهة أمه ، وكان المشركون يسعون به ﷺ ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في الدين كما خالف أبو كبشة قومه في عبادة الشعري .

قوله تعالى : « وأنه أهلك عاداً الأولى » وهم قوم هود النبي ﷺ ووصفوا بالأولى لأن هناك عاداً ثانية هم بعد عاد الأولى .

قوله تعالى : « وثمود فما أبقى » وهم قوم صالح النبي ﷺ أهلك الله الكفار منهم عن آخرهم ، وهو المراد من قوله : « فما أبقى » وإلا فهو سبحانه فحسب المؤمنين منهم من الهلاك كما قال : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » فصلت : ١٨ .

قوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى » عطف كسابقه على قوله : « عاداً » والإصرار بالتأكيد على كونهم أظلم وأطغى ، أي من القومين عاد وحمود على ما يعطيه السياق لأنهم لم يجيبوا دعوة نوح ﷺ ولم يتعظوا بموعظته فيما يقرب من ألف سنة ولم يؤمن منهم معه إلا أقل قليل .

قوله تعالى : « والمؤتفكة أهوى ففشاها ما غشى » قيل : إن المؤتفكة قرى قوم لوط انتفكت بأهلها أي انقلبت والانتفak الانقلاب ، والإهواء الإسقاط .

والمعنى : وأسقط القرى المؤتفكة إلى الأرض بقلبها وخسفها فشمها وأحاط بها من العذاب ما شملها وأحاط بها .

واحتمل أن يكون المراد بالمؤتفكة ما هو أعم من قرى قوم لوط وهي كل قرية نزل عليها العذاب فباد أهلها فبقيت خربة دائرة معالمها خاوية على عروشها .

قوله تعالى : « فبأي آلاء ربك تتبارى » الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة ، والتبارى التشكك ، والجملة متفرعة على ما تقدم ذكره مما ينسب إليه تعالى من الأفعال .

والمعنى : إذا كان الله سبحانه هو الذي نظم هذا النظام البديع من صنع وتدبير بالإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء والخلق والإهلاك إلى آخر ما قيل ، فبأي نعم ربك تتشكك وفي أيها تريب ؟

وعد مثل الإبكاء والإماتة وإهلاك الأمم الطاغية نعماً لله سبحانه لما فيها من الدخول في تكون النظام الأتم الذي يجري في العالم وتنساق به الأمور في مرحلة استكمال الخلق ورجوع الكل إلى الله سبحانه .

والخطاب في الآية للذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى أو للنبي ﷺ من باب إياك أعني واسمعي يا جارة ، والاستفهام للانكار .

قوله تعالى : « هذا نذير من النذر الاولى » قيل : النذير يأتي مصدراً بمعنى الإنذار ووصفاً بمعنى المنذر ويجمع على النذر بضمين على كلا المعنيين والإشارة بهذا الى القرآن أو النبي ﷺ .

قوله تعالى : « أزفت الآزفة » أي قربت القيامة والأزفة من أسماء القيامة قال تعالى : « وأنذرهم يوم الآزفة » المؤمن : ١٨ .

قوله تعالى : « ليس لها من دون الله كاشفة » أي نفس كاشفة والمراد بالكشف إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال ، والمعنى : ليس نفس تقدر على إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال إلا أن يكشفها الله سبحانه .

قوله تعالى : « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون » الإشارة بهذا الحديث إلى ما تقدم من البيان ، والسمود اللهو ، والآية متفرعة على ما تقدم من البيان ، والاستفهام للتوبيخ .

والمعنى : إذا كان الله هو ربكم الذي ينتهي اليه كل أمر وعليه النشأة الاخرى وكانت القيامة قريبة وليس لها من دون الله كاشفة كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم في جنب الله ، وتعرضتم للشقاء الدائم أفمن هذا البيان الذي يدعوكم الى النجاة تعجبون إنكاراً وتضحكون استهزاء ولا تبكون ؟

قوله تعالى : « فاسجدوا لله واعبدوا » تفريع آخر على ما تقدم من البيان والمعنى : إذا كان كذلك فعليكم أن تسجدوا لله وتعبدوه ليكشف عنكم ما ليس له من دونه كاشفة .

(بحث روائي)

في الكشف في قوله تعالى : « أفرايت الذي تولى » الخ ، روي أن عثمان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة : يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان : إن لي ذنباً وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله : أعطني ثاقتك برحلتها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت ، ومعنى : « تولى » ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل .

أقول : وأورد القصة في جمع البيان ونسبها إلى ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة من المفسرين ، وفي انطباق « تولى » على تركه المركز يوم أحد نظر والآيات مكينة .

وفي الدر المنثور أخرج الفارياي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : « أفرأيت الذي تولى » قال : الوليد بن المغيرة كان يأتي النبي ﷺ وأبا بكر فسمع ما يقولان وذلك ما أعطى من نفسه ، أعطى الاستماع « وأكدى » قال : انقطع عطاؤه نزل في ذلك « أعنده علم الغيب » قال : الغيب القرآن أراى فيه باطلاً أنفذه ببصره إذ كان يختلف إلى النبي ﷺ وأبي بكر .

أقول : وأنت خبير بأن الآيات بظاهرها لا تنطبق على ما ذكره .

وروي أنها نزلت في العاص بن وائل ، وروي أنها نزلت في رجل لم يذكر اسمه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وإبراهيم الذي وفى » قال : وفى بما أمره الله به من الأمر والنهي وذبح ابنه .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم عليه السلام قال : سألت عن الرجل يحج فيجعل حجته وعمرته أو بعض طوافه لبعض أهله وهو عنه غائب في بلد آخر ؟ قال : قلت : فينتقص ذلك من أجره ؟ قال : هي له ولصاحبه وله أجر سوى ذلك بما وصل . قلت : وهو ميت أيدخل ذلك عليه ؟ قال : نعم حتى يكون مسخوطاً عليه فيغفر له أو يكون مضيقاً عليه فيوسع له . قلت : فيعلم هو في مكانه أنه عمل ذلك لحقه ؟ قال : نعم . قلت : وإن كان ناصباً ينفعه ذلك ؟ قال : نعم يخفف عنه .

أقول : مورد الرواية إهداء ثواب العمل دون العمل نيابة عن الميت .

وفيه بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل للملك الموكل بالمؤمن إذا مرض : اكتب له ما كنت تكتب له في صحته فأني أنا الذي صيرته في حبالي (١) .

وفي الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال : صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته إلى يوم القيامة صدقة

موقوفة لا تورث ، وسنة هدى سنتها وكان يعمل بها وعمل بها من بعده غيره ، وولد صالح يستغفر له .

أقول : وهذه الروايات الثلاث - وفي معناها روايات كثيرة جداً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام - توسع معنى السعي في قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وقد تقدمت إشارة إليها .

وفي اصول الكافي بإسناده إلى سليمان بن خالد قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله يقول : « وإن إلى ربك المنتهى » فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا .

أقول : وهو من التوسعة في معنى الإنتهاء .

وفيه بإسناده إلى أبي عبيدة الحذاء قال : قال أبو جعفر عليه السلام : يا زياد إياك والخصومات فإنها تورث الشك ، وتحبط العمل ، وتردي صاحبها ، وعسى أن يتكلم بالشيء فلا يغفر له . إنه كان فيما مضى قوم تركوا علم ما وكتلوا به ، وطلبوا علم ما كفوه حتى انتهى كلامهم إلى الله فتحيروا حتى كان الرجل يدعى من بين يديه فيجيب من خلفه ، ويدعى من خلفه فيجيب من بين يديه . قال : وفي رواية أخرى : حتى تاهوا في الأرض .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا . تحقيق كتاب تيسر علوم راسخ راجي

أقول : وفي النهي عن التفكير في الله سبحانه روايات كثيرة أخر مودعة في جوامع الفريقين ، والنهي إرشادي متعلق بمن لا يحسن الورود في المسائل العقلية العميقة فيكون خوضه فيها تعرضاً للهلاك الدائم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى » قال : أبكى السماء بالمطر ، وأضحك الأرض بالنبات .

أقول : هو من التوسعة في معنى الإبكاء والإضحاك .

وفي المعاني بإسناده إلى السكوني عن جعفر بن محمد عن آبائهم عليهم السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في قول الله عز وجل : « وأنه هو أغنى وأقنى » قال : أغنى كل إنسان بعيشته ، وأرضاه بكسب يده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأنه هو رب الشعري » قال : النجم في السماء يسمى الشعري كانت قریش وقوم من العرب يعبدونه ، وهو نجم يطلع في آخر الليل .

أقول : الظاهر أن قوله : وهو نجم يطلع في آخر الليل تعريف له بحسب زمان صدور الحديث وكان في الصيف وإلا فهو يستوفي في مجموع السنة جميع ساعات الليل والنهار . وفيه في قوله تعالى : « أزفت الآزفة » قال : قربت القيامة .

وفي الجمع في قوله تعالى : « آمن هذا الحديث تعجبون » يعني بالحديث ما تقدم من الأخبار .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ « آمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون » فما روي النبي بعدها ضاحكاً حتى ذهب من الدنيا .

* * *

(سورة القمر مكية ، وهي خمس وخمسون آية)

مركز تحقيق كتاب توطير علوم

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ — ١ .
وَأَن يَرَوْا آيَةً يُغْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ — ٢ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ — ٣ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآثَانِ مَا فِيهِ
مُزْدَجَرٌ — ٤ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرَ — ٥ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يُومَ
يَدْعُ الدُّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ — ٦ . خُشَّعَا أَبْصَارُهُمْ يَخَرُّجُونَ مِنَ
الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ — ٧ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدُّاعِ يَقُولُ
الْكَاْفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ — ٨ .

(بيان)

سورة محضة في الإنذار والتخويف إلا آيتين من آخرها تبشران المتقين بالجنة والحضور عند ربهم .

تبدأ السورة بالإشارة إلى آية شق القمر التي أتى بها رسول الله ﷺ عن اقتراح من قومه ، وتذكر رميهم له بالسحر وتكذيبهم به واتباعهم الأهواء مع ما جاءهم أنباء زاجرة من أنباء يوم القيامة وأنباء الأمم الماضية الهالكين ثم يعيد تعالى عليهم نبذة من تلك الأنبياء إعادة ساخطة معاتب فيذكر سبى جاهلهم يوم القيامة عند خروجهم من الأجداث وحضورهم للحساب .

ثم تشير إلى قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وما نزل بهم من ألم العذاب إثر تكذيبهم بالنذر وليس قوم النبي ﷺ بأعز عند الله منهم وما هم بمعجزين ، وتختتم السورة ببشرى للمتقين .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها ، ولا يعاب بما قيل : إنها نزلت ببدر ، وكذا بما قيل : إن بعض آياتها مدنية ، ومن غرر آياتها ما في آخرها من آيات القدر .

قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ، الاقتراب زيادة في القرب فقوله : « اقتربت الساعة » أي قربت جداً ، والساعة هي الظرف الذي تقوم فيه القيامة .

وقوله : « وانشق القمر » أي انفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين تشير الآية إلى آية شق القمر التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة إثر سؤال المشركين من أهل مكة ، وقد استفاضت الروايات على ذلك ، واتفق أهل الحديث والمفسرون على قبولها كما قيل . ولم يخالف فيه منهم إلا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا : معنى قوله : « انشق القمر » سينشق القمر عند قيام الساعة وإنما عبر بلفظ الماضي لتحقيق الوقوع .

وهو مزيف مدفوع بدلالة الآية التالية « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله « آية » مطلق شامل لانشقاق القمر فعند وقوعه إعراضهم وقولهم : سحر مستمر ومن المعلوم أن يوم القيامة يوم يظهر فيه الحقائق ويلجئون فيه إلى المعرفة ، ولا معنى حينئذ لقولهم في آية ظاهرة : إنها سحر مستمر فليس إلا أنها

آية قد وقعت للدلالة على الحق والصدق وتأتي لهم أن يرموها عناداً بأنها سحر .
ومثله في السقوط ما قيل : إن الآية إشارة إلى ما ذهب إليه الرياضيون أخيراً أن
القمر قطعة من الأرض كما أن الأرض جزء منفصل من الشمس فقوله : « وانشق القمر »
إشارة إلى حقيقة علمية لم ينكشف يوم النزول بعد .

وذلك أن هذه النظرية على تقدير صحتها لا يلائمها قوله : « وإن يروا آية يعرضوا
ويقولوا سحر مستمر » إذ لم ينقل عن أحد أنه قال للقمر : هو سحر مستمر .

على أن انفصال القمر عن الأرض اشتقاق والذي في الآية الكريمة انشقاق ، ولا يطلق
الانشقاق إلا على تقطع الشيء في نفسه قطعتين دون انفصاله من شيء بعدما كان جزء منه .
ومثله في السقوط ما قيل : إن معنى انشقاق القمر انكشاف الظلمة عند طلوعه وكذا
ما قيل : إن انشقاق القمر كناية عن ظهور الأمر ووضوح الحق .

والآية لا تخلو من إشعار بأن انشقاق القمر من لوازم اقتراب الساعة .

قوله تعالى : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » الاستمرار من الشيء
مرور منه بعد مرور مرة بعد مرة ، ولذا يطلق على الدوام والاطراد فقولهم : سحر مستمر
أي سحر بعد سحر مداوماً .

وقوله : « آية » نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم ، والمعنى وكل آية يشاهدونها
يقولون فيها إنها سحر بعد سحر ، وفسر بعضهم المستمر بالمحكم الموثق ، وبعضهم بالذهاب
الزائل ، وبعضهم بالمستبشع المنفور ، وهي معان بعيدة .

قوله تعالى : « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » متعلق بالتكذيب بقريته
ذيل الآية هو النبي ﷺ وما أتى به من الآيات أي وكذبوا بالنبي ﷺ وما أتى به من
الآيات والحال أن كل أمر مستقر سيستقر في مستقره فيعلم أنه حق أو باطل وصدق أو
كذب فسيعلمون أن النبي ﷺ صادق أو كاذب ، على الحق أو لا فقوله : « وكل أمر
مستقر » في معنى قوله : « ولتعلن نبأه بعد حين » ص : ٨٨ .

وقيل متعلق بالتكذيب انشقاق القمر والمعنى : وكذبوا بانشقاق القمر واتبعوا أهواءهم ،
وجملة « وكل أمر مستقر » لا تلائم تلك الملاءمة .

قوله تعالى : « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر » المزدجر مصدر ميمي وهو
الاتعاض ، وقوله : « من الأنبياء » بيان لما فيه مزدجر ، والمراد بالأنبياء أخبار الأمم

الدارجة الهالكة أو أخبار يوم القيامة وقد احتمل كل منهما ، والظاهر من تعقيب الآية بأنباء يوم القيامة ثم بأنباء عدة من الأمم الهالكة أن المراد بالأنباء التي فيها مزدجر جميع ذلك .

قوله تعالى : « حكمة بالغة فما تغن النذر » الحكمة كلمة الحق التي ينتفع بها ، والبلوغ وصول الشيء إلى ما تنتهي إليه المسافة ويكنى به عن تمام الشيء وكاله فالحكمة البالغة هي الحكمة التامة الكاملة التي لا نقص فيها من حيث نفسها ومن حيث أثرها .
وقوله : « فما تغن النذر » الفاء فيه فصيحة تفصح عن جملة مقدرة تترتب عليها الكلام ، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار والكل صحيح وإن كان الأول أقرب إلى الفهم .
والمعنى : هذا القرآن أو الذي يدعون إليه حكمة بالغة كذبوا بها واتبعوا أهواءهم فما تغني المنذرون أو الإنذارات ؟

قوله تعالى : « فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر » التولي الإعراض والفاء في « فتول » لتفريع الأمر بالتولي على ما تقدمه من وصف حالهم أي إذا كانوا مكذبين بك متبعين أهواءهم لا يغني فيهم النذر ولا تؤثر فيهم الزواجر فتول عنهم ولا تلح عليهم بالدعوة .
وقوله : « يوم يدع الداع إلى شيء نكر » قال الراغب : الإنكار ضد العرفان يقال : أنكرت كذا ونكرت ، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره ، وذلك ضرب من الجهل قال تعالى : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم » . قال : والنكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف . انتهى .

وقد تم الكلام في قوله : « فتول عنهم » ببيان حالهم تجاه الحكمة البالغة التي ألقيت إليهم والزواجر التي ذكروا بها على سبيل الإنذار ، ثم أعاد سبحانه نبذة من تلك الزواجر التي هي أنباء من حالهم يوم القيامة ومن عاقبة حال الأمم المكذبين من الماضين في لحن العتاب والتوبيخ الشديد الذي تهز قلوبهم للانتباه وتقطع منابت أعذارهم في الإعراض .

فقوله : « يوم يدع الداع » الخ ، كلام مفصول عما قبله لذكر الزواجر التي أشير إليها سابقاً في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال : « فتول عنهم » سئل فقليل : فإلى م يؤل أمرهم ؟ فقليل : « يوم يدع » الخ ، أي هذه حال آخرتهم وتلك عاقبة دنيا أشياعهم وأمثالهم من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وليسوا خيراً منهم .

وعلى هذا فالظرف في « يوم يدع » متعلق بما سيأتي من قوله : « يخرجون » والمعنى :

يخرجون من الأجداث يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر ، الخ ، وإما متعلق بمحذوف ،
والتقدير اذكر يوم يدعو الداعي ، والمحصل اذكر ذلك اليوم وحالهم فيه ، والآية في معنى
قوله : « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم » الزخرف : ٦٦ ، وقوله : « فهل ينتظرون
إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » يونس : ١٠٢ .

ولم يسم سبحانه هذا الداعي من هو ؟ وقد نسب الدعوة في موضع من كلامه إلى نفسه
فقال : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » أسرى : ٥٢ .

وإنما أورد من أنباء القيامة نبأ دعوتهم للخروج من الأجداث والحضور لفصل القضاء
وخروجهم منها خشعاً أبصارهم مهطعين إلى الداعي ليحاذي به دعوتهم في الدنيا إلى
الإيمان بالآيات وإعراضهم وقولهم : سحر مستمر .

ومعنى الآية : اذكر يوم يدعو الداعي إلى أمر صعب عليهم وهو القضاء والجزاء .

قوله تعالى : « خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » الخشع
جمع خاشع والخشوع نوع من الذلة ونسب إلى الأبصار لأن ظهوره فيها أتم .

والأجداث جمع جدث وهو القبر ، والجراد حيوان معروف ، وتشبيههم في الخروج
من القبور بالجراد المنتشر من حيث أن الجراد في انتشاره يدخل البعض منه في البعض
ويختلط البعض ببعض في جهات مختلفة فكذلك هؤلاء في خروجهم من القبور ، قال تعالى :
« يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم » المعارج : ٤٤ .

قوله تعالى : « مهطعين إلى الداع » يقول الكافرون هذا يوم عسر ، أي حال كونهم مسرعين
إلى الداعي مطيعين مستجيبين دعوته يقول الكافرون : هذا يوم عسر أي صعب شديد .

(بحث روائي)

في تفسير القمي « اقتربت الساعة » قال : اقتربت القيامة فلا يكون بعد رسول الله
ﷺ إلا القيامة وقد انقضت النبوة والرسالة .

وقوله : « وانشق القمر » فإن قريشاً سألت رسول الله ﷺ أن يرهم آية فدعا الله
فانشق القمر نصفين حتى نظروا إليه ثم التأم فقالوا : هذا سحر مستمر أي صحيح .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن عبيد الله بن علي عن الرضا عن آبائه عن علي عليهم السلام قال : انشق القمر بمكة فلقطين فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا اشهدوا .

أقول : ورد انشقاق القمر لرسول الله ﷺ في روايات الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيراً وقد تسلمه محدثوهم والعلماء من غير توقف .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة فرقتين فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر » إلى قوله : « سحر مستمر » أي ذاهب .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي وكلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النبي ﷺ فقال قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة فقالوا : انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا : نعم قد رأينا فأنزل الله « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وفيه أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد عن ابن عمر في قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فرقتين : فرقة من دون الجبل وفرقة خلفه فقال النبي ﷺ : اللهم اشهد .

وفيه أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم في قوله : « وانشق القمر » قال : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين : فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقال الناس : سحرنا محمد فقال رجل : إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وفيه أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : قد مضى ذلك قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقته .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن

فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : اقتربت الساعة وانشق القمر ألا وإن الساعة قد اقتربت .
ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ . ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق . ألا
وإن اليوم المضمار وغداً السباق .

أقول : وقد روي انشقاق القمر بدعاء النبي ﷺ بطرق مختلفة كثيرة عن هؤلاء
النفر من الصحابة وهم أنس ، وعبد الله بن مسعود ، وابن عمر ، وجبير بن مطعم ، وابن
عباس ، وحذيفة بن اليمان ، وعد في روح المعاني ممن روي عنه الحديث من الصحابة علياً
رضي الله عنه ثم نقل عن السيد الشريف في شرح المواقف وعن ابن السبكي في شرح المختصر أن
الحديث متواتر لا يمتري في تواتره . هذه حال الحديث عند أهل السنة وقد عرفت حاله
عند الشيعة .

(كلام فيه إجمال القول في شق القمر)

آية شق القمر بيد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة باقتراح من المشركين مما تسلمها
المسلمون بلا ارتياب منهم .

ويدل عليها من القرآن الكريم دلالة ظاهرة قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر
وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » القمر : ٢ ، فالآية الثانية تأبى إلا أن يكون
مدلول قوله : « وانشق القمر » آية واقعة قريبة من زمان النزول أعرض عنها المشركون
كسائر الآيات التي أعرضوا عنها وقالوا : سحر مستمر .

ويدل عليها من الحديث روايات مستفيضة متكاثرة رواها الفريقان وتسلمها المحدثون ،
وقد تقدمت نماذج منها في البحث للروائي .

فالكتاب والسنة يدلان عليها وانشقاق كرة من الكرات الجوية ممكن في نفسه لا دليل
على استحالة العقلية ، ووقوع الحوادث الخارقة للعادة - ومنها الآيات المعجزات - جائز
وقد قدمنا في الجزء الأول من الكتاب تفصيل الكلام فيها إمكاناً ووقوعاً ومن أوضح
الشواهد عليه القرآن الكريم فمن الواجب قبول هذه الآية وإن لم يكن من ضروريات الدين .
واعترض عليها بأن صدور الآية المعجزة منه ﷺ باقتراح من الناس ينافي قوله تعالى :
وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما

نرسل بالآيات إلا تخويفاً ، أسرى : ٥٩ فإن مفاد الآية إما أننا لا نرسل بالآيات إلى هذه الأمة لأن الأمم السابقة كذبوا بها وهؤلاء ياثلونهم في طباعهم فيكذبون بها ، ولا فائدة في الإرسال مع عدم ترتب أثر عليه أو المفاد أننا لا نرسل بها لأننا أرسلنا إلى أوليهم فكذبوا بها فعذبوا وأهلكوا ولو أرسلنا إلى هؤلاء لكذبوا بها وعذبوا عذاب الاستئصال لكننا لا نريد أن نعاملهم بالعذاب ، وعلى أي حال لا يرسل بالآيات إلى هذه الأمة كما كانت ترسل إلى الأمم الدارجة .

نعم هذا في الآيات المرسله باقتراح من الناس دون الآيات التي تؤيد بها الرسالة كالقرآن المؤيد لرسالة النبي ﷺ وكآيتي العصا واليد لموسى عليه السلام وآية إحياء الموتى وغيرها لمعيسى عليه السلام ، وكذا الآيات النازلة لطفاً منه سبحانه كالخوارق الصادرة عن النبي ﷺ لا عن اقتراح منهم .

ومثل الآية السابقة قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً - إلى أن قال - قل سبحانه ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ، أسرى : ٩٣ وغير ذلك من الآيات .

والجواب عن هذا الاعتراض يحتاج إلى تقديم مقدمة هي أن النبي ﷺ بعث رسولاً إلى أهل الدنيا كافة بنبوة خاتمة كما يدل عليه قوله تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً الأعراف : ١٥٨ ، وقوله : « وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، الأنعام : ١٩ ، وقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، الأحزاب : ٤٠ إلى غير ذلك من الآيات .

وقد بدأ ﷺ وهو بمكة بدعوة قومه من أهل مكة وحواليها فقابلوه بما استطاعوا من الشقاق والإيذاء والاستهزاء وهماً بإخراجه أو إثباته أو قتله حتى أمره ربه بالهجرة غير أنه آمن به وهو بمكة جمع كثير منهم وإن كانت عامتهم على الكفر والمؤمنون وإن كانوا قليلين بالنسبة إلى المشركين مضطهدين مفتنّين لكنهم كانوا في أنفسهم جمعاً ذا عدد كما يدل عليه قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة ، النساء : ٧٧ . فقد استجازوا النبي ﷺ أن يقاتلوا المشركين فلم يأذن الله لهم في ذلك على ما روي في سبب نزول الآية ، وهذا يدل على أنهم كانوا ذوي عِدَّة وعِدَّة في الجملة ولم يزالوا يزيدون جمعاً .

ثم هاجر ﷺ إلى المدينة وبسط هنالك الدعوة ونشر الإسلام فيها وفي حواليتها وفي القبائل وفي اليمن وسائر أقطار الجزيرة ما عدا مكة وحواليها ثم بسط الدعوة على غير الجزيرة فكاتب الملوك والعظماء من فارس والروم ومصر سنة ست من الهجرة ثم فتح مكة سنة ثمان من الهجرة وقد أسلم ما بين الهجرة والفتح جمع من أهلها وحواليها .

ثم ارتحل ﷺ وكان من انتشار الإسلام ما كان ، ولم يزل الإسلام يزيد جمعاً وينتشر صيتاً إلى يومنا هذا وقد بلغوا خمس أهل الأرض عدداً .

إذا تمهد هذا فنقول : كانت آية انشقاق القمر آية اقتراحية تستعقب العذاب لو كذبوا بها وقد كذبوا وقالوا : سحر مستمر وما كان الله ليهلك بها جميع من أرسل اليهم النبي ﷺ وهم أهل الأرض جميعاً لعدم تمام الحجة عليهم يومئذ وقد كان الانشقاق سنة خمس قبل الهجرة ، وقد قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة » الأنفال : ٤٢ .

وما كان الله ليهلك جميع أهل مكة وحواليها خاصة وبينهم جمع من المسلمين كما قال تعالى : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً الفتح : ٢٥ . وما كان الله سبحانه لينجي المؤمنين ويهلك كفارهم وقد آمن جمع كثير منهم فيما بين سنة خمس قبل الهجرة وسنة ثمان بعد الهجرة عام فتح مكة ثم آمنت عامتهم يوم الفتح والإسلام كان يكتفي منهم بظاهر الشهادتين .

ولم تكن عامة أهل مكة وحواليها أهل عناد وجحود وإنما كان أهل الجحود والعناد عظماءهم وصناديدهم المستهزئين بالنبي ﷺ المعذبين للمؤمنين ، المقترحين عليه بالآيات وهم الذين يقول تعالى فيهم : « إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » البقرة : ٦ ، وقد أوعدهم الله هؤلاء الجاحدين المقترحين بتحريم الإيمان والهلاك في مواضع من كلامه فلم يؤمنوا وأهلكهم الله يوم بدر وتمت كلمة الرب صدقاً وعدلاً .

وأما التمسك لنفي إرسال الآيات مطلقاً بقوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » فالآية لا تشمل قطعاً الآيات المؤيدة للرسالة كالقرآن المؤيد لرسالة النبي ﷺ ، وكذا الآيات النازلة لطفاً كالحوارق الصادرة عن النبي ﷺ من الإخبار بالمغيبات وشفاء المرضى بدعائه وغير ذلك .

فلو كانت مطلقة فلأنما تشمل الآيات الاقتراحية وتفيد أن الله سبحانه لم يرسل الآيات

التي اقترحناها قريش - أولم^(١) يرسل النبي ﷺ بالآيات التي اقترحوها - لأن الامم السابقة كذبوا بها وطباع هؤلاء المقترحين طباعهم يكذبون بها ولازمها نزول العذاب والله لا يريد أن يعذبهم عاجلاً .

وقد أوضح سبحانه سبب عسدم معاجلتهم بالعذاب بقوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » الأنفال : ٣٣ ، واستبان بذلك أن المانع من عذابهم وجود الرسول فيهم كما يفيد أيضاً قوله تعالى : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً » أسرى : ٧٦ .

ثم قال تعالى : « وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصعدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » الأنفال : ٣٥ والآيات نزلت عقيب غزوة بدر .

والآيات تبين أنه لم يكن من قبلهم مانع من نزول العذاب غير وجود النبي ﷺ بينهم فإذا زال المانع بخروجه من بينهم فليذوقوا العذاب وهو ما أصابهم في وقعة بدر من القتل الذريع .

وبالجملة كان المانع من إرسال الآيات تكذيب الأولين ومماثلتهم لهم في خصيصة التكذيب ووجود النبي ﷺ بينهم المانع من معاجلة العذاب فإذا وجد مقتض للعذاب كالصد والمكاء والتصدية وزال أحد ركني المانع وهو كونه ﷺ فيهم فلا مانع من العذاب ولا مانع من نزول الآية وإرسالها ليحق عليهم القول فيعذبوا بسبب تكذيبهم لها وبسبب مقتضيات آخر كالصد ونحوه .

فتحصل أن قوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات » الخ ، إنما يفيد الإمساك عن إرسال الآيات ما دام النبي ﷺ فيهم وأما إرسالها وتأخير العذاب الى خروجه من بينهم فلا دلالة فيه عليه وقد صرح سبحانه بأن وقعة بدر كانت آية وما أصابهم فيها كان عذاباً ، وكذا لو كان مفاد الآية هو الامتناع عن الإرسال لكونه لغواً بسبب كونهم مجبولين على التكذيب فإن إرسالها مع تأخير العذاب والنكال الى خروج النبي ﷺ من

(١) أول شقّي الترديد مبني على كون الباء في قوله : « نرسل بالآيات » زائدة والآيات مفعول نرسل ، والثاني مبني على كونها بمعنى المصاحبة والمفعول محذوفاً .

بينهم من الفائدة ليحق الله الحق ويبطل الباطل فلتكن آية انشقاق القمر من الآيات النازلة التي من فائدتها نزول العذاب عليهم بعد خروج النبي ﷺ من بينهم .

وأما قوله تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » فليس مدلوله نفي تأييد النبي ﷺ بالآيات المعجزة وإنكار نزولها من أصلها كيف ؟ وهو ينفيها عن نفسه بما أنه بشر رسول ، ولو كان المراد ذلك لأفاد إنكار معجزات الأنبياء جميعاً لكون كل منهم بشراً رسولاً ، وصريح القرآن فيما حدث من قصص الأنبياء وأخبار عن آياتهم يناقض ذلك ، وأوضح من الجميع في مناقضة ذلك نفس الآية التي هي من القرآن المتحدي بالإعجاز .

بل مدلوله أن النبي ﷺ بشر رسول غير قادر من حيث نفسه على شيء من الآيات التي يقترحون عليه ، وإنما الأمر إلى الله سبحانه إن شاء أنزلها وإن لم يشأ لم يفعل قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » الأنعام : ١٠٩ ، وقال حاكياً عن قوم نوح : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء » هود : ٣٣ ، وقال : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » المؤمن : ٨٧ ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومن الاعتراض على آية الانشقاق ما قيل : إن القمر لو انشق كما يقال لرآه جميع الناس واضبطه أهل الأرصاد في الشرق والغرب لكونه من أعجب الآيات السماوية ولم يعهد فيما بلغ الينا من التاريخ والكتب الباحثة عن الأوصاح السماوية له نظير والدواعي متوفرة على استماعه ونقله .

وأجيب بما حاصله أن من الممكن أولاً : أن يغفل عنه فلا دليل على كون كل حادث أرضي أو سماوي معلوماً للناس محفوظاً عندهم يرثه خلف عن سلف .

وثانياً : أن الحجاز وما حولها من البلاد العربية وغيرها لم يكن بها مرصد للأوضاع السماوية ، وإنما كان ما كان من المراصد بالهند والمغرب من الروم واليونان وغيرها ولم يثبت وجود مرصد في هذا الوقت - وهو على ما في بعض الروايات أول الليلة الرابعة عشرة من ذي الحجة سنة خمس قبل الهجرة - .

على أن بلاد الغرب التي كانوا معتنين بهذا الشأن بينها وبين مكة من اختلاف الافق ما

يوجب فصلاً زمانياً معتدّاً به وقد كان القمر - على ما في بعض الروايات - بدرأ وانشق في حوالي غروب الشمس حين طلوعه ولم يبق على الانشقاق إلا زماناً يسيراً ثم التأم فيقع طلوعه على بلاد الغرب وهو ملتئم ثانياً .

على أننا نتهم غير المسلمين من أتباع الكنيسة والوثنية في الأمور الدينية التي لها تماس نفع بالاسلام .

ومن الاعتراض عليها ما قيل : إن الانشقاق لا يقع إلا ببطلان التجاذب بين الشقتين وحينئذ يستحيل الالتيام فلو كان منشقاً لم يلتئم أبداً .

والجواب عنه أن الاستحالة العقلية ممنوعة ، والاستحالة العادية بمعنى اختراق العادة لو منعت عن الالتيام بعد الانشقاق لمنعت أولاً عن الانشقاق بعد الالتيام ولم تمنع وأصل الكلام مبني على جواز خرق العادة .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَأَزْدُجَرَ - ٩ . فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ - ١٠ . فَفَتَحْنَا
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ - ١١ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ
عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ - ١٢ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ - ١٣ .
تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ - ١٤ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ
مِنْ مُدَّكِرٍ - ١٥ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ - ١٦ . وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ - ١٧ . كَذَّبَتْ عُادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ - ١٨ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ
نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ - ١٩ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ - ٢٠ .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ — ٢١ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
 فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ — ٢٢ . كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ — ٢٣ . فَقَالُوا أَبَشَرًا
 مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ — ٢٤ . أَأَلْقَى الذِّكْرُ
 عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ — ٢٥ . سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ
 الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ — ٢٦ . إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاسَاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ
 وَأَصْطَبِرْ — ٢٧ . وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ — ٢٨ .
 فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ — ٢٩ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ — ٣٠ .
 إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ — ٣١ .
 وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ — ٣٢ . كَذَّبَتْ قَوْمُ
 لُوطٍ بِالنُّذْرِ — ٣٣ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ
 بِسَحَرٍ — ٣٤ . نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ — ٣٥ .
 وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ — ٣٦ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ
 ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ — ٣٧ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ
 بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ — ٣٨ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ — ٣٩ . وَلَقَدْ
 يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ — ٤٠ . وَلَقَدْ جَاءَ آلَ
 فِرْعَوْنَ النُّذْرُ — ٤١ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ
 مُقْتَدِرٍ — ٤٢ .

(بيان)

إشارة إلى بعض ما فيه مزدجر من أنباء الامم الدارجة خص بالذكر من بينهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون فذكرهم بأنبيائهم وأعاد عليهم إجمال ما قص عليهم سابقاً من قصصهم وما آل اليه تكذيبهم بآيات الله ورسله من أليم العذاب وهائل العقاب تقريراً لقوله : « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر » .

ولتوكيد التقرير وتمثيل ما في هذه القصص الزاجرة من الزجر القارع للقلوب عقاب كل واحدة من القصص بقوله خطاباً لهم : « فكيف كان عذابي ونذر » ثم نشأ بذكر الغرض من الإنذار والتخويف فقال : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » التكذيب الأول منزل منزلة اللازم أي فعلت التكذيب ، وقوله : « فكذبوا عبدنا » النخ ، تفسيره كما في قوله : « ونادى نوح ربه فقال » النخ ، هود : ٤٥ .

وقيل : المراد بالتكذيب الأول التكذيب المطلق وهو تكذيبهم بالرسول ، وبالثاني التكذيب بنوح خاصة كقوله في سورة الشعراء : « كذبت قوم نوح المرسلين » الشعراء : ١٠٥ ، والمعنى : كذبت قوم نوح المرسلين فترتب عليه تكذيبهم لنوح ، وهو وجه حسن .

وقيل : المراد بتفريع التكذب على التكذيب الإشارة إلى كونه تكديباً إثر تكذيب بطول زمان دعوته فكلمها انقضى قرن منهم مكذب جاء بعدهم قرن آخر مكذب ، وهو معنى بعيد .

ومثله قول بعضهم : إن المراد بالتكذيب الأول قصده وبالثاني فعله .

وقوله : « فكذبوا عبدنا » في التعبير عن نوح عليه السلام بقوله : « عبدنا » في مثل المقام تجليل لمقامه وتعظيم لأمره وإشارة إلى أن تكذيبهم له يرجع إليه تعالى لأنه عبد لا يملك شيئاً وما له فهو الله .

وقوله : « وقالوا مجنون وازدجر » المراد بالازدجار زجر الجن له إثر الجنون ، والمعنى : ولم يقتصر على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون وازدجره الجن فلا يتكلم إلا عن زجر وليس كلامه من الوحي السماوي في شيء .

وقيل : الفاعل المحذوف للآزدجار هو القوم ، والمعنى : وازدجره القوم عن الدعوة والتبليغ بأنواع الإيذاء والتخويف ، ولعل المعنى الأول أظهر .

قوله تعالى : « فدعاربه أني مغلوب فانتصر » الانتصار الانتقام ، وقوله : « إني مغلوب » أي بالقهر والتحكم دون الحاجة ، وهذا الدعاء تلخيص لتفصيل دعائه ، وتفصيل دعائه مذكور في سورة نوح وتفصيل حججه في سورة هود وغيرها .

قوله تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » قال في المجمع : الممر صب الدمع والماء بشدة ، والانهيار الانصباب ، انتهى . وفتح أبواب السماء وهي الجوباء منصب استعارة تمثيلية عن شدة انصباب الماء وجريان المطر متوالياً كأنه مدخر وراء باب مسدود يمنع عن انصبابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون .

قوله تعالى : « وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر » قال في المجمع : التفجير تشقيق الأرض عن الماء ، والعيون جمع عين الماء وهو ما يفور من الأرض مستديراً كاستدارة عين الحيوان . انتهى .

والمعنى : جعلنا الأرض عيوناً منفجرة عن الماء تجري جرياناً متوافقاً متتابعاً . وقوله : « فالتقى الماء على أمر قد قدر » أي فالتقى الماء ان ماء السماء وماء الأرض مستقراً على أمر قدره الله تعالى أي حسب ما قدر من غير نقیصة ولا زيادة ولا عجل ولا مهل . فالماء اسم جنس أريد به ماء السماء وماء الأرض ولذلك لم يثن ، والمراد بأمر قد قدر الصفة التي قدرها الله لهذا الطوفان .

قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » المراد بذات الألواح والدسر السفينة ، والألواح جمع لوح وهو الخشبة التي يركب بعضها على بعض في السفينة ، والدسر جمع دسار ودسر وهو المسار الذي تشد بها الألواح في السفينة ، وقيل فيه معان أخر لا تلائم الآية تلك الملائمة .

قوله تعالى : « تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر » أي تجري السفينة على الماء المحيط بالأرض بأنواع من مراقبتنا وحفظنا وحراستنا ، وقيل : المراد تجري بأعين أوليائنا ومن وكلناه بها من الملائكة .

وقوله : « جزاء لمن كان كفر » أي جريان السفينة كذلك وفيه نجاة من فيها من الهلاك ليكون جزاء لمن كان كفر به وهو نوح عليه السلام كفر به وبدعوته قومه ، فالآية في معنى

قوله : « ونجيناه وأهله من الكرب العظيم — إلى أن قال — إنا كذلك نجزي المحسنين »
الصفات : ٨٠ .

قوله تعالى : « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » ضمير « تركناها » للسفينة على ما يفيد السياق واللام للقسم ، والمعنى : أقسم لقد أبقينا تلك السفينة التي نجينا بها نوحاً والذين معه ، وجعلناها آية يعتبر بها من اعتبر فهل من متذكر يتذكر بها وحدانيته تعالى وأن دعوة أنبيائه حق ، وأن أخذه أليم شديد ؟ ولأزم هذا المعنى بقاء السفينة إلى حين نزول هذه الآيات علامة دالة على واقعة الطوفان مذكورة لها ، وقد قال بعضهم في تفسير الآية على ما نقل : أبقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة ^(١) ، انتهى . وقد أوردنا في تفسير سورة هود في آخر الأبحاث حول قصة نوح خبر أنهم عثروا في بعض قلال جبل آراراط وهو الجودي قطعاً أخشاب من سفينة متلاشية وقعت هناك ، فراجع .

وقيل : ضمير « تركناها » لما مر من القصة بما أنها فعله .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي ونذر » النذر جمع نذير بمعنى الإنذار ، وقيل : مصدر بمعنى الإنذار . والظاهر أن « كان » ناقصة واسمها « عذابي » وخبرها « فكيف » ، ويمكن أن تكون تامة فاعلها قوله : « عذابي » وقوله : « فكيف » حالاً منه . وكيف كان فالاستفهام للتحويل يسجل به شدة العذاب وصدق الإنذار .

قوله تعالى : « ولقد يسترنا القرآن للذكر فهل من مدكر » التيسير التسهيل وتيسير القرآن للذكر هو إلقاءه على نحو يسهل فهم مقاصده للعامي والخاصي والأفهام البسيطة والمتعمقة كل على مقدار فهمه .

ويمكن أن يراد به تنزيل حقائقه العالية ومقاصده المرتفعة عن أفق الأفهام العادية إلى مرحلة التكليم العربي تناله عامة الأفهام كما يستفاد من قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » وإنه في أم الكتاب لدينا لعلّ حكيم « الزخرف : ٤ » . والمراد بالذكر ذكره تعالى بأسمائه أو صفاته أو أفعاله ، قال في المفردات : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالخفظ

(١) رواه في الدر المنثور عن عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة .

إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره وقارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ، ولذلك قيل : الذكر ذكران : ذكر بالقلب وذكر باللسان وكل واحد منها ضربان : ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ ، وكل قول يقال له ذكر . انتهى .

ومعنى الآية : وأقسم لقد سهلنا القرآن لأن يتذكر به ، فيذكر الله تعالى وشؤنه ، فهل من متذكر يتذكر به فيؤمن بالله ويدين بما يدعو اليه من الدين الحق ؟
فالآية دعوة عامة إلى التذكر بالقرآن بعد تسجيل صدق الإنذار وشدة العذاب الذي أنذر به .

قوله تعالى : « كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر » شروع في قصة أخرى من القصص التي فيها الازدجار ولم يعطف على ما قبلها - ومثلها القصص الآتية - لأن كل واحدة من هذه القصص مستقلة كافية في الزجر والردع والعظة لو اتعظوا بها .

وقوله : « فكيف كان عذابي ونذر » مسوق لتوجيه قلوب السامعين إلى ما يلقي اليهم من كيفية العذاب الهائل بقوله : « إنا أرسلنا » الخ ، وليس مسوقاً للتحويل وتسجيل شدة العذاب وصدق الإنذار كسابقه وإلا لتكرر قوله بعد : « فكيف كان » الخ ، كذا قيل وهو وجه حسن .

قوله تعالى : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر » بيان لما استفهم عنه في قوله : « فكيف كان عذابي ونذر » والصرصر - على ما في المجمع - الريح الشديدة الهبوب ، والنحس بالفتح فالسكون مصدر كالنحوسة بمعنى الشؤم ، و « مستمر » صفة لنحس ، ومعنى إرسال الريح في يوم نحس مستمر إرسالها في يوم متلبس بالنحوسة والشأمة بالنسبة اليهم المستمرة عليهم لا يرجى فيه خير لهم ولا نجاة .

والمراد باليوم قطعة من الزمان لا اليوم الذي يساوي سبع الأسبوع لقوله تعالى في موضع آخر من كلامه : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات » حم السجدة ١٦ ، وفي موضع آخر : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً » الحاقة : ٧ .
وفسر بعضهم النحس بالبرد .

قوله تعالى : « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » فاعل « تنزع » ضمير راجع إلى

الريح أي تنزع الريح الناس من الأرض ، وأعجاز النخل أسافله ، والمنقعر المقلوع من أصله ، والمعنى ظاهر ، وفي الآية إشعار ببسطة القوم أجساماً .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي - إلى قوله - مذكر » تقدم تفسير الآيتين .

(كلام في سعادة الأيام ونحوستها والطيرة والفال ، في فصول)

١ - في سعادة الأيام ونحوستها : نحوسة اليوم أو أي مقدار من الزمان أن لا يعقب الحوادث الواقعة فيه إلا الشر ولا يكون الأعمال أو نوع خاص من الأعمال فيه مباركة لعاملها ، وسعاده خلافه .

ولا سبيل لنا إلى إقامة البرهان على سعادة يوم من الأيام أو زمان من الأزمنة ولا نحوسته وطبيعة الزمان المقدارية متشابهة الأجزاء والأبعاد ، ولا إحاطة لنا بالعلل والأسباب الفاعلة المؤثرة في حدوث الحوادث وكيونة الأعمال حتى يظهر لنا دوران اليوم أو القطعة من الزمان من علل وأسباب تقتضي سعاده أو نحوسته ، ولذلك كانت التجربة الكافية غير متأتية لتوقفها على تجرّد الموضوع لأثره حتى يعلم أن الأثر أثره وهو غير معلوم في المقام . ولما مر بعينه لم يكن لنا سبيل إلى إقامة البرهان على نفي السعادة والنحوسة كما لم يكن سبيل إلى الإثبات وإن كان الثبوت بعيداً فالبعد غير الاستحالة . هذا بحسب النظر العقلي .

وأما بحسب النظر الشرعي ففي الكتاب ذكر من النحوسة وما يقابلها ، قال تعالى : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر » القمر : ١٩ ، وقال : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات » حم السجدة : ١٦ ، لكن لا يظهر من سياق القصة ودلالة الآيتين مزيد من كون النحوسة والشؤم خاصة بنفس الزمان الذي كانت تهب عليهم فيه الريح عذاباً وهو سبع ليال وثمانية أيام متوالية يستمر عليهم فيها العذاب من غير أن تدور بدوران الأسابيع وهو ظاهر وإلا كانت جميع الزمان نحساً ، ولا بدوران الشهور والسنين .

وقال تعالى : « والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة » الدخان : ٣ ، والمراد بها ليلة القدر التي يصفها الله تعالى بقوله : « ليلة القدر خير من ألف شهر » القدر : ٣ ، وظاهر

أن مباركة هذه الليلة وسعادتها إنما هي بمقارنتها نوعاً من المقارنة لأمور عظام من الإفاضات الباطنية الإلهية وأفاعيل معنوية كإبرام القضاء ونزول الملائكة والروح وكونها سلاماً ، قال تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » الدخان : ٤ ، وقال : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر » القدر : ٥ .

ويؤل معنى مباركتها وسعادتها إلى فضل العبادة والنسك فيها وغزارة ثوابها وقرب العناية الإلهية فيها من المتوجهن إلى ساحة العزة والكبرياء .

وأما السنة فهناك روايات كثيرة جداً في السعد والنحس من أيام الاسبوع ومن أيام الشهور العربية ومن أيام شهور الفرس ومن أيام الشهور الرومية ، وهي روايات بالغة في الكثرة مودعة في جوامع الحديث ^(١) أكثرها ضعاف من مراسيل ومرفوعات وإن كان فيها ما لا يخلو من اعتبار من حيث أسنادها .

أما الروايات العادة للأيام النحسة كيوم الأربعاء والأربعاء لا تدور ^(٢) وسبعة أيام من كل شهر عربي ويومين من كل شهر رومي ونحو ذلك ، ففي كثير منها وخاصة فيما يتعرض لنحوسة أيام الاسبوع وأيام الشهور العربية تعليل لنحوسة اليوم بوقوع حوادث مرة غير مطلوبة بحسب المذاق الديني كرحلة النبي ﷺ وشهادة الحسين عليه السلام وإلقاء إبراهيم عليه السلام في النار ونزول العذاب بامة كذا وخلق النار وغير ذلك .

ومعلوم أن في عدّها نحسة مشومة وتجنب اقتراب الأمور المطلوبة وطلب الحوائج التي يلتذ الإنسان بالحصول عليها فيها تحكيماً للتقوى وتقوية للروح الدينية وفي عدم الاعتناء والاهتمام بها والاسترسال في الاشتغال بالسعي في كل ما تهواه النفس في أي وقت كانت إضراباً عن الحق وهتكاً لحرمة الدين وإضراراً لأوليائه ، فتؤل نحوسة هذه الأيام إلى جهات من الشقاء المعنوي منبعثة عن علل وأسباب اعتبارية مرتبطة نوعاً من الارتباط بهذه الأيام تفيد نوعاً من الشقاء الديني على من لا يعتني بأمرها .

وأيضاً قد ورد في عدة من هذه الروايات الاعتصام بالله بصدقة أو صوم أو دعاء أو قراءة شيء من القرآن أو غير ذلك لدفع نحوسة هذه الأيام كما عن مجالس ابن الشيخ بإسناده

(١) أوردت منها في الجزء الرابع عشر من كتاب البحار أحاديث جمة .

(٢) أربعاء لا تدور هي آخر أربعاء في الشهر .

عن سهل بن يعقوب الملقب بأبي نواس عن العسكري عليه السلام في حديث قلت : يا سيدي في أكثر هذه الأيام قواطع عن المقاصد لما ذكر فيها من النحس والخواف فتدليني على الاحتراز من المخاوف فيها فإنما تدعوني الضرورة إلى التوجه في الحوائج فيها ؟ فقال لي : يا سهل إن لشيعتنا بولايتنا لعصمة لو سلكوا بها في لجة البحار الغامرة وسباسب ^(١) البيداء الغائرة بين سباع وذئاب وأعادي الجن والإنس لأمنوا من مخاوفهم بولايتهم لنا، فثيق بالله عز وجل وأخلص في الولاء لأئمتك الطاهرين وتوجه حيث شئت واقصد ما شئت. الحديث. ثم أمره عليه السلام بشيء من القرآن والدعاء أن يقرأه ويدفع به النحوسة والشامة ويقصد ما شاء .

وفي الخصال بإسناده عن محمد بن رباح الفلاح قال : رأيت أبا إبراهيم عليه السلام يحتجم يوم الجمعة فقلت : جعلت فداك تحتجم يوم الجمعة ؟ قال : أقرأ آية الكرسي فإذا هاج بك الدم ليلاً كان أو نهاراً فاقراً آية الكرسي واحتجم .

وفي الخصال أيضاً بإسناده عن محمد بن أحمد الدقاق قال : كتبت إلى أبي الحسن الثاني عليه السلام أسأله عن الخروج يوم الاربعاء لا تدور ، فكتب عليه السلام : من خرج يوم الاربعاء لا تدور خلافاً على أهل الطيرة ووقي من كل آفة وعوفي من كل عاهة وقضى الله له حاجته . وكتب إليه مرة أخرى يسأله عن الحجامة يوم الاربعاء لا تدور ، فكتب عليه السلام : من احتجم في يوم الاربعاء لا تدور خلافاً على أهل الطيرة عوفي من كل آفة ، ووقي من كل عاهة ، ولم ^(٢) تخضر محاجمه .

وفي معناها ما في تحف العقول : قال الحسين بن مسعود : دخلت على أبي الحسن علي ابن محمد عليه السلام وقد نكبت إصبعي وتلقاني راكب وصدم كتفي ، ودخلت في زحمة فخرقوا عليّ بعض ثيابي فقلت : كفاني الله شرك من يوم فما أيشمك . فقال عليه السلام لي : يا حسن هذا وأنت تغشانا ترمي بذنبك من لا ذنب له ؟

قال الحسن : فأثاب إليّ عقلي وتبينت خطاي فقلت : يا مولاي أستغفر الله . فقال :

(١) السباسب جمع سبب : المفاضة .

(٢) هذه الجملة إشارة إلى نفي ما في عدة من الروايات أن من احتجم في يوم الاربعاء أو يوم الاحد لا تدور اخضرت محاجمه ، وفي بعضها خيف عليه أن تخضر محاجمه .

يا حسن ما ذنب الأيام حتى صرتم تتشاءمون بها إذا جوزيتم بأعمالكم فيها؟ قال الحسن : أنا أستغفر الله أبداً ، وهي توبتي يا ابن رسول الله .

قال : ما ينفعكم ولكن الله يعاقبكم بذمتها على ما لا ذم عليها فيه . أما علمت يا حسن أن الله هو المثيب والمعاقب والمجازي بالأعمال عاجلاً وآجلاً؟ قلت : بلى يا مولاي . قال : لا تعد ولا تجعل للأيام صنماً في حكم الله . قال الحسن : بلى يا مولاي .

والروايات السابقة - ولها نظائر في معناها - يستفاد منها أن الملاك في نحومة هذه الأيام النحسات هو تطير عامة الناس بها وللتطير تأثير نفسي كما سيأتي ، وهذه الروايات تعالج نحوستها التي تأتيها من قبل الطيرة بصرف النفس عن الطيرة إن قوي الإنسان على ذلك ، وبالاتجاه إلى الله سبحانه والاعتصام به بقرآن يتلوه أو دعاء يدعو به إن لم يقوَ عليه بنفسه .

وحمل بعضهم هذه الروايات المسلمة لنحومة بعض الأيام على التقية ، وليس بذلك البعيد فإن التشاؤم والتفاؤل بالأزمنة والأمكنة والأوضاع والأحوال من خصائص العامة يوجد منه عندهم شيء كثير عند الأمم والطوائف المختلفة على تشتمهم وتفرقهم منذ القديم إلى يومنا وكان بين الناس حتى خواصهم في الصدر الأول في ذلك روايات دائرة يسندونها إلى النبي ﷺ لا يسع لأحد أن يردّها كما في كتاب المسلسلات بإسناده عن الفضل بن الربيع قال : كنت يوماً مع مولاي المأمون فأردنا الخروج يوم الأربعاء فقال المأمون : يوم مكروه سمعت أبي الرشيد يقول : سمعت المهدي يقول : سمعت المنصور يقول : سمعت أبي محمد بن علي يقول : سمعت أبي علياً يقول : سمعت أبي عبد الله بن عباس يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن آخر الأربعاء في الشهر يوم نحس مستمر .

وأما الروايات الدالة على الأيام السعيدة من الأسبوع وغيرها فالوجه فيها نظير ما تقدمت إليه الإشارة في الأخبار الدالة على نحوستها من الوجه الأول فإن في هذه الأخبار تعليل بركة ما عده من الأيام السعيدة بوقوع حوادث متبركة عظيمة في نظر الدين كولادة النبي ﷺ وبمشته وكما ورد أنه ﷺ دعا فقال : اللهم بارك لأمي في بكورها يوم سبئها وخيسها ، وما ورد أن الله ألان الحديد لداود عليه السلام يوم الثلاثاء ، وأن النبي ﷺ كان يخرج للسفر يوم الجمعة ، وأن الأحد من أسماء الله تعالى .

فتبين مما تقدم على طوله أن الأخبار الواردة في معادة الأيام ونحوستها لا تدل على مزيد

من ابتنائها على حوادث مرتبطة بالدين توجب حسناً وقبحاً بحسب الذوق الديني أو بحسب تأثير النفوس ، وأما انصاف اليوم أو أي قطعة من الزمان بصفة الميمنة أو المشأمة واختصاصه بخواص تكوينية عن علل وأسباب طبيعية تكوينية فلا، وما كان من الأخبار ظاهراً في خلاف ذلك فإما يحول على التقية أو لا اعتماد عليه .

٢ - في سعادة الكواكب ونحوستها وتأثير الأوضاع السماوية في الحوادث الأرضية سعادة ونحوسة . الكلام في ذلك من حيث النظر العقلي كالكلام في سعادة الأيام ونحوستها فلا سبيل إلى إقامة البرهان على شيء من ذلك كسعادة الشمس والمشتري وقران السعدين ونحوسة المريخ وقران النحسين والقمر في المقرب .

نعم كان القدماء من منجمي الهند يرون للحوادث الأرضية ارتباطاً بالأوضاع السماوية مطلقاً أعم من أوضاع الثوابت والسيارات ، وغيرهم يرى ذلك بين الحوادث وبين أوضاع السيارات السبع دون الثوابت وأوردوا لأوضاعها المختلفة خواص وآثاراً تسمى بأحكام النجوم يرون عند تحقق كل وضع أنه يعقب وقوع آثاره .

والقوم بين قائل بأن الأجرام الكوكبية موجودات ذوات نفوس حية مريدة تفعل أفعالها بالعلية الفاعلية ، وقائل بأنها أجرام غير ذات نفس تؤثر أثرها بالعلية الفاعلية ، أو هي معدات لفعله تعالى وهو الفاعل للحوادث أو أن الكواكب وأوضاعها علامات للحوادث من غير فاعلية ولا إعداد ، أو أنه لا شيء من هذه الارتباطات بينها وبين الحوادث حتى على نحو العلامة وإنما جرت عادة الله على أن يحدث حادثه كذا عند وضع سماوي ، كذا .

وشيء من هذه الأحكام ليس بدائمي مطرد بحيث يلزم حكم كذا وضعاً كذا فربما تصدق وربما تكذب لكن الذي بلغنا من عجائب القصص والحكايات في استخراجاتهم يعطي أن بين الأوضاع السماوية والحوادث الأرضية ارتباطاً ما إلا أنه في الجملة لا بالجملة كما أن بعض الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يصدق ذلك كذلك .

وعلى هذا لا يمكن الحكم البتي بكون كوكب كذا أو وضع كذا سعاداً أو نحساً وأما أصل ارتباط الحوادث والأوضاع السماوية والأرضية بعضها ببعض فليس في وسع الباحث الناقد إنكار ذلك .

وأما القول بكون الكواكب أو الأوضاع السماوية ذوات تأثير فيما دونها سواء قيل

بكونها ذوات نفوس ناطقة أو لم يقل فليس مما يخالف شيئاً من ضروريات الدين إلا أن يقال بكونها خالقـة موجدة لما دونها من غير أن ينتهي ذلك إليه تعالى فيكون شركاً لكنه لا قائل به حتى من وثنية الصابئة التي تعبد الكواكب، أو أن يقال بكونها مدبرة للنظام الكوني مستقلة في التدبير فيكون ربوبية تستعقب المعبودية فيكون شركاً كما عليه الصابئة عبدة الكواكب .

وأما الروايات الواردة في تأثير النجوم سعداً ونحساً وتصديقاً وتكذيباً فهي كثيرة جداً على أقسام :

منها : ما يدل بظاهره على تسليم السعادة والنجاسة فيها كما في الرسالة الذهبية عن الرضا عليه السلام : اعلم أن جماعهم والقمر في برج الحمل أو الدلو من البروج أفضل وخير من ذلك أن يكون في برج الثور لكونه شرف القمر .

وفي البحار عن النوادر بإسناده عن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من سافر أو تزوج والقمر في العقرب لم ير الحسنى الخبر ، وفي كتاب النجوم لابن طاووس عن علي عليه السلام : يكره أن يسافر الرجل في محاق الشهر وإذا كان القمر في العقرب .

ويمكن حمل أمثال هذه الروايات على التقيّة على ما قيل ، أو على مقارنة الطيرة العامة كما ربما يشعر به ما في عدة من الروايات من الأمر بالصدقة لدفع النجاسة كما في نوادر الراوندي بإسناده عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده في حديث : إذا أصبحت فتصدق بصدقة تذهب عنك نحس ذلك اليوم ، وإذا أمسيت فتصدق بصدقة تذهب عنك نحس تلك الليلة الخبر ، ويمكن أن يكون ذلك لارتباط خاص بين الوضع السماوي والحادثة الأرضية بنحو الاقتضاء .

ومنها : ما يدل على تكذيب تأثيرات النجوم في الحوادث والنهي الشديد عن الاعتقاد بها والاستغال بعلمها كما في نهج البلاغة : المنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار . ويظهر من أخبار آخر تصديقها وتجوز النظر فيها أن النهي عن الاستغال بها والبناء عليها إنما هو فيما اعتقد لها استقلال في التأثير لتأديته إلى الشرك كما تقدّم .

ومنها : ما يدل على كونه حقاً في نفسه غير أن قليله لا ينفع وكثيره لا يدرك كما في الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن سيابة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك

إن الناس يقولون : إن النجوم لا يحلّ النظر فيها وهو يعجبني فإن كانت تضر بديني فلا حاجة لي في شيء يضر بديني ، وإن كانت لا تضر بديني فوالله إني لأشتهيها وأشتهي النظر فيها . فقال : ليس كما يقولون لا يضر بدینک ثم قال : إنکم تنظرون في شيء منها كثيره لا يدرك وقليله لا ينتفع به . الخبر .

وفي البحار عن كتاب النجوم لابن طائوس عن معاوية بن حكيم عن محمد بن زياد عن محمد بن يحيى الخثعمي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن النجوم حق هي ؟ قال لي : نعم فقلت له : وفي الأرض من يعلمها ؟ قال : نعم وفي الأرض من يعلمها ، وفي عدة من الروايات : ما يعلمها إلا أهل بيت من الهند وأهل بيت من العرب وفي بعضها : من قریش . وهذه الروايات تؤيد ما قدمناه من أن بين الأوضاع والأحكام ارتباطاً ما في الجملة .

نعم ورد في بعض هذه الروايات أن الله أنزل المشتري على الأرض في صورة رجل فلقي رجلاً من العجم فعلمه النجوم حتى ظن أنه بلغ ثم قال له : انظر أين المشتري ؟ فقال : ما أراه في الفلك وما أدري أين هو ؟ فنحاه وأخذ بيد رجل من الهند فعلمه حتى ظن أنه قد بلغ وقال : انظر إلى المشتري أين هو ؟ فقال : إن حسابي ليبدل على أنك أنت المشتري قال : فشقي شقة فمات وورث علمه أهله فالعلم هناك . الخبر ، وهو أشبه بالموضوع .

٣ - في التفاؤل والتطير وما الاستدلال بحادث من الحوادث على الخير وترقبه وهو التفاؤل أو على الشر وهو التطير وكثيراً ما يؤثران ويقع ما يترقب منهما من خير أو شر وخاصة في الشر وذلك تأثير نفسي .

وقد فرّق الإسلام بين التفاؤل والتطير فأمر بالتفاؤل ونهى عن التطير ، وفي ذلك تصديق لكون ما فيها من التأثير تأثيراً نفسانياً .

أما التفاؤل ففيما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : تفاءلوا بالخير تجدوه ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم كثير التفاؤل نقل عنه ذلك في كثير من مواقفه ^(١) .

وأما التطير فقد ورد في مواضع من الكتاب نقله عن أمم الأنبياء في دعواتهم لهم حيث كانوا يظهرون لأنبيائهم أنهم أطيروا بهم فلا يؤمنون ، وأجاب عن ذلك أنبياءهم

(١) كما ورد في قصة الحديبية : جاء سهيل بن عمرو فقال صلى الله عليه وآله : قد سهل عليكم أمركم . وكما في قصة كتابه إلى خسرو برونيد دعوه إلى الإسلام فمزق كتابه وأرسل إليه قبضة من تراب فتفاءل صلى الله عليه وآله منه أن المؤمنين سيملكون أرضهم .

بما حاصله أن التطير لا يقلب الحق باطلاً ولا الباطل حقاً ، وأن الأمر إلى الله سبحانه لا إلى الطائر الذي لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن أن يملك لغيره الخير والشر والسعادة والشقاء قال تعالى : « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجنكم وليمستنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم » يس : ١٩ ، أي ما يجرُّ اليكم الشر هو معكم لا معنا ، وقال : « قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله » النمل : ٤٧ ، أي الذي يأتىكم به الخير أو الشر عند الله فهو الذي يقدر فيكم ما يقدر لا أنا ومن معي فليس لنا من الأمر شيء .

وقد وردت أخبار كثيرة في النهي عن الطيرة وفي دفع شؤمها بعدم الاعتناء أو بالتوكل والدعاء ، وهي تؤيد ما قدمناه من أن تأثيرها من التأثيرات النفسانية ففي الكافي بإسناده عن عمرو بن حريث قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : الطيرة على ما تجعلها إن هو انتها تهونت ، وإن شددتها تشددت ، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً . ودلالة الحديث على كون تأثيرها من التأثيرات النفسانية ظاهرة ، ومثله الحديث المروي من طرق أهل السنة : ثلاث لا يسلم منها أحد : الطيرة والحسد والظن . قيل : فما نصنع ؟ قال : إذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق .

وفي معناه ما في الكافي عن القمي عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : كفارة الطيرة التوكل . الخبر وذلك أن في التوكل إرجاع أمر التأثير إلى الله تعالى ، فلا يبقى للشيء أثر حتى يتضرر به ، وفي معناه ما ورد من طرق أهل السنة على ما في نهاية ابن الأثير : الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهب بالتوكل .

وفي المعنى السابق ما روي عن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال : الشؤم للمسافر في طريقه سبعة أشياء : الغراب الناقع عن يمينه ، والكلب الناصر لذنبه ، والذئب العاوي الذي يعوي في وجه الرجل وهو مقع على ذنبه ثم يرتفع ثم ينخفض ثلاثاً ، والظبي السانح عن يمين إلى شمال ، والبومة الصارخة ، والمرأة الشمطاء تلقى فرجها ، والأتان العضبان يعني الجدعاء ، فمن أوجس في نفسه منهن شيئاً فليقل : اعتصمت بك يا رب من شر ما أجد في نفسي فيعصم من ذلك ^(١) .

(١) الخبر على ما في البعار المذكور في الكافي والخصال والحاشي والفقيه وما في المتن مطابق لبعض نسخ الفقيه .

ويلحق بهذا البحث الكلامي في نحوسة سائر الامور المعدودة عند العامة مشؤمة نخسة كالعطاس مرة واحدة عند العزم على أمر وغير ذلك وقد وردت في النهي عن التطير بها والتوكل عند ذلك روايات في أبواب متفرقة ، وفي النبوي المروي من طرق الفريقين : لا عدوى ^(١) ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا شؤم ، ولا صفر ، ولا رضاع بعد فصال ، ولا تعرتب بعد هجرة ، ولا صمت يوماً إلى الليل ، ولا طلاق قبل نكاح ، ولا عتق قبل ملك ، ولا يتم بعد إدراك .

* * *

قوله تعالى : « كذبت ثمود بالنذر » النذر إما مصدر كما قيل والمعنى : كذبت ثمود بإنذار نبيهم صالح عليه السلام ، وإما جمع نذير بمعنى المنذر ، والمعنى : كذبت ثمود بالأنبياء لأن تكذيبهم بالواحد منهم تكذيب منهم بالجميع لأن رسالتهم واحدة لا اختلاف فيها فيكون في معنى قوله : « كذبت ثمود المرسلين » الشعراء : ١٤١ ، وإما جمع نذير بمعنى الإنذار ومرجعه إلى أحد المعنيين السابقين .

قوله تعالى : « فقالوا أبشراً عنا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر » تفريع على التكذيب والسعر جمع سمير بمعنى النار المشتعلة ، واحتمل أن يكون بمعنى الجنون وهو أنسب للسياق ، والظاهر أن المراد بالواحد الواحد العددي ، والمعنى : كذبوا به فقالوا : أبشراً من نوعنا وهو شخص واحد لا عدة له ولا جموع معه نتبعه إنا إذا مستقرون في ضلال عجيب وجنون .

فيكون هذا القول توجيهاً منهم لعدم اتباعهم لصالح لفقده العدة والقوة وهم قد اعتادوا على اتباع من عنده ذلك كالملوك والعظماء وقد كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى طاعة نفسه ورفض طاعة عظمائهم كما يحكيه الله سبحانه عنه بقوله : « فأتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين » الشعراء : ١٥١ .

(١) العدوى مصدر كالأعداء بمعنى تجاوز مرض المريض منه إلى غيره كما يقال في الجرب والوباء والجذري وغيرها ، والمراد بنفي العدوى كما يفيد مراد الرواية أن يكون العدوى مقتضى المرض من غير انتساب إلى مشية الله تعالى ، والهامة ما كان أهل الجاهلية يزعمون أن روح القتل تضر طائراً يأوى إلى قبره ويصبح ويشتكي العطش حتى يؤخذ بثأره ، والصفر هو التصفير عند سقاية الحيوان وغيره .

ولو أخذ الواحد واحداً نوعياً كان المعنى : أبشراً هو واحد منا أي هو مثلنا ومن نوعنا نتبعه ؟ وكانت الآية التالية مفسرة لها .

قوله تعالى : « أَلْقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » الاستفهام كسابقه للإنكار والمعنى : « أنزل الوحي عليه واختص به من بيننا ولا فضل له علينا ؟ لا يكون ذلك أبداً ، والتعبير بالإلقاء دون الإنزال ونحوه للإشعار بالعجلة كما قيل .

ومن المحتمل أن يكون المراد نفي أن يختص بالإلقاء الذكر من بينهم وهو بشر مثلهم فلو كان الوحي حقاً وجاز أن ينزل على البشر لنزل على البشر كلهم فما باله اختص بما من شأنه أن يرزقه الجميع ؟ فتكون الآية في معنى قولهم له كما في سورة الشعراء : « ما أنت إلا بشر مثلهنا » الشعراء : ١٥٤ .

وقوله : « بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » أي شديد البطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بهذا الطريق .

قوله تعالى : « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ » حكاية قوله سبحانه لصالح عليه السلام كآيتين بعدها .

والمراد بالقدر العاقبة من قولهم : إن مع اليوم غداً ، يشير سبحانه به إلى ما سينزل عليهم من العذاب فيعلمون عند ذلك علم عيان من هو الكذاب الأشير صالح أو هم ؟

قوله تعالى : « إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » في مقام التعليل لما أخبر من أنهم سينزل عليهم العذاب والمفاد أنهم سينزل عليهم العذاب لأننا فاعلون كذا وكذا ، والفتنة الامتحان والابتلاء ، والمعنى : إنا مرسلون - على طريق الإعجاز - الناقة التي يسألونها امتحاناً لهم فانتظرهم واصبر على أذاهم .

قوله تعالى : « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مَحْتَضَرٌ » ضمير الجمع الأول للقوم والثاني للقوم والناقة على سبيل التغليب ، والقسمة بمعنى المقسوم ، والشرب النصيب من شرب الماء ، والمعنى : وخبرهم بعد إرسال الناقة أن الماء مقسوم بين القوم وبين الناقة كل نصيب من الشرب يحضر عنده صاحبه فيحضر القوم عند شربهم والناقة عند شربها قال تعالى : « قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » الشعراء : ١٥٥ .

قوله تعالى : « فنادوا أصحابهم فتعاطى فعقر » المراد بصاحبهم عاقر الناقة ، والتعاطى تناول والمعنى : فنادى القوم عاقر الناقة لعقرها فتناول عقرها فعقرها وقتلها .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » المحتظر صاحب الخطيرة وهي كالحائط يعمل ليجعل فيه الماشية ، وهشيم المحتظر الشجر اليابس ونحوه يجمعه صاحب الخطيرة لماشيته ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد يسرنا » الخ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « كذبت قوم لوط بالندر » تقدم تفسيره في نظيره .

قوله تعالى : « إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر » الحاصب الريح التي تأتي بالحجارة والحصباء ، والمراد بها الريح التي أرسلت فرمتهم بسجيل منضود . وقال في جمع البيان : سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يقال : رأيت زبداً سحراً من الأسحار فإذا أردت سحر يومك قلت : أتيت به سحر - بالفتح - وأتيت به سحر - من غير تنوين - انتهى ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر » « نعمة » مفعول له من « نجيناهم » أي نجيناهم ليكون نعمة من عندنا نخصم بها لأنهم كانوا شاكرين لنا وجزاء الشكر لنا النجاة .

قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتابوا بالنذر » ضمير الفاعل في « أنذرهم » للوط عليه السلام ، والبطشة الأخذة الشديدة بالعذاب ، والتاري الإصرار على الجدل وإلقاء الشك ، والنذر الإنذار ، والمعنى : أقسم لقد خوفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوا في إنذاره وتخويفه .

قوله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر » مراودته عن ضيفه طلبهم منه أن يسلم اليهم أضيافه وهم الملائكة ، وطمس أعينهم محوها ، وقوله : « فذوقوا عذابي ونذر » التفات إلى خطاياهم تشديداً وتقريعاً ، والنذر مصدر أريد به ما يتعلق به الإنذار وهو العذاب ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » قال في جمع البيان : وقوله : « بكرة » ظرف زمان فإذا كان معرفة بأن تريد بكرة يومك تقول : أتيت به بكرة وغدوة لم تصرفها فبكرة هنا - وقد نون - نكرة ، والمراد باستقرار العذاب حلوله بهم وعدم تخلفه عنهم .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي — إلى قوله — من مدكر » تقدم تفسيره .
 قوله تعالى : « ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر »
 المراد بالنذر الإنذار ، وقوله : « كذبوا بآياتنا » مفصول من غير عطف لكونه جواباً
 لسؤال مقدر كأنه لما قيل : « ولقد جاء آل فرعون النذر » قيل : فما فعلوا ؟ فاجيب
 بقوله : « كذبوا بآياتنا » ، وفرّع عليه قوله : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

(بحث روائي)

في روح المعاني في قوله تعالى : « ولقد يشرنا القرآن للذكر » أخرج ابن أبي حاتم عن
 ابن عباس : لولا أن الله يشره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم
 بكلام الله تعالى .

قال : وأخرج الديلمي مرفوعاً عن أنس مثله . ثم قال : ولعل خبر أنس إن صح ليس
 تفسيراً للآية .

أقول : وليس من البعيد أن يكون المراد المعنى الثاني الذي قدمناه في تفسير الآية .
 وفي تفسير القمي في قوله : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » قال : صب بلا قطر
 « وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء » قال : ماء السماء وماء الأرض « على أمر قد قدر
 وحملناه » يعني نوحاً « على ذات ألواح ودسر » قال : الألواح السفينة والدسر المسامير .
 وفيه في قوله تعالى : « فنادوا أصحابهم » قال : قدار الذي عقر الناقة ، وقوله : « كهشم »
 قال : الحشيش والنبات .

وفي الكافي بإسناده عن أبي يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه قصة قوم
 لوط قال : فكابروه يعني لوطاً حتى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل فقال : يا لوط دعهم
 فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل : « فطمسنا
 على أعينهم » .

* * *

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ — ٤٣ . أَمْ

يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ - ٤٤. سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ - ٤٥.
 بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ - ٤٦. إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي
 ضَلَالٍ وَشُعْرٍ - ٤٧. يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا
 مَسَّ سَقَرَ - ٤٨. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ - ٤٩. وَمَا أَمْرُنَا
 إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ - ٥٠. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ
 مُدَّكِرٍ - ٥١. وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ - ٥٢. وَكُلُّ صَغِيرٍ
 وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ - ٥٣. إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ - ٥٤. فِي مَقْعَدِ
 صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ - ٥٥.

(بيان)

الآيات في معنى أخذ النتيجة مما أعيد ذكره من الأنبياء التي فيها مزدجر وهي نبأ الساعة المذكور أولاً ثم أنبياء الامم الهالكة المذكورة ثانياً فهي تنعطف أولاً على أنبياء الامم الهالكة فتخاطب قوم النبي ﷺ أن كفاركم ليسوا خيراً من اولئك الامم الطاغية الجبارة وقد أهلكهم الله على أذل وجه وأهونه ولا لكم براءة مكتوبة من عذاب الله، ولا أن جمعكم ينفعكم في الذب عن العقاب . ثم تنعطف إلى ما مر من نبأ الساعة بأنها موعدهم الصعب إن أجرموا وكذبوا والساعة أدهى وأمر ، ثم تشير إلى موطن المتقين يومئذ وعند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : «أكفاركم خير من اولئكم أم لكم براءة في الزبر» الظاهر أنه خطاب لقوم النبي ﷺ من مسلم وكافر على ما تشعر به الإضافة في «كفاركم» والخيرية هي الخيرية في زينة الدنيا وزخارف حياتها كالمال والبنين أو من جهة الأخلاق العامة في مجتمعهم كالسخاء

والشجاعة والشفقة على الضعفاء ، والإشارة بأولئكم إلى الأقوام المذكورة أنباؤهم : قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون ، والاستفهام للإنكار .
والمعنى : ليس الذين كفروا منكم خيراً من أولئكم الأمم المهلكين المعذبين حتى يشملهم العذاب دونكم .

ويمكن أن يكون خطاب « أكفاركم » لخصوص الكفار بعناية أنهم قوم النبي ﷺ وفيهم كفار وهم هم .

وقوله : « أم لكم براءة في الزبر » ظاهره أيضاً عموم الخطاب ، والزبر جمع زبور وهو الكتاب ، وقد ذكروا أن المراد بالزبر الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، والمعنى : بل ألكم براءة في الكتب السماوية التي نزلت من عند الله أنكم في أمن من العذاب والمؤاخذه وإن كفرتم وأجرمتم واقترفتُم ما شئتم من الذنوب .

قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر » الجميع المجموع والمراد به وحدة مجتمعهم من حيث الإرادة والعمل ، والانتصار الانتقام أو التناصر كما في خطابات يوم القيامة : « ما لكم لا تنصرون » الصافات : ٢٥ ، والمعنى : بل أيقولون أي الكفار نحن قوم مجتمعون متحدون ننتقم ممن أرادنا بسوء أو ينصر بعضنا بعضاً فلا ننهزم .

قوله تعالى : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » اللام في « الجمع » للعهد الذكري وفي « الدبر » للجنس ، وتولى الدبر الإدبار ، والمعنى : سيهزم الجمع الذي يتبجحون به ويولون الأدبار ويفرّون .

وفي الآية إخبار عن مغلوبية وانهزام لجمعهم ، ودلالة على أن هذه المغلوبية انهزام منهم في حرب سيقدمون عليها ، وقد وقع ذلك في غزاة بدر ، وهذا من ملاحم القرآن الكريم .
قوله تعالى : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » « أدهى » اسم تفضيل من الدهاء وهو عظم البلية المنكرة التي ليس إلى التخلص منها سبيل ، و « أمر » اسم تفضيل من المرارة ضد الحلاوة ، وفي الآية إضراب عن إبعادهم بالانهزام والعذاب الدنيوي إلى إبعادهم بما سيجري عليهم في الساعة وقد أشير إلى نبأها في أول الأنباء الزاجرة ، والكلام يفيد الترقّي .

والمعنى : وليس الانهزام والعذاب الدنيوي تمام عقوبتهم بل الساعة التي أشرنا إلى نبأها هي موعدهم والساعة أدهى من كل داهية وأمر من كل مُر .

قوله تعالى : « إن المجرمين في ضلال وسعر » جمع سعيير وهي النار المسعرة وفي الآية تعليل لما قبلها من قوله : « والساعة أدهى وأمر » ، والمعنى : إنما كانت الساعة أدهى وأمر لهم لأنهم مجرمون والمجرمون في ضلال عن موطن السعادة وهو الجنة ونيران مسعرة .

قوله تعالى : « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » السحب جر الإنسان على وجهه ، و « يوم » ظرف لقوله : « في ضلال وسعر » ، و « سقر » من أسماء جهنم ومستها هو إصابتها لهم بحرّها وعذابها .
والمعنى : كونهم في ضلال وسعر في يوم يحترّون في النار على وجوههم يقال لهم : ذوقوا ما تصيبكم جهنم بحرّها وعذابها .

قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » « كل شيء » منصوب بفعل مقدر يدل عليه « خلقناه » والتقدير خلقنا كل شيء خلقناه ، و « بقدر » متعلق بقوله : « خلقناه » والباء للمصاحبة ، والمعنى : إنا خلقنا كل شيء مصاحباً لقدر .

وقدر الشيء هو المقدار الذي لا يتعداه والحد والهندسة التي لا يتجاوزها في شيء من جانبي الزيادة والنقص ، قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، فلكل شيء حد محدود في خلقه لا يتعداه وصراط ممدود في وجوده يسلكه ولا يتخطاه .

والآية في مقام التعليل لما في الآيتين السابقتين من عذاب المجرمين يوم القيامة كأنه قيل : لماذا جوزي المجرمون بالضلال والسعر يوم القيامة وأذيقوا مس سقر ؟ فاجيب بقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ومحصله أن لكل شيء قدراً ومن القدر في الإنسان أن الله سبحانه خلقه نوعاً متكاثراً الأفراد بالتناسل اجتماعياً في حياته الدنيا يتزود من حياته الدنيا الدائرة لحياته الآخرة الباقية ، وقدر أن يرسل اليهم رسولا يدعوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة فمن استجاب الدعوة فاز بالسعادة ودخل الجنة وجاور ربه ، ومن ردّها وأجرم فهو في ضلال وسعر .

ومن الخطأ أن يقال : إن الجواب عن السؤال بهذا النحو من المصادرة الممنوعة في الاحتجاج فإن السؤال عن مجازاته تعالى إياهم بالنار لإجرامهم في معنى السؤال عن تقديره ذلك ، فمعنى السؤال : لم قدر الله للمجرمين المجازاة بالنار ؟ ومعنى الجواب : أن الله قدر للمجرمين المجازاة بالنار ، أو معنى السؤال : لم يدخلهم الله النار ؟ ومعنى الجواب : أن

الله يدخلهم النار وذلك مصادرة بيّنة .

وذلك لأن بين فعلنا وبين فعله تعالى فرقاً فإننا نتبع في أفعالنا القوانين والاصول الكلية المأخوذة من الكون الخارجي والوجود العيني ، وهي الحاكمة علينا في إرادتنا وأفعالنا ، فإذا أكلنا لجوع أو شربنا لعطش فإنما نريد بذلك الشبع والري لما حصلنا من الكون الخارجي أن الأكل يفيد الشبع والشرب يفيد الري وهو الجواب لو سئلنا عن الفعل .

وبالجملة أفعالنا تابعة للقواعد الكلية والضوابط العامة المنتزعة عن الوجود العيني المتفرعة عليه ، وأما فعله تعالى فهو نفس الوجود العيني ، والاصول العقلية الكلية مأخوذة منه متأخرة عنه محكومة له فلا تكون حاكمة فيه متقدمة عليه ، قال تعالى : « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » الأنبياء : ٢٣ ، وقال : « إن الله يفعل ما يشاء » الحج : ١٨ ، وقال : « الحق من ربك » آل عمران : ٦٠ .

فلا سؤال عن فعله تعالى بلم بمعنى السؤال عن السبب الخارجي إذ لا سبب دونه يعينه في فعله ، ولا بمعنى السؤال عن الأصل الكلي العقلي الذي يصحح فعله إذ الاصول العقلية منتزعة عن فعله متأخرة عنه .

نعم وقع في كلامه سبحانه تعليل الفعل بأحد ثلاثة أوجه :

أحدها : تعليل الفعل بما يترتب عليه من الغايات والفوائد العائدة إلى الخلق لا إليه ، لكنه تعليل للفعل لا لكونه فعلاً له سبحانه بل لكونه أمراً واقعاً في صف الأسباب والمسببات كما في قوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون » المائدة : ٨٢ ، وقال : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة - إلى أن قال - ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » البقرة : ٦١ .

الثاني : تعليل فعله تعالى بشيء من أسمائه وصفاته المناسبة له كتعليله تعالى مضامين كثير من الآيات في كلامه بمثل قوله : « إن الله غفور رحيم » وهو العزيز الحكيم ، وهو اللطيف الخبير ، إلى غير ذلك وهو شائع في القرآن الكريم ، وإذا أجدت التأمل في موارد وجدتها من تعليل الفعل بما له من صفة خاصة بصفة عامة لفعله تعالى فإن أسماءه تعالى الفعلية منتزعة عن فعله العام فتعليل فعل خاص بصفة من صفاته واسم من أسمائه تعليل الوجه الخاص في الفعل بالوجه العام فيه كقوله تعالى : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » العنكبوت : ٦٠ ، يعطى قضاء حاجة الدواب

والإنسان إلى الرزق المسؤول بلسان حاجتها بأنه سميع عليم أي إنه خلق كل شيء والحال أن مسائلهم مسموعة له وأحوالهم معلومة عنده وهما صفتا فعله العام ، وقوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » البقرة : ٣٧ ، يعلل توبته على آدم بأنه تواب رحيم أي صفة فعله هي التوبة والرحمة .

الثالث : تعليل فعله الخاص بفعله العام ومرجعه في الحقيقة إلى الوجه الثاني كقوله : « إن المجرمين في ضلال وسعر - إلى أن قال - إنا كل شيء خلقناه بقدر » فإن القدر وهو كون الشيء محدوداً لا يتخطى حده في مسير وجوده فعل عام له تعالى لا يخلو عنه شيء من الخلق فتعليل العذاب بالقدر من تعليل فعله الخاص بفعله العام وبيان أنه مصداق من مصاديق القدر إذ كان من المقدر في الإنسان أن لو أجرم بردّ دعوة النبوة عذب ودخل النار يوم القيامة ، وكقوله : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » مريم : ٧١ ، يعلل الورود بالقضاء وهو فعل له عام والورود خاص بالنسبة إليه .

فتبين أن ما في كلامه من تعليل فعل من أفعاله إنما هو من تعليل الفعل الخاص بصفته العامة والعلة علة للإثبات لا للثبوت ، وليس من المصادرة في شيء .

قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » قال في المجمع : اللوح النظر بالمعجزة وهو خطف البصر . انتهى .

والمراد بالأمر ما يقابل النهي لكنه الأمر التكويني بإرادة وجود الشيء ، قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ فهو كلمة كن ولعله لكونه كلمة اعتبر الخبر مؤنثاً فقليل : « إلا واحدة » .

والذي يفيد السياق أن المراد بكون الأمر واحدة أنه لا يحتاج في مضيه وتحقق متعلقه إلى تعدد وتكرار بل أمر واحد بإلقاء كلمة كن يتحقق به المتعلق المراد كلمح بالبصر من غير تأنيٍّ ومهل حتى يحتاج إلى الأمر ثانياً وثالثاً .

وتشبيه الأمر من حيث تحقق متعلقه بلمح بالبصر لا لإفادة أن زمان تأثيره قصير كزمان تحقق اللوح بالبصر بل لإفادة أنه لا يحتاج في تأثيره إلى مضي زمان ولو كان قصيراً فإن التشبيه باللمح بالبصر في الكلام يكتفى به عن ذلك ، فأمره تعالى وهو إيجاد وإرادة وجوده لا يحتاج في تحققه إلى زمان ولا مكان ولا حركة كيف لا ؟ ونفس الزمان والمكان والحركة إنما تحققت بأمره تعالى .

والآية وإن كانت بحسب مؤداهما في نفسها تعطي حقيقة عامة في خلق الأشياء وأن وجودها من حيث إنه فعل الله سبحانه كلمح بالبصر وإن كان من حيث إنه وجود لشيء كذا تدريجياً حاصلًا شيئاً فشيئاً .

إلا أنها بحسب وقوعها في سياق إيماد الكفار بعذاب يوم القيامة ناظرة إلى إتيان الساعة وأن أمراً واحداً منه تعالى يكفي في قيام الساعة وتجديد الخلق بالبعث والنشور فتكون متممة لما أقيم من الحجة بقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

فيكون مفاد الآية الأولى أن عذابهم بالنار على وفق الحكمة ولا يحصى عنه بحسب الإرادة الإلهية لأنه من القدر ، ومفاد هذه الآية أن تحقق الساعة التي يعذبون فيها بمضي هذه الإرادة وتحقيق متعلقها لا مؤنة فيه عليه سبحانه لأنه يكفي فيه أمر واحد منه تعالى كلمح بالبصر .

قوله تعالى : « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر » الأشياع جمع شيعة والمراد - كما قيل - الأشباه والأمثال في الكفر وتكذيب الأنبياء من الأمم الماضية . والمراد بالآية والآيتين بعدها تأكيد الحجة السابقة التي أقيمت على شمول العذاب لهم لا محالة .

ومحصل المعنى : أن ليس ما أئذرتكم به من عذاب الدنيا وعذاب الساعة بمجرد خبر أخبرناكم به ولا قول ألقيناه اليكم فهذه أشياعكم من الأمم الماضية شرع فيهم بذلك فقد أهلكناهم وهو عذابهم في الدنيا وسيلقون عذاب الآخرة فإن أعمالهم مكتوبة مضبوطة في كتب محفوظة عندنا سنحاسبهم بها ونجازيهم بما عملوا .

قوله تعالى : « وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر » الزبر كتب الأعمال وتفسيره باللوح المحفوظ سخيف ، والمراد بالصغير والكبير صغير الأعمال وكبيرها على ما يفيد السياق .

قوله تعالى : « إن المتقين في جنات ونهر » أي في جنات عظيمة الشأن بالغة الوصف ونهر كذلك ، قيل : المراد بالنهر الجنس ، وقيل : النهر بمعنى السعة .

قوله تعالى : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » المقعد المجلس ، والمليك صيغة مبالغة للملك على ما قيل ، وليس من إشباع كسر لام الملك ، والمقتدر القادر العظيم القدرة وهو الله سبحانه .

والمراد بالصدق صدق المتقين في إيمانهم وعملهم أضيف اليه المقعد للابسة مما ويمكن أن يراد به كون مقامهم ومآلهم فيه صدقاً لا يشوبه كذب فلم حضور لا غيبة معه ، وقرب لا بُعد معه ، ونعمة لا نقمة معها ، وسرور لا غم معه ، وبقاء لا فناء معه . ويمكن أن يراد به صدق هذا الخبر من حيث إنه تبشير ووعد جميل للمتقين ، وعلى هذا ففيه نوع مقابلة بين وصف عاقبة المتقين والجرمين حيث أُوعد المجرمون بالعذاب والضلال وقرر ذلك بأنه من القدر ولن يتخلف ، ووعد المتقون بالثواب والحضور عند ربهم المليك المقدر وقرر ذلك بأنه صدق لا كذب فيه .

(بحث رواني)

في كمال الدين بإسناده إلى علي بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الرقى أتدفع من القدر شيئاً ؟ فقال : هي من القدر . وقال : إن القدرية مجوس هذه الامة وهم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه وفيهم نزلت هذه الآية : « يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إننا كل شيء خلقناه بقدر » .

أقول : المراد بالقدرية النافون للقدر وهم المعتزلة القائلون بالتفويض ، وقوله : إنهم مجوس هذه الامة ذلك لقولهم : إن خالق الأفعال الاختيارية هو الإنسان والله خالق لما وراء ذلك فأثبتوا إلهين اثنين كما أثبتت المجوس إلهين اثنين : خالق الخير وخالق الشر . وقوله : أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه ، وذلك أنهم قالوا بخلق الإنسان لأفعاله فراراً عن القول بالجبر المنافي للعدل فأخرجوا الله من سلطانه على أعمال عباده بقطع نسبتها عنه تعالى .

وقوله : وفيهم نزلت هذه الآية ، الخ ، المراد به جري الآيات فيهم دون كونهم سبباً للنزول ومورداً له لما عرفت في تفسير الآيات من كونها عامة بحسب السياق ، وفي نزول الآيات فيهم روايات أخرى مروية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، ومن طرق أهل السنة أيضاً روايات في هذا المعنى عن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب وغيرهم . وفي الدر المنثور أخرج أحمد عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل أمة مجوساً وإن مجوس هذه الامة الذين يقولون : لا قدر . الخبر .

أقول : ورواه في ثواب الأعمال بإسناده عن الصادق عن آبائه عن علي بن الحسين ولفظه : لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر .

وفيه أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : النهر القضاء والسعة ليس بنهر جار .

وفيه أخرج أبو نعيم عن جابر قال : بينا رسول الله ﷺ يوماً في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنة فقال النبي ﷺ : يا أبا دجاجة أما علمت أن من أحببنا وابتلي بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا ؟ ثم تلا « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وفي روح المعاني في قوله : « في مقعد صدق » الآية ، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق .

(كلام في القدر)

القدر وهو هندسة الشيء وحده وجوده مما تكرر ذكره في كلامه تعالى فيما تكلم فيه في أمر الخلقة ، قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، وظاهره أن القدر ملازم للإنزال من الخزائن الموجودة عنده تعالى ، وأما نفس الخزائن وهي من إبداعه تعالى لا محالة فهي غير مقدر بهذا القدر الذي يلزم الإنزال ، والإنزال إصداره إلى هذا العالم المشهود كما يفيد قوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ ، وقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ .

ويؤيد ذلك ما ورد من تفسير القدر بمثل العرض والطول وسائر الحدود والخصوصيات الطبيعية الجسمانية كما في المحاسن عن أبيه عن يونس عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى . قلت : فما معنى شاء ؟ قال : ابتداء الفعل . قلت : فما معنى أراد ؟ قال : الثبوت عليه . قلت : فما معنى قدر ؟ قال : تقدير الشيء من طوله وعرضه . قلت : فما معنى قضى ؟ قال : إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مرد له .

وروى هذا المعنى عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن إسحاق عن الرضا عليه السلام في خبر مفصل وفيه : ففسال : أوتدري ما قدر ؟ قال : لا ، قال : هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء . الخبر .

ومن هنا يظهر أن المراد بكل شيء في قوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » الفرقان : ٣ ، وقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » القمر : ٤٩ ، وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » الرعد : ٨ ، وقوله : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، الأشياء الواقعة في عالمنا المشهود ، من الطبيعيات الواقعة تحت الخلق والتركيب ، أو أن للتقدير مرتبتين : مرتبة تعم جميع ما سوى الله وهي تحديد أصل الوجود بالإمكان والحاجة وهذا يعم جميع الموجودات ما خلا الله سبحانه ، قال تعالى : « وكان الله بكل شيء محيطاً » النساء : ١٢٦ .

ومرتبة تخص عالمنا المشهود وهي تحديد وجود الأشياء الموجودة فيه من حيث وجودها وآثار وجودها وخصوصيات كونها بما أنها متعلقة الوجود والآثار بأمور خارجة من العلل والشرائط فيختلف وجودها وأحوالها باختلاف عللها وشرائطها فهي مقسوبة بقوالب من داخل وخارج تعين لها من العرض والطول والشكل والهيئة وسائر الأحوال والأفعال ما يناسبها .

فالتقدير يهدي هذا النوع من الموجودات إلى ما قدر لها في مسير وجودها ، قال تعالى : « الذي خلق فسوَّى والَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى » الأعلى : ٣ ، أي هدى ما خلقه إلى ما قدر له ، ثم أتمَّ ذلك بامضاء القضاء ، وفي معناه قوله في الإنسان : « من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره » عبس : ٢٠ ، ويشير بقوله : « ثم السبيل يسره » إلى أن التقدير لا ينافي اختيارية أفعاله الاختيارية .

وهذا النوع من القدر في نفسه غير القضاء الذي هو الحكم البقي منه تعالى بوجوده « والله يحكم لا معقَّب لحكمه » الرعد : ٤١ ، فربما قدر ولم يعقبه القضاء كالتقدير الذي يقتضيه بعض العلل والشرائط الخارجة ثم يبطل لمانع أو باستخلاف سبب آخر ، قال تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت » الرعد : ٣٩ ، وقال : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » البقرة : ١٠٦ ، وربما قدر وتبعه القضاء كما إذا قدر من جميع الجهات باجتماع جميع علله وشرائطه وارتفاع موانعه .

وإلى ذلك يشير قوله عز وجل في خبر المحاسن السابق : إذا قضى أمضاء فذلك الذي لا مردَّ له ، وقريب منه ما في عدة من أخبار القضاء والقدر ما معناه أن القدر يمكن أن يتخلف وأما القضاء فلا يرد .

وعن علي عليه السلام بطرق مختلفة كما في التوحيد بإسناده عن ابن نبتة أن أمير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر فقبل له : يا أمير المؤمنين تفر من قضاء الله ؟ قال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل .

وأما النوع الأول من الموجودات الذي قدره حد وجوده من إمكانه وحاجته فحسب فالقدر والقضاء فيه واحد ولا يتخلف القدر فيه عن التحقق البتة .

والبحث العقلي يؤيد ما تقدم فإن الأمور التي لها علل مركبة من فاعل ومادة وشروط ومعدات وموانع فإن لكل منها تأثيراً في الشيء بما يسانحه فهو كالقالب الذي يقلب به الشيء فيأخذ لنفسه هيئة قالبه وخصوصيته وهذا هو قدره ثم العلة التامة إذا اجتمعت أجزاؤه أعطته ضرورة الوجود ، وهذه هي القضاء الذي لا مرد له ، وقد تقدم في تفسير أول سورة الإسراء كلام في القضاء لا يخلو من نفع في هذا البحث ، فليرجع إليه .

* * *

(سورة الرحمن مكية أو مدنية ، وهي ثمان وسبعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ١ . عِلْمَ الْقُرْآنِ — ٢ .
خَلَقَ الْإِنْسَانَ — ٣ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ — ٤ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ — ٥ .
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ — ٦ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ — ٧ .
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ — ٨ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا
الْمِيزَانَ — ٩ . وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ — ١٠ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ
ذَاتُ الْأَكْمَامِ — ١١ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ — ١٢ . فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ١٣ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ — ١٤ .
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ — ١٥ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ - ١٦ . رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ - ١٧ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ١٨ . مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ - ١٩ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ - ٢٠ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٢١ . يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ - ٢٢ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٢٣ . وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ - ٢٤ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٢٥ . كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ - ٢٦ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ - ٢٧ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٢٨ . يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ - ٢٩ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٣٠ .

(بيان)

تتضمن السورة الإشارة إلى خلقه تعالى العالم بأجزائه من سماء وأرض وبرّ وبحر وإنس وجن ونظم أجزائه نظاماً ينتفع به الثقلان الإنس والجن في حياتهما وينقسم بذلك العالم إلى نشأتين : نشأة دنيا ستفنى بفناء أهلها ، ونشأة أخرى باقية تتميز فيها السعادة من الشقاء والنعمة من النقمة .

وبذلك يظهر أن دار الوجود من دنياها وآخرتها ذات نظام واحد مؤتلف الأجزاء مرتبطط الأبعاد قويم الأركان يصلح بعضه ببعض ويتم شطر منه بشرط .

فما فيه من عين وأثر ، من نعمه تعالى وآلائه ، ولذا يستفهمهم مرة بعد مرة استفهاماً مشوباً بعتاب بقوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » فقد كررت الآية في السورة إحدى وثلاثين مرة .

ولذلك افتتحت السورة بذكره تعالى بصفة رحمته العامة الشاملة للمؤمن والكافر والدنيا والآخرة واختتمت بالثناء عليه بقوله : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » .
والسورة يحتمل كونها مكية أو مدنية وإن كان سياقها بالسياق المكي أشبه وهي السورة الوحيدة في القرآن افتتحت بعد البسملة باسم من أسماء الله عز اسمه ، وفي الجمع عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي ﷺ قال : لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره ، ورواه في الدر المنثور عن البيهقي عن علي بن الحسين عن النبي ﷺ .

قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن » الرحمان كما تقدم في تفسير سورة الفاتحة صيغة مبالغة تدل على كثرة الرحمة ببذل النعم ولذلك ناسب أن يعم ما يناله المؤمن والكافر من نعم الدنيا وما يناله المؤمن من نعم الآخرة ، ولعمومه ناسب أن يصدّر به الكلام لاشتغال الكلام في السورة على أنواع النعم الدنيوية والآخرية التي ينتظم بها عالم الثقلين الإنس والجن .

ذكروا أن الرحمان من الأسماء الخاصة به تعالى لا يسمى به غيره بخلاف مثل الرحيم والراحم .

وقوله : « علم القرآن » شروع في عد النعم الإلهية ، ولما كان القرآن أعظم النعم قدراً وشأناً وأرفعها مكاناً - لأنه كلام الله الذي يخط صراطه المستقيم ويتضمن بيان نهج السعادة التي هي غاية ما يأمله أمل ونهاية ما يسأله سائل - قدم ذكر تعليمه على سائر النعم حتى على خلق الإنس والجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمهما .

وحذف مفعول « علم » الأول وهو الإنسان أو الإنس والجن والتقدير علم الإنسان القرآن أو علم الإنس والجن القرآن ، وهذا الاحتمال الثاني وإن لم يتعرضوا له لكنه أقرب الاحتمالين لأن السورة تخاطب في تضاعيف آياتها الجن كالإنس ولولا شمول التعليم في قوله : « علم القرآن » لهم لم يتم ذلك .

وقيل : المفعول المحذوف محمد ﷺ أو جبرئيل والأنسب للسياق ما تقدم .

قوله تعالى : « خلق الإنسان علمه البيان » ذكر خلق الإنسان وسيدكر خصوصية خلقه بقوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » ، والإنسان من أعجب مخلوقات الله تعالى أو هو أعجبها يظهر ذلك بقياس وجوده إلى وجود غيره من المخلوقات والتأمل فيها

خط له من طريق الكمال في ظاهره وباطنه ودنياه وآخرته ، قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » التين : ٦ . وقوله : « علّمه البيان » البيان الكشف عن الشيء والمراد به الكلام الكاشف عما في الضمير ، وهو من أعجب النعم وتعليمه للإنسان من عظيم العناية الإلهية المتعلقة به فليس الكلام مجرد إيجاد صوت مما باستخدام الرئة وقصبتها والحلقوم ولا ما يحصل من التنوع في الصوت الخارج من الحلقوم باعتماده على مخارج الحروف المختلفة في الفم .

بل يجعل الإنسان بإلهام باطني من الله سبحانه الواحد من هذه الأصوات المعتمدة على مخرج من مخارج الفم المسمى حرفاً أو المركب من عدة من الحروف علامة مشيرة إلى مفهوم من المفاهيم يمثل به ما يغيب عن حس السامع وإدراكه فيقدر به على إحضار أي وضع من أوضاع العالم المشهود وإن جل ما جل أو دق ما دق من موجود أو معدوم ماض أو مستقبل ، ثم على إحضار أي وضع من أوضاع المعاني غير المحسوسة التي ينالها الإنسان بفكره ولا سبيل للعس إليها يحضرها جميعاً لسامعه ويمثلها لحسه كأنه يشخصها له بأعيانها . ولا يتم للإنسان اجتماعه المدني ولا تقدم في حياته هذا التقدم الباهر إلا بتنبه لوضع الكلام وفتحه بذلك باب التفهيم والتفهيم ، ولولا ذلك لكان هو والحيوان العجم سواء في جمود الحياة وركودها .

ومن أقوى الدليل على أن اهتداء الإنسان إلى البيان بإلهام إلهي له أصل في التكوين اختلاف اللغات باختلاف الأمم والطوائف في الخصائص الروحية والأخلاق النفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي يعيشون فيها ، قال تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » الروم : ٢٢ .

وليس المراد بقوله : « علّمه البيان » أن الله سبحانه وضع اللغات ثم علمها الإنسان بالوحي إلى نبي من الأنبياء أو بالإلهام فإن الإنسان بوقوعه في ظرف الاجتماع مندفع بالطبع إلى اعتبار التفهيم والتفهيم بالإشارات والأصوات وهو التكلم والنطق لا يتم له الاجتماع المدني دون ذلك .

على أن فعله تعالى هو التكوين والإيجاد والرابطة بين اللفظ ومعناه اللغوي وضعية اعتبارية لا حقيقية خارجية بل الله سبحانه خلق الإنسان وفطره فطرة تؤديه إلى الاجتماع المدني ثم إلى وضع اللغة يجعل اللفظ علامة للمعنى بحيث إذا ألقى اللفظ إلى سامعه فكأنما

يلقي اليه المعنى ثم إلى وضع الخط يحمل الأشكال المخصوصة علائم للألفاظ فالخط مكمل لغرض الكلام ، وهو يمثل الكلام كما أن الكلام يمثل المعنى .
وبالجملة البيان من أعظم النعم والآلاء الربانية التي تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنساني وتهديه إلى كل خير .

هذا ما هو الظاهر المتبادر من الآيتين ، ولهم في معنهما أقوال : فقيل : الإنسان هو آدم عليه السلام والبيان الأسماء التي علمه الله إياها ، وقيل : الإنسان محمد ﷺ والبيان القرآن أو تعليمه المؤمنين القرآن ، وقيل : البيان الخير والشر علمها الإنسان ، وقيل : سبيل الهدى وسبيل الضلال إلى غير ذلك وهي أقوال بعيدة عن الفهم .

قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » الحساب مصدر بمعنى الحساب ، والشمس مبتدأ والقمر معطوف عليه ، وبحسبان خبره ، والجملة خبر بعد خبر لقوله : « الرحمن » والتقدير الشمس والقمر يحريان بحساب منه على ما قدر لها من نوع الجري .

قوله تعالى : « والنجم والشجر يسجدان » قالوا : المراد بالنجم ما ينجم من النبات ويطلع من الأرض ولا ساق له ، والشجر ما له ساق من النبات ، وهو معنى حسن يؤيده الجمع والقرن بين النجم والشجر وإن كان ربها أوهم سبق ذكر الشمس والقمر كون المراد بالنجم هو الكواكب .

وسجود النجم والشجر انقيادها للأمر الإلهي بالنشوء والنمو على حسب ما قدر لها كما قيل ، وأدق منه أنها يضربان في التراب باصولها وأعراقها لجذب ما يحتاجان إليه من المواد العنصرية التي يفتديان بها وهذا السقوط على الأرض إظهاراً للحاجة إلى المبدأ الذي يقضي حاجتهما - وهو في الحقيقة الله الذي يربيهما كذلك - سجود منهما له تعالى .

والكلام في إعراب قوله : « والنجم والشجر يسجدان » وهو معطوف على الآية السابقة كالكلام في قوله : « الشمس والقمر بحسبان » والتقدير والنجم والشجر يسجدان له .

قال في الكشف : فإن قلت : كيف اتصل هاتان الجملتان بالرحمان يعني قوله : « الشمس والقمر - إلى قوله - يسجدان » ؟ قلت : استغني فيها عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسابانه والسجود له لا لغيره .

وقال في وجه إخلاء الآيات السابقة - خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان - عن العاطف ما محصله أن هذه الجمل الأولى واردة على سنن التعديد ليكون كل

واحدة من الجمل مستقلة في تفريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه فيقال : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه ؟

ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيث في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالمعطف فقيل : « والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها » الخ ، انتهى .

قوله تعالى : « والسماء رفعها ووضع الميزان » المراد بالسماء إن كان جهة العلو فرفعها خلقها مرفوعة لا رفعها بعد خلقها وإن كان ما في جهة العلو من الأجرام فرفعها تقدير محالها بحيث تكون مرفوعة بالنسبة إلى الأرض بالفتق بعد الرتق كما قال تعالى : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » الأنبياء : ٣٠ ، والرفع على أي حال رفع حسي .

وإن كان المراد ما يشمل منازل الملائكة الكرام ومصادر الأمر الإلهي والوحي فالرفع معنوي أو ما يشمل الحسي والمعنوي .

وقوله : « ووضع الميزان » المراد بالميزان كل ما يوزن أي يقدر به الشيء أعم من أن يكون عقيدة أو قولاً أو فعلاً ومن مصاديقه الميزان الذي يوزن به الأثقال ، قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » الحديد : ٢٥ .

فظاهره مطلق ما يميز به الحق من الباطل والصدق من الكذب والعدل من الظلم والفضيلة من الرذيلة على ما هو شأن الرسول أن يأتي به من عند ربه .

وقيل : المراد بالميزان العدل أي وضع الله العدل بينكم لتسوّوا به بين الأشياء بإعطاء كل ذي حق حقه .

وقيل : المراد الميزان الذي يوزن به الأثقال والمعنى الأول أوسع وأشمل .

قوله تعالى : « ألا تظفروا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » الظاهر أن المراد بالميزان الميزان المعروف وهو ميزان الأثقال ، فقوله : « ألا تظفروا » الخ على تقدير أن يراد بالميزان في الآية السابقة أيضاً ميزان الأثقال ، وهو بيان وضع الميزان ، والمعنى أن معنى وضعنا الميزان بينكم هو أن اعدلوا في وزن الأثقال ولا تظفروا فيه .

وعلى تقدير أن يراد به مطلق التقدير الحق أو العدل هو استخراج حكم جزئي من حكم كلي ، والمعنى أن لازم ما وضعناه من التقدير الحق أو العدل بينكم هو أن تزونا الأثقال بالقسط ولا تطفوا فيه .

وعلى أي حال الظاهر أن « أن » في قوله : « أن لا تطفوا » تفسيرية ، و « لا تطفوا » نهي عن الطغيان في الميزان و « أقيموا الوزن بالقسط » أمر معطوف عليه ، والقسط العدل و « لا تخسروا الميزان » نهي آخر مبين لقوله : « لا تطفوا » النخ ، ومؤكده . والاختصار في الميزان التطفيف به بزيادة أو نقصان بحيث يخسر البائع أو المشتري .

وأما جعل « أن » ناصبة و « لا تطفوا » نفية ، والتقدير : لئلا تطفوا ، فيحتاج إلى تكلف توجيه في عطف الإنشاء على الإخبار في قوله : « وأقيموا الوزن » النخ .

قوله تعالى : « والأرض وضعها للأنام » الأنام الناس ، وقيل : الإنس والجن ، وقيل : كل ما يدب على الأرض ، وفي التعبير في الأرض بالوضع قبالة التعبير في السماء بالرفع لطف ظاهر .

قوله تعالى : « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » المراد بالفاكهة الثمرة غير التمر ، والأكمام جمع كم بضم الكاف وكسرها وعاء التمر وهو الطلع ، وأما كم القميص فهو مضموم الكاف لا غير كما قيل .

قوله تعالى : « والحب ذو العصف والريحان » معطوف على قوله : « فاكهة » أي وفيها الحب والريحان ، والحب ما يقتات به كالحنطة والشعير والارز ، والعصف ما هو كالغلاف للحب وهو قشره ، وفتر بورق الزرع مطلقاً وبورق الزرع اليابس ، والريحان النبات الطيب الرائحة .

قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة .

والخطاب في الآية لعامة الثقلين : الجن والإنس ويدل على ذلك توجيه الخطاب إليهما صريحاً فيما سيأتي من قوله : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » وقوله : « يا معشر الجن والإنس » النخ ، وقوله : « يرسل عليكم شواظ » النخ ، فلا يصغى إلى قول من قال : إن الخطاب في الآية للذكر والأنثى من بني آدم ، ولا إلى قول من قال : إنه من خطاب الواحد بخطاب الإثنين ويفيد تكرار الخطاب نحو يا شرطي اضرباً عنقه أي اضرب عنقه اضرب عنقه .

وتوجيه الخطاب إلى عالمي الجن والإنس هو المصحح لعدم ما سذكروه من شذائد يوم

القيامة وعقوبات المجرمين من أهل النار من آلائه ونعمه تعالى ، فإن سوق المسيئين وأهل الشقوة في نظام الكون إلى ما تقتضيه شقوتهم ومجازاتهم بتبعات أعمالهم من لوازم صلاح النظام العام الجاري في الكل الحاكم على الجميع فذلك نعمة بالقياس إلى الكل وإن كانت نقمة بالنسبة إلى طائفة خاصة منهم وهم المجرمون وهذا نظير ما نجد في السنن والقوانين الجارية في المجتمعات فإن التشديد على أهل البغي والفساد مما يتوقف عليه حياة المجتمع وبقاؤه وليس يتنعم به أهل الصلاح خاصة كما أن إثابة أهل الصلاح بالثناء الجميل والأجر الحسن كذلك .

فما في النار من عذاب وعقاب لأهلها وما في الجنة من كرامة وثواب آلاء ونعم على معشر الجن والإنس كما أن الشمس والقمر والسماء المرفوعة والأرض الموضوعة والنجم والشجر وغيرها آلاء ونعم على أهل الدنيا .

ويظهر من الآية أن للجن تنعماً في الجملة بهذه النعم المعدودة في خلال الآيات كما للإنس وإلا لم يصح إشراكهم مع الإنس في التوبيخ .

قوله تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » الصلصال الطين اليابس الذي يتردد منه الصوت إذا وطئ ، والفخار الخزف . والمراد بالإنسان نوعه والمراد بخلق من صلصال كالفخار انتهاء خلقه إليه ، وقيل : المراد بالإنسان آدم عليه السلام .

قوله تعالى : « وخلق الجن من مارج من نار » المارج هو اللهب الخالص من النار ، وقيل : اللهب المختلط بسواد ، والكلام في الجن كالكلام في الإنسان فالمراد به نوع الجن ، وعدم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقهم إليها ، وقيل : المراد بالجن أبو الجن .

قوله تعالى : « رب المشرقين ورب المغربين » المراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ، وبذلك تحصل الفصول الأربعة وتنتظم الأرزاق ، وقيل : المراد بالمشرقين مشرق الشمس والقمر وبالمغربين مغرباهما .

قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » المرج الخلط والمرج الإرسال ، يقال : مرجه أي خلطه ومرجه أي أرسله والمعنى الأول أظهر ، والظاهر أن المراد بالبحرين العذب الفرات والملح الأجاج ، قال تعالى : « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية

تلبسونها ، فاطر : ١٢ .

وأمثل ما قيل في الآيتين أن المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذي يغمر قريباً من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من البحار المحيطة وغير المحيطة ، والبحر العذب المدخر في مخازن الأرض التي تنفجر الأرض عنها فتجري العيون والأنهار الكبيرة فتصب في البحر المالح ، ولا يزالان يلتقيان ، وبينهما حاجز وهو نفس المخازن الأرضية والمجري يحجز البحر المالح أن يبغي على البحر العذب فيغشيه ويبدله بمرأ مالحاً وتبطل بذلك الحياة ، ويحجز البحر العذب أن يزيد في الانصباب على البحر المالح فيبدله ماء عذباً فتبطل بذلك مصلحة مملوخته من تطهير الهواء وغيره .

ولا يزال البحر المالح يمد البحر العذب بالأمطار التي تأخذها منه السحب فتطر على الأرض وتدخرها المخازن الأرضية والبحر العذب يمد البحر المالح بالانصباب عليه .
فمعنى الآيتين - والله أعلم - خلط البحرين العذب الفرات والملح الاجاج حال كونها مستمرين في تلاقيهما بينهما حاجز لا يطفيان بأن يغمر أحدهما الآخر فيذهب بصفته من العذوبة والملوحة فيختل نظام الحياة والبقاء .

قوله تعالى : « يخرج منها اللؤلؤ والمرجان » أي من البحرين العذب والمالح جميعاً وذلك من فوائدهما التي ينتفع بها الإنسان ، وقد تقدم فيه الكلام في تفسير قوله تعالى : « وما يستوي البحران » الآية ، فاطر : ١٢ .

قوله تعالى : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » الجواري جمع جارية وهي السفينة ، والمنشآت اسم مفعول من الإنشاء وهو إحداث الشيء وتربيته ، والأعلام جمع علم بفتحين وهو الجبل .

وعدة الجواري مملوكة له تعالى مع كونها من صنع الإنسان لأن الأسباب العامة في إنشائها من خشب وحديد وسائر أجزائها التي تتركب منها والإنسان الذي يركبها وشعوره وفكره وإرادته كل ذلك مخلوق له ومملوك فما ينتجه عملها من ملكه .
فهو تعالى المنعم بها للإنسان ألهمه طريق صنعها والمنافع المترتبة عليها وسبيل الانتفاع بمنافعها الجمّة .

قوله تعالى : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ضمير « عليها » للأرض أي كل ذي شعور وعقل على الأرض سيفنى وفيه تسجيل الزوال والدثور على الثقليين .

وإنما أتى باللفظ الدال على أولي العقل - كل من عليها - ولم يقل : كل ما عليها كذلك لأن الكلام مسرود في السورة لتعداد نعمه وآلائه تعالى للثقلين في نشأتهم الدنيا والآخرة .

وظهور قوله : « فأن » في الاستقبال كما يستفاد أيضاً من السياق يعطي أن قوله : « كل من عليها فأن » يشير إلى انقطاع أمد النشأة الدنيا وارتفاع حكمها بفناء من عليها وهم الثقلان وطلوع النشأة الأخرى عليهم ، وكلاهما أعني فناء من عليها وطلوع نشأة الجزاء عليهم من النعم والآلاء لأن الحياة الدنيا حياة مقدمة لغرض الآخرة والانتقال من المقدمة إلى الغرض والغاية نعمة .

وبذلك يندفع قول من قال : أي نعمة في الفناء حتى يجعل من النعم ويعد من الآلاء . ومحصل الجواب أن حقيقة هذا الفناء الرجوع إلى الله بالانتقال من الدنيا كما تفسره آيات كثيرة في كلامه تعالى وليس هو الفناء المطلق .

وقوله : « ويبقى وجه ربك » وجه الشيء ما يستقبل به غيره ويقصده به غيره ، وهو فيه سبحانه صفاته الكريمة التي تتوسط بينه وبين خلقه فتنزل بها عليهم البركات من خلق وتدبير كالعلم والقدرة والسمع والبصر والرحمة والمغفرة والرزق وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام مبسوط في كون أسمائه وصفاته تعالى وسائط بينه وبين خلقه .

وقوله : « ذو الجلال والإكرام » في الجلال شيء من معنى الاعتلاء والترفع المعنوي على الغير فيناسب من الصفات ما فيه شائبة الدفع والمنع كالعلو والتعالي والمهظمة والكبرياء والتكبر والإحاطة والعزة والغلبة .

ويبقى للإكرام من المعنى ما فيه نعت البهاء والحسن الذي يجذب الغير ويؤتله كالعلم والقدرة والحياة والرحمة والجود والجمال والحسن ونحوها وتسمى صفات الجمال كما تسمى القسم الأول صفات الجلال وتسمى الأسماء أيضاً على حسب ما فيها من صفات الجمال أو الجلال بأسماء الجمال أو الجلال .

فدو الجلال والإكرام اسم من الأسماء الحسنى جامع بمفهومه بين أسماء الجمال وأسماء الجلال جميعاً .

والمسمى به بالحقيقة هو الذات المقدسة كما في قوله في آخر السورة : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » لكن أجري في هذه الآية - ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام -

على الوجه ، وهو إما لكونه وصفاً مقطوعاً عن الوصفية للمدح ، والتقدير هو ذو الجلال والإكرام ، وإما لأن المراد بالوجه كما تقدم هو صفته الكريمة واسمه المقدس وإجراء الاسم على الاسم مآله إلى إجراء الاسم على الذات .

ومعنى الآية على تقدير أن يراد بالوجه ما يستقبل به الشيء غيره وهو الاسم - ومن المعلوم أن بقاء الاسم ^(١) فرع بقاء المسمى - : ويبقى ربك عز اسمه بمآله من الجلال والإكرام من غير أن يؤثر فناؤهم فيه أثراً أو يُغيّر منه شيئاً .

وعلى تقدير أن يراد بالوجه ما يقصده به غيره ومصداقه كل ما ينتسب إليه تعالى فيكون مقصوداً بنحو التوجه إليه كأنبيائه وأوليائه ودينه وثوابه وقربه وسائر ما هو من هذا القبيل فالمعنى : ويبقى بعد فناء أهل الدنيا ما هو عنده تعالى وهو من صقعه وناحيته كأنواع الجزاء والثواب والقرب منه ، قال تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » النحل : ٩٦ .

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » القصص : ٨٨ من الكلام بعض ما لا يخلو من نفع في المقام .

قوله تعالى : « يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن » سؤالهم سؤال حاجة فهم في حاجة من جميع جهاتهم إليه تعالى متعلقوا الوجودات به متمسكون بذيل غناه وجوده ، قال تعالى : « أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني » فاطر : ١٥ ، وقال في هذا المعنى من السؤال : « وآتاكم من كل ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ .

وقوله : « كل يوم هو في شأن » تنكير « شأن » للدلالة على التفرق والاختلاف فالمعنى : كل يوم هو تعالى في شأن غير ما في سابقه ولاحقه من الشأن فلا يتكرر فعل من أفعاله مرتين ولا يماثل شأن من شؤنه شأن آخر من جميع الجهات وإنما يفعل على غير مثال سابق وهو الإبداع ، قال تعالى : « بديع السماوات والأرض » البقرة : ١١٧ .

ومعنى ظرفية اليوم إحاطته تعالى في مقام الفعل على الأشياء فهو سبحانه في كل زمان وليس في زمان وفي كل مكان وليس في مكان ومع كل شيء ولا يداني شيئاً .

(١) المراد بالاسم ما يحكى عنه الاسم اللفظي دون اللفظ الحاكي .

(بحث روائي)

في الكافي روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : لما قرأ رسول الله ﷺ
الرحمان على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : الجن كانوا أحسن
جواباً منكم لما قرأت عليهم « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قالوا : لا ولا بشيء من آلاء
ربنا نكذب .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع - وصححه -
عن ابن عمر عنه ﷺ .

وفي العميون بإسناده عن الرضا عليه السلام فيما سأل الشامي عليه السلام ، وفيه : سأله عن
اسم أبي الجن فقال : شومان وهو الذي خلق من مارج من نار .
وفي الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث وأما قوله : « رب المشرقين ورب المغربين »
فإن مشرق الشتاء على حدة ومشرق الصيف على حدة . أما تعرف ذلك من قرب
الشمس وبعدها ؟

أقول : وروى هذا المعنى القمي في تفسيره مرسل مضمراً .
وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « مرج البحرين يلتقيان »
قال : علي وفاطمة « بينهما برزخ لا يبغيان » قال : النبي ﷺ « يخرج منها اللؤلؤ والمرجان »
قال : الحسن والحسين .

أقول : ورواه أيضاً عن ابن مردويه عن أنس بن مالك مثله ، ورواه في مجمع البيان
عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري . وهو من البطن .
وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « كل من عليها فان » قال : من على وجه الأرض
« ويبقى وجه ربك » قال : دين ربك ، وقال علي بن الحسين عليه السلام : نحن الوجه الذي
يؤتى الله منه .

وفي مناقب ابن شهر آشوب قوله : « ويبقى وجه ربك » قال الصادق عليه السلام : نحن
وجه الله .

أقول : وفي معنى هاتين الروایتين غيرها ، وقد تقدم ما يوجه به تفسير الوجه
بالدين وبالإمام .

وفي الكافي في خطبة لعلي عليه السلام : الحمد لله الذي لا يموت ولا ينقضي عجائبه لأنه كل يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن .

وفي تفسير القمي في الآية قال : يحيي ويميت ويزيد وينقص .

وفي المجمع عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « كل يوم هو في شأن » قال : من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين .

أقول : ورواه عنه في الدر المنثور ، وروى ما في معناه عن ابن عمر عنه رضي الله عنهما ولفظه يغفر ذنباً ويفرج كرباً .

* * *

سَنَفَرُغُ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ - ٣١ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٣٢ .

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ - ٣٣ . فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٣٤ . يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا

تَنْتَصِرَانِ - ٣٥ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٣٦ . فَإِذَا أَنْشَقَّتِ

السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ - ٣٧ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٣٨ .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ - ٣٩ . فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٤٠ . يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّئِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي

وَالْأَقْدَامِ - ٤١ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٤٢ . هَذِهِ جَهَنَّمُ

الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ - ٤٣ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ

آنِ - ٤٤ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٤٥ . وَلِمَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ - ٤٦ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٤٧ .
 ذَوَاتَا أَفْئَانٍ - ٤٨ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٤٩ . فِيهِمَا
 عِْنَانٍ تَجْرِيَانِ - ٥٠ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٥١ . فِيهِمَا
 مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ - ٥٢ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٥٣ .
 مُتَكِيَيْنَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ - ٥٤ .
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٥٥ . فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ
 يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ - ٥٦ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٥٧ .
 كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ - ٥٨ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٥٩ .
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ - ٦٠ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ - ٦١ . وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ - ٦٢ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ - ٦٣ . مُدْهَامَتَانِ - ٦٤ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٦٥ .
 فِيهِمَا عِْنَانٍ نَضَّاخَتَانِ - ٦٦ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٦٧ .
 فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ - ٦٨ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٦٩ .
 فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ - ٧٠ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٧١ .
 حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ - ٧٢ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ - ٧٣ .
 لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ - ٧٤ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ - ٧٥ . مُتَكِيَيْنَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ - ٧٦ .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٧٧ . تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ — ٧٨ .

(بَيَان)

هذا هو الفصل الثاني من آيات السورة يصف نشأة الثقلين الثانية وهي نشأة الرجوع إلى الله وجزاء الأعمال ويعدّ آلاء الله تعالى عليهم كما كانت الآيات السابقة فصلاً أولاً يصف النشأة الأولى ويعدّ آلاء الله فيها عليهم .

قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » يقال : فرغ فلان لأمر كذا إذا كان مشغولاً قبلاً بأمور ثم تركها وقصر الاشتغال بذاك الأمر اهتماماً به .

فمعنى « سنفرغ لكم » سنطوي بساط النشأة الأولى ونشتغل بكم ، وتبين الآيات التالية أن المراد بالاشتغال بهم بعثهم وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم خيراً أو شراً فالفراغ لهم استعارة بالكناية عن تبدل النشأة .

ولا ينافي الفراغ لهم كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن فإن الفراغ المذكور ناظر إلى تبدل النشأة وكونه لا يشغله شأن عن شأن ناظر إلى إطلاق القدرة وسعتها كما لا ينافي كونه تعالى كل يوم هو في شأن الناظر إلى اختلاف الشؤون كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن .

والثقلان الجن والإنس ، وإرجاع ضمير الجمع في « لكم » و « إن استطعتم » وغيرها إليها لكونها جمعاً ذا أفراد .

قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » النخ ، الخطاب — على ما يفيد السياق — من خطابات يوم القيامة وهو خطاب تعجيزي .

والمراد بالاستطاعة القدرة ، وبالنفوذ من الأقطار الفرار ، والأقطار جمع قطر وهو الناحية .

والمنعنى : يا معشر الجن والإنس — وقدم الجن لأنهم على الحركات السريعة أقدر — إن قدرتم أن تفروا بالنفوذ من نواحي السماوات والأرض والخروج من ملك الله والتخلص من مؤاخذته ففروا وانفذوا .

وقوله : « لا تنفذون إلا بسلطان » أي لا تقدرّون على النفوذ إلا بنوع من السلطة على ذلك وليس لكم والسلطان القدرة الوجودية ، والسلطان البرهان أو مطلق الحجة ، والسلطان الملك .

وقيل : المراد بالنفوذ المنفي في الآية النفوذ العلمي في السماوات والأرض من أقطارهما ، وقد عرفت أن السياق لا يلائمه .

قوله تعالى : « يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » الشواظ - على ما ذكره الراغب - اللهب الذي لا دخان فيه ، ويقرب منه ما في المجمع أنه اللهب الأخضر المنقطع من النار ، والنحاس الدخان وقال الراغب : هو اللهب بلا دخان والمعنى ظاهر . وقوله : « فلا تنتصران » أي لا تقتصران بأن ينصر بعضكم بعضاً لرفع البلاء والتخلص عن العناء لسقوط تأثير الأسباب ولا عاصم اليوم من الله .

قوله تعالى : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » أي كانت حمراء كالدهان وهو الأديم الأحمر .

قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » الآية وما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة تصف الحساب والجزاء تصف حال المجرمين والخائفين مقام ربهم وما ينتهي إليه .

ثم الآية تصف سرعة الحساب وقد قال تعالى : « والله سريع الحساب » النور : ٣٩ . والمراد بيومئذ يوم القيامة ، والسؤال المنفي هو النحو المألوف من السؤال ، ولا ينافي نفي السؤال في هذه الآية إثباته في قوله : « وقفهم إنهم مسؤولون » الصافات : ٢٤ ، وقوله : « فوريك لنسألنهم أجمعين » الحجر : ٩٢ ، لأن اليوم ذو مواقف مختلفة يسأل في بعضها ، ويختم على الأفواه في بعضها وتكلم الأعضاء ، ويعرف بالسيئات في بعضها .

قوله تعالى : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » في مقام الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : فإذا لم يسألوا عن ذنبهم فما يصنع بهم ؟ فاجيب بأنه يعرف المجرمون بسيماهم الخ ، ولذا فصلت الجملة ولم يعطف ، والمراد بسيماهم علامتهم البارزة في وجوههم .

وقوله : « فيؤخذ بالنواصي والأقدام » الكلام متفرع على المعرفة المذكورة ، والنواصي

جمع ناصية وهي شعر مقدم الرأس ، والأقدام جمع قدم ، وقوله : « بالنواصي » نائب فاعل يؤخذ .

والمعنى : - لا يسأل أحد عن ذنبه - يعرف المجرمون بعلامتهم الظاهرة في وجوههم فيؤخذ بالنواصي والأقدام من المجرمين فيلقون في النار .

قوله تعالى : « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون - إلى قوله - آن » مقول قول مقدر أي يقال يومئذ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، وقال الطبرسي : ويمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي والأقدام قال للنبي ﷺ : هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها فليهن عليك أمرهم . انتهى .
والحميم الماء الحار ، والآني الذي انتهت حرارته والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » شروع في وصف حال السعداء من الخائفين مقام ربهم ، والمقام مصدر مبني بمعنى القيام مضاف إلى فاعله ، والمراد قيامه تعالى عليه بعمله وهو إحاطته تعالى وعلمه بما عمله وحفظه له وجزاؤه عليه قال تعالى : « أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ .

ويمكن أن يكون المقام اسم مكان والإضافة لامية والمراد به مقامه وموقفه تعالى من عبده وهو أنه تعالى ربه الذي يدبر أمره ومن تدبير أمره أنه دعاه بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح وقضى أن يجازيه على ما عمل خيراً أو شراً هذا وهو محيط به وهو معه سميع بما يقول بصير بما يعمل لطيف خبير .

والخوف من الله تعالى ربما كان خوفاً من عقابه تعالى على الكفر به ومعصيته ، ولازمه أن يكون عبادة من يعبده خوفاً بهذا المعنى يراد بها التخلص من العقاب لا لوجه الله محضاً وهو عبادة العبيد يعبدون مواليهم خوفاً من السياسة كما أن عبادة من يعبده طمعاً في الثواب غايتها الفوز بما تشتهي النفس دون وجه الكريم وهي عبادة التجار كما في الروايات وقد تقدم شطر منها .

والخوف المذكور في الآية - ولمن خاف مقام ربه - ظاهره غير هذا الخوف فإن هذا خوف من العقاب وهو غير الخوف من قيامه تعالى على عبده بما عمل أو الخوف من مقامه تعالى من عبده فهو تآثر خاص بمن ليس له إلا الصغار والحقارة تجاه ساحة العظمة والكبرياء ، وظهور أثر المذلة والهوان والاندكاك قبال العزة والجبروت المطلقين .

وعبادته تعالى خوفاً منه بهذا المعنى من الخوف خضوع له تعالى لأنه الله ذو الجلال والإكرام لا الخوف من عقابه ولا طمعاً في ثوابه بل فيه إخلاص العمل لوجهه الكريم ، وهذا المعنى من الخوف هو الذي وصف الله به المكرمين من ملائكته وهم معصومون آمنون من عقاب المخالفة وتبعة المعصية قال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم » النحل : ٥٠ . فتبين مما تقدم أن الذين أشار إليهم بقوله : « ولمن خاف » أهل الإخلاص الخاضعون لجلاله تعالى العابدون له لأنه الله عز اسمه لا خوفاً من عقابه ولا طمعاً في ثوابه ، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين سموا سابقين في قوله : « وكنتم أزواجاً ثلاثة » - إلى أن قال - والسابقون السابقون أولئك المقربون ، الواقعة : ١١ .

وقوله : « جنتان » قيل : إحداهما منزله ومحل زيارة أحبائه له والآخرى منزل أزواجه وخدمه ، وقيل : بستانان بستان داخل قصره وبستان خارجه ، وقيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر ليكمل به التذادة ، وقيل : جنة لعقيدته وجنة لعمله ، وقيل : جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي ، وقيل : جنة جسمانية وجنة روحانية وهذه الأقوال - كما ترى - لا دليل على شيء منها .

وقيل : جنة يثاب بها وجنة يتفضل بها عليه ، ويمكن أن يستشعر ذلك من قوله تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ ، على ما مر في تفسيره .

قوله تعالى : « ذواتا أفنان » ذواتا ثنية ذات ، و « أفنان » إما جمع فن بمعنى النوع والمعنى : ذواتا أنواع من الثمار ونحوها ، وإما جمع فنن بمعنى الغصن الرطب اللين والمعنى : ذواتا أغصان لينة أشجارها .

قوله تعالى : « فيها غينان تجريان » وقد أبهمت الغينان وفيه دلالة على فخامة أمرهما . قوله تعالى : « فيها من كل فاكهة زوجان » أي صنفان قيل : صنف معروف لهم شاهدوه في الدنيا وصنف غير معروف لم يروه في الدنيا ، وقيل : غير ذلك ، ولا دلالة في الكلام على شيء من ذلك .

قوله تعالى : « متكئين على فرش بطائنها من استبرق » الخ ، الفرش جمع فراش ، والبطائن جمع بطانة وهي داخل الشيء وجوفه مقابل الظواهر جمع ظهارة ، والاستبرق الحرير الغليظ قال في المجمع : ذكر البطانة ولم يذكر الظهارة لأن البطانة تدل على أن لها ظهارة والبطانة دون الظهارة فدل على أن الظهارة فوق الاستبرق ، انتهى .

وقوله : « وجنا الجنة دان » الجنا الثمر المجتنى و « دان » اسم فاعل من الدنوّ بمعنى القرب أي ما يجتنى من ثمار الجنة قريب .

قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف » إلى آخر الآية ضمير « فيهن » للفرش وجوز أن يرجع إلى الجنان فإنها جنان لكل واحد من أولياء الله منها جنتان ، والطرف جفن العين ، والمراد بقصور الطرف اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يردن غيرهم .

وقوله : « لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان » الطمئث الافتضاض والنكاح بالتدسية ، والمعنى : لم يمسهن بالنكاح إنس ولا جان قبل أزواجهن .

قوله تعالى : « كأنهن الياقوت والمرجان » أي في صفاء اللون والبهاء والتلألؤ .

قوله تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » استفهام إنكاري في مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجنة وما فيها من أنواع النعم والآلاء فيفيد أنه تعالى يحسن إليهم هذا الإحسان جزاء لإحسانهم بالخوف من مقام ربهم .

وتفيد الآية أن ما أوتوه من الجنة ونعيمها جزاء لأعمالهم وأما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلاً وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض في هذه الآيات لذلك إلا أن يقال : الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن إليه فإطلاق الإحسان في قوله : « إلا الإحسان » يفيد الزيادة .

قوله تعالى : « ومن دونها جنتان » ضمير التثنية للجنتين الموصوفتين في الآيات السابقة ومعنى : « من دونها » أي أنزل درجة وأحط فضلاً وشرفاً منها وإن كانتا شبيهتين بالجنتين السابقتين في نعمهما وآلاتهما ، وقد تقدم أن الجنتين السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنتان لمن دونهم من المؤمنين العابدين لله سبحانه خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة وهم أصحاب اليمين .

وقيل : معنى « من دونها » بالقرب منها ، ويستفاد من السياق حينئذ أن هاتين الجنتين أيضاً لأهل الجنتين المذكورتين قبلاً بل ادعى بعضهم أن هاتين الجنتين أفضل من السابقتين والصفات المذكورة فيها أمدح .

رأيت بالتدبر فيما قدمناه في معنى لمن خاف مقام ربه وما يستفاد من كلامه تعالى أن أهل الجنة صنفان : المقربون أهل الإخلاص وأصحاب اليمين تعرف قوة الوجه السابق .

قوله تعالى : «مدهامتان» الادهيام من الدهمة اشتداد الحضرة بحيث تضرب إلى السواد وهو ابتهاج الشجرة .

قوله تعالى : « فيها عينان نضاختان » أي فوارتان تخرجان من منبعها بالدفع .
قوله تعالى : « فيها فاكهة ونخل ورمان » المراد بالفاكهة والرمان شجرتيها بقريئة النخل .

قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان » ضمير « فيهن » للجنات باعتبار أنها جنتان من هاتين الجنتين ، وقيل : مرجع الضمير الجنات الأربع المذكورة في الآيات ، وقيل : الضمير للفاكهة والنخل والرمان .

وأكثر ما يستعمل الخير في المعاني كما أن أكثر استعمال الحسن في الصور ، وعلى هذا فمعنى خيرات حسان أنهم حسان في أخلاقهم حسان في وجوههم .

قوله تعالى : « حور مقصورات في الخيام » الخيام جمع خيمة وهي القسطنط ، وكونهن مقصورات في الخيام أنهن مصونات غير مبتذلات لا نصيب لغير أزواجهن فيهن .
قوله تعالى : « لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان » تقدم معناه .

قوله تعالى : « متكئين على رفرف خضر » وعبقري حسان في الصحاح : الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المجالس . انتهى . وقيل : هي الوسائد ، وقيل : غير ذلك ، والخضر جمع أخضر صفة لرفرف ، والعبقري قيل : الزرابي ، وقيل : الطنافس ، وقيل : الثياب الموشاة ، وقيل : الديباج .

قوله تعالى : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » ثناء جميل له تعالى بما امتلأت النشأتان الدنيا والآخرة بنعمه وآلائه وبركاته النازلة من عنده برحمته الواسعة ، وبذلك يظهر أن المراد باسمه المتبارك هو الرحمان المفتحة به السورة ، والتبارك كثرة الخيرات والبركات الصادرة .

فقوله : « تبارك اسم ربك » تبارك الله المسمى بالرحمان بما أفاض هذه الآلاء .
وقوله : « ذي الجلال والإكرام » إشارة إلى تسميته بأسمائه الحسنی واتصافه بما يدل عليه من المعاني الوصفية ونموت الجلال والجمال ، ولصفات الفاعل ظهور في أفعاله وأثر فيها يرتبط به الفعل بفاعله فهو تعالى خلق الخلق ونظم النظام لأنه بديع خالق مبدئ فأتقن الفعل لأنه عليم حكيم وجازى أهل الطاعة بالخير لأنه ودود شكور غفور رحيم

وأهل الفسق بالشر لأنه منتقم شديد العقاب .
فتوصيف الرب - الذي أثنى على سعة رحمته - بذني الجلال والإكرام للإشارة إلى أن
لأسمائه الحسنى وصفاته العلياً دخلاً في نزول البركات والخيرات من عنده ، وأن نعمه
وآلاءه عليها طابع أسمائه الحسنى وصفاته العلياً تبارك وتعالى .

(بحث روائي)

في الجمع : وقد جاء في الخبر : يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون :
« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم - إلى قوله - يرسل عليكم شواظ من نار » .

أقول : وروى هذا المعنى عن مسعدة بن صدقة عن كليب عن أبي عبد الله عليه السلام .
وفي الكافي بإسناده عن داود الرقي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل :
« ولمن خاف مقام ربه جنتان » قال : من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل
من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الأصول
والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه
عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فقلت :
« أو إن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الثانية « ولمن خاف مقام ربه
جنتان » فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال : نعم وإن رغم أنف أبي الدرداء .

أقول : الرواية لا تخلو من شيء فإن الخوف من مقامه تعالى لا يجمع هذه الكبائر
الموبقة ، وقد روي عن أبي الدرداء نفسه ما يدفع هذه الرواية ففي الدر المنثور أخرج
ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء في قوله : « ولمن خاف
مقام ربه جنتان » قال : قيل : يا أبا الدرداء وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام
ربه لم يزن ولم يسرق .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « قاصرات الطرف » قال : الحور العين يقصر الطرف
عنها من ضوء نورها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله : « قاصرات الطرف » قال : لا ينظرن إلا إلى أزواجهن .
وفي المجمع في قوله تعالى : « كأنهن الياقوت والمرجان » في الحديث أن المرأة من أهل الجنة يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة من حرير .

أقول : وهذا المعنى وارد في عدة روايات .

وفي تفسير العيسائي بإسناده عن علي بن سالم قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : آية في كتاب الله مسجلة . قلت : وما هي ؟ قال : قول الله عز وجل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » جرى في الكافر والمؤمن والبر والفاجر ، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به ، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يربي فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء .

وفي المجمع في قوله : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » جاءت الرواية من أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال : هل تدرون ما يقول ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن ربكم يقول : هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة ؟ وفي تفسير القمي في الآية قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالمعرفة إلا الجنة .

أقول : الرواية مروية عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام وقد أسندها في التوحيد إلى جعفر بن محمد عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ - ولفظها - إن الله عز وجل قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة وأسندها في العلل إلى الحسن ابن علي عليها السلام عن النبي ﷺ - واللفظ - هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة ؟

وروى الرواية بألفاظها المختلفة في الدر المنثور بطرق مختلفة عن النبي ﷺ وقوله : أنعمت عليه ، إشارة إلى أن إحسان العبد بالحقيقة إحسان من الله إليه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ومن دونها جنتان » عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام قلت له : إن الناس يتعجبون منا إذا قلنا : يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة فيقولون لنا فيكونون مع أولياء الله في الجنة ؟ فقال يا علي إن الله يقول : « ومن دونها جنتان » ما يكونون مع أولياء الله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي ﷺ في قوله : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وقوله : « ومن دونها جنتان » قال : جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .

أقول : والروايتان تؤيدان ما قدمناه في تفسير الآيتين .
وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال : سألت النبي ﷺ عن قوله : « مدهامتان » قال : خضراوان .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « نضاختان » قال : تفوران .

وفيه في قوله : « فيهن خيرات حسان » قال : جوار ثابتات على شط الكوثر كلما أخذت منها نبتت مكانها أخرى .

وفي الجمع في قوله : « خيرات حسان » أي نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه .
روته أم سلمة عن النبي ﷺ .

وفي الفقيه قال الصادق عليه السلام : الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا ومن أجل من الحور العين .

وفي روضة الكافي بإسناده عن الحلبي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « فيهن خيرات حسان » قال : هن صوالح المؤمنات العارفات .

أقول : وفي انطباق الآية بالنظر إلى سياقها على مورد الروايتين إيهام .

* * *

(سورة الواقعة مكية ، وهي ست وتسعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ — ١ . لَيْسَ
لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ — ٢ . خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ — ٣ . إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ
رَجًّا — ٤ . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا — ٥ . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا — ٦ .

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً - ٧ . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ - ٨ .
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ - ٩ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ - ١٠ .

(بَيَان)

تصف السورة القيامة الكبرى التي فيها بعث الناس وحسابهم وجزاؤهم فتذكر أولاً شيئاً من أهوالها مما يقرب من الإنسان والأرض التي يسكنها فتذكر تقليبها للأوضاع والأحوال بالخفض والرفع وارتجاج الأرض وانبثاث الجبال وتقسيم الناس إلى ثلاثة أزواج إجمالاً ثم تذكر ما ينتهي إليه حال كل من الأزواج السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال .

ثم تحتج على أصحاب الشمال المنكرين لربوبيته والبعث المكذبين بالقرآن الداعي إلى التوحيد والإيمان بالبعث . ثم تختم الكلام بذكر الاحتضار بنزول الموت وانقسام الناس إلى ثلاثة أزواج .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « إذا وقعت الواقعة » وقوع الحادثة هو حدوثها ، والواقعة صفة توصف بها كل حادثة ، والمراد بها هنا واقعة القيامة وقد أطلقت إطلاقاً كأنها لا تحتاج إلى موصوف مقدر ولذا قيل : إنها من أسماء القيامة في القرآن كالحاقة والقارعة والغاشية . والجملة « إذا وقعت الواقعة » مضمنة معنى الشرط ولم يذكر جزاء الشرط إعظماً له وتفخيماً لأمره وهو على أي حال أمر مفهوم مما ستصفه السورة من حال الناس يوم القيامة ، والتقدير نحو من قولنا : فاز المؤمنون وخسر الكافرون .

قوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبة » قال في الجمع : الكاذبة مصدر كالعافية والعاقبة . انتهى . وعليه فالمعنى : ليس في وقوعها وتحققها كذب ، وقيل : كاذبة صفة محذوفة الموصوف والتقدير : ليس لوقعتها قضية كاذبة .

قوله تعالى : « خافضة رافعة » خبران مبتدأهما الضمير الراجع إلى الواقعة ، والخفض خلاف الرفع وكونها خافضة رافعة كناية عن تقليبها نظام الدنيا المشهود فتظهر السرائر

وهي محجوبة اليوم وتحجب وتستتر آثار الأسباب وروابطها وهي ظاهرة اليوم وتذل الأعزّة من أهل الكفر والفسق وتعزّ المتقين .

قوله تعالى : « إذا رُجَّت الأرض رجاً » الرجّ تحريك الشيء تحريكاً شديداً إشارة إلى زلزلة الساعة التي يعظمها الله سبحانه في قوله : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » الحج : ١ ، وقد عظمها في هذه الآية حيث عبّر عنها برجّ الأرض ثم أكد شدتها بتنكير قوله : « رجاً » أي رجاً لا يوصف شدته . والجملة بدل أو بيان لقوله : « إذا وقعت الواقعة » .

قوله تعالى : « وُبِست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً » عطف على « رُجّت » والبسّ الفتّ وهو عود الجسم بدق ونحوه أجزاء صفاراً متلاشية كاللدقيق ، وقيل : البس هو التسيير فهو في معنى قوله : « وُسيّرت الجبال » النبأ : ٢٠ .

وقوله : « فكانت هباء منبثاً » الهباء قيل : هو الغبار وقيل : هو الذرّة من الغبار الظاهر في شعاع الشمس الداخل من كوة ، والانبثاث التفرق ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وكنتم أزواجاً ثلاثة » الزوج بمعنى الصنف والخطاب لعامة البشر . قوله تعالى : « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة » متفرع على ما قبلها تفرع البيان على المبين ، فهذه الآية والآيتان بعدها بيان للأزواج الثلاثة .

والميمنة من اليمن مقابل الشؤم ، فأصحاب الميمنة أصحاب السعادة واليمن مقابل أصحاب المشأمة أصحاب الشقاء والشؤم ، وما قيل : إن المراد بالميمنة اليمن ، أي ناحية اليمن لأنهم يؤتون كتابهم بيمينهم وغيرهم يؤتونه بشمالهم يرده مقابلة أصحاب الميمنة بأصحاب المشأمة ، ولو كان كما قيل لقيل لأصحاب الشمال وهو ظاهر .

وما في قوله : « ما أصحاب الميمنة » استفهامية ومبتدأ خبره « أصحاب الميمنة » ، والمجموع خبر لقوله : « وأصحاب الميمنة » وفي الاستفهام إعظام لأمرهم وتفخيم لشأنهم .

قوله تعالى : « وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » المشأمة مصدر كالشؤم مقابل اليمن ، والميمنة والمشأمة السعادة والشقاء .

قوله تعالى : « والسابقون السابقون » الذي يصلح أن يفسر به السابقون الأول قوله تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » فاطر : ٣٢ ، وقوله : « ولكل وجهة هو موليّها فاستبقوا الخيرات » البقرة : ١٤٨ ، وقوله : « أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » المؤمنون : ٦١ .

فالمراد بالسابقين - الأول - في الآية السابقون بالخيرات من الأعمال ، وإذا سبقوا بالخيرات سبقوا إلى المغفرة والرحمة التي بإزائها كما قال تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة » الحديد : ٢١ ، فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمة وهو قوله : « والسابقون السابقون » .

وقيل : المراد بالسابقون الثاني هو الأول على حد قوله :

أنا أبو النجم وشعري شعري .

وقوله : « والسابقون السابقون » مبتدأ وخبر ، وقيل : الأول مبتدأ والثاني تأكيد ، والخبر قوله : « أولئك المقربون » .

ولهم في تفسير السابقين أقوال أخر ف قيل : هم المسارعون إلى كل ما دعا الله اليه ، وقيل : هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة من غير توان ، وقيل : هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم مقدموا أهل الأديان ، وقيل : هم مؤمن آل فرعون وحبيب النجار المذكور في سورة يس وعلي عليه السلام السابق إلى الإيثار بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أفضلهم ، وقيل : هم السابقون إلى الهجرة ، وقيل : هم السابقون إلى الصلوات الخمس ، وقيل : هم الذين صلوا إلى القبلتين ، وقيل : هم السابقون إلى الجهاد ، وقيل غير ذلك .

والقولان الأولان راجعان إلى ما تقدم من المعنى ، والثالث والرابع ينبغي أن يحملا على التمثيل ، والباقي كما ترى إلا أن يحمل على نحو من التمثيل .

(بحث روائي)

في الحُصَال عن الزهري قال : سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول : من لم يتمزّ بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله ما الدنيا والآخرة إلا ككفتي ميزان فأيهما رجح ذهب بالآخر ثم تلا قوله عز وجل : « إذا وقعت الواقعة » يعني القيامة « ليس لوقعتها كاذبة خافضة » خفضت والله بأعداء الله في النار « رافعة » رفعت والله أولياء الله إلى الجنة .

وفي تفسير القمي « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » قال : القيامة هي حق ، وقوله : « خافضة » قال : بأعداء الله « رافعة » لأولياء الله « إذا رجّت الأرض رجاً »

قال : يدق بعضها على بعض « وبست الجبال بساً » قال : قلعت الجبال قلماً « فكانت هباء منبثاً » قال : الهباء الذي في الكوّة من شعاع الشمس .

وقوله : « وكنتم أزواجاً ثلاثة » . قال : يوم القيامة « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون » الذين سبقوا إلى الجنة . أقول : قوله : الذين سبقوا إلى الجنة تفسير للسابقون الثاني .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال : الهباء المنبث رهب (١) الذرات والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوّة . وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « والسابقون السابقون » قال : نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار الذي ذكر في يس وعلي بن أبي طالب ، كل رجل منهم سابق أمته وعلي أفضلهم سبقاً .

وفي المجمع عن أبي جعفر عليه السلام قال : السابقون أربعة : ابن آدم المقتول ، وسابق أمة موسى وهو مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب ، والسابق في أمة محمد صلى الله عليه وآله وهو علي بن أبي طالب عليه السلام .

أقول : وروى هذا المعنى في روضة الواعظين عن الصادق عليه السلام .

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن قول الله عز وجل : « والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم » فقال : قال لي جبرئيل : ذلك علي وشيعته ، هم السابقون إلى الجنة المقربون من الله بكرامته لهم .

وفي كمال الدين بإسناده إلى خيثمة الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : ونحن السابقون السابقون ونحن الآخرون .

وفي العميون في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة بإسناده عن علي عليه السلام قال : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » في نزلت .

وفي المجمع في الآية : وقيل : إلى الصلوات الخمس . عن علي عليه السلام .

أقول : الوجه حمل جميع هذه الأخبار على التمثيل كما تقدم .

(١) الرهب بفتح الحاء وبفتح فسكون ما أثير من الغبار .

* * *

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ - ١١ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ - ١٢ . ثَلَاثَةٌ مِّنَ
الْأَوَّلِينَ - ١٣ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ - ١٤ . عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ - ١٥ .
مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ - ١٦ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ - ١٧ .
بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ - ١٨ . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا
يُنْزَفُونَ - ١٩ . وَفَاكِهَةٍ ثَمَّاءٍ يَنْخَبِرُونَ - ٢٠ . وَلَحْمٍ طَيْرٍ ثَمَّاءٍ
يَشْتَبِهُونَ - ٢١ . وَحُورٌ عِينٌ - ٢٢ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ - ٢٣ .
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ٢٤ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا - ٢٥ .
إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا - ٢٦ . وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ - ٢٧ .
فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ - ٢٨ . وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ - ٢٩ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ - ٣٠ .
وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ - ٣١ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ - ٣٢ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا
مَمْنُوعَةٍ - ٣٣ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ - ٣٤ . إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً - ٣٥ .
فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا - ٣٦ . غُرُبًا أَتْرَابًا - ٣٧ . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ - ٣٨ .
ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ - ٣٩ . وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ - ٤٠ . وَأَصْحَابُ
الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ - ٤١ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ - ٤٢ . وَظِلٍّ مِّنْ
يَحْمُومٍ - ٤٣ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ - ٤٤ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ
مُتْرَفِينَ - ٤٥ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ - ٤٦ . وَكَانُوا

يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ۖ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ — ٤٧ . أَوَّابُونَ
 الْأَوَّلُونَ — ٤٨ . قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ — ٤٩ . لَمَجْمُوعُونَ
 إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ — ٥٠ . ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهْيَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ — ٥١ .
 لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ — ٥٢ . قَالُوا لَنْ مِّنْهَا الْبُطُونُ — ٥٣ .
 فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ — ٥٤ . فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهَلِيمِ — ٥٥ .
 هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ — ٥٦ .

(بيان)

الآيات تفصل ما ينتهي اليه حال كل واحد من الأزواج الثلاثة يوم القيامة .
 قوله تعالى : « أولئك المقربون في جنات النعيم » الإشارة بأولئك إلى السابقين ،
 و « أولئك المقربون » مبتدأ وخبر ، والجملة استثنائية ، وقيل : خبر لقوله : « والسابقون » ،
 وقيل : مبتدأ خبره في جنات النعيم ، وأول الوجوه الثلاثة أوجه بالنظر إلى سياق تقسيم
 الناس إلى ثلاثة أزواج أولاً ثم تفصيل ما ينتهي اليه أمر كل منهم .

والقرب والبعد معنيان متضائفان تتصف بهما الأجسام بحسب النسبة المكانية ثم توسع
 فيها فاعتبرا في غير المكان من الزمان ونحوه ، يقال : الغد قريب من اليوم والأربعة أقرب
 إلى الثلاثة من الخمسة ، والخضرة أقرب إلى السواد من البياض ثم توسع فيها فاعتبرا في غير
 الأجسام والجنسيات من الحقائق .

وقد اعتبر القرب وصفاً له تعالى بما له من الإحاطة بكل شيء ، قال تعالى : « وإذا
 سألك عبادي عني فإني قريب » البقرة : ١٨٦ ، وقال : « ونحن أقرب إليه منكم » الواقعة :
 ٨٥ ، وقال : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ق : ١٦ . وهذا المعنى أعني كونه
 تعالى أقرب إلى الشيء من نفسه أعجب ما يتصور من معنى القرب ، وقد أشرنا إلى تصويره
 في تفسير الآية .

واعتبر القرب أيضاً وصفاً للعباد في مرحلة العبودية ولما كان أمراً اكتسابياً يستعمل فيه لفظ التقرب فالعبد يتقرب بصالح العمل إلى الله سبحانه وهو وقوعه في معرض شمول الرحمة الإلهية بزوال أسباب الشقاء والحرمان، والله سبحانه يقرب العبد بمعنى إنزاله منزلة يختص بنيل ما لا يناله من دونه من إكرامه تعالى ومغفرته ورحمته، قال تعالى: «كتاب مرقوم يشهده المقربون» المطففين: ٢١، وقال: «ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون» المطففين: ٢٨.

فالمقربون هم النمط الأعلى من أهل السعادة كما يشير إليه قوله: «والسابقون السابقون أولئك المقربون» ولا يتم ذلك إلا بكمال العبودية كما قال: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون» النساء: ١٧٢، ولا تكمل العبودية إلا بأن يكون العبد تبعاً محضاً في إرادته وعمله لمولاه لا يريد ولا يعمل إلا ما يريد. وهذا هو الدخول تحت ولاية الله فهو لاء هم أولياء الله.

وقوله: «في جنات النعيم» أي كل واحد منهم في جنة النعيم فالكل في جنات النعيم، ويمكن أن يراد به أن كلا منهم في جنات النعيم لكن يبعده قوله في آخر السورة: «فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم».

وقد تقدم غير مرة أن النعيم هي الولاية وأن جنة النعيم هي جنة الولاية وهو المناسب لما تقدم آنفاً أن المقربين هم أهل ولاية الله.

قوله تعالى: «ثلة من الأولين وقليل من الآخرين» الثلة - على ما قيل - الجماعة الكثيرة، والمراد بالأولين الأمم الماضية للأنبياء السابقين، وبالآخرين هذه الأمة على ما هو المعمود من كلامه تعالى في كل موضع ذكر فيه الأولين والآخرين معاً ومنها ما سيأتي من قوله: «إنا لمبعوثون أو آباءنا الأولون قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» فمعنى الآيتين: هم أي المقربون جماعة كثيرة من الأمم الماضية وقليل من هذه الأمة. وبما تقدم يظهر أن قول بعضهم: إن المراد بالأولين والآخرين أولوا هذه الأمة وآخرها غير سديد.

قوله تعالى: «على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين» الوضن النسج وقيل: نسج الدرع وإطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجها.

وقوله: «متكئين عليها» حال من الضمير العائد إلى المقربين والضمير للسرر، وقوله:

« متقابلين » حال آخر منه أو من ضمير « متكئين » وتقابلهم كناية عن بلوغ انهم وحسن عشرتهم وصفاء باطنهم فلا ينظرون في قفاء صاحبهم ولا يميونونه ولا يفتابونه .
والمعنى : هم أي المقربون مستقرون على سرر منسوجة حال كونهم متكئين عليها حال كونهم متقابلين .

قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون » الولدان جمع ولد وهو الفلام ، وطوافهم عليهم كناية عن خدمتهم لهم ، والمخلدون من الخلود بمعنى الدوام أي باقون أبداً على هيئتهم من حداثة السن ، وقيل من الخلد بفتح الحاء وهو القرط ، والمراد أنهم مقرطون بالخلد .
قوله تعالى : « بأكواب وأباريق وكأس من معين » الأكواب جمع كوب وهو الإناء الذي لا عروة له ولا خرطوم ، والأباريق جمع إبريق وهو الإناء الذي له خرطوم ، وقيل : عروة وخرطوم معاً ، والكأس معروف ، قيل : أفرد الكأس لأنها لا تسمى كأساً إلا إذا كانت بمتلثة ، والمراد بالمعين الخمر المعين وهو الظاهر للبصر الجاري .

قوله تعالى : « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » أي لا يأخذهم صداد لأجل خمار يحصل من الخمر كما في خمر الدنيا ولا يزول عقلهم بالسكر الحاصل منها .

قوله تعالى : « وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون » الفاكهة والطير معطوفان على قوله : « بأكواب » ، والمعنى : يطوف عليهم الولدان بفاكهة مما يختارون وبلحم طير مما يشتهون .

ولا يستشكل بها ورد في الروايات أن أهل الجنة إذا اشتهاوا فاكهة تدلى اليهم غصن شجرتها بها لها من ثمرة فيتناولونها ، وإذا اشتهاوا لحم طير وقع مقلباً مشوياً في أيديهم فياً كانوا منها ما أرادوا ثم حيي وطار .

وذلك لأن لهم ما شاؤوا ومن فنون التمتع تناول ما يريدونه من أيدي خدمهم وخاصة حال اجتماعهم واحتفالهم كما أن من فنونه تناولهم أنفسهم من غير توسيط خدمهم فيه .
قوله تعالى : « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » مبتدأ محذوف الخبر على ما يفيد السياق والتقدير ولهم حور عين أو وفيها حور عين والخور العين نساء الجنة وقد تقدم معنى الخور العين في تفسير سورة الدخان .

وقوله : « كأمثال اللؤلؤ المكنون » أي اللؤلؤ المصون المخزون في الصدف لم تمتد الأيدي فهو منته في صفاته .

قوله تعالى : «جزاء بما كانوا يعملون» قيد لجميع ما تقدم وهو مفعول له ، والمعنى : فعلنا بهم ما فعلنا ليكون جزاء لهم قبال ما كانوا يستمرون عليه من العمل الصالح .
قوله تعالى : «لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً» اللغو من القول ما لا فائدة فيه ولا أثر يترتب عليه ، والتأثيم النسبة إلى الإثم أي لا يخاطب أحدهم صاحبه بما لا فائدة فيه ولا ينسب إليه الإثم إذ لا إثم هناك ، وفسر بعضهم التأثيم بالكذب .

قوله تعالى : «إلا قليلاً سلاماً سلاماً» استثناء منقطع من اللغو والتأثيم ، والقييل مصدر كالقول ، و«سلاماً» بيان لقوله : «قليلاً» وتكراره يفيد تكرار الوقوع ، والمعنى : إلا قولاً هو السلام بعد السلام .

قيل : ويمكن أن يكون «سلاماً» مصدرأ بمعنى الوصف وصفة لقيلاً ، والمعنى : إلا قولاً هو سالم .

قوله تعالى : «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين» شروع في تفصيل ما انتهى إليه حال أصحاب الميمنة وفي تبديله من أصحاب اليمين يعلم أن أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة واحد وهم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم . والجملة استفهامية مسوقة لتفخيم أمرهم والتعجيب من حالهم وهي خبر لقوله : «وأصحاب اليمين» .

قوله تعالى : «في سدر منضود» السدر شجرة النبق ، والمنضود ما قطع شوكه فلا شوك له .

قوله تعالى : «وطلح منضود» الطلح شجر الموز ، وقيل : ليس بالموز بل شجر له ظل بارد رطب ، وقيل : شجرة ام غيلان لها أنوار طيبة الرائحة ، ونضد الأشياء جعل بعضها على بعض ، والمعنى : وفي شجر موز منضود الثمر بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه .

قوله تعالى : «وظل ممدود وماء مسكوب» قيل : الممدود من الظل هو الدائم الذي لا تنسخه شمس فهو باق لا يزول ، والماء المسكوب هو المصبوب الجاري من غير انقطاع .

قوله تعالى : «وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة» أي لا مقطوعة في بعض الأزمان كانقطاع الفواكه في شتاء ونحوه في الدنيا ، ولا ممنوعة التناول لما منع من قبل أنفسهم كسامة أو شبع أو من خارج كبعد المكان أو شوكه تمنع القطف أو غير ذلك .

قوله تعالى : «وفرش مرفوعة» الفرش جمع فراش وهو البساط ، والمرفوعة العالية ، وقيل : المراد بالفرش المرفوعة النساء المرتفعات قدراً في عقولهن وجالهن وكماهن والمرأة

تسمى فراشاً ، ويناسب هذا المعنى قوله بعد : « إنا أنشأناهم إنشاءً » الخ .
 قوله تعالى : « إنا أنشأناهم إنشاءً فجعلناهم أبكاراً عرباً أتراباً » أي إنا أوجدناهم
 وأحدثناهم وربيناهم إحداثاً وتربية خاصة ، وفيه تلويح إلى أنهم لا يختلف حالهم
 بالشباب والشيب وصباحة المنظر وخلافها ، وقوله : « فجعلناهم أبكاراً » أي خلقناهم
 عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً .

وقوله : « عرباً أتراباً » العرب جمع عروب وهي المنحننة إلى زوجها أو الفنجة أو
 العاشقة لزوجها ، والأتراب جمع ترب بالكسر فالسكون بمعنى المثل أي إنهن أمثال أو
 أمثال في السن لأزواجهن .

قوله تعالى : « لأصحاب اليمين ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين » يتضح معناه بما تقدم ،
 ويستفاد من الآيات أن أصحاب اليمين في الآخرين جمع كثير كالأولين لكن السابقين
 المقربين في الآخرين أقل جمعاً منهم في الأولين .

قوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للتعجب
 والتهويل ، وقد بدّل أصحاب المشأمة من أصحاب الشمال إشارة إلى أنهم الذين يؤتون
 كتابهم بشهادتهم كما مرّ نظيره في أصحاب اليمين .

قوله تعالى : « في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم » السموم - على ما
 في الكشف - حر نار ينفذ في المسام ، والحميم الماء الشديد الحرارة ، والتنوين فيها لتعظيم
 الأمر ، واليحموم الدخان الأسود ، وقوله : « لا بارد ولا كريم » الظاهر أنها صفتان
 للظل لا ليحموم ، وذلك أن الظل هو الذي يتوقع منه أن يتبرّد بالاستغلال به ويستراح
 فيه دون الدخان .

قوله تعالى : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » تعليل لاستقرار أصحاب الشمال في العذاب ،
 والإشارة بذلك إلى ما ذكر من عذابهم يوم القيامة ، وإتراف النعمة الإنسان بإطارها
 وإطغائها له ، وذلك إشغالها نفسه بحيث يفغل عما وراءها فكون الإنسان مترفاً تعلقه
 بما عنده من نعم الدنيا وما يطلبه منها سواء كانت كثيرة أو قليلة .

فلا يرد ما استشكل من أن كثيراً من أصحاب الشمال ليسوا من المترفين بمعنى المتوسعين
 في التمتع وذلك أن الإنسان محفوف بنعم ربه وليست النعمة هي المال فحسب فاشتغاله
 بنعم ربه عن ربه ترفه منه ، والمعنى : أننا إنما نعذبهم بما ذكر لأنهم كانوا قبل ذلك في

الدنيا بطرين طاعين بالنعيم .

قوله تعالى : « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » في الجمع : الحنث نقض العهد المؤكد بالخلف ، والإصرار أن يقيم عليه فلا يقلع عنه . انتهى . ولعل المستفاد من السياق أن إصرارهم على الحنث العظيم هو استكبارهم عن عبودية ربهم التي عاهدوا الله عليها بحسب فطرتهم وأخذ منهم الميثاق عليها في عالم الذر فيطيعون غير ربهم وهو الشرك المطلق .
وقيل : الحنث الذنب العظيم فتوصيفه بالعظيم مبالغته والحنث العظيم الشرك بالله ، وقيل : الحنث العظيم جنس المعاصي الكبيرة ، وقيل : هو القسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » النحل : ٣٨ ، ولفظ الآية مطلق .

قوله تعالى : « وكانوا يقولون ، إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ، إنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » قول منهم مبني على الاستبعاد ولذا أكدوا استبعاد بعث أنفسهم ببعث آبائهم لأن الاستبعاد في موردهم أكد ، والتقدير أو آباؤنا الأولون مبعوثون .

قوله تعالى : « قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يحيب عن استبعادهم البعث بتقريره ثم إخبارهم عما يعيشون به يوم البعث من طعام وشراب وهما الزقوم والحميم .
ومحصل القول أن الأولين والآخرين - من غير فرق بينهم لا كما فرقوا فجعلوا بعث أنفسهم مستبعداً وبعث آبائهم الأولين أشد استبعاداً وأكد - لمجموعون محشورين إلى ميقات يوم معلوم .

والميقات ما وقت به الشيء وهو وقته المعين ، والمراد بيوم معلوم يوم القيامة المعلوم عند الله فإضافة الميقات إلى يوم معلوم ببيان .

قوله تعالى : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون » من تمام كلام النبي ﷺ يخبرهم عما ينتهي إليه حالهم يوم القيامة ويعيشون به من طعام وشراب .

وفي خطابهم بالضالين المكذبين إشارة إلى ملاك شقائهم وخسرانهم يوم البعث وهو ضلالتهم عن طريق الحق واستقرار ذلك في نفوسهم باستمرارهم على تكذيبهم وإصرارهم على الحنث ، ولو كانوا ضالين فحسب من غير تكذيب لكان من المرجو أن ينجوا ولا يهلك

و « من » في قوله : « من شجر » للابتداء ، وفي قوله : « من زقوم » بيانية ويحتمل أن يكون « من زقوم » بدلاً من « من شجر » ، وضمير « منها » للشجر أو الشمر وكل منهما يؤنث ويذكر ولذا جيء ههنا بضمير التأنيث وفي الآية التالية في قوله : « فشاربون عليه » بضمير التذكير ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فشاربون عليه من الهيم فشاربون شرب الهيم » كلمة « على » للاستعلاء وتفسيره في المورد كون الشرب عقيب الأكل من غير ريث ، والهيم جمع هيماء الإبل التي أصابها الهيام بضم الهاء وهو داء شبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب الماء حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً ، وقيل : الهيم الرمال التي لا تروى بالماء .

والمعنى : فشاربون عقيب ما أكلتم من الزقوم من الماء الشديد الحرارة فشاربون كشارب الإبل الهيم أو كشارب الرمال الهيم وهذا آخر ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم .

قوله تعالى : « هذا نزلهم يوم الدين » أي يوم الجزاء والنزل ما يقدم للضيف النازل من طعام وشراب إكراماً له ، والمعنى : هذا الذي ذكر من طعامهم وشرابهم هو نزل الضالين المكذبين ففي تسمية ما أعد لهم بالنزل نوع تهكم ، والآية من كلامه تعالى خطاباً للنبي ﷺ ، ولو كان من كلام النبي ﷺ خطاباً لهم لقليل : هذا نزلكم .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت إذا وقعت الواقعة ذكر فيها « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » قال عمر : يا رسول الله ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، فقال رسول الله ﷺ : تعمال واستمع ما قد أنزل الله : « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » .

ألا وإن من آدم إلى ثلة وأمتي ثلة ولن نستكمل ثلثنا حتى نستعين بالسودان رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . قال السيوطي : وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة بن رويم مرسلًا .

وفيه أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة قال لما نزلت « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » حزن أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : إذن لا يكون من أمة محمد إلا قليل

فنزلت نصف النهار « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » تقابلون الناس فنسخت الآية « وقليل من الآخرين » .

أقول : قال في الكشف في تفسير الآية : فإن قلت : فقد روي أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه حتى نزلت « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » .

قلت : هذا لا يصح لأمرين : أحدهما : أن هذه الآية واردة في السابقين وروداً ظاهراً وكذلك الثانية في أصحاب اليمين ، ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم ؟ الثاني : أن النسخ في الأخبار غير جائز . انتهى .

وأجيب عنه بأنه يمكن أن يحمل الحديث على أن الصحابة لما سمعوا الآية الأولى حسبوا أن الأمر في هذه الأمة يذهب على هذا النهج فيكون أصحاب اليمين ثلة من الأولين وقليلاً منهم فيكون الفائزون بالجنة في هذه الأمة أقل منهم في الأمم السالفة فنزلت « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » فزال حزنهم ، ومعنى نسخ الآية السابقة إزالة حسابهم المذكور . وأنت خير بأنه حمل على ما لا دليل عليه من جهة اللفظ واللفظ يأباه وخاصة حمل نسخ الآية على إزالة الحساب ، وحال الرواية الأولى وخاصة من جهة ذيلها كحال هذه الرواية .

وفي الجمع في قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون » اختلف في هذه الولدان فقيل : إنهم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيُعاقبوا عليها فانزلوا هذه المنزلة .

قال : وقد روي عن النبي ﷺ أنه سُئل عن أطفال المشركين ؟ فقال : هم خدم أهل الجنة .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن الحسن ، والرواية ضعيفة لا تعويل عليها . وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهي فيخره بين يديك مشوياً .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة وفي بعضها أن المؤمن يأكل ما يشتهي ثم يعود الباقي إلى ما كان عليه ويحيا فيطير إلى مكانه ويباهي بذلك .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً » قال : الفحش والكذب والغنا .

أقول : لعل المراد بالغنا ما يكون منه لغواً أو الغنا مصحّف الجنّا .

وفيه في قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » قال : علي بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه شيعة .

أقول : الرواية مبنية على ما ورد في ذيل قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه » أسرى : ٧١ ، أن اليمين هو الإمام الحق ومعناها أن اليمين هو علي عليه السلام وأصحاب اليمين شيعة ، والرواية من الجري .

وفيه في قوله تعالى : « في سدر مخضود » شجر لا يكون له ورق ولا شوك فيه ، وقرأ أبو عبد الله عليه السلام : « وطلع منضود » قال : بعضه على بعض .

وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي أمامة قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومساثلهم . أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها . فقال رسول الله ﷺ : وما هي ؟ قال : السدر فإن لها شوكاً ، فقال رسول الله ﷺ : أليس يقول الله : « في سدر مخضود » يخضده الله من شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرة إنها تنبت ثمراً تفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر .

وفي الجمع : وروى العامة عن علي عليه السلام أنه قرأ رجل عنده « وطلع منضود » فقال : ما شأن الطلع إنما هو « وطلع » كقوله : « ونخل طلعها مضيم » ف قيل له : ألا تغيره ؟ قال : إن القرآن لا يُهاج اليوم ولا يُحرّك ، رواه عنه ابنه الحسن عليه السلام وقيس ابن سعد .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والفارابي وهنّاد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله : « وطلع منضود » قال : هو الموز .

وفي الجمع ورد في الخبر أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها قرؤاً إن شتم « وظل ممدود » وروي أيضاً أن أوقات الجنة كغدوات الصيف لا يكون فيها حر ولا برد .

أقول : وروى الأول في الدر المنثور عن أبي سعيد وأنس وغيرهما عن النبي ﷺ .
وفي روضة الكافي بإسناده عن علي بن إبراهيم عن ابن محبوب عن محمد بن إسحاق المدني
عن أبي جعفر عليه السلام عن النبي ﷺ في حديث يصف فيه الجنة وأهلها : ويزور بعضهم
بعضاً ويتنعمون في جناتهم في ظل ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس
وأطيب من ذلك .

وفي تفسير القمي : وقوله : « إنا أنشأناهم إنشاء » قال : الحور العين في الجنة « فجعلناهم
أبكاراً عرباً » قال : لا يتكلمون إلا بالعربية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال رسول الله
ﷺ في قوله : « عرباً » قال : كلامهن عربي .

أقول : وفيه روايات أخر أن عرباً جمع عروب وهي الغنجة .

وفيه أخرج مسدد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي
بكرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » قال : هما جميعاً
من هذه الامة .

أقول : وهذا المعنى مروى في غير واحد من الروايات لكن ظاهر آيات السورة أن
القسم لكافة البشر لا لهذه الامة خاصة ، ولعل المراد من هذه الروايات بيان بعض
المصاديق وإن كان بعيداً ، وكذا المراد مما ورد أن أصحاب اليمين أصحاب أمير المؤمنين
عليه السلام ، وما ورد أن أصحاب الشمال أعداء آل محمد عليهم السلام .

وفي المحاسن بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سأله عن
الشرب بنفس واحد فكرمه وقال : ذلك شرب الهيم . قلت : وما الهيم ؟ قال : الإبل .
وفيه بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يكره أن يتشبه به الهيم . قلت :
وما الهيم ؟ قال : الرمل .

أقول : والمعنيان جميعاً واردان في روايات أخر .

* * *

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ - ٥٧ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ - ٥٨ .

٥٩ . أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ . نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ أَمْوَاتَ
 وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ — ٦٠ . عَلَى أَنْ نَبْدِلَ أَثْمَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا
 لَا تَعْلَمُونَ — ٦١ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ — ٦٢ .
 أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ — ٦٣ . أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ — ٦٤ .
 لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ — ٦٥ . إِنَّا لَمَغْرُمُونَ — ٦٦ .
 بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ — ٦٧ . أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ — ٦٨ .
 أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ — ٦٩ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
 أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ — ٧٠ . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ — ٧١ .
 أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ — ٧٢ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا
 وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ — ٧٣ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ — ٧٤ . فَلَا
 أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ — ٧٥ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ — ٧٦ .
 إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ — ٧٧ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ — ٧٨ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا
 الْمُطَهَّرُونَ — ٧٩ . تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ — ٨٠ . أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ
 أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ — ٨١ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ — ٨٢ .
 فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ — ٨٣ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ — ٨٤ .
 وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ — ٨٥ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ
 غَيْرَ مَدِينِينَ — ٨٦ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ — ٨٧ . فَأَمَّا إِنْ

كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ - ٨٨ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ - ٨٩ .
وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ - ٩٠ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ - ٩١ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ - ٩٢ . فَنُزُلٌ
مِّنْ نَّحِيمٍ - ٩٣ . وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ - ٩٤ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ - ٩٥ .
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ - ٩٦ .

(بيان)

لما فصل سبحانه القول فيما ينتهي اليه حال كل من الأزواج الثلاثة ففصل حال أصحاب الشمال وأن الذي ساقهم إلى ذلك نقضهم عهد العبودية وتكذيبهم للبعث والجزاء وأمر نبيه ﷺ أن يرد عليهم بتقرير البعث والجزاء وبيان ما يحزون به يوم البعث .
وبتخهم على تكذيبهم بالمعاد مع أن الذي يخبرهم به هو خالفهم الذي يدبر أمرهم ويقدر لهم الموت ثم الإنشاء فهو يعلم ما يجري عليهم مدى وجودهم وما ينتهي اليه حالهم ومع أن الكتاب الذي ينبئهم بالمعاد هو قرآن كريم مصون من أن يلعب به أيدي الشياطين وأولياؤهم المضللين .

ثم يعيد الكلام إلى ما بدىء به من حال الأزواج الثلاثة ويذكر أن اختلاف أحوال الأقسام يأخذ من حين الموت وبذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » السياق سياق الكلام في البعث والجزاء وقد أنكروه وكذبوا به ، فقوله : « فلولا تصدقون » تحضيض على تصديق حديث المعاد وترك التكذيب به ، وقد علله بقوله : « نحن خلقناكم » كما يستفاد من التفريع الذي في قوله : « فلولا تصدقون » .

وإيجاب خلقه تعالى لهم وجوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين : أحدهما : أنه تعالى خلقهم أول مرة فهو قادر على إعادة خلقهم ثانياً كما قال : « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » يس : ٧٩ .

وثانيها : أنه تعالى لما كان هو خالقهم وهو المدبر لأمرهم المقدر لهم خصوصيات خلقهم وأمرهم فهو أعلم بما يفعل بهم وسيجري عليهم فإذا أنبأهم بأنه سيبعثهم بعد موتهم ويحزيهم بما عملوا إن خيراً وإن شراً لم يكن بدءاً من تصديقه فلا عذر لمن كذب بما أخبر به كتابه من البعث والجزاء ، قال تعالى : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » الملك : ١٤ ، وقال : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » الأنبياء : ١٠٤ ، وقال : « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً » النساء : ١٢٢ .

فمحصل الآية : نحن خلقناكم ونعلم ما فعلنا وما سنعمل بكم فنخبركم أننا سنبعثكم ونحزيكم بما عملتم فهلاً تصدقون بما نخبركم به فيما أنزلناه من الكتاب . وفي الآية وما يتلوها من الآيات التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن السياق سياق التوبيخ والمعاتبه وذلك بالخطاب أوقع وآكد .

قوله تعالى : « أفرايتم ما تمنون » الإماء قذف المني وصبه والمراد قذفه وصبه في الأرحام ، والمعنى : أفرايتم المني الذي تصبونه في أرحام النساء . قوله تعالى : « أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » أي ، أنتم تخلقونه بشراً مثلكم أم نحن خالقوه بشراً .

قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين » تدبير أمر الخلق بجميع شؤنه وخصوصياته من لوازم الخلق بمعنى إفاضة الوجود فوجود الإنسان المحدود بأول كينونته إلى آخر لحظة من حياته الدنيا بجميع خصوصياته التي تتحول عليه بتقدير من خالقه عز وجل . فموته أيضاً كحياته بتقدير منه ، وليس يعتريه الموت لنقص من قدرة خالقه أن يخلقه بحيث لا يعتريه الموت أو من جهة أسباب وعوامل تؤثر فيه بالموت فتبطل الحياة التي أفاضها عليه خالقه تعالى فإن لازم ذلك أن تكون قدرته تعالى محدودة ناقصة وأن يعجزه بعض الأسباب وتغلب إرادته إرادته وهو محال كيف ؟ والقدرة مطلقة والإرادة غير مغلوبة .

ويتبين بذلك أن المراد بقوله : « نحن قدرنا بينكم الموت » أن الموت حق مقدر وليس أمراً يقتضيه ويستلزمه نحو وجود الحي بل هو تعالى قدر له وجوداً كذا ثم موقفاً يعقبه . وأن المراد بقوله : « وما نحن بمسبوقين » - والسبق هو الغلبة والمسبوق المغلوب - واسنا مغلوبين في عروض الموت عن الأسباب المقارنة له بأن نفيض عليكم حياة نريد أن

يدوم ذلك عليكم فيسبقنا الأسباب وتغلبنا فتبطل بالموت الحياة التي كنا نريد دوامها .
قوله تعالى : « على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون » « على » متعلقة بقوله :
 « قدرنا » وجلة الجار والمجرور في موضع الحال أي نحن قدرنا بينكم الموت حال كونه على
 أساس تبديل الأمثال والإنشاء فيما لا تعلمون .

والأمثال جمع مثل بالكسر فالسكون ومثل الشيء ما يتحد معه في نوعه كالفرد من
 الإنسان بالنسبة إلى فرد آخر ، والمراد بقوله : « أن نبدل أمثالكم » أن نبدل أمثالكم
 من البشر منكم أو نبدل أمثالكم مكانكم ، والمعنى على أي حال تبديل جماعة من
 أخرى وجعل الأخلاف مكان الأسلاف .

وقوله : « وننشئكم فيما لا تعلمون » « ما » موصولة والمراد به الخلق والجملة معطوفة
 على « نبدل » والتقدير وعلى أن ننشئكم ونوجدكم في خلق آخر لا تعلمونه وهو الوجود
 الاخروي غير الوجود الدنيوي الفاني .

ومحصل معنى الآيتين أن الموت بينكم إنما هو بتقدير منا لا لنقص في قدرتنا بأن لا
 يتيسر لنا إدامة حياتكم ولا لغلبة الأسباب المهلكة المبيدة وقهرها وتعجزها لنا في حفظ
 حياتكم وإنما قدرناه بينكم على أساس تبديل الأمثال وإذهاب قوم والإتيان بآخرين
 وإنشاء خلق لكم يناسب الحياة الآخرة وراء الخلق الدنيوي الدائر فالموت انتقال من دار
 إلى دار وتبدل خلق إلى خلق آخر وليس بانعدام وفناء .

واحتمل بعضهم أن يكون الأمثال في الآية جمع مثل بفتحيتين وهو الوصف فتكون
 الجملتان « على أن نبدل » الخ ، و « ننشئكم » الخ ، تفيدان معنى واحداً ، والمعنى : على
 أن نغير أوصافكم وننشئكم في وصف لا تعرفونه أو لا تعلمونه كحشركم في صفة الكلب
 أو الخنزير أو غيرها من الحيوان بعد ما كنتم في الدنيا على صفة الإنسان ، والمعنى السابق
 أجمع وأكثر فائدة .

قوله تعالى : « ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون » المراد بالنشأة الاولى نشأة
 الدنيا ، والعلم بها بخصوصياتها يستلزم الإذعان بنشأة أخرى خالدة فيها الجزاء ، فإن من
 المعلوم من النظام الكوني أن لا لغو ولا باطل في الوجود فلهذه النشأة الفانية غاية باقية ،
 وأيضاً من ضروريات هذا النظام هداية كل شيء إلى سعادة نوعه وهداية الإنسان تحتاج
 إلى بعث الرسل وتشريع الشرائع وتوجيه الأمر والنهي ، والجزاء على خير الأعمال وشرها

وليس في الدنيا فهو في دار أخرى وهي النشأة الآخرة (١) .

على أنهم شاهدوا النشأة الأولى وعرفوها وعلموا أن الذي أوجدها عن كتم العدم هو الله سبحانه وإذ قدر عليها أولاً فهو على إيجاد مثلها ثانياً قادر ، قال تعالى : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » يس : ٧٩ ، وهذا برهان على الإمكان يرتفع به استبعادهم للبعث . وبالجملة يحصل لهم بالعلم بالنشأة الأولى علم بمبادئ البرهان على إمكان البعث فيرتفع به استبعاد البعث فلا استبعاد مع الإمكان .

وهذا - كما ترى - برهان على إمكان حشر الأجساد ، محصله أن البدن المحشور مثل البدن الدنيوي وإذ جاز صنع البدن الدنيوي وإحياءه فليجز صنع البدن الآخروي وإحياءه لأنه مثله وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد .

فمن العجيب قول الزنخشري في الكشف في الآية : وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الآخرة بالأولى . انتهى . وذلك لأن الذي في الآية قياس برهاني منطقي والذي يستدل بها عليه قياس فقهي مفيد للظن فأين أحدهما من الآخر ؟ وقال في روح المعاني في الآية : فهلا تتذكرون أن من قدر عليها يعني على النشأة الأولى فهو على النشأة الآخرة أقدر وأقدر فإنها أقل صنماً لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثال ، وهذا على ما قالوا دليل على صحة القياس لكن قيل : لا يدل إلا على قياس الأولى لأنه الذي في الآية . انتهى .

وفيه ما في سابقه . على أن الذي في الآية ليس من قياس الأولى في شيء لأن الجامع بين النشأة الأولى والآخرة أنها مثلان ومبدأ القياس أن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد .

وأما قوله : إن النشأة الآخرة أقل صنماً لحصول المواد وتخصيص الأجزاء ، فهو ممنوع فإن المواد تحتاج إلى إفاضة الوجود بقاء كما تحتاج إليها في حدوثها وأول حصولها ، وكذا تخصص الأجزاء يحتاج إليها بقاء كما تحتاج إليها فالصنع ثانياً كالصنع أولاً .

وأما قوله : وسبق المثال ، فقد خلط بين المثل والمثال فالبدن الآخروي بالنظر إلى نفسه مثل البدن الدنيوي لا على مثاله ولو كان على مثاله كانت الآخرة دنياً لا آخرة .

فان قلت : لو كان البدن الاخروي مثلاً للبدن الدنيوي ومثل الشيء غيره كان الإنسان المعاد في الآخرة غير الإنسان المبتدئ في الدنيا لأنه مثله لا عينه . قلت : قد تقدم في المباحث السابقة غير مرة أن شخصية الإنسان بروحه لا يبدنه ، والروح لا تنعدم بالموت وإنما يفسد البدن وتلاشى أجزاؤه ثم إذا سوي ثانياً مثل ما كان في الدنيا ثم تعلقت به الروح كان الإنسان عين الإنسان الذي في الدنيا كما كان زيد الشائب مثلاً عين زيد الشائب لبقاء الروح على شخصيتها مع تغير البدن لحظة بعد لحظة .

قوله تعالى : « أفرايتم ما تحرثون - إلى قوله - محرومون » بعد ما ذكرهم بكيفية خلق أنفسهم وتقدير الموت بينهم تمهيداً للبعث والجزاء وكل ذلك من لوازم ربوبيته عد لهم أموراً ثلاثة من أهم ما يعيشون به في الدنيا وهي الزرع الذي يقاتون به والماء الذي يشربونه والنار التي يصطلون بها ويتوسلون بها إلى جمل من مآربهم ، وثبت بذلك ربوبيته لهم فليست الربوبية إلا التدبير عن ملك .

فقال : « أفرايتم ما تحرثون » الحرث العمل في الأرض وإلقاء البذر عليها « أنتم تزرعونه » أي تنبتونه وتنمونه حتى يبلغ النضج ، وضمير « تزرعونه » للبذر أو الحرث المعلوم من المقام « أم نحن الزارعون » المنبتون المنمون حتى يكمل زرعاً « لو نشاء لجعلناه حطاماً » أي هشيماً متكسراً متفتتاً « فظلمتم » أي فظلمتم وصرتم « تفكّهون » أي تتمجبون مما أصيب به زرعكم وتتحدثون بما جرى قائلين « إنا لمفرمون » موقعون في الغرامة والخسارة ذهب مالنا وضاع وقتنا وخاب سعينا « بل نحن محرومون » ممنوعون من الرزق والخير .

ولا منافاة بين نفي الزرع عنهم ونسبته إليه تعالى وبين توسط عوامل وأسباب طبيعية في نبات الزرع ونموه فإن الكلام عائد في تأثير هذه الأسباب وصنعها ، وليس نحو تأثيرها باقتضاء من ذاتها منقطعة عنه تعالى بل يجعله ووضعه وموهبته ، وكذا الكلام في أسباب هذه الأسباب ، وينتهي الأمر إلى الله سبحانه وأن إلى ربك المنتهى .

قوله تعالى : « أفرايتم الماء الذي تشربون - إلى قوله - فلولاً تشكرون » المزن السحاب ، وقوله : « فلولاً تشكرون » تحضيض على الشكر ، وشكره تعالى جميل ذكره تعالى على نعمه وهو إظهار عبوديته قولاً وعملاً . والباقي ظاهر . قوله تعالى : « أفرايتم النار التي تورون - إلى قوله - ومناعاً للعقوبين » قال في الجمع :

الإبراء إظهار النار بالقدح ، يقال : أوري يوري ، قال : ويقال : قدح فأوري إذا أظهر فإذا لم يور يقال : قدح فأكبي ، وقال : والمقوي النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد ، وأقوت الدار خلت من أهلها . انتهى . والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » خطاب للنبي ﷺ . لما ذكر سبحانه شواهد ربوبيته لهم وأنه الذي يخلقهم ويدبر أمرهم ومن تدبيره أنه سيبعثهم ويحييهم بأعمالهم وهم مكذبون بذلك أعرض عن خطابهم والتفت إلى خطاب النبي ﷺ إشعاراً بأنهم لا يفقهون القول فأمر النبي ﷺ أن ينزهه تعالى عن إشراكهم به وإنكارهم البعث والجزاء .

فقوله : « فسبح باسم » الخ ، الفاء لتفريع التسبيح على ما تقدم من البيان ، والباء للاستعانة أو الملازمة ، والمعنى : فإذا كان كذلك فسبح مستعيناً بذكر اسم ربك ، أو المراد بالاسم الذكر لأن إطلاق اسم الشيء ذكر له كما قيل أو الباء للتعدية لأن تنزيه اسم الشيء تنزيه له ، والمعنى : نزه اسم ربك من أن تذكر له شريكاً أو تنفي عنه البعث والجزاء ، والعظيم صفة الرب أو الاسم .

قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم » « لا أقسم » قسم وقيل : لا زائدة وأقسم هو القسم ، وقيل : لا نافية وأقسم هو القسم .
و « مواقع » جمع موقع وهو المحل ، والمعنى : أقسم بمحال النجوم من السماء ، وقيل : مواقع جمع موقع مصدر ميمي بمعنى السقوط يشير به إلى سقوط الكواكب يوم القيامة أو وقوع الشهب على الشياطين ، أو مساقط الكواكب في مغاريها ، وأول الوجوه هو السابق إلى الذهن .

قوله تعالى : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » تعظيم لهذا القسم وتأکید على تأکید .
قوله تعالى : « إنه لقرآن كريم » - إلى قوله - من رب العالمين ، لما كان إنكارهم حديث وحدانيته تعالى في ربوبيته وألوهيته وكذا إنكارهم للبعث والجزاء إنما أبدوه بإنكار القرآن النازل على النبي ﷺ الذي فيه نبأ التوحيد والبعث كان إنكارهم منشعباً إلى إنكار أصل التوحيد والبعث أصلاً ، وإلى إنكار ذلك بما أن القرآن ينبئهم به ، فأورد تعالى أولاً بيانا لإثبات أصل الوحدانية والبعث بذكر شواهد من آياته تثبت ذلك وهو قوله : « نحن خلقناكم - إلى قوله - ومتاعاً للقوين » ، وثانياً بياناً يؤكد فيه كون القرآن الكريم كلامه المحفوظ عنده النازل منه ووصفه بأحسن أوصافه .

فقوله : « إنه لقرآن كريم » جواب للقسم السابق ، الضمير للقرآن المعلوم من السياق السابق ويستفاد من توصيفه بالكريم من غير تقييد في مقام المدح أنه كريم على الله عزيز عنده وكريم محمود الصفات وكريم بذال نفع للناس لما فيه من اصول المعارف التي فيها سعادة الدنيا والآخرة .

وقوله : « في كتاب مكنون » وصف ثان للقرآن أي محفوظ مصون عن التغيير والتبديل ، وهو اللوح المحفوظ كما قال تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ .

وقوله : « لا يمسّه إلا المطهرون » صفة الكتاب المكنون ويمكن أن يكون وصفاً ثالثاً للقرآن ومآل الوجهين على تقدير كون لا نافية واحد .

والمعنى : لا يمسّ الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلا المطهرون أو لا يمس القرآن الذي في الكتاب إلا المطهرون .

والكلام على أي حال مسوق لتعظيم أمر القرآن وتجليله فمستله هو العلم به وهو في الكتاب المكنون كما يشير إليه قوله : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وأنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ .

والمطهرون - اسم مفعول من التطهير - هم الذين طهر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب أو مما هو أعظم من ذلك وأدق وهو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى ، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر .

فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام والذين طهرهم الله من البشر ، قال تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » الأحزاب : ٣٣ ، ولا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما عن 'جل' المفسرين لكونه تقييداً من غير مقيّد .

وربما جعل « لا » في « لا يمسّه » نافية ، والمراد بالمس على هذا مس كتابة القرآن ، وبالطهارة الطهارة من الحدث أو الحدث والخبث جميعاً - وقرئ « المطهرون » بتشديد الطاء والهاء وكسر الهاء أي المتطهرون - ومدلول الآية تحريم مس كتابة القرآن على غير طهارة .

ويمكن حمل الآية على هذا المعنى على تقدير كون « لا » نافية بأن تكون الجملة إخباراً أريد به الإنشاء وهو أبلغ من الإنشاء .

قال في الكشف: وإن جعلتها يعني جملة « لا يمسّه إلا المطهرون » صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسّه إلا من هو على الطهارة من الناس يعني مسّ المكتوب منه ، انتهى وقد عرفت صحة أن يراد بالمس العلم والاطلاع على تقدير كونها صفة للقرآن كما يصح على تقدير كونها صفة لكتاب مكنون .

وقوله : « تنزيل من رب العالمين » وصف آخر للقرآن ، والمصدر بمعنى اسم المفعول أي منزل من عند الله اليكم تفهمونه وتعقلونه بعد ما كان في كتاب مكنون لا يمسّه إلا المطهرون . والتعبير عنه تعالى برب العالمين للإشارة إلى أن ربوبيته تعالى منبسطة على جميع العالمين وهم من جملتهم فهو تعالى ربهم وإذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابه ويصفوا لكلامه ويصدقوه من غير تكذيب .

قوله تعالى : « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون » الإشارة بهذا الحديث إلى القرآن ، والإدهان به التهاون به وأصله التلين بالدهن استعير للتهاون ، والاستفهام للتوبيخ يوبخهم تعالى على عدم أمر القرآن هيناً لا يعنى به .

قوله تعالى : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » قيل : المراد بالرزق حظهم من الخير ، والمعنى : وتجعلون حظكم من الخير الذي لكم أن تنالوه بالقرآن أنكم تكذبون به أي تضعونه موضعه ، وقيل : المراد بالرزق القرآن رزقهم الله إياه ، والمعنى : تأخذون التكذيب مكان هذا الرزق الذي رزقتموه ، وقيل : الكلام بحذف مضاف والتقدير : وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون أي وضعتم التكذيب موضع الشكر .

قوله تعالى : « فلولاً إذا بلغت الحلقوم » إلى قوله صادقين ، رجوع إلى أول الكلام بالتفريع على تكذيبهم بأنكم إن كنتم صادقين في نفيكم للبعث مصيبين في تكذيبهم لهذا القرآن الذي يذبّوكم بالبعث رددتم نفس المحتضر التي بلغت الحلقوم إذ لو لم يكن الموت بتقدير من الله كان من الأمور الاتفاقية التي ربما أمكن الاحتيال لدفعها ، فإذا لم تقدرُوا على رجوعها وإعادة الحياة معها فاعلموا أن الموت حق مقدّر من الله لسوق النفوس إلى البعث والجزاء .

فقوله : « فلولاً إذا بلغت الحلقوم » تفريع على تكذيبهم بالقرآن وبما أخبر به من

البعث والجزاء ، ولولا التحضيض تعجزاً وتبكيئاً لهم ، وضمير « بلغت » للنفس ، وبلوغ النفس الحلقوم كناية عن الإشراف التام للموت .

وقوله : « وأنتم حينئذ تنظرون » أي تنظرون إلى المحتضر أي هو بمنظر منكم .
وقوله : « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » أي والحال أنا أقرب إليه منكم لإحاطتنا به وجوداً ورسلنا القابضون لروحه أقرب إليه منكم ولكن لا تبصروننا ولا رسلنا .

قال تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر : ٢٦ ، وقال : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » السجدة : ١١ ، وقال : « حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا » الأنعام : ٦١ .

وقوله : « فلولاً إن كنتم غير مدينين » تكرار « لولا » لتأكيد « لولا » السابقة ، و « مدينين » أي مجزيين من دان يدين بمعنى جزى يجزي ، والمعنى : إن كنتم غير مجزيين ثواباً وعقاباً بالبعث .

وقوله : « ترجعونها إن كنتم صادقين » أي إن كنتم صادقين في دعواكم أن لا بعث ولا جزاء ، وقوله : « ترجعونها » مدخول لولا التحضيضية بحسب التقدير وترتيب الآيات بحسب التقدير فلولاً ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم مدينين .

قوله تعالى : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » رجوع إلى بيان حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة عند الموت وبعده وضمير « كان » للمتوفى المعلوم من السياق ، والمراد بالمقربين السابقون المقربون المذكورون سابقاً ، والروح الراحة ، والريحان الرزق ، وقيل : هو الريحان المشوم من ريحان الجنة يؤتى به إليه فيشمه ويتوفى . والمعنى : فأما إن كان المتوفى من المقربين فله - أو فجزاؤه - راحة من كل هم وغم وألم ورزق من رزق الجنة وجنة نعيم .

قوله تعالى : « وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين » يمكن أن يكون اللام للاختصاص الملكي ومعنى « سلام لك » أنك تختص بالسلام من أصحاب اليمين الذين هم قرناؤك ورفقاؤك فلا ترى منهم إلا خيراً وسلاماً .

وقيل : لك بمعنى عليك أي يسلم عليك أصحاب اليمين ، وقيل غير ذلك .
والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أنه يخاطب بهذا الخطاب : سلام لك من

أصحاب اليمين .

قوله تعالى : « وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم »
تصلية النار الإدخال فيها ، وقيل : مقاساة حرّها وعذابها .
والمعنى : وأما إن كان من أهل التكذيب والضلال فلم نزل من ماء شديد الحرارة ،
ومقاساة حر نار جحيم .

وقد وصفهم الله بالمكذبين الضالين فقدم التكذيب على الضلال لأن ما يلقونه من العذاب
تبعاً لتكذبيهم وعنادهم للحق ولو كان ضلالاً بلا تكذيب وعناد كانوا مستضعفين غير نازلين
هذه المنزلة ، وأما قوله سابقاً : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون » فإذا كان المقام هناك
مقام الرد لقولهم : « إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ، إنا لمبعوثون » الخ ، كان الأنسب
توصيفهم أولاً بالضلال ثم بالتكذيب .

قوله تعالى : « إن هذا هو حق اليقين » الحق هو العلم من حيث إن الخارج الواقع
يطابقه ، واليقين هو العلم الذي لا لبس فيه ولا ريب فإضافة الحق إلى اليقين نحو من الإضافة
البيانية جيء بها للتأكيد .

والمعنى : أن هذا الذي ذكرناه من حال أزواج الناس الثلاثة هو الحق الذي لا تردّد
فيه والعلم الذي لا شك يعتره .

قوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » تقدم تفسيره ، وهو تفريع على ما تقدمه
من صفة القرآن وبيان حال الأزواج الثلاثة بعد الموت وفي الحشر .

والمعنى : فإذا كان القرآن على هذه الصفات وصادقاً فيما ينبتى به من حال الناس بعد
الموت فنزه ربك العظيم مستعيناً أو ملابساً باسمه وانف ما يراه ويدّعيه هؤلاء
المكذبون الضالون .

(بحث روائي)

في الجمع في قوله تعالى : « أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » وروي عن النبي ﷺ
قال : لا يقولن أحدكم : زرعت ، وليقل : حرثت .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عنه رضي الله عنه .

وفي تفسير القمي : « أنتم أنزلتموه من المزن » قال : من السحاب « نحن جعلناها تذكرة » لنار يوم القيامة « ومتاعاً للمقوين » قال : المحتاجين .
وفي الجمع في قوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » : فقد صح عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قال : اجعلوها في ركوعكم .

أقول : ورواه في الفقيه مرسل ، ورواه في الدر المنثور عن الجهمي عنه عليه السلام .
وفي الدر المنثور أخرج النسائي وابن جرير ومحمد بن نصر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرّق في السنين وفي لفظ ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً ثم قرأ « فلا أقسم بمواقع النجوم » .

أقول : وظاهره تفسير مواقع النجوم بأوقات نزول نجوم القرآن .
وفي تفسير القمي وقوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم » قال : معناه أقسم بمواقع النجوم .
وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي ﷺ « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون » قال : عند الله في صحف مطهرة « لا يمسه إلا المطهرون » قال : المقربون .

أقول : وتفسير المطهرين بالمقربين يؤيد ما أوردناه في البيان المتقدم ، وقد أوردنا في ذيل قوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الآية الجائية : ٢٩ ، حديثاً عن الصادق عليه السلام في الكتاب المكنون .

وفي الجمع في قوله تعالى : « لا يمسه إلا المطهرون » وقالوا : لا يجوز للجنب والحائض والمحدث مس المصحف عن محمد بن علي عليه السلام .

أقول : المراد بمس المصحف مس كتابته بدليل الروايات الأخر .
وفي الكافي بإسناده عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن التعويد بعلق على الحائض قال : نعم لا بأس . وقال : تقرأه وتكتبه ولا تصيبه يدها .
وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال : في كتاب النبي ﷺ لمرو بن حزم : ولا تمس القرآن إلا عن طهور .
أقول : والروايات فيه كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة .

وفيه أخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد

رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا : هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية « فلا أقسم بمواقع النجوم » حتى بلغ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .

أقول : وقد استفاضت الرواية من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في الأنواء وظاهرها أنها مدنية لكنها لا تلائم سياق آيات السورة كما عرفت .

وفي المجمع وقراءة علي بن أبي حمزة وابن عباس ورويت عن النبي ﷺ : وتجعلون شكركم . أقول : ورواه في الدر المنثور عن النبي ﷺ وعلي بن أبي حمزة .

وفي تفسير القمي في قوله : « غير مدينين » قال : معناه قلو كنتم غير مجازين على أعمالكم « ترجمونها » يعني به الروح إذا بلغت الحلقوم تردونها في البدن « إن كنتم صادقين » . وفيه بإسناده عن أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان » في قبره « وجنة نعم » في الآخرة .

وفي الدر المنثور أخرج القاسم بن مندة في كتاب الأحوال والإيمان بالسؤال عن سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما يبشر به المؤمن عند الوفاة بروح وريحان وجنة نعم وإن أول ما يبشر به المؤمن في قبره أن يقال : أبشر برضا الله تعالى والجنة قدمت خير مقدم قد غفر الله لمن شيعك إلى قبرك ، وصدق من شهد لك ، واستجاب لمن استغفر لك .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : فسلام لك من أصحاب اليمين ، قال : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين . أقول : وما أورده من المعنى مبني على كون الآية حكاية خطاب الملائكة ، والتقدير قالت الملائكة سلام لك حال كونك من أصحاب اليمين فهي سلام وبشارة .

(سورة الحديد مدنية ، وهي تسع وعشرون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ — ١ . لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ
 وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — ٢ . هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ
 وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ — ٣ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي
 سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
 مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَا كُنْتُمْ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ — ٤ . لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى
 اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ — ٥ . يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي
 اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ — ٦ .

(بَيَانُ)

مركز تحقيق و نشر علوم اسلامی

غرض السورة بحث المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله كما يشعر به تأكيد الأمر به مرة بعد مرة في خلال آياتها آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، الآية ، و من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، الآية ، و إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وقد سمحت إنفاقهم ذلك إقراضاً منه لله عز اسمه فالله سبحانه خير مطلوب وهو لا يخلف الميعاد وقد وعدهم إن أقرضوه أن يضاعفه لهم وأن يؤتيهم أجراً كريماً كثيراً .

وقد أشار إلى أن هذا الإنفاق من التقوى والإيمان بالرسول وأنه يستتبع مغفرة الذنوب وإتيان كفلين من الرحمة ولزوم النور بل والحق بالصدقين والشهداء عند الله سبحانه . وفي خلال آياتها معارف راجعة إلى المبدأ والمعاد ، ودعوة إلى التقوى وإخلاص الإيمان والزهد وموعظة .

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها وقد ادعى بعضهم إجماع المفسرين على ذلك .

ولقد افتتحت السورة بتسبيحه وتنزيهه تعالى بعدة من أسمائه الحسنى لما في غرض السورة وهو الحث على الإنفاق من شائبة توهم الحاجة والنقص في ناحيته ونظيرتها في ذلك جميع السور المفتحة بالتسبيح وهي سور الحشر والصف والجمعة والتغابن المصدرة بسبح أو يسبح .

قوله تعالى : « سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » التسبيح التنزيه وهو نفي ما يستدعي نقصاً أو حاجة مما لا يليق بساحة كاله تعالى ، و « ما » موصولة والمراد بها ما يعم العقلاء مما في السماوات والأرض كالملائكة والثقلين وغير العقلاء كالجمادات والدليل عليه ما ذكر بعد من صفاته المتعلقة بالعقلاء كالإحياء والعلم بذات الصدور .

فالمعنى : نزه الله سبحانه ما في السماوات والأرض من شيء وهو جميع العالم . والمراد بتسبيحها حقيقة معنى التسبيح دون المعنى المجازي الذي هو دلالة وجود كل موجود في السماوات والأرض على أن له موجدأ منزهاً من كل نقص متصفاً بكل كمال ، ودون عموم المجاز وهو دلالة كل موجود على تنزيهه تعالى إما بلسان القال كالعقلاء وإما بلسان الحال كغير العقلاء من الموجودات وذلك لقوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٤٤ ، حيث استدرك أنهم لا يفقهون تسبيحهم ولو كان المراد بتسبيحهم دلالة وجودهم على وجوده وهي الحجة على الناس بوجودهم أو كان المراد تسبيحهم وتحميدهم بلسان الحال وذلك مما يفقه الناس لم يكن للاستدراك معنى . فتسبيح ما في السماوات والأرض تسبيح ونطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة وإن كنا لا نفقهه ، قال تعالى : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » حم السجدة : ٢١ .

وقوله : « وهو العزيز الحكيم » أي المنيع جانبه يغلب ولا يغلب ، المتقن فعله لا يعرض على فعله ما يفسده عليه ولا يتعلق به اعتراض معترض .

قوله تعالى : « له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » الكلام موضوع على الحصر فهو المليك في السماوات والأرض يحكم ما يشاء لأنه الموجد لكل شيء فما في السماوات والأرض يقوم به وجوده وآثار وجوده فلا حكم إلا له فلا ملك ولا سلطنة إلا له .

وقوله : « يحيي ويميت » إشارة إلى اسميه المحيي والمميت ، وإطلاق « يحيي ويميت » يفيد شمولها لكل إحياء وإماتة كإيجاد الملائكة أحياء من غير سبق موت ، وإحيائه

الجنين في بطن أمه وإحيائه الموتى في البعث وإيجاده الجماد ميتاً من غير سبق حياة وإماتته الإنسان في الدنيا وإماتته ثانياً في البرزخ على ما يشير إليه قوله : « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ ، وفي « يحيي ويميت » دلالة على الاستمرار .

وقوله : « وهو على كل شيء قدير » فيه إشارة إلى صفة قدرته وأنها مطلقة غير مقيدة بشيء دون شيء ، وفي تذييل الآية بالقدرة على كل شيء مناسبة مع ما تقدمها من الإحياء والإماتة لما ربما يتوهم المتوهم أن لا قدرة على إحياء الموتى ولا عين منهم ولا أثر .

قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » لما كان تعالى قديراً على كل شيء مفروض كان محيطاً بقدرته على كل شيء من كل جهة فكل ما فرض أولاً فهو قبله فهو الأول دون الشيء المفروض أولاً ، وكل ما فرض آخرأ فهو بعده لإحاطة قدرته به من كل جهة فهو الآخر دون الشيء المفروض آخرأ ، وكل شيء فرض ظاهراً فهو أظهر منه لإحاطة قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهراً ، وكل شيء فرض أنه باطن فهو تعالى أبطن منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطناً فهو تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق وما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافية نسبية .

وليست أوليته تعالى ولا آخريته ولا ظهوره ولا بطونه زمانية ولا مكانية بمعنى مظهريته لهما وإلا لم يتقدمها ولا تنزه عنها سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أي نحو فرضت وكيفما تصوّرت .

فبان مما تقدم أن هذه الأسماء الأربعة الأول والآخر والظاهر والباطن من فروع اسمه المحيط وهو فرع إطلاق القدرة فقدرته محيطه بكل شيء ويمكن تفريع الأسماء الأربعة على إحاطة وجوده بكل شيء فإنه تعالى ثابت قبل ثبوت كل شيء وثابت بعد فناء كل شيء وأقرب من كل شيء ظاهر وأبطن من الأوهام والمعقول من كل شيء خفي باطن . وكذا للأسماء الأربعة نوع تفرع على علمه تعالى ويناسبه تذييل الآية بقوله : « وهو بكل شيء عليم » .

ويفسر بعضهم الأسماء الأربعة بأنه الأول قبل كل شيء والآخر بعد هلاك كل شيء الظاهر بالأدلة الدالة عليه والباطن غير مدرك بالحواس .

وقيل : الأول قبل كل شيء بلا ابتداء ، والآخر بعد كل شيء بلا انتهاء ، والظاهر الغالب العالي على كل شيء فكل شيء دونه ، والباطن العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه .
وقيل : الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء والظاهر بلا اقتراب والباطن بلا احتجاب .
وهناك أقوال أخرى في معناها غير جيدة أغمضنا عن إيرادها .

قوله تعالى : « هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام » تقدم تفسيره .
قوله تعالى : « ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » تقدم تفصيل القول في معنى العرش في سورة الأعراف آية : ٥٤ .
وتقدم أن الاستواء على العرش كناية عن الأخذ في تدبير الملك ولذا عقبه بالعلم بجزئيات الأحوال لأن العلم من لوازم التدبير .

وقوله : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها »
الولوج - كما قال الراغب - الدخول في مضيق ، والعروج ذهاب في صعود ، والمعنى : يعلم ما يدخل وينفذ في الأرض كماء المطر والبذور وغيرها وما يخرج من الأرض كأفواج النباتات والحيوان والماء وما ينزل من السماء كالأمطار والأشعة والملائكة وما يعرج فيها ويصعد كالأبخرة والملائكة وأعمال العباد .

قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » لإحاطته بكم فلا تغيبون عنه أينما كنتم وفي أي زمان عشتم وفي أي حال فرضتم فذكر عموم الأمكنة « أينما كنتم » لأن الأعراف في مفارقة شيء شيئاً وغيبته عنه أن يتوصل إلى ذلك بتغيير المكان وإلا فنسبته تعالى إلى الأمكنة والأزمنة والأحوال سواء .

وقيل : المعية مجاز مرسل عن الإحاطة العلمية .

قوله تعالى : « والله بها تعملون بصير » كالفرع المترتب على ما قبله من كونه معهم أينما كانوا وكونه بكل شيء عليمًا فإن لازم حضوره عندهم من دون مفارقة ما واحتجاب وهو عليم أن يكون بصيراً بأعمالهم يبصر ظاهر عملهم ، وما في باطنهم من نية وقصد .

قوله تعالى : « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور » كرر قوله : « له ملك » الخ ، لاقتناء رجوع الأشياء إليه على عموم الملك فصرح به ليفيد الابتناء ، قال تعالى : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار »
المؤمن : ١٦ .

وقوله : « وإلى الله ترجع الامور » الامور جمع محلى باللام يفيد العموم كقوله : « ألا إلى الله تصير الامور » الشورى : ٥٣ ، فما من شيء إلا ويرجع إلى الله ، ولا رادة اليه تعالى إلا هو لاختصاص الملك به فله الأمر وله الحكم .

وفي الآية وضع الظاهر موضع الضمير في « إلى الله » وكذا في الآية السابقة « والله بما تعملون بصير » ولعل الوجه في ذلك أن تقرر الجملتان قلوبهم كما يقرر المثل السائر لما سيجي من ذكر يوم القيامة وحزبل أجر المنفقين في سبيل الله فيه .

قوله تعالى : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور » إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر باختلاف فصول السنة في كل من البقاع الشمالية والجنوبية بعكس الاخرى ، وقد تقدم في كلامه تعالى غير مرة .

والمراد بذات الصدور الأفكار المضرة والنيئات المكنونة التي تصاحب الصدور وتلازمها لما أنها تنسب إلى القلوب والقلوب في الصدور ، والجملة أعني قوله : « وهو عليم بذات الصدور » بيان لإحاطة علمه بما في الصدور بعد بيان إحاطة بصره بظواهر أعمالهم بقوله : « والله بما تعملون بصير » مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عرابض بن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية .

أقول : ورواه أيضاً عن ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن عاصم بن حميد قال : سئل علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد فقال : إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى : « قل هو الله أحد » والآيات من سورة الحديد إلى قوله : « عليم بذات الصدور » فمن رام وراء ذلك فقد هلك .

وفي تفسير القمي : « سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » قال : هو

قوله : أوتيت جوامع الكلم ، وقوله : « هو الأول » قال : أي قبل كل شيء ، « والآخر » قال : يبقى بعد كل شيء ، « وهو عليهم بذات الصدور » قال : بالضمائر .
وفي الكافي وروى أنه يعني علياً عليه السلام سئل أين كان ربنا قبل أن يخلق سماء وأرضاً ؟ قال : أين سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان .

وفي التوحيد خطبة للحسن بن علي عليه السلام وفيها : الحمد لله الذي لم يكن فيه أول معلوم ، ولا آخر متناه ، ولا قبل مدرك ، ولا بعد محدود ، فلا تدرك العقول وأوهامها ولا الفكر وخطراتها ولا الأبواب وأذهانها صفته فتقول : متى ولا بدىء مما ، ولا ظاهر على ما ، ولا باطن فيما .

أقول : وقوله أول معلوم الخ ، أوصاف توضيحية أي ليس له أول ولو كان له أول كان من الجائز أن يتعلق به علم ولا آخر ولو كان له آخر كان متناهياً ، ولا قبل ولو كان لكان جائز الإدراك ولا بعد وإلا لكان محدوداً .

وقوله : ولا بدىء مما أي لم يبتدأ من شيء حتى يكون له أول ولا ظاهر على ما أي يتفوق على شيء بالوقوع والاستقرار عليه كالجسم على الجسم « ولا باطن فيما » أي لم يتبطن في شيء بالدخول فيه والاستتار به .
وفي نهج البلاغة : وكل ظاهر غيره غير باطن ، وكل باطن غيره غير ظاهر .

أقول : معناه أن حيشية الظهور في غيره تعالى غير حيشية الباطن وبالعكس ، وأما هو تعالى فلما كان أحدي الذات لا تنقسم ولا تتجزى إلى جهة وجهة كان ظاهراً من حيث هو باطن وباطناً من حيث هو ظاهر فهو باطن خفي من كال ظهوره وظاهر جلي من كمال بطونه .

وفيه : الحمد لله الأول فلا شيء قبله ، والآخر فلا شيء بعده ، والظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه .

أقول : المراد بالقبلية والبعدية ليس هو القبلية والبعدية الزمانية بأن يفرض هناك امتداد زمني غير متناهي الطرفين وقد حل العالم قطعة منه خالياً عنه طرفاه ويكون وجوده تعالى وتقدس منطبقاً على الزمان كله غير خال عنه شيء من جانبيه وإن ذهب إلى غير النهاية في تقدم وجوده تعالى على العالم زماناً ويتأخر عنه زماناً ولو كان كذلك لكان تعالى متغيراً في ذاته وأحواله بتغير الأزمنة المتحددة عليه ، وكان قبليته

وبعديته بتبع الزمان وكان الزمان هو الأول والآخر بالأصالة .

وكذلك ليست ظاهريته وباطنيته بحسب المكان بنظير البيان بل هو تعالى سابق بنفس ذاته المتعالية على كل شيء مفروض وآخر بنفس ذاته عن كل أمر مفروض أنه آخر ، وظاهر ، وباطن كذلك ، والزمان مخلوق له متأخر عنه .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال : لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأول قبل كل شيء وهو الآخر فليس بعده شيء وهو الظاهر فوق كل شيء وهو الباطن دون كل شيء وهو بكل شيء عليم .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم .

أقول : ليس المراد بهذا العلم الصور الذهنية فيكون تعالى كباني دار يتصور للدار صورة وهيئة قبل بنائها ثم يبنئها على ما تصور فتتطبق الصورة الذهنية على البناء الخارجي ثم تهدم الدار والصورة الذهنية على حالها ، وهذا هو المسمى بالعلم الكلي وهو مستحيل عليه تعالى بل ذاته تعالى عين العلم بمعلومه ثم المعلوم إذا تحقق في الخارج كان ذات المعلوم عين علمه تعالى به ، ويسمى الأول العلم الذاتي والثاني العلم القملي .

وفيه خطبة لعلي عليه السلام وفيها : وعلمها لا بأداة لا يكون العلم إلا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره .

أقول : المراد به أن ذاته تعالى عين علمه ، وليست هناك صورة زائدة .

* * *

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ - ٧ . وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ - ٨ . هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ

الظلماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ — ٩ . وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ — ١٠ . مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ — ١١ . يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ — ١٢ . يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ — ١٣ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ — ١٤ . فَأَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ — ١٥ .

(بيات)

أمر مؤكد بالإنفاق في سبيل الله وخاصة الجهاد على ما يؤيده قوله : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » الآية ، ويتأيد بذلك ما قيل : إن قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا » الخ ، نزل في غزوة تبوك .

قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » الخ ، المستفاد من سياق الآيات أن الخطاب في الآية للمؤمنين بالله ورسوله لا للكفار ولا للمؤمنين والكفار جميعاً كما قيل ، وأمر الذين تلبسوا بالإيمان بالله ورسوله بالإيمان معناه الأمر بتحقيق الإيمان بترتيب آثاره عليه إذ لو كانت صفة من الصفات كالسخاء والعفة والشجاعة ثابتة في نفس الإنسان حق ثبوتها لم يتخلف عنها أثرها الخاص ومن آثار الإيمان بالله ورسوله الطاعة فيما أمر الله ورسوله به .

ومن هنا يظهر أولاً : أن أمر المؤمن بالإيمان في الحقيقة أمر للتحقق بمرتبة من الإيمان أن يتلبس بمرتبة هي أعلى منها ، وهذا النوع من الأمر فيه إيحاء إلى أن الذي عند المأمور من المأمور به لا يرضي الأمر كل الإرضاء .

وثانياً : أن قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا » أمر بالإنفاق مع التلويح إلى أنه أثر صفة هم متلبسون بها فعلتهم أن ينفقوا لما اتصفوا بها فيقول إلى تعليل الإنفاق بإيمانهم .

وقوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » استخلاف الإنسان جعله خليفة ، والمراد به إما خلافتهم عن الله سبحانه يخلفونه في الأرض كما يشير إليه قوله : « إني جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ ، والتعبير عما بأيديهم من المال بهذا التعبير لبيان الواقع ولترغيبهم في الإنفاق فإنهم إذا أيقنوا أن المال لله وهم مستخلفون عليه وكلاء من ناحيته يتصرفون فيه كما أذن لهم سهل عليهم إنفاقه ولم تتحرج نفوسهم من ذلك .

وإما خلافتهم عن سبقتهم من الأجيال كما يخلف كل جيل سابقه ، وفي التعبير به أيضاً ترغيب في الإنفاق فإنهم إذا تذكروا أن هذا المال كان لغيرهم فلم يدم عليهم علموا أنه كذلك لا يدوم لهم وسيتركونه لغيرهم وهان عليهم إنفاقه وسخت بذلك نفوسهم .

وقوله : « فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » وعد للأجر على الإنفاق تأكيداً للترغيب ، والمراد بالإيمان الإيمان بالله ورسوله .

قوله تعالى : « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم » الخ ، المراد بالإيمان الإيمان بحيث يترتب عليه آثاره ومنها الإنفاق في سبيل الله - وإن شئت فقل : المراد ترتيب آثار ما عندهم من الإيمان عليه - .

وقوله : « والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم » عبّر الرب بالرب وأضافه اليهم تلويحاً إلى علة توجه الدعوة والأمر كأنه قيل : يدعوكم لتؤمنوا بالله لأنه ربكم يجب عليكم أن تؤمنوا به .

وقوله : « وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية ، وضمير « أخذ » لله سبحانه أو للرسول وعلى أي حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذي تدل عليه شهادتهم على وحدانية الله ورسالة رسوله يوم آمنوا به ﷺ من أنهم على السمع والطاعة .

وقيل : المراد بالميثاق هو الميثاق المأخوذ منهم في الذر ، وعلى هذا فضمير « أخذ » لله سبحانه ، وفيه أنه بعيد عن سياق الاحتجاج عليهم فإنهم غافلون عنه ، على أن أخذ الميثاق في الذر لا يختص بالمؤمنين بل يعم المنافقين والكفار .

قوله تعالى : « هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور » الخ ، المراد بالآيات البيّنات آيات القرآن الكريم المبينة لهم ما عليهم من فرائض الدين ، وفاعل « ليخرجكم » الضمير العائد إلى الله أو إلى رسوله ﷺ ومرجع الثاني أيضاً هو الأول فالميثاق ميثاقه وقد أخذه بواسطة رسوله أو بغير واسطته كما أن الإيمان به وبرسوله إيمان به ولذلك قال في صدر الآية : « وما لكم لا تؤمنون بالله » فذكر نفسه ولم يذكر رسوله إشارة إلى أن الإيمان برسوله إيمان به .

وقوله : « وإن الله بكم لرؤف رحيم » في تذييل الآية برأفته تعالى ورحمته إشارة إلى أن الإيمان الذي يدعوم إليه رسوله خير لهم وأصلح وهم الذين ينتفعون به دون الله ورسوله ، ففيه تأكيد ترغيبهم على الإيمان والإنفاق .

قوله تعالى : « وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض » الميراث والتراث المال الذي ينتقل من الميت إلى من بقي بعده من ورثائه ، وإضافة الميراث إلى السماوات والأرض بياناً فالسماوات والأرض هي الميراث بما فيها من الأشياء التي خلق منها مما يمتلكه ذوا الشعور من سكنتهما فالسماوات والأرض شاملة لما فيها مما خلق منها

ويتصرف فيها ذوا الشعور كالإنسان مثلاً بتخصيص ما يتصرفون فيه لأنفسهم وهو الملك الاعتباري الذي هداهم الله سبحانه إلى اعتباره فيما بينهم لينتظم بذلك جهات حياتهم الدنيا. غير أنهم لا يبقون ولا يبقى لهم بل يذهبهم الموت المقدر بينهم فينتقل ما في أيديهم إلى من بعدهم وهكذا حتى يفنى الجميع ولا يبقى إلا هو سبحانه .

فالأرض مثلاً وما فيها وعليها من مال ميراث من جهة أن كل جيل من سكانها يرثها ممن قبله فكانت ميراثاً دائماً دائراً بينهم خلفاً عن سلف ، وميراث من جهة أنهم سيفنون جميعاً ولا يبقى لها إلا الله الذي استخلفهم عليها .

ولله سبحانه ميراث السماوات والأرض بكلا المعنيين ، أما الأول : فلأنه الذي يملكهم المال وهو المالك لما ملكهم ، قال تعالى : « لله ما في السماوات والأرض » لقمان : ٢٦ ، وقال : « لله ملك السماوات والأرض » النور : ٤٢ ، وقال : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » النور : ٣٣ .

وأما الثاني : فظاهر آيات القيامة كقوله تعالى : « كل من عليها فان » الرحمن : ٢٦ وغيره ، والذي يسبق إلى الذهن أن المراد بكونها ميراثاً هو المعنى الثاني . وكيف كان ففي الآية توبيخ شديد لهم على عدم إنفاقهم في سبيل الله من المال الذي لا يرثه بالحقيقة إلا هو تعالى ولا يبقى لهم ولا لغيرهم ، والإظهار في موضع الإضمار في قوله : « لله » لتشديد التوبيخ .

قوله تعالى : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » الخ ، الاستواء بمعنى التساوي ، وقسم قوله : « من أنفق من قبل الفتح وقاتل » محذوف إيجازاً لدلالة قوله : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » عليه .

والمراد بالفتح - كما قيل - فتح مكة أو فتح الحديبية وعطف القتال على الإنفاق لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن المراد بالإنفاق في سبيل الله المندوب اليه في الآيات هو الإنفاق في الجهاد .

وكان الآية مسوقة لبيان أن الإنفاق في سبيل الله كلما عجل إليها كان أحب عند الله وأعظم درجة ومنزلة وإلا فظاهر أن هذه الآيات نزلت بعد الفتح والقتال الذي بادروا إليه قبل الفتح وبعض المقاتل التي بعده .

وقوله : « وكلا وعد الله الحسنى » أي وعد الله المثوبة الحسنی كل من أنفق وقاتل قبل الفتح أو أنفق وقاتل بعده وإن كانت الطائفة الاولى أعظم درجة من الثانية ، وفيه تطيب لقلوب المتأخرين إنفاقاً وقتالاً أن لهم نيلاً من رحمته وليسوا بمحرومين مطلقاً فلا موجب لأن يياسوا منها وإن تأخروا .

وقوله : « والله بما تعملون خبير » تذييل متعلق بجميع ما تقدم ففيه تشديد للتوبيخ وتقرير وتثبيت لقوله : « لا يستوي منكم » الخ ، ولقوله : « وكلا وعد الله الحسنى » ويمكن أن يتعلق بالجملة الأخيرة لكن تعلقه بالجميع أعم وأشمل .

قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم » قال الراغب : وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضاً . انتهى ، وقال في الجمع : وأصله القطع فهو قطعه عن مالكه بإذنه على ضمان رد مثله . قال : والمضاعفة الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله . انتهى ، وقال الراغب : الأجر والأجرة ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً قال : ولا يقال إلا في النفع دون الضر بخلاف الجزاء فإنه يقال في النفع والضر . انتهى ملخصاً .

وما يعطيه تعالى من الثواب على عمل العبد تفضل منه من غير استحقاق من العبد فإن العبد وما يأتيه من عمل ملك تطلق له سبحانه ملكاً لا يقبل النقل والانتقال غير أنه اعتبر اعتباراً تشريعياً العبد مالكاً وملكه عمله ، وهو المالك لما ملكه وهو تفضل آخر ثم اختار ما أحبه من عمله فوعده ثواباً على عمله وسماه أجراً وجزاء وهو تفضل آخر ، ولا ينتفع به في الدنيا والآخرة إلا العبد قال تعالى : « للذين أحسنوا منهم واثقوا أجر عظيم » آل عمران : ١٧٢ ، وقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » حم السجدة : ٨ ، وقال بعد وصف الجنة ونعيمها : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » الإنسان : ٢٢ ، وما وعده من الشكر وعدم المن عند إيتاء الثواب تمام التفضل .

وفي الآية حث بليغ على ما ندب اليه من الإنفاق في سبيل الله حيث استفهم عن الذي ينفق منهم في سبيل الله ومثل إنفاقه بأنه قرض يقرضه الله سبحانه وعليه أن يرده ثم قطع أنه لا يرد مثله اليه بل يضاعفه ولم يكتف بذلك بل أضاف اليه أجراً كريماً في الآخرة والأجر الكريم هو المرضي في نوعه والأجر الاخروي كذلك لأنه غاية ما يتصور

من النعمة عند غاية ما يتصور من الحاجة .

قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » الخ ، اليوم ظرف لقوله : « له أجر كريم » والمراد به يوم القيامة ، والخطاب في « ترى » للنبي ﷺ أو لكل سامع يصح خطابه ، والظاهر أن الباء في « بأيمانهم » بمعنى في . والمعنى : لمن أقرض الله قرضاً حسناً أجر كريم يوم ترى أنت يا رسول الله - أو كل من يصح منه الرؤية - المؤمنين بالله ورسوله والمؤمنات يسعى نورهم أمامهم وفي أيمانهم واليمين هو الجهة التي منها سعادتهم .

والآية مطلقة تشمل مؤمني جميع الأمم ولا تختص بهذه الأمة ، والتعبير عن إشراق النور بالسعي يشعر بأنهم ساعون إلى درجات الجنة التي أعدها الله سبحانه لهم وتستدير لهم جهات السعادة ومقامات القرب واحدة بعد واحدة حتى يتم لهم نورهم كما قال تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً » الزمر : ٧٣ ، وقال : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » مريم : ٨٥ ، وقال : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا » التحريم : ٨ .

وللمفسرين في تفسير مفردات الآية أقوال مختلفة أغمضنا عنها لعدم دليل من لفظ الآية عليها ، وسيوافيك ما في الروايات الماثورة في البحث الروائي الآتي إن شاء الله . وقوله : « بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » حكاية ما يقال للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة ، والقائل الملائكة بأمر من الله والتقدير يقال لهم : « بشراكم » الخ ، والمراد بالبشرى ما يبشر به وهو الجنة والباقي ظاهر .

وقوله : « ذلك هو الفوز العظيم » كلام الله سبحانه والإشارة إلى ما ذكر من سعي النور والبشرى أو من تمام قول الملائكة والإشارة إلى الجنات والخلود فيها .

قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم » إلى آخر الآية ، النظر إذا تعدى بنفسه أفاد معنى الانتظار والإمهال ، وإذا عدى إلى نحو نظر إليه كان بمعنى إلقاء البصر نحو الشيء وإذا عدى بفي كان بمعنى التأمل ، والافتباس أخذ قبس من النار .

والسياق يفيد أنهم اليوم في ظلمة أحاطت بهم سرادقها وقد أُلجئوا إلى المسير نحو دارهم التي يخلدون فيها غير أن المؤمنين والمؤمنات يسرون بنورهم الذي يسعى بين

أيديهم وبأيمانهم فيبصرون الطريق ويهتدون إلى مقاماتهم ، وأما المنافقون والمنافقات فهم مغشون بالظلمة لا يهتدون سبيلاً وهم مع المؤمنين كما كانوا في الدنيا معهم ومعدودين منهم فيسبق المؤمنون والمؤمنات إلى الجنة ويتأخر عنهم المنافقون والمنافقات في ظلمة تغشاهم فيسألون المؤمنين والمؤمنات أن ينتظروهم حتى يلحقوا بهم ويأخذوا قبساً من نورهم ليستضيئوا به في طريقهم .

وقوله : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً » القائل به إما الملائكة أو قوم من كمل المؤمنين كأصحاب الأعراف .

وكيف كان فهو من الله وبإذنه ، والخطاب بقوله : « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً » قيل : إنه خطاب مبني على التهكم والاستهزاء كما كانوا يستهزئون في الدنيا بالمؤمنين ، والأظهر على هذا أن يكون المراد بالوراء الدنيا ، ومحصل المعنى : ارجعوا إلى الدنيا التي تركتموها وراء ظهوركم وعلمتم فيها ما عملتم على النفاق ، والتمسوا من تلك الأعمال نوراً فإنما النور نور الأعمال أو الإيمان ولا إيمان لكم ولا عمل .

ويمكن أن يجعل هذا وجهاً على حياله من غير معنى الاستهزاء بأن يكون قوله : « ارجعوا » أمراً بالرجوع إلى الدنيا واكتساب النور بالإيمان والعمل الصالح وليسوا براجعين ولا يستطيعون فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود المذكور في قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » القلم : ٤٣ .

وقيل : المراد ارجعوا إلى المكان الذي قسم فيه النور والتمسوا من هناك فيرجعون فلا يجدون شيئاً فينصرفون اليهم وقد ضرب بينهم بسور ، وهذا خدعة منه تعالى يخدعهم بها كما كانوا في الدنيا يخادعون كما قال : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » النساء : ١٤٢ .

قوله تعالى : « فُضِرَبَ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » سور المدينة حائطها الحاجز بينها وبين الخارج منها ، والضمير في « فُضِرَبَ بينهم بسور » راجع إلى المؤمنين والمنافقين جميعاً أي ضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بسور حاجز يحجز إحدى الطائفتين عن الأخرى .

قيل : السور هو الأعراف وهو غير بعيد وقد تقدمت إشارة إليه في تفسير قوله

تعالى : « وبينها حجاب وعلى الأعراف رجال » الآية الأعراف : ٤٦ ، وقيل : السور غير الأعراف .

وقوله : « له باب » أي للسور باب وهذا يشبه حال المنافقين في الدنيا فقد كانوا فيها بين المؤمنين لهم اتصال بهم وارتباط وهم مع ذلك محجوبون عنهم بحجاب . على أنهم يرون أهل الجنة ويزيد بذلك حسرتهم وفدائهم .

وقوله : « باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » « باطنه » مبتدأ وجلة « فيه الرحمة » مبتدأ وخبر وهي خبر « باطنه » وكذا « ظاهره » مبتدأ وجلة « من قبله العذاب » مبتدأ وخبر هي خبره ، وضميراً « فيه ومن قبله » للباطن والظاهر . ويظهر من كون باطن السورة فيه رحمة وظاهره من قبله العذاب أن السور محيط بالمؤمنين وهم في داخله والمنافقون في الخارج منه .

وفي احتمال داخله الذي يلي المؤمنين على الرحمة وظاهره الذي يلي المنافقين على العذاب مناسبة لحال الإيمان في الدنيا فإنه نعمة لأهل الإخلاص من المؤمنين يبتهجون بها ويلتذنون وعذاب لأهل النفاق يتخرجون من التلبس به ويتألمون منه .

قوله تعالى : « ينادونهم ألم نكن معكم » إلى آخر الآية استئناف في معنى جواب السؤال كأنه قيل : فماذا يفعل المنافقون والمنافقات بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب من ظاهره ؟ فقيل : ينادونهم الخ .

والمعنى : ينادي المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات بقولهم : « ألم نكن معكم » يربدون به كونهم في الدنيا مع المؤمنين والمؤمنات في ظاهر الدين .

وقوله : « قالوا بلى » إلى آخر الآية جواب المؤمنين والمؤمنات لهم والمعنى : « قالوا » أي قال المؤمنون والمؤمنات جواباً لهم « بلى » كنتم في الدنيا معنا « ولكنكم فتنتم » أي محنتم وأهلكتم « أنفسكم وتربصتم » الدوائر بالدين وأهله « وارتبتم » وشككتكم في دينكم « وغرتمكم الأماني » ومنها أمانيكم أن الدين سيطفاً نوره ويتركه أهله « حتى جاء أمر الله » وهو الموت « وغركم بالله الغرور » بفتح الغين وهو الشيطان .

والآية - كما ترى - تفيد أن المنافقين والمنافقات يستنصرون المؤمنين والمؤمنات على ما هم فيه من الظلمة متوسلين بأنهم كانوا معهم في الدنيا ثم تفيد أن المؤمنين والمؤمنات يحجبون بأنهم كانوا معهم لكن قلوبهم كانت لا توافق ظاهر حالهم بحيث يفتنون أنفسهم

ويتربصون ويرتابون وتغرمهم الأماني ويغرمهم بالله الغرور ، وهذه الصفات الخبيثة آفات القلوب فكانت القلوب غير سليمة ولا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء : ٨٩ .

قوله تعالى : « فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا » تنمة كلام المؤمنين والمؤمنات يخاطبون به المنافقين والمنافقات ويضيفون اليهم الكفار وهم المعلنون لكفرهم أنهم رهنا أعمالهم كما قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » المدثر : ٣٨ ، لا يؤخذ منهم فدية يخلصون بها أنفسهم والفدية أحد الأمور التي بها التخلص من الرهانة والآخر ناصر ينصر فينجي وقد نفوه بقولهم : « مأواكم النار » الخ .

فقوله : « مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير » ينفي أي ناصر ينصرهم وينجيهم من النار غير النار على ما يفيد قوله : « هي مولاكم » من الحصر ، والمولى هو الناصر والجملة مسوقة للتهم .

ويمكن أن يكون المولى بمعنى من يلي الأمر فإنهم كانوا يدعون لحوائجهم من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن غير الله سبحانه وحقيقته النار فاليوم مولاكم النار وهي التي تعد لهم ذلك فما كلهم من الزقوم ومشربهم من الحميم وملبسهم من ثياب قطعت من النار وقرناؤهم الشياطين ومأواهم النار على ما أخبر الله سبحانه به في آيات كثيرة من كلامه .

(بحث رواني)

في الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله ﷺ يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا : من هم يا رسول الله أقرش ؟ قال : لا ولكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً . قلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » الآية .

أقول : روي هذا المعنى بغير واحد من الطرق بألفاظ متقاربة وهي مشتملة على الآية ويشكل بأن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد الفتح والمراد به إما الحديدية أو فتح مكة فلا تنطبق على ما قبل الفتح .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » قال أبو الدرداء : والله لأنفق اليوم نفقة أدرك بها من قبلي ولا يسبقني بها أحد بعدي فقال : اللهم كل شيء يملكه أبو الدرداء فإن نصفه لله حتى بلغ فرد نعله ثم قال : وهذا .

وفي تفسير القمي في قوله : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » قال : يقسم النور بين الناس يوم القيامة على قدر أيمانهم يقسم للمنافق فيكون نوره بين إيهام رجله اليسرى فينظر نوره ثم يقول للمؤمنين : مكانكم حتى أقتبس من نوركم فيقول المؤمنون لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ويضرب بينهم بسور له باب فينادون من وراء السور للمؤمنين : « ألم نكن معكم قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم » قال : بالمعاصي « وتربصتم واربتهم » قال : أي شككتم وتربصتم .

وقوله : « فاليوم لا يؤخذ منكم فدية » قال : والله ما عني بذلك اليهود والنصارى وما عني به إلا أهل القبلة ثم قال : « ما واكم النار هي مولاكم » قال : هي أولى بكم . أقول : يعني بأهل القبلة المنافقين منهم .

وفي الكافي بإسناده عن أبان بن تغلب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خولتم وتستصغرون بها مواهب الله جل وعز عندكم وتعقبكم الحشرات فيما وهمت به أنفسكم .

* * *

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ - ١٦ . إَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ - ١٧

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ
 وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ — ١٨ . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ — ١٩ . إَاعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
 كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
 حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ — ٢٠ . سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنَ رَبِّكُمْ
 وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ — ٢١ .
 مَا أَصَابَ مَن مَّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ
 قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ — ٢٢ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى
 مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ — ٢٣ .
 الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ — ٢٤ .

(بيان)

جري على وفق مقصد الكلام السابق وهو الحث والترغيب في الإيمان بالله ورسوله

والإنفاق في سبيل الله وتتضمن عتاب المؤمنين على ما يظهر من علائم قسوة القلوب منهم ، وتأکید الحث على الإنفاق ببيان درجة المنفقين عند الله والأمر بالمسابقة إلى المغفرة والجنة ودم الدنيا وأهلها الذين يبتخلون ويأمررون الناس بالبخل .

وقد تغير السياق خلال الآيات إلى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب بعد اختصاص السياق السابق بالمسلمين وسيجيء توضيحه .

قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » إلى آخر الآية ، يقال : أنى يأنى أنى وإناء أي جاء وقته ، وخشوع القلب تأثره قبال العظمة والكبرياء ، والمراد بذكر الله ما يذكر به الله ، وما نزل من الحق هو القرآن النازل من عنده تعالى و « من الحق » بيان لما نزل ، ومن شأن ذكر الله تعالى عند المؤمن أن يعقب خشوعاً كما أن من شأن الحق النازل من عنده تعالى أن يعقب خشوعاً ممن آمن بالله ورسوله . وقيل : المراد بذكر الله وما نزل من الحق جميعاً القرآن ، وعلى هذا فذكر القرآن بوصفيه لكون كل من الوصفين مستدعياً لخشوع المؤمن فالقرآن لكونه ذكر الله يستدعي الخشوع كما أنه لكونه حقاً نازلاً من عنده تعالى يستدعي الخشوع .

وفي الآية عتاب للمؤمنين على ما عرض لقلوبهم من القسوة وعدم خشوعها لذكر الله والحق النازل من عنده تعالى وتشبيه حالهم بحال أهل الكتاب الذين نزل عليهم الكتاب وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

وقوله : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » عطف على قوله : « تخشع الخ » والمعنى : ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم وأن لا يكونوا الخ ، والأمد الزمان ، قال الراغب : الفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدأ والغاية ولذلك قال بعضهم : إن المدى والأمد يتقاربان . انتهى .

وقد أشار سبحانه بهذا الكلام إلى صيرورة قلوبهم كقلوب أهل الكتاب القاسية والقلب القاسي حيث يفقد الخشوع والتأثر عن الحق ربما خرج عن زيّ العبودية فلم يتأثر عن المناهي واقترب الإثم والفسوق ، ولذا أردف قوله : « فقست قلوبهم » بقوله : « وكثير منهم فاسقون » .

قوله تعالى : « اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها » إلى آخر الآية في تعقيب عتاب

المؤمنين على قسوة قلوبهم بهذا التمثيل تقوية لرجائهم وترغيب لهم في الخشوع .
ويمكن أن يكون من تمام العتاب السابق ويكون تنبيهاً على أن الله لا يخلي هذا الدين
على ما هو عليه من الحال بل كلما قست قلوب وحرموا الخشوع لأمر الله جاء بقلوب حية
خاشعة له يعبد بها كما يريد .

فتكون الآية في معنى قوله : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من
يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً
غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » سورة محمد : ٣٨ .

ولذلك ذيل الآية بقوله : « قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

قوله تعالى : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم
أجر كريم » تكرر لحديث المضاعفة والأجر الكريم للترغيب في الإنفاق في سبيل الله
وقد أضيف إلى الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً المصدقون والمصدقات .

والمصدقون والمصدقات - بتشديد الصاد والذال - المصدقون والمصدقات ، وقوله :
« وأقرضوا الله » عطف على مدخول اللام في « المصدقين » ، والمعنى : أن الذين تصدقوا
والذين أقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ما أعطوه ولهم أجر كريم .

قوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم »
الخ ، لم يقل : « آمنوا بالله ورسوله » كما قال في أول السورة : « آمنوا بالله ورسوله
وأنفقوا » وقال في آخرها : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » لأنه تعالى لما
ذكر أهل الكتاب في الآية السابقة بقوله : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل »
عدل عن السياق السابق إلى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب جميعاً كما قال بعد :
« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » وأما الآيتان المذكورتان في أول السورة وآخرها فالخطاب
فيها للمؤمنين هذه الأمة خاصة ولذا جيء فيها بالرسول مفرداً .

والمراد بالإيمان بالله ورسوله محض الإيمان الذي لا يفارق بطبعه الطاعة والاتباع كما مرّت
الإشارة إليه في قوله : « آمنوا بالله ورسوله » الآية ، والمراد بقوله : « أولئك هم الصديقون
والشهداء » إلحاقهم بالصديقين والشهداء بقريظة قوله : « عند ربهم » وقوله : « لهم أجرهم
ونورهم » فهم ملحقون بالطائفتين يعامل معهم معاملة الصديقين والشهداء فيعطون مثل
أجرهم ونورهم .

والظاهر أن المراد بالصدّيقين والشهداء هم المذكورون في قوله : « ومن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » النساء : ٦٩ ، وقد تقدم في تفسير الآية أن المراد بالصدّيقين هم الذين سرى الصدق في قلوبهم وفعلهم فيفعلون ما يقولون ويقولون ما يفعلون ، والشهداء هم شهداء الأعمال يوم القيامة دون الشهداء بمعنى المقتولين في سبيل الله .
فهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله ملحقون بالصدّيقين والشهداء منزّلون منزلتهم عند الله أي بحكم منه لهم أجرهم ونورهم .

وقوله : « لهم أجرهم ونورهم » ضمير « لهم » للذين آمنوا ، وضمير « أجرهم ونورهم » للصدّيقين والشهداء أي للذين آمنوا أجر من نوع أجر الصدّيقين والشهداء ونور من نوع نورهم ، وهذا معنى قول من قال : إن المعنى : لهم أجر كأجرهم ونور كنورهم .

وربما قيل : إن الآية مسوقة لبيان أنهم صدّيقون وشهداء على الحقيقة من غير إلحاق وتنزيل فهم هم لهم أجرهم ونورهم ، ولعل السياق لا يساعد عليه .

وربما قيل : إن قوله : « والشهداء » ليس عطفاً على قوله : « الصدّيقون » بل استئناف و « الشهداء » مبتدأ خبره « عند الله » وخبره الآخر « لهم أجرهم » فقد قيل : والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصدّيقون ، وقد تم الكلام ثم استأنف وقيل : « والشهداء عند ربهم » كما قيل : « بل أحياء عند ربهم » آل عمران : ١٦٩ ، والمراد بالشهداء المقتولون في سبيل الله ، ثم تم الكلام بقوله : « لهم أجرهم ونورهم » .

وقوله : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » أي لا يفارقونها وهم فيها دائمين .

وقد تعرض سبحانه في الآية لشأن الملحقين بالصدّيقين والشهداء وهم خيار الناس والناجون قطعاً ، والكفار المكذبين لآياته وهم شرار الناس والهالكون قطعاً وبقي فريق بين الفريقين وهم المؤمنون المقترفون للمعاصي والذنوب على طبقاتهم في التمرد على الله ورسوله ، وهذا دأب القرآن في كثير من موارد التعرض لشأن الناس يوم القيامة .

وذلك ليكون بعثاً لقريحتي الخوف والرجاء في ذلك الفريق المتخلل بين الخير والشرار فيميلوا إلى السعادة ويختاروا النجاة على الهلاك .

ولذلك أعقب الآية بنظم الحياة الدنيا التي تعلق بها هؤلاء الممتنعون من الإنفاق في سبيل

الله ثم بدعوتهم إلى المسابقة إلى المغفرة والجنة ثم بالإشارة إلى أن ما يصيبهم من المصيبة في أموالهم وأنفسهم مكتوبة في كتاب سابق وقضاء متقدم فليس ينبغي لهم أن يخافوا الفقر في الإنفاق في سبيل الله ، فيبخلوا ويمسكوا أو يخافوا الموت في الجهاد في سبيل الله فيتخلفوا ويقعدوا .

قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » الخ ، اللعب عمل منظوم لغرض خيالي كلعب الأطفال ، واللهو ما يشغل الإنسان عما يهمه ، والزينة بناء نوع وربما يراد به ما يترين به وهي ضم شيء مرغوب فيه إلى شيء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال ، والتفاخر المباهاة بالأنساب والأحساب ، والتكاثر في الأموال والأولاد .

والحياة الدنيا عرض زائل وسراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكورة : اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر وهي التي يتعلق بها هوى النفس الإنسانية ببعضها أو يجمعها وهي أمور وهمية وأعراض زائلة لا تبقى للإنسان وليست ولا واحدة منها تجلب للإنسان كالأنا نفسياً ولا خيراً حقيقياً .

وعن شيخنا البهائي رحمه الله أن الخصال الخمس المذكورة في الآية مترتبة بحسب سني عمر الإنسان ومراحل حياته فيتولد أولاً باللعب وهو طفل أو مراهق ثم إذا بلغ واشتد عظمه تعلق باللهو والملاهي ثم إذا بلغ أشده اشتغل بالزينة من الملابس الفاخرة والمراكب البهية والمنازل العالية وقوله للحسن والجمال ثم إذا اكتمل أخذ بالفاخرة بالأحساب والأنساب ثم إذا شاب سعى في تكثير المال والولد .

وقوله : « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً » مثل لزينة الحياة الدنيا التي يتعلق بها الإنسان غروراً ثم لا يلبث دون أن يسلبها . والغيث المطر والكفار جمع كافر بمعنى الحارث ، ويهيج من الهيجان وهو الحركة ، والحطام الهشيم المتكسر من يابس النبات .

والمعنى : أن مثل الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجب الحراث نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشياً متكسراً - متلاشياً تذروه الرياح - .

وقوله : « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » سبق المغفرة على

الرضوان لتطهير المهل ليحل به الرضوان ، وتوصيف المغفرة بكونه من الله دون العذاب لا يخلو من إيمان إلى أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفرة وأما العذاب فليس بمطلوب في نفسه وإنما يتسبب إليه الإنسان بخروجه عن زيّ العبودية كما قيل .

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » أي متاع التمتع منه هو الغرور به ، وهذا للمتعلى الغرور بها .

والكلام أعني قوله : « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » إشارة إلى وجهي الحياة الآخرة ليأخذ السامع حذره فيختار المغفرة والرضوان على العذاب ، ثم في قوله : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » تنبيه وإيقاظ لثلاث تغرّ الحياة الدنيا بخاصة غروره .

قوله تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » النخ المسابقة هي المغالبة في السبق للوصول إلى غرض بأن يريد كل من المسابقين جعل حركته أسرع من حركة صاحبه ففي معنى المسابقة ما يزيد على معنى المسارعة فإن المسارعة الجدة في تسريع الحركة والمسابقة الجدة في تسريعها بحيث تزيد في السرعة على حركة صاحبه . وعلى هذا فقوله : « سابقوا إلى مغفرة » النخ ، يتضمن من التكليف ما هو أزيد مما يتضمنه قوله : « سارعوا إلى مغفرة من ربكم » وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين » آل عمران : ١٣٣ .

ويظهر به عدم استقامة ما قيل : إن آية آل عمران في السابقين المقربين والآية التي نحن فيها في عامة المؤمنين حيث لم يذكر فيها إلا الإيمان بالله ورسوله بخلاف آية آل عمران فإنها مذيّلة بجملة الأعمال الصالحة ، ولذا أيضاً وصف الجنة الموعودة هناك بقوله : « عرضها السماوات والأرض » بخلاف ما ههنا حيث قيل : « عرضها كعرض السماء والأرض » فدلّ على أن جنة أولئك أوسع من جنة هؤلاء .

وجه عدم الاستقامة ما عرفت أن المكلف به في الآية المبحوث عنها معنى فوق ما كلف به في آية آل عمران . على أن اللام في « السماء » للجنس فتنتطبق على « السماوات » في تلك الآية .

وتقديم المغفرة على الجنة في الآية لأن الحياة في الجنة حياة طاهرة في عالم الطهارة فيتوقف التلبس بها على زوال قذارات الذنوب وأوساخها .

والمراد بالعرض السعة دون العرض المقابل للطول وهو معنى شائع ، والكلام كأنه مسوق للدلالة على انتهائها في السعة .

وقيل : المراد بالعرض ما يقابل الطول والاقتصار على ذكر العرض أبلغ من ذكر الطول معه فإن العرض أقصر الامتدادين وإذا كان كعرض السماء والأرض كانت طولها أكثر من طولها .

ولا يخلو الوجه من تحكم إذ لا دليل على مساواة طول السماء والأرض لعرضها ثم على زيادة طول الجنة على عرضها حتى يلزم زيادة طول الجنة على طولها والطول قد يساوي العرض كما في المربع والدائرة وسطح الكرة وغيرها وقد يزيد عليه .

وقوله : « أعدت للذين آمنوا بالله ورسله » قد عرفت في ذيل قوله : « آمنوا بالله ورسله » وقوله : « والذين آمنوا بالله ورسله » أن المراد بالإيمان بالله ورسله هو مرتبة عالية من الإيمان تلازم ترتب آثاره عليه من الأعمال الصالحة واجتناب الفسوق والإثم .

وبذلك يظهر أن قول بعضهم : إن في الآية بشارة لعامة المؤمنين حيث قال : « أعدت للذين آمنوا بالله ورسله » ولم يقيّد الإيمان بشيء من العمل الصالح ونحوه غير سديد فإن خطاب الآية وإن كان بظاهر لفظه يعم الكافر والمؤمن الصالح والطالح لكن وجه الكلام إلى المؤمنين يدعوم إلى الإيمان الذي يصاحب العمل الصالح ، ولو كان المراد بالإيمان بالله ورسله مجرد الإيمان ولو لم يصاحبه عمل صالح وكانت الجنة معدة لهم والآية تدعو إلى السباق إلى المغفرة والجنة كان خطاب « سابقوا » متوجهاً إلى الكفار فإن المؤمنين قد سبقوا وسبق الآيات بأباه .

وقوله : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » وقد شاء أن يؤتيه الذين آمنوا بالله ورسله ، وقد تقدم بيان أن ما يؤتيه الله من الأجر لعباده المؤمنين فضل منه تعالى من غير أن يستحقوه عليه .

وقوله : « والله ذو الفضل العظيم » إشارة إلى عظمة فضله ، وأن ما يشيهم به من المغفرة والجنة من عظيم فضله .

قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » الخ ، المصيبة الواقعة التي تصيب الشيء مأخوذة من إصابة السهم الغرض وهي بحسب المفهوم أعم من الخير والشر لكن غلب استعمالها في الشر فالمصيبة هي النائبة ،

والمصيبة التي تصيب في الأرض كالجدب وعامة الثار والزلزلة المخربة ونحوها ، والتي تصيب في الأنفس كالمرض والجرح والكسر والقتل والموت ، والبرء والبروء الخلق من العدم ، وضمير « نبرأها » للمصيبة ، وقيل : للأنفس ، وقيل : للأرض ، وقيل : للجميع من الأرض والأنفس والمصيبة ، ويؤيد الأول أن المقام مقام بيان ما في الدنيا من المصائب الموجبة لنقص الأموال والأنفس التي تدعوهم إلى الإمساك عن الانفساق والتخلف عن الجهاد .

والمراد بالكتاب اللوح المكتوب فيه ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة كما تدل عليه الآيات والروايات وإنما اقتصر على ذكر ما يصيب في الأرض وفي أنفسهم من المصائب لكون الكلام فيها .

قيل : إنما قيّد المصيبة بما في الأرض وفي الأنفس لأن مطلق المصائب غير مكتوبة في اللوح لأن اللوح متناه والحوادث غير متناهية ولا يكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي .

والكلام مبني على أن المراد باللوح لوح قلبي أو نحوه منصوب في ناحية من نواحي الجو مكتوب فيه الحوادث بلغة من لغاتنا بخط يشبه خطوطنا ، وقد مر كلام في معنى اللوح والقلم وسيجيء له تنمة .

وقيل : المراد بالكتاب علمه تعالى وهو بخلاف الظاهر إلا أن يراد به أن الكتاب المكتوب فيه الحوادث من مراتب علمه الفعلي .

وختم الآية بقوله : « إن ذلك على الله يسير » للدلالة على أن تقدير الحوادث قبل وقوعها والقضاء عليها بقضاء لا يتغير لا صعوبة فيه عليه تعالى .

قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » الخ ، تعليل راجع إلى الآية السابقة وهو تعليل للإخبار عن كتابة الحوادث قبل وقوعها لا لنفس الكتابة ، والأمسى الحزن ، والمراد بما فات وما آتى النعمة الفائتة والنعمة المؤتاة .

والمعنى : أخبرناكم بكتابة الحوادث قبل حدوثها وتحقيقها لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم ولا تفرحوا بما أعطاكم الله منها لأن الإنسان إذا أيقن أن الذي أصابه مقدر كائن لا محالة لم يكن ليخطئه وأن ما أوتيته من النعم وديعة عنده إلى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاته ولا فرحه إذا أوتيته .

قيل : إن اختلاف الاسناد في قوله : « ما فاتكم » و « ما آتاكم » حيث أسند الفوت

إلى نفس الأشياء والابتناء إلى الله سبحانه لأن الفوات والعدم ذاتي للأشياء فلو خليت ونفسها لم تبق بخلاف حصولها وبقيائها فإنه لا بد من استنادهما إلى الله تعالى .

وقوله : « والله لا يحب كل مختال فخور » المختال من أخذته الخيلاء وهي التكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه - على ما ذكره الراغب - والفخور الكثير الفخر والمباهاة والاختيال والفخر ناشئان عن توهم الانسان أنه يملك ما أوتيته من النعم باستحقاق من نفسه ، وهو مخالف لما هو الحق من استناد ذلك إلى تقدير من الله لا لاستقلال من نفس الانسان فهما من الرذائل والله لا يحبها .

قوله تعالى : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » وصف لكل مختال فخور يفيد تعليل عدم حبه تعالى . والوجه في بخلهم الاحتفاظ للمال الذي يعتمد عليه اختيالهم وفخرهم والوجه في أمرهم الناس بالبخل أنهم يحبونه لأنفسهم فيحبونه لغيرهم ، ولأن شيوع السخاء والجود بين الناس وإقبالهم على الإنفاق في سبيل الله يوجب أن يعرفوا بالبخل المذموم .

وقوله : « ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » أي ومن يعرض عن الإنفاق ولم يتعظ بعة الله ولا اطمأن قلبه بما بينه من صفات الدنيا ونعت الجنة وتقدير الامور فإن الله هو الغني فلا حاجة له إلى إنفاقهم ، والمحمود في أفعاله .

والآيات الثلاث أعني قوله : « وما أصاب من مصيبة - إلى قوله - الغني الحميد » كما ترى حث على الإنفاق وردع عن البخل والإمساك بتزهدهم عن الأسى بما فاتهم والفرح بما آتاهم لأن الامور مقدرة مقضية مكتوبة في كتاب معينة قبل أن يبرأها الله سبحانه .

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : « ألم يأن » الآية ، أخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن المنذر عن الأعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعدما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت : « ألم يأن للذين آمنوا » .

أقول : هذه أعدل الروايات في نزول السورة وهناك رواية عن ابن مسعود قال : ما

كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » إلا أربع سنين ، وظاهره كون السورة مكية ، وفي معناه ما ورد أن عمر آمن بعد نزول هذه السورة وقد عرفت أن سياق آيات السورة تأبى إلا أن تكون مدنية ، ويمكن حمل رواية ابن مسعود على كون آية « ألم يأن » الخ ، أو هي والتي تتلوها مما نزل بمكة دون باقي آيات السورة .

وفي رواية عن النبي ﷺ استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزل الله « ألم يأن » الآية ، ولأزمه نزول السورة سنة أربع أو خمس من الهجرة ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : « ألم يأن » الخ ، ولأزمه نزول السورة أيام الهجرة ، والروایتان أيضاً لا تلائمان سياق آياتها .

وفيه أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مؤمنوا أمي شهداء ، ثم تلا النبي ﷺ : « والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم » .

وفي تفسير العياشي بإسناده عن منهال القصاب قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ادع الله أن يرزقني الشهادة فقال : إن المؤمن شهيد وقرأ هذه الآية .

أقول : وفي معناه روايات أخرى وظاهر بعضها كهذه الرواية تفسير الشهادة بالقتل في سبيل الله .

وفي تفسير القمي بإسناده عن حفص بن غياث قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك فما حدّ الزهد في الدنيا ؟ فقال : قد حدّ الله في كتابه فقال عز وجل : « لكيلاً تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام : الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله تعالى : « لكيلاً تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه .

أقول : والأساس الذي يبتنيان عليه عدم تعلق القلب بالدنيا ، وفي الحديث المعروف : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

* * *

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ - ٢٥ .
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
فَمِنْهُمْ مُتَقِدٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ - ٢٦ . ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا
أَتْبَغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ
أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ - ٢٧ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ
بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ - ٢٨ . لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ
أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ - ٢٩ .

(بيان)

ثم إنه تعالى إثر ما أشار إلى قسوة قلوب المؤمنين وتثاقلهم وفتورهم في امتثال التكليف
الدينية وخاصة في الإنفاق في سبيل الله ، الذي به قوام أمر الجهاد وشبههم بأهل الكتاب

حيث قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد .

ذكر أن الغرض الإلهي من إرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان معهم أن يقوم الناس بالقسط ، وأن يعيشوا في مجتمع عادل ، وقد أنزل الحديد ليمتحن عباده في الدفاع عن مجتمعهم الصالح وبسط كلمة الحق في الأرض مضافاً إلى ما في الحديد من منافع ينتفعون بها . ثم ذكر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم عليهما السلام وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب وأتبعهم بالرسول بعد الرسول فاستمر الأمر في كل من الأمم على إيمان بعضهم واهتدائه وكثير منهم فاسقون ، ثم ختم الكلام في السورة بدعوتهم إلى تكميل إيمانهم ليؤثروا كفلين من الرحمة .

قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » الخ ، استئناف يتبين به معنى تشريع الدين بإرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان وأن الغرض من ذلك قيسام الناس بالقسط وامتحانهم بذلك وإنزال الحديد ليمتحنهم من ينصر الله بالغيب ويتبين أن أمر الرسالة لم يزل مستمراً بين الناس ولم يزالوا يهتدي من كل أمة بعضهم وكثير منهم فاسقون .

فقوله : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » أي بالآيات البينات التي يتبين بها أنهم مرسلون من جانب الله سبحانه من المعجزات الباهرة والبشارات الواضحة والحجج القاطعة . وقوله : « وأنزلنا معهم الكتاب » وهو الوحي الذي يصلح أن يكتب فيصير كتاباً ، المشتمل على معارف الدين من اعتقاد وعمل وهو خمسة : كتاب نوح وكتاب إبراهيم والتوراة والإنجيل والقرآن .

وقوله : « والميزان ليقوم الناس بالقسط » فسروا الميزان بذني الكفتين الذي يوزن به الأثقال ، وأخذوا قوله : « ليقوم الناس بالقسط » غاية متعلقة بإنزال الميزان والمعنى : وأنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل في معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان والنسب بين الأشياء فقوام حياة الإنسان بالاجتماع وقوام الاجتماع بالمعاملات الدائرة بينهم والمبادلات في الأمعة والسلع وقوام المعاملات في ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها وهو شأن الميزان . ولا يبعد - والله أعلم - أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذي يوزن به عقائد أشخاص الإنسان وأعمالهم ، وهو الذي به قوام حياة الناس السعيدة مجتمعين ومنفردين ، وهذا المعنى أكثر ملائمة للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم وقسوة قلوبهم

وجدهم ومساهلتهم في أمر الدين . وقيل : المراد بالميزان هنا العدل وقيل : العقل .
 وقوله : « وأنزلنا الحديد » الظاهر أنه كقوله تعالى : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقد تقدم في تفسير الآية أن تسمية الخلق في الأرض إنزالاً إنما هو باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي عنده ومن الغيب إلى الشهادة قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

وقوله : « فيه بأس شديد ومنافع للناس » البأس هو الشدة في التأثير ويغلب استعماله في الشدة في الدفاع والقتال ، ولا تزال الحروب والمقاتلات وأنواع الدفاع ذات حاجة شديدة إلى الحديد وأقسام الأسلحة المعمولة منه منذ تنبه البشر له واستخراجه .
 وأما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج إلى البيان فله دخل في جميع شعب الحياة وما يرتبط بها من الصنائع .

وقوله : « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » غاية معطوفة على محذوف والتقدير وأنزلنا الحديد لكذا وليعلم الله من ينصره الخ ، والمراد بنصره ورسله الجهاد في سبيله دفاعاً عن مجتمع الدين وبسطاً لكلمة الحق ، وكون النصر بالغيب كونه في حال غيبته منهم أو غيبتهم منه ، والمراد بعلمه بمن ينصره ورسله تمييزهم ممن لا ينصر .
 وختم الآية بقوله : « إن الله قوي عزيز » وكأن وجه الإشارة إلى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو لتمييز الممثل منهم من غيره لا حاجة منه تعالى إلى ناصر ينصره إنه تعالى قوي لا سبيل للضعف إليه عزيز لا سبيل للذلة إليه .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » شروع في الإشارة إلى أن الإهتداء والفسق جاريان في الامم الماضية حتى اليوم فلم تصلح أمة من الامم بعامة أفرادها بل لم يزل كثير منهم فاسقين .
 وضمير « فمنهم » و « منهم » للذرية والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل » في الجمع : التقفية جعل الشيء في إثر شيء على الاستمرار فيه ، ولهذا قيل لمقاطع الشعر قواف إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمرة في غيره على منهاجه . انتهى .
 وضمير « على آثارهم » لنوح وإبراهيم والسابقين من ذريتهما ، والدليل عليه أنه لا نبي

بعد نوح إلا من ذريته لأن النسل بعده له . على أن عيسى من ذرية إبراهيم قال تعالى في نوح : « وجعلنا ذريته هم الباقين » الصافات : ٧٧ ، وقال : « ومن ذريته داود وسليمان - إلى أن قال - وعيسى » الأنعام : ٨٥ ، فالمراد بقوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا » الخ ، التفتية باللاحقين من ذريتهما على آثارهما والسابقين من ذريتهما .

وفي قوله : « على آثارهم » إشارة إلى أن الطريق المسلك واحد يتبع فيه بعضهم أثر بعض .

وقوله : « وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة » الرافة والرحمة - على ما قالوا - مترادفان ، ونقل عن بعضهم أن الرافة يقال في درء الشر والرحمة في جلب الخير .

والظاهر أن المراد يجعل الرافة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه توفيقهم للرافة والرحمة فيما بينهم فكانوا يعيشون على المعاضدة والمسالمة كما وصف الله سبحانه الذين مع النبي ﷺ بالرحمة إذ قال : « رحماء بينهم » الفتح : ٢٩ ، وقيل : المراد يجعل الرافة والرحمة في قلوبهم الأمر بهما والترغيب فيهما ووعد الثواب عليهما .

وقوله : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » الرهبانية من الرهبة وهي الخشية ، ويطلق عرفاً على انقطاع الانسان من الناس لعبادة الله خشية منه ، والابتداع إثبات ما لم يسبق اليه في دين أو سنة أو صنعة ، وقوله : « ما كتبناها عليهم » في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل : ما معنى ابتداعهم لها ؟ فقيل : ما كتبناها عليهم .

والمعنى : أنهم ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانية من غير أن نشرعه نحن لهم .

وقوله : « إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » استثناء منقطع معناه مسا فرضناها عليهم لكنهم وضعوها من عند أنفسهم ابتغاء لرضوان الله وطلباً لرضائه فما حافظوا عليها حق محافظتها بتعديدهم حدودها .

وفيه إشارة إلى أنها كانت مرضية عنده تعالى وإن لم يشرعها بل كانوا هم المبتدعين لها . وقوله : « فآتيناهم الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » إشارة إلى أنهم كالسابقين من أمم الرسل منهم مؤمنون مأجورون على إيمانهم وكثير منهم فاسقون ، والغلبة للفسق .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته »

النخ ، أمر الذين آمنوا بالتقوى والإيمان بالرسول مع أن الذين استجابوا الدعوة فآمنوا بالله آمنوا برسوله أيضاً دليل على أن المراد بالإيمان بالرسول الاتباع التام والطاعة الكاملة لرسوله فيما يأمر به وينهى عنه سواء كان ما يأمر به أو ينهى عنه حكماً من الأحكام الشرعية أو صادراً عنه بماله من ولاية أمور الأمة كما قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً » النساء : ٦٥ .

فهذا إيمان بعد إيمان ومرتبة فوق مرتبة الإيمان الذي ربما يتخلف عنه أثره فلا يترتب عليه لضعفه ، وبهذا يناسب قوله : « يؤتكم كفلين من رحمته » والكفل الحظ والنصيب فله ثواب على ثواب كما أنه إيمان على إيمان .

وقيل : المراد بإيتاء كفلين من الرحمة إيتاؤهم أجرين كمؤمني أهل الكتاب كأنه قيل : يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم في الإيمان بالرسول المتقدمين وبخاتمهم عليهم السلام لا تفرقون بين أحد من رسله .

وقوله : « ويجعل لكم نوراً تمشون به » قيل : يعني يوم القيامة وهو النور الذي أشير إليه بقوله : « يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .

وفيه أنه تقييد من غير دليل بل لهم نورهم في الدنيا وهو المدلول عليه بقوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها الأنعام : ١٢٢ » ونورهم في الآخرة وهو المدلول عليه بقوله : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » الآية ١٢ من السورة وغيره .

ثم كمل تعالى وعده بإيتائهم كفلين من رحمته وجعل نور يمشون به بالمغفرة فقال : « ويفر لكم والله غفور رحيم » .

قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدر على شيء من فضل الله » ظاهر السياق أن في الآية التفاتاً من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبي ﷺ ، والمراد بالعلم مطلق الاعتقاد كالزعم ، و « أن » مخففة من الثقيلة ، وضمير « يقدر » للمؤمنين ، وفي الكلام تعليل لمضمون الآية السابقة .

والمعنى : إنما أمرناهم بالإيمان بعد الإيمان ووعدناهم كفلين من الرحمة وجعل النور والمغفرة لئلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدر على شيء من فضل الله بخلاف المؤمنين من أهل الكتاب حيث يؤتون أجراً مرتين أن آمنوا .

وقيل : إن « لا » في « لئلا يعلم » زائدة وضمير « يقدرُونَ » لأهل الكتاب ، والمعنى : إنما وعدنا المؤمنين بما وعدنا لأن يعلم أهل الكتاب القائلون : إن من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن فله أجر واحد لإيمانه بكتابنا ، أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله إن لم يؤمنوا ، هذا ولا يخفى عليك ما فيه من التكلف .

وقوله : « وأن الفضل بيد الله والله ذو الفضل العظيم » معطوف على « أن لا يعلم » ، والمعنى : إنما وعدنا بما وعدنا لأن كذا كذا ولأن الفضل بيد الله والله ذو الفضل العظيم . وفي الآية أقوال واحتمالات أخر لا جدوى في إيرادها والبحث عنها .

(بحث روائي)

عن جوامع الجامع روي أن جبرئيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال : « مر قومك يزنوا به . »

وفي الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث وقال : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » فأنزله ذلك خلقه إياه .

وفي الجمع عن ابن مسعود قال : كنت رديف رسول الله على الحمار فقال : يا ابن أم عبد هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم . فقال : ظهرت عليهم الجبابة بعد عيسى عليه السلام يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل .

فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى يعنون محمداً صلى الله عليه وآله فتفرقوا في غيرات^(١) الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ، ومنهم من كفر . ثم تلا هذه الآية « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » إلى آخرها .

ثم قال : يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمي ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة .

وفي الكافي بإسناده عن أبي الجارود قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : لقد أتى الله

أهل الكتاب خيراً كثيراً . قال : وما ذلك ؟ قلت : قول الله عز وجل : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - إلى قوله - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » قال : فقال : آتاكم الله كما آتاهم ثم تلا : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » يعني إماماً تأتونه به .

وفي المجمع عن سعيد بن جبير بعث رسول الله ﷺ جعفرأ في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوهم فقدم عليه ودعاه فاستجاب له وآمن به فلما كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً : ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به .

فقدموا مع جعفر فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة استأذنوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا نبي الله إن لنا أموالاً ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فأنزل الله فيهم : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - إلى قوله - ومما رزقناهم ينفقون » فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين .

فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » فخروا على المسلمين فقالوا : يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابنا وكتابكم فله أجران ، ومن آمن منا بكتابنا فله أجر كاجوركم فيما فضلكم علينا ؟ فنزل قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » الآية ، فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة ثم قال : « لئلا يعلم أهل الكتاب » .

* * *

(سورة المجادلة مدنية ، وهي اثنتان وعشرون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ - ١ .
الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا

اللَّائِي وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ
 غَفُورٌ - ٢ . وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا
 فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ - ٣ . فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا
 فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ - ٤ . إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَذَبُوا كَمَا كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ - ٥ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
 عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ - ٦ .

مركز تحقيق كامبوتر علوم اسلامی
 (بیات)

تعرض السورة لمعانٍ متنوعة من حكم وأدب وصفة فطر منها في حكم الظهار
 والنجوى وأدب الجلوس في المجالس وشرط منها يصف حال الذين يحادون الله ورسوله ،
 والذين يوادون أعداء الدين ويصف الذين يتحرزون من موادتهم من المؤمنين ويعدهم وعداً
 جميلاً في الدنيا والآخرة .

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع
 تحاوركما ، الخ ، قال في المجمع : الاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه ، والشكاية
 إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه . قال : والتحاور التراجع وهي المحاورة يقال :
 حاوره محاورة أي راجعه الكلام وتحاورا . انتهى .

الآيات الأربع أو الست نزلت في الظهار وكان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهلي كان الرجل يقول لامرأته : أنت مني كظهر أمي فتنفصل عنه وتحرم عليه مؤبدة وقد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثم ندم عليه فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ تسأله فيه لعلها تجد طريقاً إلى رجوعه إليها وتجادله ﷺ في ذلك وتشتكي إلى الله فنزلت الآيات. والمراد بالسمع في قوله : « قد سمع الله » استجابة الدعوة وقضاء الحاجة من باب الكناية وهو شائع ، والدليل عليه قوله : « تجادلني في زوجها وتشتكي إلى الله » الظاهر في أنها كانت تتوخى طريقاً إلى أن لا تنفصل عن زوجها ، وأما قوله : « والله يسمع تحاوركما » فالسمع فيه بمعناه المعروف .

والمعنى : قد استجاب الله للمرأة التي تجادلني في زوجها - وقد ظاهر منها - وتشتكي غمها وما حل بها من سوء الحال إلى الله والله يسمع تراجمكما في الكلام إن الله سميع للأصوات بصير بالمبررات .

قوله تعالى : « الذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم » الخ ، نفى لحكم الظهار المعروف عندهم وإلغاء لتأثيره بالطلاق والتحريم الأبدي بنفي أمومة الزوجة للزوج بالظهار فإن سنة الجاهلية كانت تلحق الزوجة بالأم بسبب الظهار فتحرم على زوجها حرمة الأم على ولدها حرمة مؤبدة .

فقوله : « ما هن أمهاتهم » أي بحسب اعتبار الشرع بآثار يلحقن شرعاً بهن بسبب الظهار فيحرم عليهن أبداً ثم أكد بقوله : « إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم » أي ليس أمهات أزواجهن إلا النساء اللاتي ولدنهم .

ثم أكد ذلك ثانياً بقوله : « وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً » بما فيه من سياق التأكيد أي وإن هؤلاء الأزواج المظاهرين ليقولون بالظهار منكراً من القول ينكره الشرع حيث لم يعتبره ولم يسنه ، وكذباً باعتبار أنه لا يوافق الشرع كما لا يطابق الخارج الواقع في الكون فأفادت الآية أن الظهار لا يفيد طلاقاً وهذا لا ينافي وجوب الكفارة عليه لو أراد المواقعة بعد الظهار فالزوجة على حالها وإن حرمت المواقعة قبل الكفارة . وقوله : « وإن الله لعفو غفور » لا يخلو من دلالة على كونه ذنباً مغفوراً لكن ذكر الكفارة في الآية التالية مع تذييلها بقوله : « وتلك حدود الله للكافرين عذاب أليم » ربما دل على أن المغفرة مشروطة بالكفارة .

قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » الخ ، الكلام في معنى الشرط ولذلك دخلت الفاء في الخبر لأنه في معنى الجزاء والمحصل : أن الذين يظاهروا منهن ثم أرادوا العود لما قالوا فعليهم تحرير رقبة .
وفي قوله : « من قبل أن يتماسا » دلالة على أن الحكم في الآية لمن ظاهر ثم أراد الرجوع إلى ما كان عليه قبل الظهار وهو قرينة على أن المراد بقوله : « يعودون لما قالوا » إرادة العود إلى نقض ما أبرموه بالظهار .

والمعنى : والذين يظاهرون من نسائهم ثم يريدون أن يعودوا إلى ما تكلموا به من كلمة الظهار فينقضوها بالمواقعة فعليهم تحرير رقبة من قبل أن يتماسا .
وقيل : المراد بعودهم لما قالوا ندمهم على الظهار ، وفيه أن الندم عليه يصلح أن يكون محصل المعنى لا أن يكون معنى الكلمة « يعودون لما قالوا » .

وقيل : المراد بعودهم لما قالوا رجوعهم إلى ما تلفظوا به من كلمة الظهار بأن يتلفظوا بها ثانياً وفيه أن لازمه ترتب الكفارة دائماً على الظهار الثاني دون الأول والآية لا تفيد ذلك والسنة إنما اعتبرت تحقق الظهار دون تعدده .

ثم ذيل الآية بقوله : « ذلكم توعدون به والله بما تعملون خبير » إيداناً بأن ما أمر به من الكفارة توصية منه بها عن خبرة بعملهم ذلك ، فالكفارة هي التي ترتفع بها ما لحقهم من تبعة العمل .

قوله تعالى : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا » إلى آخر الآية خصلة ثانية من الكفارة مترتبة على الخصلة الأولى لمن لا يتمكن منها وهي صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، وقيد ثانياً بقوله : « من قبل أن يتماسا » لدفع توهم اختصاص القيد بالخصلة الأولى .

وقوله : « فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » بيان للخصلة الثالثة فمن لم يطق صيام شهرين متتابعين فعليهم إطعام ستين مسكيناً وتفصيل الكلام في ذلك كله في الفقه .
وقوله : « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » أي ما جعلناه من الحكم وافترضناه من الكفارة فأبقينا علاقة الزوجية ووضعنا الكفارة لمن أراد أن يرجع إلى الواقعة جزاء بما أتى بسنة من سنن الجاهلية كل ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وترفضوا أباطيل السنن .

وقوله : « وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » حد الشيء ما ينتهي إليه ولا

الجزء الثامن والعشرون

تعداه وأصله المنع ، والمراد أن ما افترضناه من الحصول أو ما نضعها من الأحكام حدود الله فلا تتعدوها بالخالفه وللكافرين بما حكنا به في الظهار أو بما شرعناه من الأحكام بالخالفه والمحادة عذاب أليم .

والظاهر أن المراد بالكفر رد الحكم والأخذ بالظهار بما أنه سنة مؤثرة مقبولة ، ويؤيده قوله : « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » أي تدعونا بأن حكم الله حق وأن رسوله صادق أمين في تبليغه ، وقد أكد به بقوله : « وتلك حدود الله » الخ ، ويمكن أن يكون المراد بالكفر الكفر في مقام العمل وهو العصيان .

قوله تعالى : « إن الذين يحادّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم » الخ ، المحادة الممانعة والخالفه ، والكبت الإذلال والإخزاء .

والآية والتي تتلوها وإن أمكن أن تكونا استثناءً يبين أمر محادة الله ورسوله من حيث تبعثها وأثرها لكن ظاهر السياق أن تكونا مسوقتين لتعليل ذيل الآية السابقة الذي معناه النهي عن محادة الله ورسوله ، والمعنى : إنما أمرناكم بالإيمان بالله ورسوله ونهيناكم عن تعدي حدود الله والكفر بها لأن الذين يحادّون الله ورسوله بالخالفه أذلّوا وأخزوا كما أذلّ وأخزي الذين من قبلهم .

ثم أكد به بقوله : « وقد بينّا آيات بينات » وللكافرين عذاب مهين ، أي لا ريب في كونها منا وفي أن رسولنا صادق أمين في تبليغها ، وللكافرين بها الرادين لها عذاب مهين مخز .

قوله تعالى : « يوم يبعثهم الله فينبئهم بما عملوا » ظرف لقوله : « وللكافرين عذاب أليم » أي لهم أليم العذاب في يوم يبعثهم الله وهو يوم الحساب والجزاء فيخبرهم بحقيقة جميع ما عملوا في الدنيا .

وقوله : « أحصاه الله ونسوه » الإحصاء الإحاطة بعدد الشيء من غير أن يفوت منه شيء ، قال الراغب : الإحصاء التحصيل بالعدد يقال : أحصيت كذا ، وذلك من لفظ الحصى ، واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدونه في العدد كاعتقادنا فيه على الأصابع . انتهى .

وقوله : « إن الله على كل شيء شهيد » تعليل لقوله : « أحصاه الله » وقد مر تفسير شهادة الله على كل شيء في آخر سورة حم السجدة .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن ماجة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول : يا رسول الله أكل شباي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو اليك فما برحت حتى نزل جبرئيل بهذه الآيات « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وهو أوس ابن الصامت .

أقول : والروايات من طرق أهل السنة في هذا المعنى كثيرة جداً ، واختلفت في اسم المرأة واسم أبيها واسم زوجها واسم أبيه والأعراف أن اسمها خولة بنت ثعلبة واسم زوجها أوس بن الصامت الأنصاري وأورد القمي إجمال القصة في رواية ، وله رواية أخرى ستوافيك .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ، فاما ما ذهب اليه أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام فهو أن المراد بالعود إرادة الوطء ونقض القول الذي قاله فإن الوطء لا يجوز له إلا بعد الكفارة ، ولا يبطل حكم قوله الأول إلا بعد الكفارة .

وفي تفسير القمي حدثنا علي بن الحسين قال : حدثنا محمد بن أبي عبد الله عن الحسن بن محبوب عن أبي ولادة عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن امرأة من المسلمات أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إن فلاناً زوجي وقد نثرت له بطني وأعنته على دنياه وآخرته لم تر مني مكروهاً أشكوه اليك . قال : فيم تشكونيه ؟ قالت : إنه قال : أنت عليّ حرام كظهر أمي وقد أخرجني من منزلي فانظر في أمري . فقال لها رسول الله ﷺ : ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً أقضي فيه بينك وبين زوجك وأنا أكره أن أكون من المتكلفين ، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها إلى الله عز وجل وإلى رسول الله ﷺ وانصرفت .

قال : فسمع الله تبارك وتعالى مجادلتها لرسول الله ﷺ في زوجها وما شكت اليه ، وأنزل الله في ذلك قرآناً « بسم الله الرحمن الرحيم ، قد سمع الله قول التي تجادلك في

زوجها - إلى قوله - وإن الله لعفو غفور .

قال : فبعث رسول الله ﷺ إلى المرأة فأتته فقال لها : جيئي بزوجك ، فأتته فقال له : أقلت لامرأتك هذه : أنت حرام علي كظهر أمي ؟ فقال : قد قلت لها ذلك . فقال له رسول الله ﷺ : قد أنزل الله تبارك وتعالى فيك وفي امرأتك قرآناً وقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك - إلى قوله - إن الله لعفو غفور » ، فضم اليك امرأتك فإنك قد قلت منكراً من القول وزوراً ، وقد عفى الله عنك وغفر لك ولا تعد .

قال : فانصرف الرجل وهو نادم على ما قال لامراته ، وكره الله عز وجل ذلك للمؤمنين بعد وأنزل الله : « الذين يظاهرون من نساءهم ثم يعودون لما قالوا » يعني لما قال الرجل لامراته : أنت علي كظهر أمي .

قال : فمن قالها بعد ما عفى الله وغفر للرجل الأول فإن عليه « تحرير رقبة من قبل أن يتأسا » يعني بحمامتها « ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » قال : فجعل الله عقوبة من ظاهر بعد النهي هذا . ثم قال : « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله » قال : هذا حد الظهار . الحديث .

أقول : الآية بما لها من السياق وخاصة ما في آخرها من ذكر العفو والمغفرة أقرب انطباقاً على ما سبق من القصة في هذه الرواية ، ولا بأس بها من حيث السند أيضاً غير أنها لا تلائم ظاهر ما في الآية من قوله : « الذين يظاهرون من نساءهم ثم يعودون لما قالوا » .

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ - ٧ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا

عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ
فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَنُشْسَ
الْمَصِيرُ - ٨ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ - ٩ . إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ - ١٠ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي
الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ - ١١ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ
يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَظْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ - ١٢ . أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ
فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ - ١٣ .

(بيان)

آيات في النجوى وبعض آداب المجالسة .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض » الإستفهام إنكاري ، والمراد بالرؤية العلم اليقيني على سبيل الاستعارة ، والجملة مقدمة يعلل بها ما يتلوها من كونه تعالى مع أهل النجوى مشاركاً لهم في نجواهم .

قوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم » إلى آخر الآية النجوى مصدر بمعنى التناجي وهو المسارة ، وضمائر الإفراد لله سبحانه ، والمراد بقوله : « رابعهم » و « سادسهم » جاعل الثلاثة أربعة وجاعل الخمسة ستة بمشاركته لهم في العلم بما يتناجون فيه ومعيته لهم في الإطلاع على ما يسارون فيه كما يشهد به ما احتف بالكلام من قوله في أول الآية : « ألم تر أن الله يعلم » الخ ، وفي آخرها من قوله : « إن الله بكل شيء عليم » .

وقوله : « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر » أي ولا أقل مما ذكر من العدد ولا أكثر مما ذكر ، وبهاتين الكلمتين يشمل الكلام عدد أهل النجوى أي ما كان أما الأدنى من ذلك فالأدنى من الثلاثة الإثنان والأدنى من الخمسة الأربعة ، وأما الأكثر فالأكثر من خمسة الستة فما فوقها .

ومن لطف سياق الآية ترتب ما أشير إليه من مراتب العدد : الثلاثة والأربعة والخمسة والستة من غير تكرار فلم يقل : من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا أربعة إلا هو خامسهم وهكذا .

وقوله : « إلا هو معهم أينما كانوا » المراد به المعية من حيث العلم بما يتناجون به والمشاركة لهم فيه .

وبذلك يظهر أن المراد بكونه تعالى رابع الثلاثة المتناجين وسادس الخمسة المتناجين معيته لهم في العلم ومشاركته لهم في الإطلاع على ما يسارون لا بمائلته لهم في تميم العدد فإن كلا منهم شخص واحد جسماني يكون بانضمامه إلى مثله عدد الإثنين وإلى مثليه الثلاثة والله سبحانه منزّه عن الجسمية بريء من المادية .

وذلك أن مقتضى السياق أن المستثنى من قوله : « ما يكون من نجوى » الخ ، معنى

واحد وهو أن الله لا يخفى عليه نجوى فقوله : « إلا هو رابعهم » « إلا هو سادسهم » في معنى قوله : « إلا هو معهم » وهو المعية العلمية أي أنه يشاركهم في العلم ويقارنهم فيه أو المعية الوجودية بمعنى أنه كلما فرض قوم يتناجون فالله سبحانه هناك مسمع عليهم .
وفي قوله : « أينما كانوا » تعمم من حيث المكان إذ لما كانت معيته تعالى لهم من حيث العلم لا بالاقتران الجسماني لم يتفاوت الحال ولم يختلف باختلاف الأمكنة بالقرب والبعد فالله سبحانه لا يخلو منه مكان وليس في مكان .

وبما تقدم يظهر أيضاً أن - ما تفيد الآية من معيته تعالى لأصحاب النجوى وكونه رابع الثلاثة منهم وسادس الخمسة منهم لا ينافي ما تقدم تفصيلاً في ذيل قوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائدة : ٧٣ ، من أن وحدته تعالى ليست وحدة عددية بل وحدة أحدية يستحيل معها فرض غير معه يكون ثانياً له فالمراد بكونه معهم ورابعاً للثلاثة منهم وسادساً للخمسة منهم أنه عالم بما يتناجون به وظاهر مكشوف له ما يخفونه من غيرهم لا أن له وجوداً محدوداً يقبل العد يمكن أن يفرض له ثالث وثالث وهكذا .

وقوله : « ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » أي يخبرهم بحقيقة ما عملوا من عمل ومنه نجواهم ومسارتهم .

وقوله : « إن الله بكل شيء عليم » تعليل لقوله : « ثم ينبئهم » الخ ، وتأكيده لما تقدم من علمه بما في السماوات وما في الأرض ، وكونه مع أصحاب النجوى .
والآية تصلح أن تكون توطئة وتمهيداً لمضمون الآيات التالية ولا يخلو ذيلها من لحن شديد يرتبط بما في الآيات التالية من الذم والتهديد .

قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » إلى آخر الآية سياق الآيات يدل على أن قوماً من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين كانوا قد أشاعوا بينهم النجوى محادة للنبي ﷺ والمؤمنين يتناجون بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وليؤذوا بذلك المؤمنين ويحزنون وكانوا يصرون على ذلك من غير أن ينتهوا بنهي فنزلت الآيات .

فقوله : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » ذم وتوبيخ غيابي لهم ، وقد خاطب النبي ﷺ ولم يخاطبهم أنفسهم مبالغة في تحقير أمرهم وإبعاداً لهم

عن شرف المخاطبة .

والمعنى : ألم تنظر إلى الذين نهوا عن التناجي بينهم بما يغفم المؤمنين ويحزنهم ثم يعودون إلى التناجي الذي نهوا عنه عودة بعد عودة ، وفي التعبير بقوله : « يعودون » دلالة على الاستمرار ، وفي العدول عن ضمير النجوى إلى الموصول والصلة حيث قيل : « يعودون لما نهوا عنه » ولم يقل « يعودون اليها دلالة على سبب الذم والتوبيخ ومساءة العود لأنها أمر منهي عنه .

وقوله : « يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » المقابلة بين الأمور الثلاثة : الإثم والعدوان ومعصية الرسول تفيد أن المراد بالإثم هو العمل الذي له أثر سيئ لا يتعدى نفس عامله كشرب الخمر والميسر وترك الصلاة مما يتعلق من المعاصي بحقوق الله ، والعدوان هو العمل الذي فيه تجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس ويتأذون مما يتعلق من المعاصي بحقوق الناس ، والقسمان أعني الإثم والعدوان جميعاً من معصية الله ، ومعصية الرسول مخالفته في الأمور التي هي جائزة في نفسها لا أمر ولا نهي من الله فيها لكن الرسول أمر بها أو نهى عنها لمصلحة الأمة بماله ولاية أمورهم والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما نهاهم عن النجوى وإن لم يشتمل على معصية .

كان ما تقدم من قوله : « الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » ذمّاً وتوبيخاً لهم على نفس نجواهم بما أنها منهي عنها مع الغض عن كونها بمعصية أو غيرها : وهذا الفصل أعني قوله : « ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » ذم وتوبيخ لهم بما يشتمل عليه تناجيهم من المعصية بأنواعها وهؤلاء القوم هم المنافقون ومرضى القلوب كانوا يكثر من النجوى بينهم ليفتم بها المؤمنون ويحزنوا ويتأذوا .

وقيل : المنافقون واليهود كان يناجي بعضهم بعضاً ليحزنوا المؤمنين ويلقوا بينهم الوحشة والفرع ويوهنوا عزمهم لكن في شمول قوله : « الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » لليهود خفاء .

وقوله : « وإذا جاؤك حيوك بما لم يحبك به الله » فإن الله حيّاه بالتسليم وشرع له ذلك تحية من عند الله مباركة طيبة وهم كانوا يحبون به غيره . قالوا : هؤلاء هم اليهود كانوا إذا أتوا النبي ﷺ قالوا : السام عليك - والسام هو الموت - وهم يوهمون أنهم يقولون : السلام عليك ، ولا يخلو من شيء فإن الضمير في « جاؤك » و « حيوك » للموصول

في قوله : « الذين نهوا عن النجوى » وقد عرفت أن في شموله لليهود خفاء .
 وقوله : « ويقولون في أنفسهم لو لا يعذبنا الله بما نقول » معطوف على « حيوك » أو
 حال وظاهره أن ذلك منهم من حديث النفس مضمين ذلك في قلوبهم ، وهو تحضيض
 بداعي الطعن والتهم فيكون من المنافقين إنكاراً لرسالة النبي ﷺ على طريق الكناية
 والمعنى : أنهم يحيونك بما لم يحبك به الله وهم يحدثون أنفسهم بدلالة قولهم ذلك - ولولا
 يعذبهم الله به - على أنك لست برسول من الله ولو كنت رسوله لعذبهم بقولهم .
 وقيل : المراد بقوله : « ويقولون في أنفسهم » يقولون فيما بينهم بتحديث بعض منهم
 لبعض ولا يخلو من بعد .

وقد رد الله عليهم احتجاجهم بقولهم : « لولا يعذبنا الله بما نقول » بقوله : « حسبهم
 جهنم يصلونها وبئس المصير » أي إنهم مخطئون في نفيهم العذاب فهم معذبون بما أعد لهم
 من العذاب وهو جهنم التي يدخلونها ويقاسون حرها وكفى بها عذاباً لهم .
 وكان المنافقين ومن يلحق بهم لما لم ينتهوا بهذه المناهي والتشديدات نزل قوله تعالى :
 « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم
 لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » الآيات
 الأحزاب : ٦١ .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية
 الرسول » الخ ، لا يخلو سياق الآيات من دلالة على أن الآية نزلت في رفع الخطر وقد خوطب
 فيها المؤمنون فاجيز لهم النجوى واشترط عليهم أن لا يكون تناجياً بالإثم والعدوان
 ومعصية الرسول وأن يكون تناجياً بالبر والتقوى والبر وهو التوسع في فعل الخير يقابل
 العدوان ، والتقوى مقابل الإثم ثم أكد الكلام بالأمر بطلاق التقوى بإنذارهم بالحشر
 بقوله : « واتقوا الله الذي إليه تحشرون » .

قوله تعالى : « إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا
 بإذن الله » الخ ، المراد بالنجوى - على ما يفيد السياق - هو النجوى الدائرة في تلك
 الأيام بين المنافقين ومرضى القلوب وهي من الشيطان فإنه الذي يزيتها في قلوبهم ليتوسل
 بها إلى حزنهم ويشوش قلوبهم ليوهمهم أنها في ثأبة حلت بهم وبليّة أصابتهم .
 ثم طيب الله سبحانه قلوب المؤمنين بتذكيرهم أن الأمر إلى الله سبحانه وأن الشيطان

أو التناجي لا يضرهم شيئاً إلا بإذن الله فليتركوا عليه ولا يخافوا ضره وقد نص سبحانه في قوله: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» الطلاق: ٣ أنه يكفي من توكل عليه، واستنهضهم على التوكل بأنه من لوازم إيمان المؤمن فإن يكونوا مؤمنين فليتركوا عليه فهو يكفيهم . وهذا معنى قوله: «وليس بضرهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتركوا المؤمنون» .

قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم» الخ، التفسح الاتساع وكذا الفسح، والمجالس جمع مجلس اسم مكان، والاتساع في المجلس أن يتسع المجالس ليسع المكان غيره وفسح الله له أن يوسع له في الجنة .

والآية تتضمن أدباً من آداب المعاشرة، ويستفاد من سياقها أنهم كانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ فيجلسون ركاً لا يدع لغيرهم من الواردين مكاناً يجلس فيه فادّبروا بقوله: «إذا قيل لكم تفسحوا» الخ، والحكم عام وإن كان مورد النزول مجلس النبي ﷺ . والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا في المجالس ليسع المكان معكم غيركم فتوسعوا وسع الله لكم في الجنة .

وقوله: «وإذا قيل انشزوا فانشزوا» يتضمن أدباً آخر، والنشوز - كما قيل - الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه، والنشوز عن المجلس أن يقوم الإنسان عن مجلسه ليجلس فيه غيره إعظاماً له وتواضعاً لفضله .

والمعنى: وإذا قيل لكم قوموا ليجلس مكانكم من هو أفضل منكم في علم أو تقوى فقوموا .

وقوله: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» لا ريب في أن لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى، وهذا قرينة عقلية على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدل الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين: مؤمن ومؤمن عالم، والمؤمن العالم أفضل وقد قال تعالى: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» الزمر: ٩ .

ويتبين بذلك أن ما ذكر من رفع الدرجات في الآية مخصوص بالذين أوتوا العلم ويبقى لسائر المؤمنين من الرفع الرفع درجة واحدة ويكون التقدير يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات .

وفي الآية من تعظيم أمر العلماء ورفع قدرهم ما لا يخفى . وأكد الحكم بتذييل الآية

بقوله : « والله بما تعملون خبير » .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة »
الخ ، أي إذا أردتم أن تناجوا الرسول فتصدقوا قبلها .

وقوله : « ذلك خير لكم وأطهر » تعليل للتشريع نظير قوله : « وأن تصوموا خير
لكم » البقرة : ١٨٤ ، ولا شك أن المراد بكونها خيراً لهم وأطهر أنها خير لنفوسهم وأطهر
لقلوبهم ولعمل الوجه في ذلك أن الأغنياء منهم كانوا يكثرُونَ من مناجاة النبي ﷺ
يظهرون بذلك نوعاً من التقرب إليه والاختصاص به وكان الفقراء منهم يحزنون بذلك
وينكسر قلوبهم فامروا أن يتصدقوا بين يدي نجواهم على فقرائهم بما فيها من ارتباط
النفوس وإثارة الرحمة والشفقة والمودة وصلة القلوب بزوال الغيظ والحنق .

وفي قوله : « ذلك » التفات إلى خطاب النبي ﷺ بين خطابين للمؤمنين وفيه
تجليل لطيف له ﷺ حيث إن حكم الصدقة مرتبط بنجواه ﷺ والالتفات إليه
فيما يرجع إليه من الكلام مزيد عناية به .

وقوله : « فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » أي فإن لم تجدوا شيئاً تتصدقون به
فلا يجب عليكم تقديمها وقد رخص الله لكم في نجواه وعفى عنكم إنه غفور رحيم فقوله :
« فإن الله غفور رحيم » من وضع السبب موضع المسبب .
وفيه دلالة على رفع الوجوب عن المعدمين كما أنه قرينة على إرادة الوجوب في قوله :
« فقدموا » الخ ، ووجوبه على الموسرين .

قوله تعالى : « أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » الخ ، الآية ناسخة لحكم
الصدقة المذكور في الآية السابقة ، وفيه عتاب شديد لصحابة النبي ﷺ والمؤمنين حيث
إنهم تركوا مناجاته ﷺ خوفاً من بذل المال بالصدقة فلم يناجيه أحد منهم إلا على
نحو قوله فإنه ناجاه عشر نجوات كلها ناجاه قسماً بين يدي نجواه صدقة ثم نزلت الآية
ونسخت الحكم .

والإشفاق الخشية ، وقوله : « أن تقدموا » الخ ، مفعوله والمعنى : أخشيتم التصديق
وبذل المال للنجوى ، واحتمل أن يكون المفعول محذوفاً والتقدير أخشيتم الفقر لأجل
بذل المال .

قال بعضهم : جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة

لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر وتقديم صدقات .
 وقوله : « فإذ لم تفعلوا وقاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » الخ ، أي فإذا لم تفعلوا ما كلفتم به ورجع الله إليكم العفو والمغفرة فأثبتوا على امتثال سائر التكاليف من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .
 ففي قوله : « وقاب الله عليكم » دلالة على كون ذلك منهم ذنباً ومعصية غير أنه تعالى غفر لهم ذلك .
 وفي كون قوله : « فأقيموا الصلاة » الخ ، متفرعاً على قوله : « فإذ لم تفعلوا » الخ ، دلالة على نسخ حكم الصدقة قبل النجوى .
 وفي قوله : « وأطيعوا الله ورسوله » تعميم لحكم الطاعة لسائر التكاليف بإيجاب الطاعة المطلقة ، وفي قوله : « والله خير بما تعملون » نوع تشديد يؤكد به حكم وجوب طاعة الله ورسوله .

(بحث روائي)

في المجمع وقرأ حمزة ورويس عن يعقوب بن يزيد « ينتجون » والباقون « يتناجون » ويشهد لقراءة حمزة قول النبي ﷺ في علي بن أبي طالب - لما قال له بعض أصحابه : أتناجيه دوننا - ؟ ما أنا انتجيته بل الله انتجاه .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن ابن عمر أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك يريدون بذلك شتمه ثم يقولون في أنفسهم : « لولا يعذبنا الله بما نقول » فنزلت هذه الآية « وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله » .

وفيه أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك فنزلت .

أقول : وهذه الرواية أقرب إلى التصديق من سابقتها لما تقدم في تفسير الآية ، وفي رواية القمي في تفسيره أنهم كانوا يحيونه بقولهم : أنعم صباحاً وأنعم مساء ، وهو تحية أهل الجاهلية .

وفي المجمع في قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقد ورد أيضاً في الحديث أنه عليه السلام قال : فضل العالم على الشهيد درجة ، وفضل الشهيد على العابد درجة ، وفضل النبي على العالم درجة ، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه ، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم . رواه جابر بن عبد الله . أقول : وذيل الرواية لا يخلو من شيء فإن ظاهر رجوع الضمير في « أدناهم » إلى الناس اعتبار مراتب في الناس فمنهم الأعلى ومنهم المتوسط ، وإذا كان فضل العالم على سائر الناس وفيهم الأعلى رتبة كفضل النبي على أدنى الناس كان العالم أفضل من النبي وهو كما ترى .

اللهم إلا أن يكون الأدنى بمعنى الأقرب والمراد بأدناهم أقربهم من النبي وهو العالم كما يلوح من قوله : وفضل النبي على العالم درجة ، فيكون المقاد أن فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أقربهم مني وهو العالم .

وفي الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن علي قال : إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها بعدي آية النجوى « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت « أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » الآية .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : سأله عن قول الله عز وجل : « إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » قال : قدم علي بن أبي طالب عليه السلام بين يدي نجواه صدقة ثم نسخها بقوله : « أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر من طرق الفريقين .

* * *

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا

مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ — ١٤ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ — ١٥ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ
جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ — ١٦ . لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ — ١٧ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ
لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ — ١٨ . اِسْتَحْوَذَ
عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ — ١٩ . إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
فِي الْأَذْلَلِينَ — ٢٠ . كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ
عَزِيزٌ — ٢١ . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ — ٢٢ .

(بيات)

تذكر الآيات قوماً من المنافقين يتولون اليهود ويوادونهم وهم يحادون الله ورسوله
وتدمنهم على ذلك وتهتدهم بالعذاب والشقوة تهديداً شديداً ، وتقطع بالآخرة أن الإيمان

بالله واليوم الآخر يمنع عن موادة من يحادّ الله ورسوله كائناً من كان ، وتمسّح المؤمنين المتبرئين من أعداء الله وتمدهم إيماناً مستقراً وروحاً من الله وجنة ورضواناً .

قوله تعالى : « ألم ترَ إلى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم » الخ ، القوم المغضوب عليهم هم اليهود ، قال تعالى : « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » المائدة : ٦٠ .

وقوله : « ما هم منكم ولا منهم » ضمير « هم » للمنافقين وضمير « منهم » لليهود ، والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لتذبذبهم بين الكفر والإيمان ليسوا منكم ولا من اليهود ، قال تعالى : « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » النساء : ١٤٣ .

وهذه صفتهم بحسب ظاهر حالهم وأما بحسب الحقيقة فهم ملحقون بمن تولوهم ، قال تعالى : « ومن يتولّهم منكم فإنه منهم » المائدة : ٥١ ، فلا منافاة بين قوله : « ما هم منكم ولا منهم » وقوله : « فإنه منهم » .

واحتمل بعضهم أن ضمير « هم » للقوم وهم اليهود وضمير « منهم » للموصول وهم المنافقون ، والمعنى : تولوا اليهود الذين ليسوا منكم وأنتم مؤمنون ولا من هؤلاء المنافقين أنفسهم بل أجنبيون برآء من الطائفتين ، وفيه نوع من الذم ، وهو بعيد .

وقوله : « ويخلفون على الكذب وهم يعلمون » أي يخلفون لكم على الكذب أنهم منكم مؤمنون أمثالكم وهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم .

قوله تعالى : « أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون » الإعداد التهيئة ، وقوله : « إنهم ساء » الخ ، تغليل للإعداد ، وفي قوله : « كانوا يعملون » دلالة على أنهم كانوا مستمرين في عملهم مداومين عليه .

والمعنى : هيأ الله لهم عذاباً شديداً لاستمرارهم على عملهم السيئ .

قوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جنة فصدّوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين » الأيمان جمع يمين وهو الحلف ، والجنة السترة التي يتقى بها الشر كالترس ، والمهين اسم فاعل من الإهانة بمعنى الإذلال والإخزاء .

والمعنى : اتخذوا أيمانهم سترة يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة كلما ظهر منهم أمر يريب المؤمنين فصرفوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله وهو الإسلام فلهم - لأجل ذلك -

عذاب 'مذل' 'مخز' .

قوله تعالى : « لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » أي إن الذي دعاهم إلى ما هم عليه متاع الحياة الدنيا الذي هو الأموال والأولاد لكنهم في حاجة إلى التخلص من عذاب خالد لا يقضيها لهم إلا الله سبحانه فهم في فقر إليه لا يغنيهم عنه أموالهم ولا أولادهم شيئاً فليؤمنوا به وليعبدوه .

قوله تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء » الخ ، ظرف لما تقدم من قوله : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » أو لقوله : « أولئك أصحاب النار » ، وقوله : « فيحلفون له كما يحلفون لكم » أي يحلفون لله يوم البعث كما يحلفون لكم في الدنيا .

وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى : « ثم لم تكن فنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » الأنعام : ٢٣ أن حلفهم على الكذب يوم القيامة مع ظهور حقائق الأمور يومئذ من ظهور ملكاتهم هناك لرسوخها في نفوسهم في الدنيا فقد اعتادوا فيها على إظهار الباطل على الحق بالآيات الكاذبة وكما يعيشون يموتون وكما يموتون يبعثون .

ومن هذا القبيل سؤالهم الرد إلى الدنيا يومئذ ، والخروج من الدار وخصامهم في النار وغير ذلك مما يقصته القرآن الكريم ، وهم يشاهدون مشاهدة عيان أن لا سبيل إلى شيء من ذلك واليوم يوم جزاء لا يوم عمل .

وأما قوله : « وهم يحسبون أنهم على شيء » أي مستقرون على شيء يصلح أن يستقر عليه ويتمكن فيه فيمكنهم السر على الحق والمنع عن ظهور كذبهم بمثل الإنكار والحلف الكاذب .

فيمكن أن يكون قيداً لقوله : « كما يحلفون لكم » فيكون إشارة إلى وصفهم في الدنيا وأنهم يحسبون أن حلفهم لكم ينفعهم ويرضيكم ، ويكون قوله : « ألا إنهم هم الكاذبون » قضاءً منه تعالى في حقهم بأنهم كاذبون فلا يصغى إلى ما يهذون به ولا يعتنى بما يحلفون به .

ويمكن أن يكون قيداً لقوله : « فيحلفون له » فيكون من قبيل ظهور الملكات يومئذ كما تقدم في معنى حلفهم آنفاً ، ويكون قوله : « ألا إنهم هم الكاذبون » حكماً منه تعالى بكذبهم يوم القيامة أو مطلقاً .

قوله تعالى : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » الاستحواذ الاستيلاء والغلبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « إن الذين يحادّثون الله ورسوله أولئك في الأذلين » تعليل لكونهم هم الخاسرين أي إنما كانوا خاسرين لأنهم يحادّثون الله ورسوله بالمخالفة والمعاندة والمحادّثون الله ورسوله في جملة الأذلين من خلق الله تعالى .

قيل : إنما كانوا في الأذلين لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وإذا كانت العزة لله جميعاً فلا يبقى لمن حادّه إلا الذلة محضاً .

قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » الكتابة هي القضاء منه تعالى .

وظاهر إطلاق الغلبة شمولها للغلبة من حيث الحججة ومن حيث التأييد الغيبي ومن حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله :

أما من حيث الحججة فإن الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له فلو بين له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله وإذا عقله اعترفت له فطرته وخضعت له طويته وإن لم يخضع له عملاً اتباعاً لهوى أو أي مانع يمنعه عن ذلك .

وأما الغلبة من حيث التأييد الغيبي والقضاء للحق على الباطل فيكفي فيها أنواع العذاب التي أنزلها الله تعالى على مكذبي الأمم الماضين كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وعلى آل فرعون وغيرهم ممن يشير تعالى اليهم بقوله : « ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذّبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعثنا لقوم لا يؤمنون » المؤمنون : ٤٤ ، وعلى ذلك جرت السنة الإلهية وقد أجمل ذكرها في قوله : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » يونس : ٤٧ .

وأما الغلبة من حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه إلى الدفاع والذنب عن الحق والمقاومة تجاه الباطل مطلقاً وهو يرى أنه إن قتل فاز وإن قتل فاز فثباته على الدفاع غير مقيد بقيد ولا محدود بمحدود وهذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شيء من المقاصد الدنيوية فإنه إنما يدافع لأجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفة على هلكة أو راكبة مخاطرة تولى منهزماً فهو إنما يدافع على شرط وإلى حد وهو سلامة النفس وعدم الإشراف على الهلكة ومن الضروري أن العزيمة المطلقة تغلب العزيمة المقيدة

بقيد المحدودة بحمد ومن الشاهد عليه غزوات رسول الله ﷺ بمسا أدت اليه من الفتح والظفر في عين أنها كانت سجالات لكن لم تنته إلا إلى تقدم المسلمين وغلبيتهم .

ولم تقف الفتوحات الإسلامية ولا تفرقت جموع المسلمين أيادي سباً إلا بفساد نياتهم وتبديل سيرة التقوى والإخلاص لله وبسط الدين الحق من بسط السلطة وتوسعة المملكة « ذلك بأن الله لم يكُ مغيثاً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١) وقد اشترط الله عليهم حين أكمل دينهم وأمتهم من عدوهم أن يخشوه إذ قال : « اليوم يشس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني » .

ويكفي في تسجيل هذه الغلبة قوله تعالى فيما يخاطب المؤمنين : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » آل عمران : ١٣٩ .

قوله تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » الخ ، ففي وجدان قوم على هذه الصفة كناية عن أن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر لا يجتمع موادة أهل المحادة والمعادنة من الكفار ولو قسارن أي سبب من أسباب المودة كالأبوة والبنوة والاخوة وسائر أقسام القرابة فبين الإيمان وموادة أهل المحادة تضاداً لا يجتمعان لذلك .

وقد بان أن قوله : « ولو كانوا آباءهم » الخ ، إشارة إلى أسباب المودة مطلقاً وقد خصت مودة النسب بالذكر لكونه أقوى أسباب المودة من حيث ثباته وعدم تغيره .

وقوله : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان » الإشارة إلى القوم بما ذكر لهم من الصفة ، والكتابة الإثبات بحيث لا يتغير ولا يزول والضمير لله وفيه نص على أنهم مؤمنون حقاً .

وقوله : « وأيئدهم بروح منه » التأيد التقوية ، وضمير الفاعل في « أيئدهم » الله تعالى وكذا ضمير « منه » و « من » ابتدائية ، والمعنى : وقواهم الله بروح من عنده تعالى ،

وقيل : الضمير للإيمان ، والمعنى : وقواهم الله بروح من جنس الإيمان يحسي بها قلوبهم ، ولا بأس به .

وقيل : المراد بالروح جبرائيل ، وقيل : القرآن ، وقيل : المراد بها الحجة والبرهان ، وهذه وجوه ضعيفة لا شاهد لها من جهة اللفظ .

ثم الروح - على ما يتبادر من معناها - هي مبدأ الحياة التي تترشح منها القدرة والشعور فإبقاء قوله : « وأبدهم بروح منه » على ظاهره يفيد أن للمؤمنين وراء الروح البشرية التي يشترك فيها المؤمن والكافر روحاً أخرى تفيض عليهم حياة أخرى وتصاحبها قدرة وشعور جديدان ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يحسي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ ، وقوله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » النحل : ٩٧ .

وما في الآية من طيب الحياة يلزم طيب أثرها وهو القدرة والشعور المتفرع عليهما الأعمال الصالحة ، وهما المعبر عنهما في آية الأنعام المذكورة آنفاً بالنور ونظيرها قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » الحديد : ٢٨ .

وهذه حياة خاصة كريمة لها آثار خاصة ملازمة لسعادة الإنسان الأبدية وراء الحياة المشتركة بين المؤمن والكافر التي لها آثار مشتركة فلها مبدأ خاص وهو روح الإيمان التي تذكرها الآية وراء الروح المشتركة بين المؤمن والكافر .

وعلى هذا فلا موجب لما ذكروا أن المراد بالروح نور القلب وهو نور العلم الذي يحصل به الطمأنينة وأن تسميته روحاً مجاز مرسل لأنه منبب للحياة الطيبة الأبدية أو من الاستعارة لأنه في ملازمته وجوه العلم الفائض على القلب - والعلم حياة القلب كما أن الجهل موته - يشبه الروح المفيض للحياة . انتهى .

وقوله : « ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » وعد جميل ووصف لحياتهم الآخرة الطيبة .

وقوله : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » استئناف يعلل قوله : « ويدخلهم جنات » الخ ، ورضا الله سبحانه عنهم رحمته لهم لإخلاصهم الإيمان له ورضاهم عنه وابتهاجهم بما رزقهم من الحياة الطيبة والجنة .

وقوله : « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » تشريف لهؤلاء المخلصين في إيمانهم بأنهم حزبه تعالى كما أن أولئك المنافقين الموالين لأعداء الله حزب الشيطان وهؤلاء مفلحون كما أن أولئك خاسرون .

وفي قوله : « ألا إن حزب الله » وضع الظاهر موضع الضمير ليجري الكلام مجرى المثل السائر .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن » أنا ورسلي ، روي أن المسلمين قالوا لما رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى : ليفتحن الله علينا الروم وفارس فقال المنافقون : أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتم عليها ؟ فأنزل الله هذه الآية .

أقول : الظاهر أنه من قبيل تطبيق الآية على القصة ونظائره كثيرة ، ولذا ورد في قوله تعالى : « لا تجدد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر » أنه نزل في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر ، وفي بعضها أنه نزل في أبي بكر سب النبي ﷺ فصكه أبو بكر صكة سقطت على الأرض فنزلت الآية . وفي عبدالرحمان بن ثابت بن قيس بن الشماس استأذن النبي ﷺ أن يزور خاله من المشركين فأذن له فلما قدم قرأ عليه النبي ﷺ ومن حوله من المسلمين الآية .

وهذه روايات لا يلائمها ما في الآيات من الاتصال الظاهر .

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله .

وفي الكافي بإسناده إلى أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما من مؤمن إلا وقلبه أذنان في جوفه : أذن ينفث فيها الوسواس الخناس وأذن ينفث فيها الملك فيؤيد الله المؤمن بالملك فذلك قوله : « وأيدهم بروح منه » .

أقول : ليس معناه تفسير الروح بالملك بل الملك يصاحب الروح ويعمل به ، قال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره » النحل : ٢ .

وفيه بإسناده إلى ابن بكير قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : في قول رسول الله ﷺ : إذا زنا الرجل فارق روح الإيمان . قال : هو قوله : « وأيدهم بروح منه » ذلك الذي يفارقه .

وفيه بإسناده إلى محمد بن سنان عن أبي خديجة قال : دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقال لي : إن الله تبارك وتعالى أيد المؤمنين بروح تحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي

وتغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي فهي معه تهتز مروراً عند إحسانه وتسيخ في الثرى عند إساءته ، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقيناً وترجحوا نفيساً ثميناً ، رحم الله امرءاً هم بخير فعله أو هم بشر فارتدع عنه . ثم قال : نحن نؤيد الروح بالطاعة لله والعمل له .

أقول : قد تبين مما تقدم في ذيل الآية أن هذه الروح من مراتب الروح الإنساني ينالها المؤمن عندما يستكمل الإيمان فليست مفارقة له كما أن الروح النباتية والحيوانية والإنسانية المشتركة بين المؤمن والكافر من مراتب روحه غير مفارقة له غير أنها تبتدىء هيئة حسنة في النفس ربما زالت لعروض هيئة سيئة تضادها ثم ترجع إذا زالت الموانع المضادة حتى إذا استقرت ورسخت وتصورت النفس بها ثبتت ولم تتغير .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله ﷺ : بروح تحضره ، وقوله : فهي معه ، حضور صورتها حضور الهيئة العارضة القابلة للزوال ، وبقوله : تسيخ في الثرى زوال الهيئة على طريق الاستعارة ، وكذا قوله ﷺ في الرواية السابقة : فارقه روح الإيمان .

* * *

(سورة الحشر مدنية ، وهي أربع وعشرون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ١ . هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا
أَنْهُمْ مَا يَنْتَعِمُ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا
يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ - ٢ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ

فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ — ٣ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَلِّقْ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ — ٤ . مَا قَطَعْتُمْ
 مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
 الْفَاسِقِينَ — ٥ . وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — ٦ . مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ
 وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلًا بِكُنْ
 دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
 فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ — ٧ . لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ
 الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
 وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ — ٨ . وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا
 الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
 صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ — ٩ . وَالَّذِينَ جَاءُوا
 مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ
 وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ — ١٠ .

(بيات)

تشير السورة إلى قصة إجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، وإلى وعد المنافقين لهم بالنصر والملازمة ثم غدرهم وما يلحق بذلك من حكم فيهم .
ومن غرر الآيات فيها الآيات السبع في آخرها يأمر الله سبحانه عباده فيها بالاستعداد للقاءه من طريق المراقبة والمحاسبة ، ويذكر عظمة قوله وجلالة قدره بوصف عظمة قائله عز من قائل بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا . والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » افتتاح مطابق لما في مختتم السورة من قوله : « يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .
ولمّا افتتح بالتثنية لما وقع في السورة من الإشارة إلى خيانة اليهود ونقضهم العهد ثم وعد المنافقين لهم بالنصر غدرًا كمثل الذين كانوا من قبلهم قريبًا ذاقوا وبال أمرهم ، وبالنظر إلى ما أذاقهم الله من وبال كيدهم ، وكون ذلك على ما يقتضيه الحكمة والمصلحة ذيل الآية بقوله : « وهو العزيز الحكيم » .

قوله تعالى : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر »
تأييد لما ذكر في الآية السابقة من تنزهه تعالى وعزته وحكمته ، والمراد بإخراج الذين كفروا من أهل الكتاب إجلاء بني النضير حي من أحباء اليهود كانوا يسكنون خارج المدينة وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهد أن لا يكونوا له ولا عليه ثم نقضوا العهد فأجلاهم النبي ﷺ ومتأني قصتهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

والحشر إخراج الجماعة بإزعاج ، و « لأول الحشر » من إضافة الصفة إلى الموصوف ، واللام بمعنى في كقوله : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » أسرى : ٧٨ .
والمعنى : الله الذي أخرج بني النضير من اليهود من ديارهم في أول إخراجهم من جزيرة العرب .

ثم أشار تعالى إلى أهمية إخراجهم بقوله : « ما ظننتم أن يخرجوا » لما كنتم تشاهدون فيهم من القوة والشدة والمنعة « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » فلن يغلبهم الله وهم متحصنون فيها وعد حصونهم بحسب ظنهم مانعة من الله لا من المسلمين لما أن إخراجهم

منها منسوب في الآية السابقة اليه تعالى وكذا إلقاء الرعب في قلوبهم في ذيل الآية ، وفي الكلام دلالة على أنه كانت لهم حصون متعددة .

ثم ذكر فساد ظنهم وخطبهم في مزعمتهم بقوله : « فأناهم الله من حيث لم يحتسبوا » والمراد به نفوذ إرادته تعالى فيهم لا من طريق احتسابه وهو طريق الحصون والأبواب بل من طريق باطنهم وهو طريق القلوب « وقذف في قلوبهم الرعب » والرعب الخوف الذي يملأ القلب « يخربون بيوتهم بأيديهم » لئلا تقع في أيدي المؤمنين بعد خروجهم وهذه من قوة سلطانه تعالى عليهم حيث أجرى ما أَرَادَهُ بأيدي أنفسهم « وأيدي المؤمنين » حيث أمرهم بذلك ووفقهم لامتهال أمره وإنفاذ إرادته « فاعتبروا » وخذوا بالعظة « يا أولي الأبصار » بما تشاهدون من صنع الله العزيز الحكيم بهم قبالة مشافتهم له ولرسوله .

وقيل : كانوا يخربون البيوت ليهربوا ويخربها المؤمنون ليصلوا .

وقيل : المراد بتخريب البيوت اختلال نظام حياتهم فقد خربوا بيوتهم بأيديهم حيث نقضوا المواعدة ، وبأيدي المؤمنين حيث بعثوهم على قتالهم .

وفيه أن ظاهر قوله : « يخربون بيوتهم » الخ أنه بيان لقوله : « فأناهم الله من حيث لم يحتسبوا » الخ ، من حيث أثره فهو متأخر عن نقض المواعدة .

قوله تعالى : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار » الجلاء ترك الوطن وكتابة الجلاء عليهم قضاؤه في حقهم ، والمراد بعذابهم في الدنيا عذاب الاستئصال أو القتل والسبي .

والمعنى : ولولا أن قضى الله عليهم الخروج من ديارهم وترك وطنهم لعذبهم في الدنيا بعذاب الاستئصال أو القتل والسبي كما فعل ببني قريظة ولهم في الآخرة عذاب النار .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » المشاقة المخالفة بالعناد ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من إخراجهم واستحقاقهم العذاب لو لم يكتب عليهم الجلاء ، وفي تخصيص مشافتهم بالله في قوله : « ومن يشاق الله » بعد تعميمه الله ورسوله في قوله : « شاقوا الله ورسوله » تلويح إلى أن مشاقة الرسول مشاقة الله والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » ذكر الراغب أن اللينة النخلة الناعمة من دون اختصاص منه بنوع منها دون

نوع ، روي أن النبي ﷺ أمر بقطع نخيلهم فلما قطع بعضها نادوه : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال النخيل تقطع فنزلت الآية فاجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخلة أو تركوها قائمة على أصولها فبإذن الله والله في حكمه هذا غايات حقة وحكم بالغة منها إخراج الفاسقين وهم بنو النضير .

فقوله : « وليخزي الفاسقين » اللام فيه للتعليل وهو معطوف على محذوف والتقدير : القطع والترك بإذن الله ليفعل كذا وكذا وليخزي الفاسقين فهو كقوله : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

قوله تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » الخ ، الإفادة الإرجاع من الفبي بمعنى الرجوع ، وضمير « منهم » لبني النضير والمراد من أموالهم .

وإيجاف الدابة تسييرها بإزعاج وإسراع والخيل الفرس ، والركاب الإبل و « من خيل ولا ركاب » مفعول « فما أوجفتم » و « من » زائدة للاستغراق .

والمعنى : والذي أرجعه الله إلى رسوله من أموال بني النضير - خصه به وملكه وحده إياه - فلم تسيروا عليه فرساً ولا إبلاً بالركوب حتى يكون لكم فيه حق بل مشيتم إلى حصونهم مشاة لقربها من المدينة ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير وقد سلط النبي ﷺ على بني النضير فله فيهم يفعل فيه ما يشاء .

قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » الخ ، ظاهره أنه بيان لموارد مصرف الفبي المذكور في الآية السابقة مع تعميم الفبي لأهل القرى أعم من بني النضير وغيرهم .

وقوله : « فله وللرسول » أي منه ما يختص بالله والمراد به صرفه وإنفاقه في سبيل الله على ما يراه الرسول ومنه ما يأخذه الرسول لنفسه ولا يصغى إلى قول من قال : إن ذكره تعالى مع أصحاب السهام لمجرد التبرك .

وقوله : « ولذي القربى » الخ ، المراد بذوي القربى قرابة النبي ﷺ ، ولا معنى لمله على قرابة عامة المؤمنين وهو ظاهر ، والمراد باليتامى الفقراء منهم كما يشعر به السياق وإنما أفرد وقدم على « المساكين » مع شموله له اعتناء بأمر اليتامى .

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بذوي القربى أهل البيت واليتامى

والمساكين وابن السبيل منهم .

وقوله : « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » أي إنما حكمنا في الفيه بما حكمنا كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم والدولة ما يتداول بين الناس ويدور يدأ بيد .

وقوله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » أي ما أعطاكم الرسول من الفيه فخذوه كما أعطى منه المهاجرين ونفراً من الأنصار ، وما نهىكم عنه ومنعكم فانتهوا ولا تطلبوا ، وفيه إشعار بأنهم سألوا النبي ﷺ أن يقسم الفيه بينهم جميعاً فأرجعه إلى نبيه وجعل موارد مصرفه ما ذكره في الآية وجعل للنبي ﷺ أن ينفقه فيها على ما يرى .

والآية مع الغرض عن السياق عامة تشمل كل ما آتاه النبي ﷺ من حكم فأمر به أو نهى عنه .

وقوله : « واتقوا الله إن الله شديد العقاب » تحذير لهم عن مخالفة النبي ﷺ تأكيدياً لقوله : « وما آتاكم الرسول » الخ .

قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » الخ ، قيل : إن قوله : « للفقراء » بدل من قوله : « ذي القربى » وما بعده وذكر « الله » لمجرد التبرك فيكون الفيه مخصوصاً بالرسول والفقراء من المهاجرين ، وقد وردت الرواية أن النبي ﷺ قسم في بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منه الأنصار شيئاً إلا رجلين من فقرائهم أو ثلاثة .

وقيل : إنه بدل من اليتامى والمساكين وابن السبيل فيكون ذور السهام هم النبي ﷺ وذا القربى غنيهم وفقيرهم والفقراء من المهاجرين يتاماهم ومساكينهم وأبناء السبيل منهم ، ولعل هذا مراد من قال : إن قوله : « للفقراء المهاجرين » بيان المساكين في الآية السابقة . والأنسب لما تقدم نقله عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يكون قوله : « للفقراء المهاجرين » الخ ، بيان مصداق لصرف سبيل الله الذي أشير إليه بقوله : « فقله » لا بأن يكون الفقراء المهاجرون أحد السهام في الفيه بل بأن يكون صرفه فيهم وإعطاؤهم إياه صرفاً له في سبيل الله .

ومحصل المعنى على هذا : أن الله سبحانه أفاء الفيه وأرجعه إلى النبي ﷺ فله أن يتصرف فيه كيف يشاء ثم دللته على موارد مصرفه وهي سبيل الله والرسول وذو القربى

وينلصهم ومساكينهم وابن السبيل منهم ثم أشار إلى مصداق الصرف في السبيل أو بعض مصاديقه وهم الفقراء المهاجرون الخ ، ينفق منه الرسول لهم على ما يرى .
وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ورد أن النبي ﷺ قسم في بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً إلا ثلاثة من فقرائهم : أبا دجانة سمالك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة فقد صرف فيهم بما أنه صرف في سبيل الله لا بما أنهم سبهاء في الفبيء .
وكيف كان فقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم » المراد بهم من هاجر من المسلمين من مكة إلى المدينة قبل الفتح وهم الذين أخرجهم كفار مكة بالاضطرار إلى الخروج فتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا إلى مدينة الرسول .
وقوله : « يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » الفضل الرزق أي يطلبون من الله رزقاً في الدنيا ورضواناً في الآخرة .

وقوله : « وينصرون الله ورسوله » أي ينصرونه ورسوله بأموالهم وأنفسهم ، وقوله : « أولئك هم الصادقون » تصديق لصدقهم في أمرهم وهم على هذه الصفات .
قوله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم » الخ ، قيل : إنه استئناف مسوق لمدح الأنصار لتطبيب بذلك قلوبهم إذ لم يشركوا في الفبيء ، « والذين تبوءوا » - والمراد بهم الأنصار - مبتدأ خبره « يحبون » الخ ، والمراد بتبوءي الدار وهو تعميرها ببناء مجتمع ديني يأوي إليه المؤمنون على طريق الكفاية ، والإيمان معطوف على « الدار » وتبوءي الإيمان وتعميره رفع نواقصه من حيث العمل بحيث يستطيع العمل بما يدعو إليه من الطاعات والقربات من غير حرج ومنع كما كان بمكة .
واحتتمل أن يعطف « الإيمان » على تبوءوا وقد حذف الفعل العامل فيه ، والتقدير : وآثروا الإيمان .

وقيل : إن قوله : « والذين تبوءوا » الخ ، معطوف على قوله : « المهاجرين » وعلى هذا يشارك الأنصار المهاجرين في الفبيء ، والإشكال عليه بأن المروي أن النبي ﷺ قسم بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منه شيئاً إلا ثلاثة من فقرائهم مدفوع بأن الرواية من شواهد العطف دون الاستئناف إذ لو لم يحز إعطاؤه للأنصار لم يحز لا - الثلاثة ولا للواحد فإعطاء بعضهم منه دليل على مشاركتهم لهم غير أن الأمر لما كان راجعاً إلى النبي ﷺ كان له أن يصرفه كيف يشاء فرجح أن يقسمه بينهم على تلك الوتيرة .

والأنسب لما تقدم من كون « للفقراء » الخ ، بياناً لمصاديق سهم السبيل هو عطف « والذين تبوءوا » الخ ، وكذا قوله الآتي : « والذين جاءوا من بعدهم » على قوله : « المهاجرين » الخ ، دون الاستئناف .

بل ما ورد من إعطائه عليه السلام للثلاثة يؤيد هذا الوجه بعينه إذ لو كان السهم فيه الفقراء المهاجرين فحسب لم يعط الأنصار ولا لثلاثة منهم ، ولو كان للفقراء من الأنصار كالمهاجرين فيه سهم — وظاهر الآية أن جمعاً منهم كانوا فقراء بهم خصاصة والتاريخ يؤيده — لأعطى غير الثلاثة من فقراء الأنصار كما أعطى فقراء المهاجرين واستوعبهم .

فقوله : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم » ضمير « من قبلهم » للمهاجرين والمراد من قبل مجيئهم وهجرتهم إلى المدينة .

وقوله : « يحبون من هاجر اليهم » أي يحبون من هاجر اليهم لأجل هجرتهم من دار الكفر إلى دار الإيمان ومجتمع المسلمين .

وقوله : « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » ضميراً « يجدون » و « صدورهم » للأنصار ، وضمير « أوتوا » للمهاجرين ، والمراد بالحاجة ما يحتاج إليه و « من » تبعيضية وقيل : بيانية والمعنى : لا يخطر ببالهم شيء مما أعطيه المهاجرون فلا يضيق نفوسهم من تقسيم الفيء بين المهاجرين دونهم ولا يجدون .

وقيل : المراد بالحاجة ما يؤدي إليه الحاجة وهو الغيظ .

وقوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » إثبات الشيء اختياره وتقديره على غيره ، والخصاصة الفقر والحاجة ، قال الراغب : خصاص البيت فرجه وعبر عن الفقر الذي لم يسد بالخصاصة كما عبر عنه بالحلة انتهى .

والمعنى : ويقدمون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة ، وهذه الخصيصة أغزر وأبلغ في مدحهم من الخصيصة السابقة فالكلام في معنى الإضراب كأنه قيل : إنهم لا يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم في عين الفقر والحاجة .

وقوله : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » قال الراغب : الشح بخل مع حرص فيما كان عادة انتهى . و « يوق » فعل مضارع مجهول من الوقاية بمعنى الحفظ ، والمعنى : ومن يحفظ — أي يحفظه الله — من ضيق نفسه من بذل ما بيده من المال أو من

وقوع مال في يد غيره فاولئك هم المفلحون .

قوله تعالى : « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » استئناف أو عطف نظير ما تقدم في قوله : « والذين تبوءوا الدار والإيمان يحبون » وعلى الاستئناف فالموصول مبتدأ خبره قوله : « يقولون ربنا » الخ . والمراد بمجيئهم بعد المهاجرين والأنصار إيمانهم بعد انقطاع الهجرة بالفتح وقيل : المراد أنهم خلفوهم .

وقولهم : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » دعاء لأنفسهم والسابقين من المؤمنين بالمغفرة ، وفي تعبيرهم عنهم بإخواننا إشارة إلى أنهم يعدونهم من أنفسهم كما قال الله تعالى : « بعضكم من بعض » النساء : ٢٥ ، فهم يحبونهم كما يحبون أنفسهم ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم .

ولذلك عقبوه بقولهم : « ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » فسألوا أن لا يجعل الله في قلوبهم غلا للذين آمنوا والغل العداوة .

وفي قوله : « للذين آمنوا » تعميم لعامة المؤمنين منهم ومن سبقهم وتلويح إلى أنه لا بغية لهم إلا الإيمان .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم » الآية ، قال : سبب ذلك أنه كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود : بني النضير وقريظة وقينقاع ، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ومدة فنقضوا عهدهم .

وكان سبب ذلك بني النضير في نقض عهدهم أنه أتاهم رسول الله ﷺ يستسلمهم دية رجلين قتلها رجل من أصحابه غيلة ، يعني يستقرض ، وكان بينهم كعب بن الأشرف فلما دخل على كعب قال : مرحباً يا أبا القاسم وأهلاً وقام كأنه يصنع له الطعام وحدث نفسه أن يقتل رسول الله ﷺ ويتبع أصحابه ، فنزل جبرئيل فأخبره بذلك .

فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقال لمحمد بن مسلمة الأنصاري : إذهب إلى بني النضير فأخبرهم أن الله عز وجل قد أخبرني بما هممتم به من القدر فلما أن تخرجوا من

بلدنا وإما أن تأذنوا بحرب ، فقالوا : نخرج من بلادك .

فبعث اليهم عبد الله بن أبي : لا تخرجوا وتقيموا وتناذبوا محمداً الحرب فلاني أنصركم أنا وقومي وحلفائي فإن خرجتم خرجت معكم وإن قاتلتهم قاتلت معكم ، فأقاموا وأصلحوا بينهم حصونهم وتهيؤوا للقتال وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أننا لا نخرج فاصنع ما أنت صانع . فقام رسول الله ﷺ وكبر وكبر أصحابه وقال لأمير المؤمنين : تقدم على بني النضير فأخذ أمير المؤمنين الراية وتقدم ، وجاء رسول الله ﷺ وأحاط بحصنهم وغدر بهم عبد الله بن أبي .

وكان رسول الله ﷺ إذا ظهر بمقدم بيوتهم حصنوا ما يليهم وخرّبوا ما يليه ، وكان الرجل منهم ممن كان له بيت حسن خربه ، وقد كان رسول الله ﷺ أمر بقطع نخلمهم فجزعوا من ذلك وقالوا : يا محمد إن الله يأمرك بالفساد ؟ إن كان لك هذا فخذ وإن كان لنا فلا تقطعه .

فلما كان بعد ذلك قالوا : يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا مالنا ، فقال : لا ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل ، فلم يقبلوا ذلك فبقوا أياماً ثم قالوا : نخرج ولنا ما حملت الإبل ، فقال : لا ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئاً ، فمن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه .

فخرجوا على ذلك ووقع منهم قوم إلى فدك ووادي القرى وخرج قوم منهم إلى الشام . فأنزل الله فيهم « هو الذي أخرج الذين كفروا - إلى قوله - فإن الله شديد العقاب » وأنزل الله عليه فيما عابوه من قطع النخل « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله - إلى قوله - ربنا إنك رؤوف رحيم » .

وأنزل الله عليه في عبد الله بن أبي وأصحابه « ألم تر إلى الذين نافقوا - إلى قوله - ثم لا ينصرون » .

وفي المجمع عن ابن عباس : كان النبي ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات بالشام وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاء .

فخرجوا إلى أذرعات بالشام وأريحا إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حبي بن أخطب فلإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة .

وفيه عن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال .

وفيه عن محمد بن إسحاق : كان إجلاء بني النضير مرجع النبي ﷺ من أحد ، وكان فتح قريظة مرجعه من الأحزاب ، وكان الزهري يذهب إلى أن إجلاء بني النضير كان قبل أحد على رأس ستة أشهر من وقعة بدر .

وفيه عن ابن عباس : نزل قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » الآية في أموال كفار أهل القرى وهم قريظة وبنو النضير وهما بالمدينة ، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال ، وخيبر وقرى عرينة وينبع جعلها الله لرسوله يحكم فيها ما أراد وأخبر أنها كلها له فقال أناس : فهلا قسمها فنزلت الآية .

وفيه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم بني النضير للأنصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقال الأنصار : بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت : « ويؤثرون على أنفسهم » الآية . أقول : وروى في إشارتهم ونزول الآية فيه قصص أخرى ، والظاهر أن ذلك من قبيل تطبيق الآية على القصة ، وقد روى المعاني السابقة في الدر المنثور بطرق كثيرة مختلفة . وفي التوحيد عن علي بن الحسين وقد سئل عما أشبهه على السائل من الآيات قال في قوله تعالى : « فأنام الله من حيث لم يحتسبوا » يعني أرسل عليهم عذاباً .

وفي التهذيب بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه » الآية قال الفقيه ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل والأنفال مثل ذلك وهو بمنزلة .

وفي المجمع روى المنهال بن عمر عن علي بن الحسين عليه السلام قلت : قوله : « ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » قال : هم قربانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا .

أقول : وروى هذا المعنى في التهذيب عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال في المجمع بعد نقل الرواية السابقة : وقال جميع الفقهاء : هم يتامى الناس عامة وكذلك المساكين وأبناء السبيل وقد روي ذلك أيضاً عنهم عليهم السلام .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة أنه سمع أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام يقولان :
 « إن الله عز وجل فوض إلى نبيه ﷺ أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم ثم تلى (١) هذه الآية
 « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

أقول : والروايات عنهم عليهم السلام في هذا المعنى كثيرة والمراد بتفويضه أمر خلقه
 كما يظهر من الروايات إمضاؤه تعالى ما شرعه النبي ﷺ لهم وافترض طاعته في
 ذلك ، وولايته أمر الناس وأما التفويض بمعنى سلبه تعالى ذلك عن نفسه وتقليده ﷺ
 لذلك فمستحيل .

وفيه بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث : الإيمان بعضه من بعض وهو دار
 وكذلك الإسلام دار والكفر دار .

وفي المحاسن بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : يا زياد
 ويحك وهل الدين إلا الحب . ألا ترى إلى قول الله : « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
 يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » أو لا ترون إلى قول الله لحمد ﷺ : « حبب إليكم
 الإيمان وزينه في قلوبكم » وقال : « يحبون من هاجر إليهم » وقال : الدين هو الحب
 والحب هو الدين .

وفي المجمع وفي الحديث : لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم ، ولا يجتمع غبار
 في سبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم .

وفي الفقيه روى الفضل بن أبي قررة السمندي قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام : أتدري
 من الشحيح ؟ قلت : هو البخيل . قال : الشح أشد من البخل إن البخيل يبخل بها في يده
 والشحيح يشح بها في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئاً إلا
 تمنى أن يكون له بالحل والحرام ، ولا يقنع بها رزقه الله عز وجل .

* * *

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا

وَأِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ - ١١ . لَئِنْ أَخْرُجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولْنَ الْأَذْدَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ - ١٢ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ - ١٣ . لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ - ١٤ . كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - ١٥ . كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ - ١٦ . فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ - ١٧ .

(بيان)

إشارة إلى حال المنافقين ووعدهم لبني النضير بالنصر إن قوتلوا والخروج معهم إن أخرجوا وتكذيبهم فيما وعدوا .

قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، الْخ ، الإخوان كالإخوة جمع أخ والإخوة الاشتراك في الانتساب إلى أب ويتوسع فيه فيستعمل في المشتركين في اعتقاد أو صداقة ونحو ذلك ، ويكثر استعمال الإخوة في المشتركين في النسبة إلى أب واستعمال الإخوان في المشتركين في اعتقاد ونحوه على ما قيل .

والاستفهام في الآية للتعجب ، والمراد بالذين نافقوا عبد الله بن أبي وأصحابه ، والمراد بإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بنو النضير على ما يؤيده السياق فإن مفاد الآيات

أنهم كانوا قوماً من أهل الكتاب دار أمرهم بين الخروج والقتال بعد قوم آخر كذلك وليس إلا بني النضير بعد بني قينقاع .

وقوله : « لئن أخرجتم لنخرجن » معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم » مقول قول المنافقين ، واللام في « لئن أخرجتم » للقسم أي نقسم لئن أخرجكم المسلمون من دياركم لنخرجن من ديارنا معكم ملازمين لكم ولا نطيع فيكم أي في شأنكم أحداً يشير علينا بفارقتكم أبداً ، وإن قاتلكم المسلمون لننصرنكم عليهم .

وقوله : « والله يشهد إنهم لكاذبون » تكذيب لوعده المنافقين ، وتصريح بأنهم لا يفون بوعدهم .

قوله تعالى : « لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم » تكذيب تفصيلي لوعدهم بعد تكذيبه الإجمالي بقوله : « والله يشهد إنهم لكاذبون » وقد كرر فيه لام القسم ، والمعنى : أقسم لئن أخرج بنو النضير لا يخرج معهم المنافقون ، وأقسم لئن قوتلوا لا ينصرونهم .

قوله تعالى : « ولئن نصرهم ليولتن الأدبار ثم لا ينصرون » إشارة إلى أن نصرهم على تقدير وقوعه منهم - ولن يقع أبداً - لا يدوم ولا ينفعهم بل يولون الأدبار فراراً ثم لا ينصرون بل يهلكون من غير أن ينصروهم أحداً .

قوله تعالى : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله » الخ ، ضمائر الجمع للمنافقين ، والرهبة الخشية ، والآية في مقام التعليل لقوله : « ولئن نصرهم ليولتن الأدبار » أي ذلك لأنهم يرهبونكم أشد من رهبتهم لله فلا يقاومونكم لو قاتلتم ولا يثبتون لكم .

وعلى ذلك بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » والإشارة بذلك إلى كون رهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله أي رهبتهم لكم كذلك لأنهم قوم لا يفقهون حق الفهم ولو فقهوا حقيقة الأمر بأن لهم أن الأمر إلى الله تعالى وليس لغيره من الأمر شيء سواء في ذلك المسلمون وغيرهم ، ولا يقوى غيره تعالى على عمل خير أو شر أو نافع أو ضار إلا بحول منه تعالى وقوة فلا ينبغي أن يهرب إلا هو عز وجل .

قوله تعالى : « لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر » بيان لأثر رهبتهم وجبنهم جميعاً والمعنى : لا يقاتلكم بنو النضير والمنافقون جميعاً بأن يبرزوا بل في قرى حصينة محكمة أو من وراء جدر من غير بروز .

وقوله : « بأسهم بينهم شديد » أي هم فيما بينهم شديداً البطش غير أنهم إذا برزوا لحربكم وشاهدوكم يحبون بما ألقى الله في قلوبهم من الرعب .
 وقوله : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » أي تظن أنهم مجتمعون في ألفة واتحاد والحال أن قلوبهم متفرقة غير متحدة وذلك أقوى عامل في الحزبي والخذلان . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ولو عقلوا لاتحدوا ووجدوا الكلمة .

قوله تعالى : « كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » الوبال العاقبة السيئة وقوله : « قريباً » قائم مقام الظروف منصوب على الظرفية أي في زمان قريب .

وقوله : « كمثل » الخ ، خبر مبتدأ محذوف والتقدير « مثلهم كمثل » الخ ، والمعنى : مثلهم أي مثل بني النضير من اليهود في نقضهم العهد ووعد المنافقين لهم بالنصر كذباً ثم الجلاء مثل الذين من قبلهم في زمان قريب وهم بنو قينقاع رهط آخر من يهود المدينة نقضوا العهد بعد غزوة بدر فأجلاهم رسول الله ﷺ إلى أذرعات وقد كان وعدهم المنافقون أن يكلوا النبي ﷺ فيهم ويمنموه من إجلالهم ففقدوا بهم فذاق بنو قينقاع وبال أمرهم ولهم في الآخرة عذاب أليم وقيل : المراد بالذين من قبلهم كفار مكة يوم بدر وما تقدم أنسب للسياق .

والمثل على أي حال مثل لبني النضير لا للمنافقين على ما يعطيه السياق .

قوله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك » الخ ، ظاهر السياق أنه مثل للمنافقين في غرورهم بني النضير بوعد النصر ثم خذلانهم عند الحاجة .

وظاهر السياق يفيد أن المراد بالشيطان والإنسان الجنس والإشارة إلى غرور الشيطان للإنسان بدعوته إلى الكفر بتزيين أمتعة الحياة له وتسويل الإغراض عن الحق بمواعيده الكاذبة والأمانى السرابية حتى إذا طلعت له طلائع الآخرة وعان أن ما اغتر به من أمانى الحياة الدنيا لم يكن إلا سراباً يفره وخيلاً يلعب به تبرأ منه الشيطان ولم يف بما وعده وقال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين .

وبالجملة مثل المنافقين في دعوتهم بني النضير إلى مخالفة النبي ﷺ ووعدهم النصر ثم الفدر بهم وخلف الوعد كمثل هذا الشيطان في دعوة الإنسان إلى الكفر بمواعيده الكاذبة

ثم تبريه منه بعد الكفر عند الحاجة .

وقيل : المراد بالتمثيل الإشارة إلى قصة برصيصا العابد الذي زين له الشيطان الفجور ففجر بامرأة ثم كفر وسيأتي القصة في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وقيل : المثل السابق المذكور في قوله : « كمثل الذين من قبلهم قريباً » مثل كفار مكة يوم بدر - كما تقدم - والمراد بالإنسان في هذا المثل أبو جهل ويقول الشيطان له أكفر ما قصه الله تعالى بقوله في القصة : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب » الأنفال : ٤٨ .

وعلى هذا الوجه فقول الشيطان : « إني أخاف الله رب العالمين » قول جدي لأنه كان يخاف تعذيب الملائكة النازلين لنصرة المؤمنين ببدر وأما على الوجهين الأولين فهو نوع من الاستهزاء والإخزاء .

قوله تعالى : « فكان عاقبتهما أنها في النار خالدتين فيها وذلك جزاء الظالمين » الظاهر أن ضمائر التنثية للشيطان والإنسان المذكورين في المثل ففي الآية بيان عاقبة الشيطان في غروره الإنسان وإضلاله والإنسان في اغتراره به وضلاله ، وإشارة إلى أن ذلك عاقبة المنافقين في وعدم لبني النضير وغدرهم بهم وعاقبة بني النضير في اغترارهم بوعدهم الكاذب وإصرارهم على المشاقة والمخالفة ، ومعنى الآية ظاهر .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أن رهطاً من بني عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبي بن سلول ووديعة بن مالك وسويد وداعس بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا قلماناً لا نسلمكم وإن قوتلتنا قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف الله الرعب في قلوبهم .

فسألوا رسول الله ﷺ أن يحلبهم ويكف عن دماهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به

فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام .

أقول : والرواية تخالف ما في عدة من الروايات أن النبي ﷺ هو الذي عرض لهم أن يخرجوا بما تحمله الإبل من الأموال فلم يقبلوا ثم رضوا بذلك بعد أيام فلم يقبل النبي ﷺ إلا أن يخرجوا بأنفسهم وأهلهم من غير أن يحملوا شيئاً فخرجوا كذلك وجعل النبي ﷺ لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس : ألم تر إلى الذين تافقوا ، قال : عبد الله بن أبي ابن سلول ورفاعة بن ثابت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيطى . وإخوانهم ، بنو النضير . أقول : المراد به عد بعضهم فلا ينافي ما في الرواية السابقة .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن رفاعه الدارمي يبلغ به النبي ﷺ قال : كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فحنقها فألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتى بها الراهب فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فكانت عنده .

فأتاه الشيطان فوسوس له وزين له فلم يزل به حتى وقع عليها فلما حملت وسوس له الشيطان فقال : الآن تفتضح يأتبك أهلها فاقتلها فإن أتوك فقل : ماتت فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس اليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها فأتاه أهلها فسألوه فقال : ماتت فأخذوه .

فأتاه الشيطان فقال : أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها ، وأنا الذي أوقعتك في هذا فأطعني تنج واسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذي قال الله : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، الآية .

أقول : والقصة مشهورة رويت مختصرة ومفصلة في روايات كثيرة .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ - ١٨ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ — ١٩ . لَا يَسْتَوِي
 أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ — ٢٠ .
 لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
 اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ — ٢١ . هُوَ اللَّهُ
 الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ — ٢٢ .
 هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
 الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ — ٢٣ . هُوَ اللَّهُ
 الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ فِى السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ — ٢٤ .

(بَيَان)

الذي تتضمنه الآيات الكريمة كالنتيجة المأخوذة مما تقدم من آيات السورة فقد أشير فيها
 إلى مشاققة بني النضير من اليهود ونقضهم العهد وذلك الذي أوقعهم في خسران دينهم
 وأخراهم ، وتحريض المنافقين لهم على مشاققة الله ورسوله وهو الذي أهلكهم ، وحقيقة
 السبب في ذلك أنهم لم يراقبوا الله في أعمالهم ونسوه فأنساهم أنفسهم فلم يختاروا ما فيه
 خير أنفسهم وصلاح عاجلهم وأجلهم ففأهلكوا .

فعلى من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يذكر ربه ولا ينساه وينظر فيما يقدمه من
 العمل ليوم الرجوع إلى ربه فإن ما عمله محفوظ عليه يحاسبه به الله يومئذ فيجازيه عليه
 جزاء لازماً لا يفارقه .

وهذا هو الذي يرويه قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت
 لقد » الآيات فتندب المؤمنين إلى أن يذكروا الله سبحانه ولا ينسوه وينظروا في أعمالهم

التي على صلاحها وصلاحها يدور رضى حياتهم الآخرة فيراقبوا أعمالهم أن تكون صالحة خالصة لوجه الكريم مراقبة مستمرة ثم يحاسبوا أنفسهم فيشكروا الله على ما عملوا من حسنة ويوبتخوها ويزجروها على ما اقترفت من سيئة ويستغفروا .

وذكر الله تعالى بها يليق بساحة عظمته وكبريائه من أممائه الحسنى وصفاته العليا التي بيئها القرآن الكريم في تعليمه هو السبيل الوحيد الذي ينتهي بسالكه إلى كمال العبودية ولا كمال للإنسان فوقه .

وذلك أن الإنسان عبد محض ومملوك طلق الله سبحانه فهو مملوك من كل جهة مفروضة لا استقلال له من جهة كما أنه تعالى مالكه من كل جهة مفروضة له الاستقلال من كل جهة ، وكمال الشيء محوضته في نفسه وآثاره فكمال الإنسان في أن يرى نفسه مملوكاً لله من غير استقلال وأن يتصف من الصفات بصفات العبودية كالخضوع والخشوع والذلة والاستكانة والفقر بالنسبة إلى ساحة العظمة والعزة والغنى وأن تجري أعماله وأفعاله على ما يريد الله لا ما يهواه نفسه من غير غفلة في شيء من هذه المراحل : الذات والصفات والأفعال .

ولا يتم له النظر إلى ذاته وصفاته وأفعاله بنظرة التبعية المحضة والمملوكية المطلقة إلا مع التوجه الباطني إلى ربه الذي هو على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط وهو القائم على كل نفس بما كسبت من غير أن يغفل عنه أو ينسأ .

وعندئذ يطمئن قلبه كما قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » الرعد : ٢٨ ، ويعرف الله سبحانه بصفات كماله التي تتضمنها أسماءه الحسنى ، ويظهر منه قبالة ذلك صفات عبوديته وجهات نقصه من خضوع وخشوع وذلة وفقر وحاجة .

ويتعقب ذلك أعماله الصالحة بدوام الحضور واستمرار الذكر ، قال تعالى : « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » الأعراف : ٢٠٦ وقال : « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » حم السجدة : ٣٨ .

وإلى ما ذكرنا من معرفته تعالى بصفات كماله ومعرفته النفس بما يقابلها من صفات النقص والحاجة يشير بمقتضى السياق قوله : « لو أنزلنا هذا القرآن » إلى آخر الآيات . قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » إلى آخر

الآية، أمر المؤمنين بتقوى الله وبأمر آخر وهو النظر في الأعمال التي قدموها ليوم الحساب فهي صالحة فليرج بها ثواب الله أو طالحة فليخش عقاب الله عليها ويتدارك بالتوبة والإقامة وهو محاسبة النفس .

أما التقوى وقد فسّر في الحديث بالورع عن محارم الله فحيث تتعلق بالواجبات والمحرّمات جميعاً كانت هي الاجتناب عن ترك الواجبات وفعل المحرّمات .

وأما النظر فيما قدمت النفس لقد فهو أمر آخر وراء التقوى نسبته إلى التقوى كنسبة النظر الإصلاحي ثانياً من عامل في عمله أو صانع فيما صنعه لتكميله ورفع نواقصه التي غفل عنها أو أخطأ فيها حين العمل والصنع .

فعلى المؤمنين جميعاً أن يتقوا الله فيما وجّه اليهم من التكاليف فيطيعوه ولا يعصوه ثم ينظروا فيما قدموه من الأعمال التي يعيشون بها في غد بعد ما حوسبوا بها أصلح فيرجى ثوابه أم طالح فيخاف عقابه فيتوبوا إلى الله ويستغفروه .

وهذا تكليف عام يشمل كل مؤمن لحاجة الجميع إلى إصلاح العمل وعدم كفاية نظر بعضهم عن نظر الآخرين غير أن القائم به من أهل الإيمان في نهاية القلة بحيث يكاد يلحق بالعدم وإلى ذلك يلوح لفظ الآية « ولتنظر نفس » .

فقوله : « ولتنظر نفس ما قدمت لغد » خطاب عام لجميع المؤمنين لكن لما كانت المشتغل بهذا النظر من بين أهل الإيمان بل من بين أهل التقوى منهم في غاية القلة بل يكاد يلحق بالعدم لاشتغالهم بأعراض الدنيا واستغراق أوقاتهم في تدبير المعيشة وإصلاح أمور الحياة ألقى الخطاب في صورة الغيبة وعلّقه بنفس ما منكّرة فقال : « ولتنظر نفس » وفي هذا النوع من الخطاب مع كون التكليف عاماً بحسب الطبع عتاب وتقريع للمؤمنين مع التلويح إلى قلة من يصلح لامثاله منهم .

وقوله : « ما قدمت لغد » استفهام من ماهية العمل الذي قدمت لغد وبيان للنظر ، ويمكن أن تكون « ما » موصولة وهي وصلتها متعلقاً بالنظر .

والمراد بغد يوم القيامة وهو يوم حساب الأعمال وإنما عبّر عنه بغد الإشارة إلى قربته منهم كقرب الغد من أمس ، قال تعالى : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » المعارج : ٧ . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بطاعته في جميع ما يأمركم به وبنهاكم عنه ، ولتنظر نفس منكم فيما عمّته من عمل ولتر ما الذي قدمته من عملها ليوم الحساب أهو

عمل صالح أو طالح وهل عملها الصالح صالح مقبول أو مردود .

وقوله : « واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » أمر بالتقوى ثانياً و « إن الله خير » الخ ، تعليل له وتعليل هذه التقوى بكونه تعالى خبيراً بالأعمال يعطي أن المراد بهذه التقوى الأمور بها ثانياً هي التقوى في مقام المحاسبة والنظر فيها من حيث إصلاحها وإخلاصها لله سبحانه وحفظها عما يفسدها ، وأما قوله في صدر الآية : « اتقوا الله » فالمراد به التقوى في أصل إتيان الأعمال بقصرها في الطاعات وتجنب المعاصي .

ومن هنا تبين أن المراد بالتقوى في الموضعين مختلف فالأولى هي التقوى في أصل إتيان الأعمال ، والثانية هي التقوى في الأعمال المأتمنة من حيث إصلاحها وإخلاصها .
وظهر أيضاً أن قول بعضهم : إن الأولى للتوبة عما مضى من الذنوب والثانية لاتقاء المعاصي في المستقبل غير سديد ومثله ما قيل : إن الأولى في أداء الواجبات والثانية في ترك المحرمات ، ومثله ما قيل : إن الأمر الثاني لتأكيد الأمر الأول فحسب .

قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » الخ ، النسيان زوال صورة المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها مع زوال مبدئه ويتوسع فيه مطلق على مطلق الإعراض عن الشيء بعدم ترتيب الأثر عليه قال تعالى : « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من ناصرين » الجاثية : ٣٤ .

والآية بحسب لب معناها كالتأكيد لضمون الآية السابقة كأنه قيل : قدموا ليوم الحساب والجزاء عملاً صالحاً تحيي به أنفسكم ولا تنسوه . ثم لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى إذ بنسيانه تعالى تنسى أسماؤه الحسنی وصفاته العليا التي ترتبط بها صفات الإنسان الذاتية من الذلة والفقر والحاجة فيتوهم الإنسان نفسه مستقلة في الوجود ويخيل إليه أن له لنفسه حياة وقدرة وعلماً وسائر ما يترأى له من الكمال ، ونظراؤه في الاستقلال سائر الأسباب الكونية الظاهرية تؤثر فيه وتتأثر عنه .

وعند ذلك يعتمد على نفسه وكان عليه أن يعتمد على ربه ويرجو ويخاف الأسباب الظاهرية وكان عليه أن يرجو ويخاف ربه ، يطمئن إلى غير ربه وكان عليه أن يطمئن إلى ربه .

وبالجملة ينسى ربه والرجوع إليه ويعرض عنه بالإقبال إلى غيره ، ويتفرع عليه أن ينسى نفسه فإن الذي يخيل إليه من نفسه أنه موجود مستقل الوجود يملك ما ظهر فيه

من كالات الوجود واليه تدبير أمره مستعداً مما حوله من الأسباب الكونية وليس هذا هو الإنسان بل الإنسان موجود متعلق الوجود جهل كله عجز كله ذلة كله فقر كله وهكذا ، وما له من الكمال كالوجود والعلم والقدرة والعزة والغنى وهكذا فلربه وإلى ربه انتهاؤه ونظراؤه في ذلك سائر الأسباب الكونية .

والحاصل لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى حول النهي عن نسيان النفس في الآية إلى النهي عن نسيانه تعالى لأن انقطاع المسبب بانقطاع سببه أبلغ وأكثر ، ولم يقنع بمجرد النهي الكلي عن نسيانه بأن يقال : ولا تنسوا الله فينسيكم أنفسكم بل جرى بمثل إعطاء الحكم بالمثل ليكون أبلغ في التأثير وأقرب إلى القبول فنهاهم أن يكونوا كالذين نسوا الله مشيراً به إلى من تقدم ذكرهم من يهود بني النضير وبني قينقاع ومن حاله حالهم في مشاققة الله ورسوله .

فقال : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله » ثم فرع عليه قوله : « فأنساهم أنفسهم » تفريع المسبب على سببه ثم عقبه بقوله : « أولئك هم الفاسقون » فدل على أنهم فاسقون حقاً خارجون عن زي العبودية .

والآية وإن كانت تنهى عن نسيانه تعالى المتفرع عليه نسيان النفس لكنها بورودها في سياق الآية السابقة تأمر بذكر الله ومراقبته .

فقد بان من جميع ما تقدم في الآيتين أن الآية الأولى تأمر بمحاسبة النفس والثانية تأمر بالذكر والمراقبة .

قوله تعالى : « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » قال الراغب : الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة ، انتهى . والسياق يشهد بأن المراد بأصحاب النار هم الناسون لله وبأصحاب الجنة هم الذاكرون لله المراقبون .

والآية حجة قامة على وجوب اللجوء بالذاكرين لله المراقبين له دون الناسين ، تقريرها أن هناك قبيلتين لا ثالث لهما وهما الذاكرون لله والناسون له لا بد للإنسان أن يلحق بأحدهما وليس بمساويين حتى يتساوى اللحقان ولا يبالي الإنسان بأيهما لحق ؟ بل هناك راجح ومرجوح يجب اختيار الراجح على المرجوح والرجحان لقبيل الذاكرين لأنهم الفائزون لا غير فالترجيح لجانبهم فمن الواجب لكل نفس أن يختار اللجوء بقبيل الذاكرين .

قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » الخ ، في الجمع : التصدع التفرق بعد التلاؤم ومثله التفطر انتهى .
والكلام مسوق سوق المثل مبني على التخيل والدليل عليه قوله في ذيل الآية : « وتلك الأمثال نضربها للناس » الخ .

والمراد تعظيم أمر القرآن بما يشتمل عليه من حقائق المعارف وأصول الشرائع والعبر والمواعظ والوعيد والوعيد وهو كلام الله العظيم ، والمعنى : لو كان الجبل مما يجوز أن ينزل عليه القرآن فأنزلناه عليه لرأيته - مع ما فيه من الغلظة والقسوة وكبر الجسم وقوة المقاومة قبال النوازل - متأثراً متفرقاً من خشية الله فإذا كان هذا حال الجبل بما هو عليه فالإنسان أحق بأن يخشع لله إذا تلاه أو تلى عليه ، وما أعجب حال أهل المشاقة والعناد لا تلين قلوبهم له ولا يخشعون ولا يخشون .

والالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله : « من خشية الله » للدلالة على علة الحكم فإنما يخشع ويتصدع الجبل بنزول القرآن لأنه كلام الله عز اسمه .
وقوله : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » من وضع الحكم الكلي موضع الجزئي للدلالة على أن الحكم ليس ببدع في مورده بل جارٍ سارٍ في موارد أخرى كثيرة .
فقوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » الخ ، مثل ضربته الله للناس في أمر القرآن لتقريب عظمت وجلالة قدره بما أنه كلام الله تعالى وبما يشتمل عليه من المعارف رجاء أن يتفكر فيه الناس فيتلقوا القرآن بما يليق به من التلقي ويتحققوا بما فيه من الحق الصريح ويهتدوا إلى ما يهدي إليه من طريق العبودية التي لا طريق إلى كمالهم وسعادتهم وراءها ، ومن ذلك ما ذكر في الآيات السابقة من المراقبة والمحاسبة .

قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » هذه الآية والآيتان بعدها وإن كانت مسوقة لتعداد قبيل من أسمائه تعالى الحسنی والإشارة إلى تسميته تعالى بكل اسم أحسن وتنزهه بشهادة ما في السماوات والأرض لكنها بانضمامها إلى ما مر من الأمر بالذكر تفيد أن على الذاكرين أن يذكروه بأسمائه الحسنی فيعرفوا أنفسهم بما يقابلها من أسماء النقص ، فافهم ذلك .

وبانضمامها إلى الآية السابقة وما فيها من قوله : « من خشية الله » تفيد تعليل خشوع الجبل وتصدعه من خشية الله كأنه قيل : وكيف لا وهو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب

والشهادة ، إلى آخر الآيات .

وقوله : « هو الله الذي لا إله إلا هو » يفيد الموصول والصلة معنى اسم من أسمائه وهو وحدانيته تعالى في ألوهيته ومعبوديته ، وقد تقدم بعض ما يتعلق بالتهليل في تفسير قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو » البقرة : ١٦٣ .

وقوله : « عالم الغيب والشهادة » الشهادة هي المشهود الحاضر عند المدرك والغيب خلافها وهما معنيان إضافيان فمن الجائز أن يكون شيء شهادة بالنسبة إلى شيء وغيباً بالنسبة إلى آخر ويدور الأمر مدار نوع من الإحاطة بالشيء حساً أو خيالاً أو عقلاً أو وجوداً وهو الشهادة وعدمها وهو الغيب ، وكل ما فرض من غيب أو شهادة فهو من حيث هو محاط له تعالى معلوم فهو تعالى عالم الغيب والشهادة وغيره لا علم له بالغيب لحدودية وجوده وعدم إحاطته إلا ما علمه تعالى كما قال : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من أرقى من رسول » الجن : ٢٧ ، وأما هو تعالى فغيب على الإطلاق لا سبيل إلى الإحاطة به لشيء أصلاً كما قال : « ولا يحيطون به علماً » .

وقوله : « هو الرحمن الرحيم » قد تقدم الكلام في معنى الاسمين في تفسير سورة الفاتحة . قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » الخ ، الملك هو المالك لتدبير أمر الناس والحكم فيهم ، والقدوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة ، والسلام من يلاقيك بالسلامة والعافية من غير ضرر وضر ، والمؤمن الذي يعطي الأمن ، والمهيمن الفائق المسيطر على الشيء .

والعزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء أو من عنده ما عند غيره من غير عكس ، والجبار مبالغة من جبر الكسر أو الذي تنفذ إرادته ويحبر على ما يشاء ، والمتكبر الذي تلبس بالكبرياء وظهر بها .

وقوله : « سبحان الله عما يشركون » ثناء عليه تعالى كما في قوله : « وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه » البقرة : ١١٦ .

قوله تعالى : « هو الله الخالق الباري المصور » إلى آخر الآية ، الخالق هو الموجد للأشياء عن تقدير ، والباري المنشئ للأشياء ممتازاً بعضها من بعض ، والمصور المعطي لها صوراً يمتاز بها بعضها من بعض ، والأسماء الثلاثة تتضمن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفة وبينها ترتب فالنصوير فرع البرء والبرء فرع الخلق وهو ظاهر .

وإنما صدر الآيتين السابقتين بقوله : « الذي لا إله إلا هو » فوصف به « الله » وعقبه بالأسماء بخلاف هذه الآية إذ قال : « هو الله الخالق » الخ .

لأن الأسماء الكريمة المذكورة في الآيتين السابقتين وهي أحد عشر اسماً من لوازم الربوبية ومالكية التدبير التي تتفرع عليها الألوهية والمعبودية بالحق وهي على نحو الأصالة والاستقلال لله سبحانه وحده لا شريك له في ذلك فاتصافه تعالى وحده بها يستوجب اختصاص الألوهية واستحقاق المعبودية به تعالى .

فالأسماء الكريمة بمنزلة التعليل لاختصاص الألوهية به تعالى كأنه قيل لا إله إلا هو لأنه عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم ، ولذا أيضاً ذيل هذه الأسماء بقوله ثناء عليه : « سبحانه الله عما يشركون » رداً على القول بالشركاء كما يقوله المشركون .

وأما قوله : « هو الله الخالق البارئ المصور » فالمذكور فيه من الأسماء يفيد معنى الخلق والإيجاد واختصاص ذلك به تعالى لا يستوجب اختصاص الألوهية به كما يدل عليه أن الوثنيين قائلون باختصاص الخلق والإيجاد به تعالى وهم مع ذلك يدعون من دونه أرباباً وآلهة ويثبتون له شركاء .

وأما وقوع اسم الجلالة في صدر الآيات الثلاث جميعاً فهو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال يرتبط به ويحري عليه جميع الأسماء وفي التكرار مزيد تأكيد وتثبيت للمطلوب .

وقوله : « له الأسماء الحسنى » إشارة إلى بقية الأسماء الحسنى عن آخرها لكون الأسماء جمعاً محلي باللام وهو يفيد العموم .

وقوله : « يسبح له ما في السماوات والأرض » أي جميع ما في العالم من المخلوقات حق نفس السماوات والأرض وقد تقدم توضيح معنى الجملة مراراً .

ثم ختم الآيات بقوله : « وهو العزيز الحكيم » أي الغالب غير المغلوب الذي فعله متقن لا مجازفة فيه فلا يعجزه فيما شرعه ودعا إليه معصية العاصين ولا مشاقة الماعدين ولا يضيع عنده طاعة المطيعين وأجر المحسنين .

والعناية إلى ختم الكلام بالاسمين والإشارة بذلك إلى كون القرآن النازل من عنده كلام عزيز حكيم هو الذي دعا إلى تكرار اسمه العزيز وذكره مع الحكيم مع تقدم ذكره بين الأسماء .

وقد وصف القرآن أيضاً بالعزة والحكمة كما قال : « وإنه لكتاب عزيز » حم السجدة : ٤١ ، وقال : « والقرآن الحكيم » يس : ٢ .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة » عن أبي جعفر عليه السلام قال : الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان .

أقول : وهو تفسير ببعض المصاديق ، وقد أوردنا أحاديث عنهم عليهم السلام في معنى اسم الجلالة والاسمين الرحمان الرحيم في ذيل تفسير البسملة من سورة الفاتحة .

وفي التوحيد بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : لم يزل حياً بلا حياة وملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً وملكاً جباراً بعد إنشائه للكون .

أقول : قوله : لم يزل حياً بلا حياة أي بلا حياة زائدة على الذات ، وقوله : لم يزل ملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً إرجاع للملك وهو من صفات الفعل إلى القدرة وهي من صفات الذات ليستقيم تحققه قبل الإيجاد .

وفي الكافي بإسناده عن هشام الجواليقي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله : « سبحان الله » ما يعني به ؟ قال : تزيه .

وفي نهج البلاغة : والخالق لا بمعنى حركة ونصب .

أقول : وقد أوردنا عدة من الروايات في الأسماء الحسنی وإحصائها في البحث عن الأسماء الحسنی في الجزء الثامن من الكتاب .

وفي النبوي المشهور : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا قبل أن توزنوا وتجهزوا للغرض الأكبر .

وفي الكافي بإسناده إلى أبي الحسن الماضي عليه السلام قال : ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسنًا ازداد الله شكرًا وإن عمل سيئًا استغفر الله وقاب إليه .

أقول : وفيما يقرب من هذا المعنى روايات أخر ، وقد أوردنا روايات عنهم عليهم السلام في معنى ذكر الله في ذيل تفسير قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم » الآية البقرة :

١٥٢ ، وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » الأحزاب ٢١ ، فليراجعها من شاء .

(سورة الممتحنة مدنية ، وهي ثلاث عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
 عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ
 مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا
 أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
 السَّبِيلِ - ١ . إِنْ يَشَقُّوَكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ
 أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ - ٢ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ
 أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرٌ - ٣ . قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ
 إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا
 بِكُمْ وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
 وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ - ٤ .
 رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ - ٥ . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا

اللَّهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ — ٦ .
 عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ — ٧ . لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي
 الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ — ٨ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ
 وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ
 يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ — ٩ .

(بيان)

تذكر السورة موالاة المؤمنين لأعداء الله من الكفار وموادتهم وتشدد النهي عن ذلك تفتتح به وتختتم وفيها شيء من أحكام النساء المهاجرات وبيعة المؤمنات ، وكونها مدنية ظاهر .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » الخ ، سياق الآيات يدل على أن بعض المؤمنين من المهاجرين كانوا يسرون الموادة إلى المشركين بمكة ليجمعوا بذلك من بقي من أرحامهم وأولادهم بمكة بعد خروجهم أنفسهم منها بالمهاجرة إلى المدينة فنزلت الآيات ونهاهم الله عن ذلك ، ويتأيد بهذا ما ورد أن الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة أسراً كتاباً إلى المشركين بمكة يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على الخروج إليها لفتحها ، فعل ذلك ليكون يداً له عليهم يقي بها من كان بمكة من أرحامه وأولاده فأخبر الله بذلك نبيه ﷺ ونزلت ، وستوافيك قصته في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

فقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » العدو معروف ويطلق على الواحد والكثير والمراد في الآية هو الكثير بقرينة قوله : « أولياء » و « إليهم » وغير

ذلك ، وهم المشركون بمكة ، وكونهم عدوه من جهة اتخاذهم له شركاء يعبدونهم ولا يعبدون الله ويردون دعوته ويكذبون رسوله ، وكونهم أعداء للمؤمنين لإيمانهم بالله وتقديتهم أموالهم وأنفسهم في سبيله فمن يعادي الله يعاديهم .

وذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفاية ذكر عداوتهم لله في سوق النهي لتأكيد التحذير والمنع كأنه قيل : من كان عدواً لله فهو عدو لكم فلا تتخذوه ولياً .

وقوله : « تلقون اليهم بالمودة » بالمودة مفعول « تلقون » والباء زائدة كما في قوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » البقرة : ١٩٥ ، والمراد بإلقاء المودة إظهارها أو إيصالها ، والجملة صفة أو حال من فاعل « لا تتخذوا » .

وقوله : « وقد كفروا بما جاءكم من الحق » هو الدين الحق الذي يصفه كتاب الله ويدعو إليه النبي ﷺ ، والجملة حالية .

وقوله : « يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » الجملة حالية والمراد بإخراج الرسول وإخراجهم اضطرارهم الرسول والمؤمنين إلى الخروج من مكة والمهاجرة إلى المدينة ، و « أن تؤمنوا بالله ربكم » بتقدير اللام متعلق بيخرجون ، والمعنى : يجبرون الرسول وإياكم على المهاجرة من مكة لإيمانكم بالله ربكم .

وتوصيف الله بقوله : « ربكم » للإشارة إلى أنهم يؤخذونهم على أمر حق مفروض ليس يحرم فإن إيمان الإنسان بربه مفروض عليه وليس من الجرم في شيء .

وقوله : « إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي » متعلق بقوله : « لا تتخذوا » وجزاء الشرط محذوف يدل عليه المتعلق ، و « جهاداً » مصدر مفعول له ، و « ابتغاء » بمعنى الطلب و « المرضاة » مصدر كالرضى ، والمعنى : لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء إن كنتم هاجرتهم للمجاهدة في سبيلي وأطلب رضاي .

وتقييد النهي عن ولائهم واشتراطه بخروجهم للجهاد وابتغائهم مرضاته من باب اشتراط الحكم بأمر يحقق الوقوع تأكيده وإيذاناً بالملازمة بين الشرط والحكم كقول الوالد لولده : إن كنت ولدي فلا تفعل كذا .

وقوله : « تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » أسررت إليه حديثاً أي أفضيت إليه في خفية فمعنى « تسرون إليه بالمودة » تطلعونهم على ما تسرون من مودتهم - على ما قاله الراغب - والإعلان خلاف الإخفاء ، و « أنا أعلم » الخ ، حال من

فاعل « تسرون » و « أعلم » اسم تفضيل ، واحتمل بعضهم أن يكون فعل المتكلم وحده من المضارع متعدياً بالباء لأن العلم ربما يتعدى بها .

وجملة : « تسرون اليهم » الخ ، استئناف بيانية كأنه قيل بعد استماع النهي السابق : ماذا فعلنا فاجيب : تطلعونهم سرّاً على مودتكم لهم وأنا أعلم بما أخفيتم وما أظهرتم أي أنا أعلم بقولكم وفعلكم علماً يستوي بالنسبة اليه إخفاؤكم وإظهاركم .

ومنه يعلم أن قوله : « بما أخفيتم وما أعلنتم » معاً يفيدان معنى واحداً وهو استواء الإخفاء والإعلان عنده تعالى لإحاطته بما ظهر وما بطن فلا يرد أن ذكر « ما أخفيتم » يغني عن ذكر « ما أعلنتم » لأن العالم بما خفي عالم بما ظهر بطريق أولى .

وقوله : « ومن يفعل ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل » الإشارة بذلك إلى أسرار المودة اليهم وهو الموالاة ، و « سواء السبيل » من إضافة الصفة إلى الموصوف أي السبيل السوي والطريق المستقيم وهو مفعول « ضل » أو منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد ضل عن سواء السبيل ، والسبيل سبيل الله تعالى .

قوله تعالى : « إن يشفقوك يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء » الخ ، قال الراغب : الثقف - بالفتح فالسكون - الحذق في إدراك الشيء وفعله . قال : ويقال : ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ثم يتجاوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة . انتهى . وفسره غيره بالظفر ولعله بمعونة مناسبة المقام ، والمعنيان متقاربان .

والآية مسوقة لبيان أنه لا ينفعهم الأسرار بالمودة للمشركين في جلب محبتهم ورفع عداوتهم شيئاً وأن المشركين على الرغم من إلقاء المودة اليهم إن يدركوهم ويظفروا بهم يَكُونُوا لهم أَعْدَاء من دون أن يتغير ما في قلوبهم من العداوة .

وقوله : « ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » بمنزلة عطف التفسير لقوله : « يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء » وبسط الأيدي بالسوء كناية عن القتل والسي وسائر ألحاء التعذيب وبسط الألسن بالسوء كناية عن السب والشم .

والظاهر أن قوله : « وودوا لو تكفرون » عطف على الجزاء والماضي بمعنى المستقبل كما يقتضيه الشرط والجزاء ، والمعنى : أنهم يبسطون اليكم الأيدي والألسن بالسوء ويودون بذلك لو تكفرون كما كانوا يفتنون المؤمنين بمكة ويعذبونهم يودون بذلك أن يرتدوا عن دينهم . والله أعلم .

قوله تعالى : « لن ينفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة » دفع لما ربما يمكن أن يتوهم عذراً للإلقاء المودة اليهم أن في ذلك صيانة لأرحامهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بين المشركين من أذاهم .

والجواب أن أمامكم يوماً تجازون فيه على معصيتكم وطالح عملكم ومنه موالاة الكفار ولا ينفعكم اليوم أرحامكم ولا أولادكم الذين قدمتم صياتهم من أذى الكفار على صيانة أنفسكم من عذاب الله بترك موالاة الكفار .

وقوله : « يفصل بينكم » أي يفصل الله يوم القيامة بينكم بتقطع الأسباب الدنيوية كما قال تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ » المؤمنون : ١٠١ ، وذلك أن القرابة وهي انتماء إنسانين أو أكثر إلى رحم واحدة إنما تؤثر آثارها من الرحمة والمودة والالفة والمعاونة والمعاضدة والعصبية والخدمة وغير ذلك من الآثار في ظرف الحياة الاجتماعية التي تسوق الإنسان إليه حاجته إليها بالطبع بحسب الآراء والمقائيد الاعتبارية التي أوجدها فيه فهمه الاجتماعي ، ولا خبر عن هذه الآراء في الخارج عن ظرف الحياة الاجتماعية .

وإذا برزت الحقائق وارتفع الحجاب وانكشف العطاء يوم القيامة ضلت عن الإنسان هذه الآراء والمزاعم وانقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب ومسبباتها كما قال تعالى : « لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام : ٩٤ ، وقال : « ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ .

فيومئذ تتقطع رابطة الأنساب ولا ينتفع ذو قرابة من قرابته شيئاً فلا ينبغي للإنسان أن يخون الله ورسوله بموالاة أعداء الدين لأجل أرحامه وأولاده فليسوا يفنونه عن الله يومئذ .

وقيل : المراد أنه يفرق الله بينكم يوم القيامة بما فيه من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسباً فطبق به قوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » عبس : ٣٧ ، والوجه السابق أنسب للمقام .

وقيل : المراد أنه يميز بعضكم يومئذ من بعض فيدخل أهل الإيمان والطاعة الجنة ، وأهل الكفر والمعصية النار ولا يرى القريب المؤمن في الجنة قريبه الكافر في النار . وفيه أنه وإن كان لا بأس به في نفسه لكنه غير مناسب للمقام إذ لا دلالة في المقام على

كفر أرحامهم وأولادهم .

وقيل : المراد بالفصل فصل القضاء والمعنى : أن الله يقضي بينكم يوم القيامة .
وفيه ما في سابقه من عدم المناسبة للورد فإن فصل القضاء إنما يناسب الاختلاف كما
في قوله تعالى : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » السجدة :
٢٠ ، ولا ارتباط في الآية بذلك .

وقوله : « والله بما تعملون بصير » متمم لقوله : « لن تنفعكم » كالمؤكد له والمعنى :
لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة في رفع تبعه هذه الخيانة وأمثالها والله بما
تعملون بصير لا يخفى عليه ما هي هذه الخيانة فيؤاخذكم عليها لا محالة .

قوله تعالى : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » إلى آخر الآيتين ،
والخطاب للمؤمنين ، والاسوة الاتباع والإقتداء ، وفي قوله : « والذين معه بظاهره دلالة
على أنه كان معه من آمن به غير زوجته ولوط .

وقوله : « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وبما تعبدون من دون الله » أي إنا بريئون
منكم ومن أصنامكم بيان لما فيه الأسطورة والإقتداء .

وقوله : « كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله
وحده » بيان لمعنى البراءة بآثرها وهو الكفر بهم وعبادتهم ما داموا مشركين حتى
يوحدهوا الله سبحانه .

والمراد بالكفر بهم الكفر بشركهم بدليل قوله : « حتى تؤمنوا بالله وحده » ،
والكفر بشركهم مخالفتهم فيه عملاً كما أن العداوة بينونة ومخالفة قلباً .

فقد فسروا براءتهم منهم بأمور ثلاثة : مخالفتهم لشركهم عملاً ، والعداوة والبغضاء
بينهم قلباً ، واستمرار ذلك ما داموا على شركهم إلا أن يؤمنوا بالله وحده .

وقوله : « إنا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء » ،
استثناء مما تدل عليه الجمل المتقدمة أن إبراهيم والذين معه تبرؤوا من قومهم المشركين قولاً
مطلقاً . وقطعوا أي رابطة تربطهم بالقوم وتصل بينهم إلا ما قال إبراهيم لأبيه :
« لأستغفرن لك » الخ .

ولم يكن قوله : « لأستغفرن لك » توكيداً منه بل وعداً وعده إياه رجاء أن يتوب عن
الشرك ويؤمن بالله وحده كما يدل عليه قوله تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا

عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، التوبة : ١١٤ ، حيث يفيد أنه عليه السلام إنما وعده لأنه لم يتبين له بعد أنه عدو لله راسخ في عداوته ثابت في شركه فكان يرجو أن يرجع عن شركه ويطمع في أن يتوب ويؤمن فلما تبين له رسوخ عداوته ويش من إيمانه تبرأ منه .

على أن قوله تعالى في قصة محاجته أباه في سورة مريم : « قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيوا وأعتزل لكم وماتدعون من دون الله » مريم : ٤٨ ، يتضمن وعده أباه بالاستغفار وإخباره بالاعتزال ولو كان وعده الاستغفار تولياً منه لأبيه لكان من الحري أن يقول : وأعتزل القوم ، لا أن يقول : وأعتزلكم فيدخل أباه فيمن يعتزلهم وليس الاعتزال إلا التبري .

فالاستثناء استثناء متصل من أنهم لم يكلموا قومهم إلا بالتبري والمحصل من المعنى : أنهم إنما ألقوا اليهم القول بالتبري إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك فلم يكن تبرياً ولا تولياً بل وعداً وعده أباه رجاء أن يؤمن بالله .

وهنا شيء وهو أن مؤدى آية التوبة « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » أن تبرئه الجازم إنما كان بعد الوعد وبعد تبين عداوته لله ، وقوله تعالى في الآية التي نحن فيها : « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » إخبار عن تبرئهم الجازم القاطع فيكون ما وقع في الاستثناء من قول إبراهيم لأبيه وعداً واقعاً قبل تبرئه الجازم ومن غير جنس المستثنى منه فيكون الاستثناء منقطعاً لا متصلاً .

وعلى تقدير كون الاستثناء منقطعاً يجوز أن يكون الاستثناء من قوله : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » بما أنه مقيد بقوله : « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » ، والمعنى : قد كان لكم اقتداء حسن بتبري إبراهيم والذين معه من قومهم إلا أن إبراهيم قال لأبيه كذا وكذا وعداً .

وأما على تقدير كون الاستثناء متصلاً فالوجه ما تقدم ، وأما كون المستثنى منه هو قوله : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم » ، والمعنى : لكم في إبراهيم أسوة في جميع خصاله إلا في قوله لأبيه : « لأستغفرن لك » فلا أسوة فيه .

ففيه أن قوله : « لكم أسوة حسنة في إبراهيم » الخ ، غير مسوق لإيجاب التأسي بإبراهيم عليه السلام في جميع خصاله حتى يكون الوعد بالاستغفار أو نفس الاستغفار - وذلك

من خصاله — مستثنى منها بل إنما سيق لإيجاب الناسي به في تبريه من قومه المشركين ، والوعد بالاستغفار رجاء للتوبة والإيمان ليس من التبري وإن كان ليس تولى أيضاً .

وقوله : « ولا أملك لك من الله شيئاً » تنمة قول إبراهيم عليه السلام ، وهو بيان لحقيقة الأمر من أن سؤاله المغفرة وطلبها من الله ليس من نوع الطلب الذي يملك فيه الطالب من المطلوب منه ما يطلبه ، وإنما هو سؤال يدعو اليه فقر العبودية وذاتها قبال غنى الربوبية وعزتها فله تعالى أن يقبل بوجهه الكريم فيستجيب ويرحم ، وله أن يعرض ويمسك الرحمة فإنه لا يملك أحد منه تعالى شيئاً وهو المالك لكل شيء ، قال تعالى : « قل فمن يملك من الله شيئاً » المائدة : ١٧ .

وبالجملة قوله : « لا أملك » الخ ، نوع اعتراف بالعجز استدراكاً لما يستشعر من قوله : « لأستغفرن لك » من شائبة إثبات القدرة لنفسه نظير قول شعيب عليه السلام : « وما توفيقي إلا بالله » استدراكاً لما يشعر به قوله لقومه : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » هود : ٨٨ ، من إثبات القوة والاستطاعة لنفسه بالأصالة والاستقلال .

وقوله : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » الخ ، من تمام القول المنقول عن إبراهيم والذين معه المندوب إلى الناسي بهم فيه ، وهو دعاء منهم لربهم وابتihal اليه إثر ما تبرؤا من قومهم ذاك التبري العنيف ليحفظهم من تبعاتة ويغفر لهم فلا يخيبهم في إيمانهم .

وقد افتتحوا دعاءهم بتقدمة يذكرون فيها حالهم فيما هم فيه من التبري من أعداء الله فقالوا : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا » يعنون به أننا كنا في موقف من الحياة تتمكن فيه أنفسنا وندير فيه أمورنا أما أنفسنا فأنبنا ورجعنا بها إليك وهو الإثابة ، وأما أمورنا التي كان علينا تدبيرها فتركناها لك وجعلنا مشيئتك مكان مشيئتنا فأنت وكيلنا فيها تدبرها بما تشاء وكيف تشاء وهو التوكل .

ثم قالوا : « وإليك المصير » يعنون به أن مصير كل شيء من فعل أو فاعل فعل إليك فقد جربنا في توكلنا عليك وإنابتنا إليك مجرى ما عليه حقيقة الأمر من مصير كل شيء إليك حيث هاجرنا بأنفسنا إليك وتركنا تدبير أمورنا لك .

وقوله : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا » متن دعائهم يسألونه تعالى أن يعيدهم من تبعة تبريهم من الكفار ويغفر لهم .

والفتنة ما يمتحن به ، والمراد يجعلهم فتنة للذين كفروا تسليط الكفار عليهم ليمتحنهم فيخرجوا ما في وسعهم من الفساد فيؤذوهم بأنواع الأذى أن آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم وتبرؤا منهم ومما يعبدون .

وقد كررنا نداءه تعالى - ربنا - في دعائهم مرة بعد مرة لإثارة الرحمة الإلهية .
وقوله : « إنك أنت العزيز الحكيم » أي غالب غير مغلوب متقن لأفعاله لا يعجز أن يستجيب دعاءهم فيحفظهم من كيد أعدائه ويعلم بأي طريق يحفظ .
وللمفسرين في تفسير الآيتين أنظار مختلفة أخرى أغضنا عن إيرادها رعاية للاختصار من أرادها فليراجع المطولات .

قوله تعالى : « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » الخ ، تكرار حديث الأسوة لتأكيد الإيجاب وبيان أن هذه الأسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وأيضاً أنهم كما يتأسى بهم في تبرئهم من الكفار كذلك يتأسى بهم في دعائهم وابتهاهم .

والظاهر أن المراد برجائه تعالى رجاء ثوابه بالإيمان به وبرجاء اليوم الآخر رجاء ما وعد الله وأعد للمؤمنين من الثواب ، وهو كناية عن الإيمان .

وقوله : « ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » استغناء منه تعالى عن امتثالهم لأمره بتبرئهم من الكفار وأنهم هم المنتفعون بذلك والله سبحانه غني في ذاته عنهم وعن طاعتهم حميد فيما يأمرهم وينهاهم إذ ليس في ذلك إلا صلاح حالهم وسعادة حياتهم .

قوله تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » والله قدير والله غفور رحيم ، ضمير « منهم » للكفار الذين أمروا بمعاداتهم وهم كفار مكة ، والمراد يجعل المودة بين المؤمنين وبينهم جعلها بتوفيقهم للاسلام كما وقع ذلك لما فتح الله لهم مكة ، وليس المراد به نسخ حكم المعادة والتبري .

والمعنى : مرجو من الله أن يجعل بينكم معشر المؤمنين وبين الذين عاديتم من الكفار وهم كفار مكة مودة بتوفيقهم للاسلام فتقلب المعادة مودة والله قدير والله غفور لذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا وأسلموا فعلى المؤمنين أن يرجوا من الله أن يبدل معاداتهم مودة بقدرته ومفقرته ورحمته .

قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن

تبرؤهم وتقسطوا اليهم ، الخ ، في هذه الآية والتي تتلوها توضيح للنهي الوارد في أول السورة ، والمراد بالذين لم يقاتلوا المؤمنين في الدين ولم يخرجوهم غير أهل مكة ممن لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم من المشركين من أهل المعاهدة ، والبر والإحسان ، والإقساط المعاملة بالعدل ، و « أن تبرؤهم » بدل من « الذين » الخ ، وقوله : « إن الله يحب المقسطين » تعليل لقوله : « لا ينهاكم الله » الخ .

والمعنى : لا ينهاكم الله بقوله : « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » عن أن تحسنوا وتعاملوا بالعدل الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم لأن ذلك منكم إقساط والله يحب المقسطين .

قيل : إن الآية منسوخة بقوله : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة : ٥ ، وفيه أن الآية التي نحن فيها لا تشمل بإطلاقها إلا أهل الذمة وأهل المعاهدة وأما أهل الحرب فلا ، وآية التوبة إنما تشمل أهل الحرب من المشركين دون أهل المعاهدة فكيف تنسخ ما لا يزاحمها في الدلالة .

قوله تعالى : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم » الخ ، المراد بالذين قاتلوكم الخ ، مشركوا مكة ، والمظاهرة على الإخراج المعاونة والمعاضدة عليه ، وقوله : « أن تولوهم » بدل من « الذين قاتلوكم » الخ . وقوله : « ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » قصر أفراد أي المتولون لمشركي مكة ومن ظاهرهم على المسلمين هم الظالمون المتمردون عن النهي دون مطلق المتولين للكفار أو تأكيد للنهي عن توليهم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » الآية : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، ولفظ الآية عام ومعناها خاص وكان سبب ذلك أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم وهاجر إلى المدينة وكان عياله بمكة ، وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله ﷺ فصاروا إلى عيال حاطب وسألوه أن يكتبوا إلى حاطب ويسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة ؟

فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك فكتب اليهم حاطب أن رسول الله ﷺ يريد ذلك ، ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية فوضعت في قرونها ومرت فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ وأخبره بذلك .

فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين والزبير بن العوام في طلبها فلحقوها فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام : أين الكتاب ؟ فقالت : ما معي شيء ففتشها فلم يجدوا معها شيئاً فقال الزبير : ما نرى معها شيئاً فقال أمير المؤمنين عليه السلام : والله ما كذبنا رسول الله ﷺ ، ولا كذب رسول الله ﷺ على جبرئيل ، ولا كذب جبرئيل على الله جل ثناؤه والله لتظهرن الكتاب أو لأردن رأسك إلى رسول الله ﷺ فقالت : تنحيا عني حتى أخرجه فأخرجت الكتاب من قرونها فأخذه أمير المؤمنين وجاء به إلى رسول الله ﷺ . وقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ما هذا ؟ فقال حاطب : والله يا رسول الله ما نافقت ولا غيرت ولا بدلت ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله حقاً ولكن أهلي وعيالي كتبوا إلى بحسن صنيع قريش اليهم فأحببت أن أجازي قريشاً بحسن معاشرتهم ، فأرسل الله على رسول الله ﷺ : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أواباء - إلى قوله - والله بما تعملون بصير .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والحديث وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن عبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة ^(١) خاخ فإن بها ظعينة ^(٢) معها كتاب فخذوه منها وأتوني به .

فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجني الكتاب . قالت : ما معي كتاب قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها . فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بن تلمة إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لا تعجل علي يا رسول الله إني كنت امرأة ملصقة من قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من

(١) موضع في طريق مكة .

(٢) الظعينة : المسافرة .

المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع اليهم يدأ يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفرأ ولا ارتداداً عن ديني فقال النبي ﷺ : صدق .

فقال عمر : دعني يا رسول الله فأضرب عنقه فقال : إنه شهد بدرأ وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ونزلت فيه : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلحقون اليهم بالموودة .

أقول : وهذا المعنى مروى في عدة من الروايات عن نفر من الصحابة كأنس وجابر وعمر وابن عباس وجمع من التابعين كحسن وغيره .

والرواية من حيث متنها لا تخلو من بحث :

أما أولاً : فلأن ظاهرها بل صريحها أن حاطب بن أبي بلتعة كان يستحق بصنعه ما صنع القتل أو جزاء دون ذلك ، وإنما صرف عنه ذلك كونه بدرياً فالبدري لا يؤخذ بما أتى به من معصية كما يصرح به قوله ﷺ لعمر في هذه الرواية : « إنه شهد بدرأ » وفي رواية الحسن : « إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر » .

ويعارضه ما في قصة الإفك أن النبي ﷺ بعد ما نزلت براءة عائشة حد مسطح بن أثانة وكان من الآفكين ، وكان مسطح بن أثانة هذا من السابقين الأولين من المهاجرين ومن شهد بدرأ كما في صحيح البخاري ومسلم وحده النبي ﷺ كما نطقت به الروايات الكثيرة الواردة في تفسير آيات الإفك .

وأما ثانياً : فلأن ما يشتمل عليه من خطابه تعالى لأهل بدر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » الدال على كون كل ما أتوا به من ذنب مغفوراً لهم لا يتم بالبداهة إلا بارتفاع عامة التكاليف الدينية عنهم من واجب أو حرام أو مستحب أو مكروه ، ولا معنى لتعلق التكليف المولوي بأمر مع إلغاء تبعة مخالفته وتسوية الفعل والترك بالنسبة إلى المكلف كما يدل عليه قوله : « اعملوا ما شئتم » على بداهة ظهوره في الإباحة العامة . ولازم ذلك :

أولاً : شمول المغفرة من المعاصي لما يحكم بداهة العقل على عدم شمول العفو له لولا التوبة كعبادة الأصنام والرد على الله ورسوله وتكذيب النبي والافتراء على الله ورسوله والاستهزاء

بالدين وأحكامه الثابتة بالضرورة، فإن الآيات المتعرضة لها الناهية عنها تأبى شمول المغفرة لها من غير توبة، ومثلها قتل النفس المحترمة ظلماً والفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، واستباحة الدماء والأعراض والأموال.

ومن المعلوم أن المحذور إمكان تعلق المغفرة بأمثال هذه المعاصي والذنوب لا فعلية تعلقها بها فلا يدفع بأن الله سبحانه يحفظ هذا المكلف المغفور له من اقتراف أمثال هذه المعاصي والذنوب وإن كان غفر له لو اقتترف.

وثانياً: أن يخص قوله: «اعملوا ما شئتم» عمومات جميع الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات من حيث المتعلق فلا يعم شيء منها البدرين ولا يتعلق بهم، ولو كان كذلك لكان معروفاً عند الصحابة مسلماً لهم أن هؤلاء العصاة محررون من كل تكليف ديني مطلق من قيد وظائف العبودية وكان البدرين أنفسهم أحق برعاية معنى التحرير فيما بينهم أنفسهم على ما له من الأهمية، ولا شاهد يشهد بذلك في المروي من أخبارهم والمفوظ من آثارهم بل الاستفادة من سيرهم وخاصة في خلال الفتن الواقعة بمد رحلة النبي ﷺ خلاف ذلك بما لا يسع لأحد إنكاره.

على أن تحرير قوم ذوي عدد من الناس وإطلاقهم من قيد التكليف لهم أن يفعلوا ما يشاؤون وأن لا يبالوا بمخالفة الله ورسوله وإن عظمت ما عظمت يناقض مصلحة الدعوة الدينية وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبث المعارف الإلهية التي جاء بها الرسول بالرواية عنه إذ لا يبقى للناس بهم وثوق فيما يقولون ويروون من حكم الله ورسوله أن لا ضير عليهم ولو أتوا بكل كذب وافتراء أو اقترفوا كل منكر وفحشاء والناس يعلمون منهم ذلك.

ويجري ذلك في النبي ﷺ وهو سيد أهل بدر وقد أرسله (١) الله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً فكيف تطمئن القلوب إلى دعوة من يجوز تلبسه بكل كذب وافتراء ومنكر وفحشاء؟ وأنى تسلم النفوس له الاتصاف بتلك الصفات الكريمة التي مدحه الله بها؟ بل كيف يجوز في حكمة تعالى أن يقلد الشهادة والدعوة من لا يؤمن في حال أو مقال، ويعده سراجاً منيراً وهو تعالى قد أباح له أن يحيي الباطل كما

ينير الحق وأذن له في أن يضل الناس وقد بعثه ليهديهم والآيات المتعرضة لعصمة الأنبياء وحفظ الوحي تأبى ذلك كله .

على أن ذلك يفسد استقامة الخطاب في كثير من الآيات التي فيها عتاب الصعابة والمؤمنين على بعض تخلفاتهم كالآيات النازلة في وقعة أحد والأحزاب وحنين وغيرها المعاتبة لهم على انهزامهم وفرارهم من الزحف وقد أوعد الله عليه النار .

ومن أوضح الآيات في ذلك آيات الإفك وفي أهل الإفك مسطح بن أثالة البديري وفيها قوله تعالى : « لكل امرء منهم ما اكتسب من الإثم » ولم يستثن أحداً منهم ، وقوله : « وهو عند الله عظيم » ، وقوله : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين » .

ومن أوضح الآيات في عدم ملاءمة معناها للرواية نفس هذه الآيات التي تذكر الرواية سبب نزولها : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » الآيات وفيها مثل قوله تعالى : « ومن يفعل منكم فداً فقد ضل سواء السبيل » وقوله : « ومن يتوهم فاولئك هم الظالمون » .

فمن المعلوم أن الآيات إنما وجهت الخطاب والعتاب إلى عامة الذين آمنوا وتنسب إلقاء المودة وإسرار مودة الكفار إلى المؤمنين بما أن بعضهم وهو حاطب بن أبي بلتعة اتخذ الكفار أولياء وخان الإسلام والمسلمين فنسبت الآيات فعل البعض إلى الكل ووجهت العتاب والتهديد إلى الجميع .

فلو كان حاطب وهو بدري محرر مرفوع عنه القلم مخاطباً بمثل قوله : « اعمل ما شئت فقد غفرت لك لا إثم عليه فيما يفعل ولا ضلال في حقه ولا يتصف بظلم ولا يتعلق به عتاب ولا تهديد فأى وجه لنسبة فعل البعض بما له من الصفات غير المرضية إلى الكل ولا صفة غير مرضية لفعل هذا البعض على الفرض .

فيقول الأمر إلى فرض أن يأتي البعض بفعل مأذون له فيه لا عتاب عليه ولا لوم يعتريه ويعاتب الكل ويهددوا عليه وبعبارة أخرى أن يؤذن لفاعل في معصية ثم يعاتب عليها غيره ولا صنع له فيها ويحمل كلامه تعالى عن مثل ذلك .

وفيه أخرج البخاري وابن المنذر والنحاس والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت أبي بكر قالت : أتتني أمي رغبة وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ فسألت النبي ﷺ أصلها ؟ فأذن الله ﷻ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ،

فقال : نعم صلي .

وفيه أخرج أبو داود في تاريخه وابن المنذر عن قتادة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين » نسختها « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

أقول : قد عرفت الكلام فيه .

وفي الكافي بإسناده عن سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتمطي في الله وتمنع في الله جل وعز .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ
 اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تُرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ
 لَأُھُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ
 الْكُوفَارِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ
 يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ - ١٠ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ
 أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا
 أَنْفَقُوا وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ - ١١ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا
 جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ
 وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ

وَأَرْجُلَيْنِ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - ١٢ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَتَّبِعُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَتَّبِعَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ - ١٣ .

(بيان)

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ » الآية ، سياق الآية يعطي أنها نزلت بعد صلح الحديبية ، وكان في العهد المكتوب بين النبي ﷺ وبين أهل مكة أنه إن لحق من أهل مكة رجل بالمسلمين ردّوه اليهم وإن لحق من المسلمين رجل بأهل مكة لم ردّوه اليهم ثم إن بعض نساء المشركين أسلت وهاجرت إلى المدينة فجاء زوجها يستردّها فسأل النبي ﷺ أن يردها اليه فأجابه النبي ﷺ أن الذي شرطوه في العهد ردّ الرجال دون النساء ولم يردها اليهم وأعطاه ما أنفق عليها من المهر وهو الذي تدل عليه الآية مع ما يناسب ذلك من أحكامهن .

فقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ » سمّاهن مؤمنات قبل امتحانهن والعلم بإيمانهن لتظاهرن بذلك .

وقوله : « فَامْتَحِنُوهُنَّ » أي اختبروا إيمانهن بما يظهر به ذلك من شهادة وحلف يفيد العلم والوثوق ، وفي قوله : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ » إشارة إلى أنه يحزي في ذلك العلم المعادي والوثوق دون اليقين بحقيقة الإيمان الذي هو تعالى أعلم به علماً لا يتخلف عنه معلومه .

وقوله : « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ » ذكرهم بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب للحكم وانقطاع علاقة الزوجية بين المؤمنة والكافر .

وقوله : « لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » مجموع الجملتين كناية عن انقطاع علاقة الزوجية ، وليس من توجيه الحرمة اليهن وإليهم في شيء .

وقوله : « وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا » أي أعطوا الزوج الكافر ما أنفق عليها من المهر .

وقوله : « ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن » رفع المانع من نكاح المؤمنات المهاجرات إذا أوتين أجورهن والأجر المهر .

وقوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » العصم جمع عصمة وهي النكاح الدائم بعصم المرأة ويحصنها ، وإمسك العصمة إبقاء الرجل - بعد ما أسلم - زوجته الكافرة على زوجيتها فعليه بعد ما أسلم أن يخلي عن سبيل زوجته الكافرة سواء كانت مشركاً أو كتابية . وقد تقدم في تفسير قوله : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » البقرة : ٢٢١ ، وقوله : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » المائدة : ٥ ، أن لا نسخ بين الآيتين وبين الآية التي نحن فيها .

وقوله : « واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا » ضمير الجمع في « واسألوا » للمؤمنين وفي « ليسألوا » للكفار أي إن لحقت امرأة منكم بالكفار فاسألوهم ما أنفقتم لها من مهر ولهم أن يسألوا مهر من لحقت بكم من نسائهم . ثم تم الآية بالإشارة إلى أن ما تضمنته الآية حكم الله الذي شرع لهم فقال : « ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

قوله تعالى : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا » الخ ، قال الراغب : الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه ، قال تعالى : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار » . انتهى . وفسر المعاقبة والعقاب بمعنى الوصول والانتهاء إلى عقبى الشيء ، والمراد عاقبتهم من الكفار أي أصبتم منهم غنيمة وهي عقبى الغزو ، وقيل : عاقب بمعنى عقَّب ، وقيل : عاقب مأخوذ من العقبة بمعنى النوبة .

والأقرب أن يكون المراد بالشيء المهر و « من » في « من أزواجكم » لا ابتداء الغاية و « إلى الكفار » متعلق بقوله : « فاتكم » والمراد بالذين ذهبوا أزواجهم ، بعض المؤمنين وإليهم يعود ضمير « أنفقوا » .

والمعنى : وإن ذهب وانفقت منكم إلى الكفار مهر من أزواجكم بلعوقهن بهم وعدم ردِّهم ما أنفقتم من المهر إليكم فأصبتم منهم بالغزو غنيمة فأعطوا المؤمنين الذين ذهبوا أزواجهم اليهم مما أصبتم من الغنيمة مثل ما أنفقوا من المهر .

وفسرت الآية بوجوه أخرى بعيدة عن الفهم أغمضنا عنها .

وقوله : « واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » أمر بالتقوى ، وتوصيفه تعالى بالموصول والصلة لتعليل الحكم فإن من مقتضى الإيمان بالله تقواه .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك » الخ ، تتضمن الآية حكم بيعة النساء المؤمنات للنبي ﷺ ، وقد شرطت عليهن في « على أن لا تشركن » الخ ، أموراً منها ما هو مشترك بين الصنفين : الرجال والنساء كالتحرز من الشرك ومن معصية الرسول في معروف ومنا ما هو أمس بهن من حيث أن تدبير المنزل بحسب الطبع اليهن وهن السبيل إلى حفظ عفة البيت والحصول على الأنسال وطهارة مواليدهم ، وهي التجنب من السرقة والزنا وقتل الأولاد وإلحاق غير أولاد أزواجهن بهم ، وإن كانت هذه الأمور بوجه من المشتركات .

فقوله : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك » شرط جوابه قوله : « فبايعن واستغفر لهن الله » .

وقوله : « على أن لا يشركن بالله شيئاً » أي من الأصنام والأوثان والأرباب ، وهذا شرط لا غنى عنه لإنسان في حال .

وقوله : « ولا يسرقن » أي لا من أزواجهن ولا من غيرهم وخاصة من أزواجهن كما يفيد السياق ، وقوله : « ولا يزنین » أي باتخاذ الأخدان وغير ذلك وقوله : « ولا يقتلن أولادهن » بالوعد وغيره وإسقاط الأجنة .

وقوله : « ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن » وذلك بأن يحملن من الزنا ثم يضعنه وينسبنه إلى أزواجهن فإلحاقهن الولد كذلك بأزواجهن ونسبته اليهم كذباً بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن لأن الولد إذا وضعت أمه سقط بين يديها وأرجليها ، ولا يغني عن هذا الشرط شرط الاجتناب عن الزنا لأنها متغايران وكل مستقل بالنهي والتحريم .

وقوله : « ولا يعصينك في معروف » نسب المعصية إلى النبي ﷺ دون الله مع أنها تنتهي إليه تعالى لأن المراد أن لا يتخلفن بالمعصية عن السنة التي يستنها النبي ﷺ وينفذها في المجتمع الإسلامي فيكون ما سنه هو المعروف عند المسلمين وفي المجتمع الإسلامي .

ومن هنا يظهر أن المعصية في المعروف أعم من ترك المعروف كترك الصلاة والزكاة وفعل المنكر كتبرجهم تبرج الجاهلية الأولى .

وفي قوله : « إن الله غفور رحيم » بيان لمقتضى المغفرة وتقوية للرجاء .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم » الخ ، المراد بهم اليهود المغضوب عليهم وقد تكرر في كلامه تعالى فيهم « وباءوا بغضب من الله » البقرة : ٦١ ، ويشهد بذلك ذيل الآية فإن الظاهر أن المراد بالقوم غير الكفار .

وقوله : « ينسوا من الآخرة كما ينس الكفار من أصحاب القبور » المراد بالآخرة ثوابها ، والمراد بالكفار الكافرون بالله المنكرون للبعث ، وقيل : المراد مشركوا مكة واللام للعهد ، و « من » في « من أصحاب القبور » لابتداء الغاية .

والجملتان بيان لشقائهم الخالد وهلاكهم المؤبد ليحذر المؤمنون من موالاتهم ومواداتهم والاختلاط بهم والمعنى : قد ينس اليهود من ثواب الآخرة كما ينس منكرو البعث من الموتى المدفونين في القبور .

وقيل : المراد بالكفار الذين يدفنون الموتى ويوارونهم في الأرض - من الكفر بمعنى السر - .

وقيل : المراد بهم كفار الموتى و « من » ببيان المعنى : ينسوا من ثواب الآخرة كما ينس الكفار المدفونون في القبور منه لقوله : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله » البقرة : ١٦١ .

(بحث روائي)

في الجمع عن ابن عباس صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده عليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ فهو لهم ولم يردوه عليه وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه .

فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب والنبي ﷺ بالحديبية فأقبل زوجها مسافر من بني نخزوم - وقال مقاتل : هو صيفي بن الراهب - في طلبها وكان كافراً فقال : يا محمد اردد علي امرأتك فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا

من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فنزلت الآية « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتحنوهن » .

قال ابن عباس : امتحانهم أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله فاستحلفها رسول الله ﷺ ما خرجت بغضاً لزوجها ، ولا عشقاً لرجل منا ، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها عليه فتزوجها عمر بن الخطاب .

فكان رسول الله ﷺ يرد من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحن ويعطي أزواجهن مهورهن .

قال : قال الزهري : ولما نزلت هذه الآية وفيها قوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا له بمكة مشركتين : قرنية ^(١) بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة ، والآخرى أم كلثوم بنت عمرو ابن جرول الخزاعية أم عبد الله بن عمر فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم رجل من قومها وهما على شركهما .

وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق بينها الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر ، وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة عند قومها كافرة ثم تزوجها في الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية وكانت ممن فرت إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار فعبسها وزوجها خالداً .

وأمية بنت بشر كانت عند الثابت بن الدحداحة ففرت منه - وهو يومئذ كافر - إلى رسول الله ﷺ فتزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف فولدت عبد الله بن سهل .

قال : قال الشعبي : وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع فأسلمت ولحقت بالنبي ﷺ في المدينة وأقام أبو العاص مشركاً بمكة ثم أتى المدينة فأمنته زينب ثم أسلم فردّها عليه رسول الله ﷺ .

قال : وقال الجبائي : لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء ولم

يحز للنساء ذكر ، وإن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت مسلحة مهاجرة من مكة فجاء أخوها إلى المدينة فسألا رسول الله ﷺ ردها عليها فقال رسول الله ﷺ : إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردّها عليها .

أقول : وهذه المعاني مروية في روايات أخرى من طرق أهل السنة أورد كثيراً منها السيوطي في الدر المنثور ، وروى امتحان المهاجرات كما تقدم ثم عزم ردهن على الكفار وإعطائهن المهر القمي في تفسيره .

وفيه وقال الزهري : فكان جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعات عن الإسلام ست نسوة : أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد القهري ، وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدية بنت عبد العزى بن فضلة وزوجها عمرو بن عبدود ، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل ، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر فأعطاهم رسول الله ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : لا ينبغي نكاح أهل الكتاب قلت : جعلت فداك وأين تحريره ؟ قال : قوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : والرواية مبنية على عموم الإمساك بالعصم للنكاح الدائم إحدائاً وإبقاء . وفيه بإسناده أيضاً إلى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » فقال : هذه منسوخة بقوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : ولعل المراد بنسخ آية الإمساك بالعصم لآية حلية محصنات أهل الكتاب إختصاص آية المتحنة بالنكاح الدائم وتخصص آية المائدة بالنسبة إلى النكاح الدائم بها ، وإختصاص ما تدل عليه من الحلية بالنكاح المنقطع ، وليس المراد به النسخ المصطلح كيف ؟ وآية المتحنة سابقة نزولاً على آية المائدة ولا وجه لنسخ السابق لللاحق . على أن آية المائدة مسوقة سوق الإمتنان ، وما هذا شأنه يأبى النسخ .

وفي الجمع في قوله تعالى : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » وروى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنه منسوخ بقوله : « ولا تمسكوا المشركات حتى يؤمن » وبقوله :

« ولا تنسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : ويضعف الرواية - مضافاً إلى ضعف راويها - أن قوله : « ولا تنكحوا المشركات » الخ ، إنما يشمل المشركات من الوثنيين ، وقوله : « والمحصنات » الخ ، يفيد حلّة نكاح أهل الكتاب فلا تدافع بين الآيتين حتى تنسخ إحداها الأخرى ، وقد تقدم أنفاً الكلام في نسخ آية الممتحنة لقوله : « والمحصنات » الخ ، وقد تقدم في تفسير قوله : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » المائدة : ٥ ، ما ينفع في هذا المقام . وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم » فلحقن بالكفار من أهل عهدكم فاسألوهم صداقها ، وإن لحقن بكم من نسائهم شيء فأعطوهم صداقها ذلكم حكم الله يحكم بينكم .

أقول : ظاهره تفسير « شيء » بالمرأة .

وفي الكافي بإسناده عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يبايعنه فأنزل الله عز وجل : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك » إلى آخر الآية .

قالت هند : أما الولد فقد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، وقالت أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت عند عكرمة بن أبي جهل : يا رسول الله ما ذاك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه ؟ قال : لا تلطمن خدّاً ، ولا تخمشن وجهاً ، ولا تنتفن شعراً ، ولا تشققن جيباً ، ولا تسودن ثوباً ، ولا تدعين بويل ، فبايعهن رسول الله صلى الله عليه وآله على هذا . فقالت : يا رسول الله كيف نبايعك ؟ قال : إنني لا اصافح النساء فدعا بقدر من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال : أدخلن أيديكن في هذا الماء .

أقول : والروايات مستفيضة في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنة .

وفي تفسير القمي بإسناده عن عبد الله بن سنان قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله : « ولا يعصينك في معروف » قال : هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة وما أمرهن به من خير .

أقول : والرواية تشهد بأن ما ورد في الروايات من تفسير المعروف بمثل قوله : لا تلطمن خدّاً الخ ، وفي بعضها أن لا تتبرجن تبرج الجاهلية الأولى من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق .

* * *

(سورة الصف مدنية ، وهي أربع عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سَبِّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ — ١ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ
 مَا لَا تَفْعَلُونَ — ٢ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ — ٣ .
 إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ — ٤ .
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ
 إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ — ٥ .
 وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا
 لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ — ٦ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ — ٧ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ
 وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ — ٨ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
 الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ — ٩ .

(بيات)

السورة ترغّب المؤمنين وتحترّضهم على أن يجاهدوا في سبيل الله ويقاقلوا أعداء دينه ، وتنبّئهم أن هذا الدين نور ساطع لله سبحانه يريد الكفار من أهل الكتاب أن يطفئوه بأفواههم والله متمّ ولو كره الكافرون ، ومظهره على الدين كله ولو كره المشركون .
وأن هذا النبي الذي آمنوا به رسول من الله أرسله بالهدى ودين الحق ، وبشر به عيسى بن مريم عليها السلام بني إسرائيل .

فعلى المؤمنين أن يشدّوا العزم على طاعته وامتنال ما يأمرهم به من الجهاد ونصرة الله في دينه حتى يسعدم الله في آخرتهم وينصرهم ويفتح لهم في دنياهم ويؤيدهم على أعدائهم .
وعليهم أن لا يقولوا ما لا يفعلون ولا ينكصوا فيما يعدون فإن ذلك يستوجب مقتاً من الله تعالى وإيذاء الرسول وفيه خطر أن يزيع الله قلوبهم كما فعل بقوم موسى عليه السلام لما آذوه وهم يعلمون أنه رسول الله اليهم والله لا يهدي القوم الظالمين .
والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « سُبْحَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » تقسّم تفسيره ، واقتتاح الكلام بالتسبيح لما فيها من توبيخ المؤمنين بقولهم ما لا يفعلون وإنذارهم بمقت الله وإزاغته قلوب الفاسقين .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » « لَمْ » مخفف لما ، و « مَا » استفهامية ، واللام للتعليل ، والكلام مسوق للتوبيخ ففيه توبيخ المؤمنين على قولهم ما لا يفعلون ولا يصغى إلى قول بعض المفسرين : أن المراد بالذين آمنوا هم المنافقون والتوبيخ لهم دون المؤمنين جلالة قدرهم .

وذلك لوفور الآيات المتضمنة لتوبيخهم ومعاتبتهم وخاصة في الآيات النازلة في الغزوات وما يلحق بها كالحُد والأحزاب وحنين وصلاح الحديبية وتبوك والإنفاق في سبيل الله وغير ذلك ، والصالحون من هؤلاء المؤمنين إنما صلحوا نفساً وجلّوا قدراً بالتربية الإلهية التي تتضمنها أمثال هذه التوبيخات والعتابات المتوجهة اليهم تدريجاً ولم يتصفوا بذلك من عند أنفسهم .

ومورد التوبيخ وإن كان بحسب ظاهر لفظ الآية مطلق تخلف الفعل عن القول وخلف

الوعد ونقض العهد وهو كذلك لكونه من آثار مخالفة الظاهر للباطن وهو النفاق لكن سياق الآيات وفيها قوله: « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً » وما سيأتي من قوله: « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة » الخ ، وغير ذلك يفيد أن متعلق التوبيخ كان هو تخلف بعضهم عما وعده من الثبات في القتال وعدم الانهزام والفرار أو تناقلهم أو تخلفهم عن الخروج أو عدم الإنفاق في تجهز أنفسهم أو تجهيز غيرهم .

قوله تعالى : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » المقت البغض الشديد ، والآية في مقام التعليل لمضمون الآية السابقة فهو تعالى يبغض من الإنسان أن يقول ما لا يفعله لأنه من النفاق ، وأن يقول الإنسان ما لا يفعله غير أن لا يفعل ما يقوله فالأول من النفاق والثاني من ضعف الإرادة وهن العزم وهو رذيلة منافية لسعادة النفس الإنسانية فإن الله بنى سعادة النفس الإنسانية على فعل الخير واكتساب الحسنة من طريق الاختيار ومفتاحه العزم والإرادة ، ولا تأثير إلا للراشح من العزم والإرادة ، وتختلف الفعل عن القول معلول وهن العزم وضعف الإرادة ولا يرجى للإنسان مع ذلك خير ولا سعادة .

قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » الصف جعل الأشياء على خط مستو كالناس والأشجار . كذا قاله الراغب ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ولذا لم يجمع ، وهو حال من ضمير الفاعل في « يقاتلون » ، والمعنى : يقاتلون في سبيله حال كونهم صافين .

والبنيان هو البناء ، والمرصوص من الرصاص ، والمراد به ما أحكم من البناء بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام .

والآية تملل خصوص المورد - وهو أن يعدوا الثبات في القتال ثم ينهزموا - بالالتزام كما أن الآية السابقة تعلل التوبيخ على مطلق أن يقولوا ما لا يفعلون ، وذلك أن الله سبحانه إذا أحب الذين يقاتلون فيلزمون مكانهم ولا يزولون كان لازمه أن يبغض الذين يعدون أن يثبتوا ثم ينهزمون إذا حضروا معركة القتال .

قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم » الخ ، في الآية إشارة إلى إيذاء بني إسرائيل رسولهم موسى عليه السلام ولجأهم حتى آل إلى إزاعة الله قلوبهم . وفي ذلك نهى التزامي للمؤمنين عن أن يؤذوا رسول الله ﷺ فيقول أمرهم إلى ما آل إليه أمر قوم موسى من إزاعة القلوب وقد قال تعالى : « إن الذين

يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً» الأحزاب : ٥٧ .
والآية بما فيها من النهي الالتزامي في معنى قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا
قولاً سديداً » الأحزاب : ٧٠ .

وسياق الآيتين وذكر تبرئة موسى ﷺ يدل على أن المراد بإيذائه بما برأه الله منه
ليس معصيتهم لأوامره وخروجهم عن طاعته إذ لا معنى حينئذ لتبرئته بل هو أنهم وقعوا
فيه عنه وقالوا فيه ما فيه عار وشين فتأذى فبرأه الله مما قالوا ونسبوا إليه ، وقوله في
الآية التالية : « اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً » يؤكد هذا الذي ذكرناه .

ويؤكد ذلك إشارته تعالى إلى بعض مصاديق إيذاء النبي ﷺ بقول أو فعل في قوله :
« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه
ولكن إذا دعيت فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي
النبي - إلى أن قال - وإذا سألتهم من متاعاً فاسألوهم من وراء حجاب - إلى أن قال -
وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تتكفروا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان
عند الله عظيماً » الأحزاب : ٥٣ .

فتمحصل أن في قوله : « وإذا قال موسى لقومه » الخ ، تلويحاً إلى النهي عن إيذاء
النبي ﷺ بقول أو فعل على علم بذلك كما أن في ذيل الآية تخويفاً وإنذاراً أنه فسق ربما
أدنى إلى إزاعته تعالى قلب من تلبس به .

وقوله : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » الزينج الميل عن
الاستقامة ولازمه الانحراف عن الحق إلى الباطل .

وإزاعته تعالى إمساك رحمته وقطع هدايته عنهم كما يفيد التعليل بقوله : « إن الله لا
يهدي القوم الفاسقين » حيث علل الإزاعه بعدم الهداية ، وهي إزاعه على سبيل المجازاة
وتشبيث للزينج الذي تلبسوا به أولاً بسبب فسقهم المستدعي للمجازاة كما قال تعالى : « يضل
به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ ، وليس بإزاعه بدئية
وإضلال ابتدائي لا يليق بساحة قدسه تعالى .

ومن هنا يظهر فساد ما قيل : إنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله : « أزاغ الله قلوبهم »
الإزاعه عن الإيمان لأن الله تعالى لا يجوز أن يزيع أحداً عن الإيمان ، وأيضاً كون المراد

به الإزاعة عن الإيمان يخرج الكلام عن الفائدة لأنهم إذا زاغوا عن الإيمان فقد صاروا كفاراً فلا معنى لقوله : أزاغهم الله عن الإيمان .

وجه الفساد أن قوله : « لا يجوز له تعالى أن يزيع أحداً عن الإيمان » ممنوع بإطلاقه فإن الملاك فيه لزوم الظلم وإنما يلزم فيما كان من الإزاعة والإضلال ابتدائياً وأما ما كان على سبيل المجازاة وحقيقته إمساك الرحمة وقطع الهداية لتسبب العبد لذلك بفسقه وإعراضه عن الرحمة والهداية فلا دليل على منعه لا عقلاً ولا نقلاً .

وأما قوله : « إن الكلام يخرج بذلك عن الفائدة » فيدفعه أن الذي ينسب من الزيع إلى العبد ويحصل معه الكفر تحقق ما له بالفسق والذي ينسب إليه تعالى تثبيت الزيع في قلب العبد والطبع عليه به فزيع العبد عن الإيمان بسبب فسقه وحصول الكفر بذلك لا يغني عن تثبيت الله الزيع والكفر في قلبه على سبيل المجازاة .

قوله تعالى : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » تقدم في صدر الكلام أن هذه الآية والتي قبلها والآيات الثلاث بعدها مسوقة لتسجيل أن النبي ﷺ رسول معلوم الرسالة عند المؤمنين أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون من أهل الكتاب ، وما جاء به من الدين نور ساطع من عند الله يريد المشركون ليطفؤه بأفواههم والله متم نوره ولو كره المشركون .

فعلى المؤمنين أن لا يؤذوه ﷺ وهم يعلمون أنه رسول الله اليهم ، وأن ينصروه ويجاهدوا في سبيل ربهم لإحياء دينه ونشر كلمته .

ومن ذلك يعلم أن قوله : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل الخ » كالتوطئة لما سيذكر من كون النبي ﷺ رسولاً مبشراً به من قبل أرسله الله بالهدى ودين الحق ودينه نوره تعالى يهتدي به الناس .

والذي حكاه تعالى عن عيسى بن مريم عليهما السلام أعني قوله : « يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ملخص دعوته وقد آذن بأصل دعوته بقوله : « إني رسول الله اليكم » فأشار إلى أنه لا شأن له إلا أنه حامل رسالة من الله اليهم ، ثم بين متن ما أرسل اليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله : « مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول الخ » .

فقوله : « مصدقاً لما بين يدي من التوراة » بيان أن دعوته لا تغاير دين التوراة ولا تناقض شريعته بل تصديقها ولم تنسخ من أحكامها إلا يسيراً والنسخ بيان انتهاء أمد الحكم وليس بإبطال ، ولذا جمع ﷺ بين تصديق التوراة ونسخ بعض أحكامها فيما حكاه الله تعالى من قوله : « ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم » آل عمران : ٥٠ ، ولم يبين لهم إلا بعض ما يختلفون فيه كما في قوله المحكي : « قد جئتمكم بالحكمة ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون » الزخرف : ٦٣ .

وقوله : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » إشارة إلى الشطر الثاني من رسالته ﷺ وقد أشار إلى الشطر الأول بقوله : « مصدقاً لما بين يدي من التوراة » .

ومن المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر ويفرحه ولا يكون إلا بشيء من الخير يوافيه ويعود إليه ، والخير المقرب من بعثة النبي ودعوته هو انفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه سعادة دنياهم وعقباهم من عقيدة حقة أو عمل صالح أو كليهما ، والبشرى بالنبي بعد النبي وبالدعوة الجديدة بعد حلول دعوة سابقة واستقرارها والدعوة الإلهية واحدة لا تبطل بمرور الدهور وتقضي الأزمنة واختلاف الأيام والليالي - إنما تتصور إذا كانت الدعوة الجديدة أرقى فيما تشتمل عليه من العقائد الحقة والشرائع المعدلة لأعمال المجتمع وأشمل لسعادة الإنسان في دنياه وعقباه .

وبهذا البيان يظهر أن معنى قوله ﷺ : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي » الخ ، يفيد كون ما أتى به النبي أحمد ﷺ أرقى وأكمل مما تضمنته التوراة وبعث به عيسى ﷺ وهو ﷺ متوسط رابط بين الدعوتين .

ويعود معنى كلامه : « إني رسول الله اليكم مصدقاً » الخ ، إلى أني رسول من الله اليكم أدعو إلى شريعة التوراة ومنهاجها - ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم - وهي شريعة سيكلها الله ببعث نبي يأتي من بعدي اسمه أحمد .

وهو كذلك فإمعان التأمل في المعارف الإلهية التي يدعو إليها الإسلام يعطي أنها أدق مما في غيره من الشرائع السماوية السابقة وخاصة ما يندب إليه من التوحيد الذي هو أصل الأصول الذي يبتني عليه كل حكم ويعود إليه كل من المعارف الحقيقية وقد تقدم شطر من الكلام فيه في المباحث السابقة من الكتاب .

وكذا الشرائع والقوانين العملية التي لم تدع شيئاً مما دق وجل من أعمال الإنسان

الفردية والاجتماعية إلا عدلته وحدت حدوده وقررت على أساس التوحيد ووجهته إلى غرض السعادة .

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « الذين يتبعون النبي الأمي الذي يحدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل بأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » الأعراف : ١٥٧ ، وآيات أخرى يصف القرآن .

والآية أعني قوله : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي » وإن كانت مصرحة بالبشارة لكنها لا تدل على كونها مذكورة في كتابه عليه السلام غير أن آية الأعراف المنقولة آنفاً : « يحدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » وكذا قوله في صفة النبي ﷺ : « ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل » الآية الفتح : ٢٩ ، يدلان على ذلك .

وقوله : « اسمه أحمد » دلالة السياق على تعبير عيسى عليه السلام عنه ﷺ بأحمد وعلى كونه اسماً له يعرف به عند الناس كما كان يسمى بمحمد ظاهرة لا ستره عليها .
وبدل عليه قول حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد
ومن أشعار أبي طالب قوله :
مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

وقالوا لأحمد أنت امرء خلوف اللسان ضعيف السبب
ألا إن أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب

وقوله مخاطباً للعباس وحمزة وجعفر وعلي بوصيهم بنصر النبي ﷺ :
كونوا فدى لكم أمي وما ولدت في نصر أحمد دون الناس أتراسا
ومن شعره فيه ﷺ وقد سماه بالآخر محمد :

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب

ويستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به ﷺ في الكتب السماوية التي كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذاك .

ويؤيده أيضاً إيمان جماعة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وفيهم قوم من علمائهم كعبد الله بن سلام وغيره وقد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنية التي تذكر البشارة

به ﷺ وذكره في التوراة والإنجيل فتلقوه بالقبول ولم يكذبوه ولا أظهروا فيه شيئاً من الشك والترديد .

وأما خلو الأنجيل الدائرة اليوم عن بشارة عيسى بما فيها من الصراحة فالقرآن - وهو آية معجزة باقية - في غنى عن تصديقها ، وقد تقدم البحث عن سندها واعتبارها في الجزء الثالث من الكتاب .

وقوله : « فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » ضمير « جاء » لأحمد ﷺ ، وضمير « هم » لبني إسرائيل أو لهم ولغيرهم ، والمراد بالبينات البشارة ومعجزة القرآن وسائر آيات النبوة .

والمعنى : فلما جاء أحمد المبشر به بني إسرائيل أو أماتهم وغيرهم بالآيات البينة التي منها بشارة عيسى ﷺ قالوا هذا سحر مبين ، وقرئ هذا سحر مبين .
وقيل : ضمير « جاء » لعيسى ﷺ ، والسياق لا يلائمه .

قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام » الخ ، الاستفهام للإنكار وهو رد لقولهم : « هذا سحر مبين » فإن معناه أن النبي ﷺ ليس برسول وأن ما بلفظه من دين الله ليس منه تعالى .

والمراد بالإسلام الدين الذي يدعو إليه رسول الله بما أنه تسليم لله فيما يريد ويأمر به من اعتقاد وعمل ، ولا ريب أن مقتضى ربوبيته وألوهيته تعالى تسليم عباده له تسليماً مطلقاً فلا ريب أن الدين الذي هو الإسلام لله دينه الحق الذي يجب أن يدان به فدعوى أنه باطل ليس من الله افتراء على الله .

ومن هنا يظهر أن قوله : « وهو يدعى إلى الإسلام » يتضمن الحجة على كون قولهم : « هذا سحر مبين » افتراء على الله .

والافتراء ظلم لا يرتاب العقل في كونه ظلماً وينهى عنه الشرع ويعظم الظلم بعظمة من وقع عليه فإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم الظلم فلا أظلم ممن افترى على الله الكذب .

والمعنى : ولا أظلم ممن افترى على الله الكذب - بنفي نسبة دين الله إليه - والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذي لا يتضمن إلا التسليم لله فيما أراد ولا ريب أنه من الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

قوله تعالى : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم » الخ ، إطفاء النور إبطاله وإذهاب شروقه ، وإطفاء النور بالأفواه إنما هو بالنفخ بها .

وقد وقعت الآية في سورة التوبة وفيها : « يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم » قال الراغب : قال تعالى : « يريدون أن يطفؤا نور الله » « يريدون ليطفؤا نور الله » والفرق بين الموضعين أن في قوله : « يريدون أن يطفؤا » يقصدون إطفاء نور الله ، وفي قوله : « ليطفؤا » يقصدون أمراً يتوصلون به إلى إطفاء نور الله . انتهى . ومحصله أن متعلق الإرادة في قوله : « يريدون أن يطفؤا نور الله » نفس الإطفاء ، وفي قوله : « يريدون ليطفؤا نور الله » السبب الموصل إلى الإطفاء وهو النفخ بالأفواه والإطفاء غرض وغاية . والآية وما يتلوها كالشارح لمعنى ما تقدم في الآية السابقة من ظلمهم برمي الدعوة بالسحر وعدم هدايته تعالى لهم بما أنهم ظالمون ، والحصل أنهم يريدون إطفاء نور الله بنفخة أفواههم لكن الله لا يهديهم إلى مقصدهم بل يتم نوره ويظهر دينه على الدين كله . فقوله : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم » أي بالنفخ بالأفواه كما يطفأ الشمعة بالنفخة كناية عن أنهم زعموا أن نور الله وهو دينه نور ضعيف كنور الشمعة يطفأ بأدنى نفخة فرموه بالسحر وانقطاع نسبه إلى الله .

وقد أخطؤا في مزعمتهم فهو نور الله الذي لا يطفأ وقد شاء أن يتمه ولو كره الكافرون والله بالغ أمره ، وهو قوله : « والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » الإضافة في « دين الحق » بيانية كما قيل ، والظاهر أنها في الأصل إضافة لامية بعناية لطيفة هي أن لكل من الحق والباطل ديناً يقتضيه ويختص به ، وقد ارتضى الله تعالى الدين الذي للحق - وهو الحق تعالى - فأرسل رسوله .

وإظهار شيء على غيره نصرته وتغليبه عليه ، والمراد بالدين كله كل سبيل مسلك غير سبيل الله انذني هو الإسلام والآية في مقام تعليل قوله في الآية السابقة : « والله متم نوره » ، والمعنى : والله متم نوره لأنه هو الذي أرسل رسوله بنوره الذي هو الهدى ودين الحق ليجعله غالباً على جميع الأديان ولو كره المشركون من أهل الأوثان .

ويستفاد من الآيتين أن دين الحق نور الله في الأرض كما يستفاد ذلك من قوله : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الآية النور : ٣٥ ، وقد تقدم في تفسير الآية .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » قال : يصطفون كالبنیان الذي لا يزول .

وفي الجمع في قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم » روي في قصة قارون أنه دس إليه امرأة وزعم أنه زنى بها ، ورموه بقتل هارون .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » الآية قال : وسأل بعض اليهود لعنهم الله رسول الله ﷺ : لم سميت أحمد ومحمداً وبشيراً ونذيراً ؟ فقال : أما محمد فلاني في الأرض محمود ، وأما أحمد فلاني في السماء أحمد مني في الأرض ، وأما البشير فابشر من أطاع الله بالجنة ، وأما النذير فأنذر من عصى الله بالنار .

وفي الدر المنثور في الآية أخرج ابن مردويه عن العرياض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسوف انبشكم تأويل ذلك ، أنا دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام .

وفي العيون بإسناده إلى صفوان بن يحيى صاحب السابري قال : سألتني أبو قرّة صاحب الجائليق أن أوصله إلى الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك ، قال : أدخله عليّ فلما دخل عليه قبل بساطه وقال : هكذا علينا في ديننا أن نفعل بأشراف أهل زماننا .

ثم قال : أصلحك الله ما تقول في فرقة ادّعت دعوى فشهدت لهم فرقة أخرى معدّون ؟ قال : الدعوى لهم ، قال : فادّعت فرقة أخرى دعوى فلم يجدوا شهوداً من غيرهم ؟ قال : لا شيء لهم .

قال : فلما نحن ادّعين أن عيسى روح الله وكلمته فوافقنا على ذلك المسلمون ، وادّعى المسلمون أن محمداً نبي فلم نتابعهم عليه ، وما أجمعنا عليه خير مما افترقنا فيه .

فقال أبو الحسن عليه السلام : ما اسمك ؟ قال : يوحنا ، قال : يا يوحنا إنا آمنّا بعيسى روح الله وكلمته الذي كان يؤمن بمحمد ويبشر به ويقرّ على نفسه أنه عبد مربيوب، فإن كان عيسى الذي هو عندك روح الله وكلمته ليس هو الذي آمن بمحمد وبشّر به ولا هو

الذي أقره الله بالعبودية فنحن منه براء، فأين اجتمعنا؟ فقام وقال لصفوان بن يحيى: قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس.

أقول: كأنه يريد بقوله: قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس، أن دخوله عليه السلام لم يفده فائدة حيث لم ينجح ما أتى به من الحجة.

وفي كمال الدين بإسناده إلى يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كانت بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم خمسة مائة عام منها مائتان وخمسون عاماً ليس فيها نبي ولا عالم ظاهر، قلت: فما كانوا؟ قال: كانوا متمسكين بدين عيسى عليه السلام، قلت: فما كانوا؟ قال: كانوا مؤمنين. ثم قال: ولا يكون إلا وفيها عالم.

أقول: المراد بالعالم الإمام الذي هو الحجة، وهناك روايات واردة في قوله تعالى: «يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم»، وقوله: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق»، تذكر أن النور والهدى ودين الحق ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وهي من الجري والتطبيق أو من البطن وليست بمفسرة، وعد الفصل بين المسيح وبين محمد صلى الله عليه وسلم خمسة مائة عام يخالف ما عليه مشهور التاريخ لكن المحققين ذكروا أن في التاريخ الميلادي اختلافاً وقد مرّت إشارة ما إلى ذلك في الجزء الثالث من الكتاب.

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ — ١٠. تَوَافِقُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ — ١١. يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ — ١٢. وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن

اللهِ وَفَتَحُ قَرِيبُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ - ١٣ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى
اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ - ١٤ .

(بيان)

دعوة للمؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله ووعد جميل بالمغفرة والجنة في الآخرة وبالنصر والفتح في الدنيا ، ودعوة لهم . إلى أن يثبتوا على نصرهم لله ووعد جميل بالتأييد .

والمعنيان هما الغرض الأقصى في السورة والآيات السابقة كالتوطئة والتمهيد بالنسبة اليهما .
قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ »
الاستفهام للعرض وهو في معنى الأمر .

والتجارة - على ما ذكره الراغب - التصرف في رأس المال طلباً للربح ، ولا يوجد في كلام العرب ثاء بعده جيم إلا هذه اللفظة .

فقد أخذ الإيمان والجهاد في الآية تجارة رأس مالها النفس وربحها النجاة من عذاب أليم ، والآية في معنى قوله : « إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ - إِلَى أَنْ قَالَ - فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ » التوبة : ١١١ .

وقد فخم تعالى أمر هذه التجارة حيث قال : « عَلَى تِجَارَةٍ » أي تجارة جليلة القدر عظيمة الشأن ، وجعل الربح الحاصل منها النجاة من عذاب أليم لا يقدر قدره .

ومصداق هذه النجاة الموعودة بالمغفرة والجنة ، ولذا بدل ثانياً النجاة من العذاب من قوله : « يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ » النخ ، وأما النصر والفتح الموعودان فهما خارجان عن النجاة الموعودة ، ولذا فصلهما عن المغفرة والجنة فقال : « وَأُخْرَى تَحِبُّونَهَا »

نصر من الله وفتح قريب « فلا تغفل .

قوله تعالى : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » الخ ، استئناف بياني يفسر التجارة المعروضة عليهم كأنه قيل : ما هذه التجارة ؟ فقيل : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون » الخ ، وقد أخذ الإيمان بالرسول مع الإيمان بالله للدلالة على وجوب طاعته فيما أمر به وإلا فالإيمان لا يعد إيماناً بالله إلا مع الإيمان برسالة الرسول قال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله - إلى أن قال - أولئك هم الكافرون حقاً » النساء : ١٥١ .

وقوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » أي ما ذكر من الإيمان والجهاد خير لكم إن كنتم من أهل العلم وأما الجهلة فلا يعتد بأعمالهم .
وقيل : المراد تعلمون خيرية ذلك إن كنتم من أهل العلم والفقه .

قوله تعالى : « يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار » الخ ، جواب للشرط المقدّر المفهوم من الآية السابقة أي إن تؤمنوا بالله ورسوله وتجاهدوا في سبيله يغفر لكم ، الخ .

وقد أطلقت الذنوب المتعلقة بها المغفرة فالمغفور جميع الذنوب والاعتبار يساعده إذ هذه المغفرة مقدمة الدخول في جنة الخلد ولا معنى لدخولها مع بقاء بعض الذنوب على حاله ، ولعله للإشارة إلى هذه النكتة عقبها بقوله : « ومساكن طيبة في جنات عدن » أي جنات ثبات واستقرار فكونها محل ثبات وموضع قرار يلوح أن المغفرة تتعلق بجميع الذنوب .

مضافاً إلى ما فيه من مقابلة النفس المبذولة وهي متاع قليل معجل يحنات عدن التي هي خالدة فتطيب بذلك نفس المؤمن وتقوي إرادته لبذل النفس وتضييحتها واختيار البقاء على الفناء .

ثم زاد في تأكيد ذلك بقوله : « ذلك الفوز العظيم » .

قوله تعالى : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » الخ ، عطف على قوله : « يغفر لكم » الخ ، و « أخرى » وصف قائم مقام الموصوف وهو خبر لمبتدأ محذوف ، وقوله : « نصر من الله وفتح قريب » بيان لاخرى ، والتقدير ولكم نعمة أو خصلة أخرى تحبونها وهي نصر من الله وفتح قريب عاجل .

وقوله : « وبشر المؤمنين » معطوف على الأمر المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل : قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم « النخ » وبشر المؤمنين .

وتحاذي هذه البشري ما في قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - إلى أن قال - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » التوبة : ١١١ ، وبه يظهر أن الذي أمر أن يبشروا به مجموع ما يؤتيهم الله من الأجر في الآخرة والدنيا لا خصوص النصر والفتح .

هذا كله ما يعطيه السياق في معنى الآية وإعراب أجزائها ، وقد ذكر فيها أمور أخرى لا يساعد عليها السياق تلك المساعدة أغمضنا عن ذكرها ، واحتمل أن يكون قوله : « وبشر » النخ استئنافاً .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » النخ ، أي اتسموا بهذه السمة ودوموا واثبتوا عليها فالآية في معنى الترقى بالنسبة إلى قوله السابق : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » ومآل المعنى : اتجروا بأنفسكم وأموالكم فانصروا الله بالإيمان والجهاد في سبيله ودوموا واثبتوا على نصره .

والمراد بنصرتهم الله أن ينصروا نبيه في سلوك السبيل الذي يسلكه إلى الله على بصيرة كما قال : « قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » يوسف : ١٠٨ .

والدليل على هذا المعنى تنظيره تعالى قوله : « كونوا أنصار الله » بقوله بعده : « كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله » فكون الحواريين أنصار الله معناه كونهم أنصاراً لعيسى بن مريم عليها السلام في سلوكه سبيل الله وتوجهه إلى الله وهو التوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه فمحاذاة قولهم : « نحن أنصار الله » لقوله : « من أنصاري إلى الله » ومطابقته له تقتضي اتحاد معنى الكلمتين بحسب المراد فكون هؤلاء الخاطبين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » أنصاراً لله معناه كونهم أنصاراً للنبي ﷺ في نشر الدعوة وإعلاء كلمة الحق بالجهاد ، وهو الإيمان بالنبي ﷺ وطاعته فيما يأمر وينهى عن قول جازم وعمل صادق - كما هو مؤدى سياق آيات السورة .

وقوله : « فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » إشارة إلى ما جرى عليه وانتهى إليه أمر استنصار عيسى

وتلبية الحواريين حيث تفرق الناس إلى طائفة مؤمنة واخرى كفرة فأيد الله المؤمنين على عدوهم وهم الكفار فأصبحوا ظاهرين بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين .

وفيه تلويح الى أن أمة النبي ﷺ يجري فيهم ما جرى في أمة عيسى عليه السلام تؤمن منهم طائفة وتكفر طائفة فإن أجاب المؤمنون استنصاره - وقد قام هو تعالى مقامه في الاستنصار إعظاماً لأمره وإعزازاً له - أيدهم الله على عدوهم فيصبحون ظاهرين كما ظهر أنصار عيسى والمؤمنون به .

وقد أشار تعالى إلى هذه القصة في آخر قصص عيسى عليه السلام من سورة آل عمران حيث قال : « فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله » آل عمران : ٥٢ ، إلى تمام ست آيات ، وبالتدبر فيها يتضح معنى الآية المبحوث عنها .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » فقالوا : لو نعلم ما هي لنبذلن فيه الأموال والأنفس والأولاد ، فقال الله : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم - إلى قوله - ذلك الفوز العظيم .

أقول : وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة أيضاً .
وفيه في قوله تعالى : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » يعني في الدنيا بفتح الفاء القائم عليه السلام ، وأيضاً قال : فتح مكة .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث : ولم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة اليه ومتعلم على سبيل نجاة أولئك هم الأقلون عدداً ، وقد بين الله ذلك من أمم الأنبياء ، وجعلهم مثلاً لمن تأخر مثل قوله في حواربي عيسى حيث قال لسائر بني إسرائيل : « من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنا مسلمون » يعني مسلمون لأهل الفضل فضلهم ولا يستكبرون عن أمر ربهم فما أجابه منهم إلا الحواريون .

أقول : الرواية وإن وردت في تفسير آية آل عمران لكنها مفيدة فيما نحن فيه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم قال : قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لاقوه بالعقبة : أخرجوا إلى اثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم .

* * *

(سورة الجمعة مدنية ، وهي إحدى عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ - ١ . هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي
الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - ٢ . وَآخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ٣ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ - ٤ . مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا
التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِشَرِّ مَثَلِ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ - ٥ . قُلْ يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - ٦ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ - ٧ . قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُقَرِّوْنَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ - ٨ .

(بيات)

غرض السورة هو الحث البالغ على الاهتمام بأمر صلاة الجمعة والقيام بواجب أمرها فهي من شعائر الله المعظمة التي في تعظيمها والاهتمام بأمرها صلاح أخراهم ودنياهم ، وقد سلك تعالى إلى بيان أمره بافتتاح الكلام بتسبيحه والثناء عليه بما من على قوم أميين برسول منهم أمي يتلو عليهم آياته ويزكيهم بصالحات الأعمال والزكيات من الأخلاق ويعلمهم الكتاب والحكمة فيحملهم كتاب الله ومعارف دينه أحسن التحميل هم ومن يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين فليحملوا ذلك أحسن الحمل ، وليجذروا أن يكونوا كاليهود 'حملوا التوراة ثم لم يحملوا معارفها وأحكامها فكانوا مثل الحمار يحمل أسفارا .

ثم تخلص إلى الأمر بترك البيع والسمي إلى ذكر الله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، وقرعهم على ترك النبي ﷺ قائما يخطب والانقضاء والانسلال إلى التجارة واللهم ، وذلك آية عدم تحملهم ما حملوا من معارف كتاب الله وأحكامه ، والسورة مدنية .

قوله تعالى : « يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم » التسبيح تنزيه الشيء ونسبته إلى الطهارة والنزاهة من العيوب والنقائص ، والتعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار ، والملك هو الاختصاص بالحكم في نظام المجتمع ، والقدوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة ، والعزيز هو الذي لا يغلبه غالب ، والحكيم هو المتقن فعله فلا يفعل عن جهل أو جزاف .

وفي الآية قوطنة وتمهيد برهاني لما يتضمنه قوله : « هو الذي بعث الخ » من بعثة الرسول لتكميل الناس وإسماعهم وهدايتهم بعد إذ كانوا في ضلال مبين .

وذلك أنه تعالى يسبحه وينزهه الموجودات السماوية والأرضية بما عندهم من النقص الذي هو متممه والحاجة التي هو قاضيا فيها من نقيصة أو حاجة إلا وهو المرجو في تمامها وقضاؤها فهو المسبح المنزه عن كل نقص وحاجة فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء ، وفي نظام التشريع في عبادته بما أراد ، كيف لا ؟ وهو ملك له أن يحكم في أهل مملكته وعليهم أن يطيعوه .

وإذا حكم وشرع بينهم ديناً لم يكن ذلك منه حاجة إلى تعبيدهم ونقص فيه يتممه بعبادتهم لأنه قدّوس منزّه عن كل نقص وحاجة .

ثم إذا حكم وشرع وبلغه إياهم عن غنى منه ودعاهم إليه بوساطة رسله فلم يستجيبوا دعوته وتمردوا عن طاعته لم يكن ذلك تعجيزاً منهم له تعالى لأنه العزيز لا يغلبيه فيما يريد غالب .

ثم إن الذي حكم به وشرعه من الدين بما أنه الملك القدوس العزيز ليس يذهب لغيره لا أثر له لأنه حكيم على الإطلاق لا يفعل ما يفعل إلا لمصلحة ولا يريد منهم ما يريد إلا لنفع يعود اليهم وخير ينالونه فيستقيم به حالهم في دنياهم وأخراهم .
وبالجملة فتشريعه الدين وإنزاله الكتاب ببعث رسول يبلغهم ذلك بتلاوة آياته ، ويزكيهم ويعلمهم من منه تعالى وفضل كما قال : « هو الذي بعث » الخ .

قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم » الخ ، الأميون جمع أمي وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب ، والمراد بهم - كما قيل - العرب لقلة من كان منهم يقرأ ويكتب وقد كان الرسول ﷺ منهم أي من جنسهم وهو غير كونه مرسلًا اليهم فقد كان منهم وكان مرسلًا إلى الناس كافة .

واحتمل أن يكون المراد بالأميين غير أهل الكتاب كما قال اليهود - على ما حكى الله عنهم - : « ليس علينا في الأميين سبيل » آل عمران : ٧٥ .

وفيه أنه لا يناسب قوله في ذيل الآية : « يتلو عليهم آياته » الخ ، فإنه ﷺ لم يخص غير العرب وغير أهل الكتاب بشيء من الدعوة لم يلقه اليهم .
واحتمل أن يكون المراد بالأميين أهل مكة لكونهم يسمونها أم القرى .

وفيه أنه لا يناسب كون السورة مدنية لإيهامه كون ضمير « يزكيهم ويعلمهم » راجعاً إلى المهاجرين ومن أسلم من أهل مكة بعد الفتح وأخلافهم وهو بعيد من مذاق القرآن .

ولا منافاة بين كونه ﷺ من الأميين مبعوثاً فيهم وبين كونه مبعوثاً اليهم وإلى غيرهم وهو ظاهر ، وتلاوته عليهم آياته وتزكيته وتعليمه لهم الكتاب والحكمة لنزوله بلغتهم وهو أول مراحل دعوته ولذا لما استقرت الدعوة بعض الاستقرار أخذ ﷺ يدعو اليهود والنصارى والمجوس وكاتب العظماء والملوك .

وكذا دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على ما حكى الله تعالى : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك - إلى أن قال - ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » البقرة : ١٢٩ ، تشمل جميع آل

إسماعيل من عرب مضر أعم من أهل مكة وغيرهم ، ولا ينافي كونه ﷺ مبعوثاً إليهم وإلى غيرهم .

وقوله : « يتلو عليهم آياته » أي آيات كتابه مع كونه أمياً . صفة للرسول .

وقوله : « ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » التزكية تفعيل من الزكاة بمعنى النمو الصالح الذي يلزم الخير والبركة فتزكيته لهم تنميته لهم غناء صالحاً بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيكملون بذلك في إنسانيتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم يعيشون سعداء ويموتون سعداء .

وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أشكل من ذلك ، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمنها القرآن ، والتعبير عن القرآن تارة بالآيات وتارة بالكتاب للدلالة على أنه بكل من هذه العناوين نعمة يمتن بها - كما قيل - .

وقد قدم التزكية هنا على تعليم الكتاب والحكمة بخلاف ما في دعوة إبراهيم عليه السلام لأن هذه الآية تصف تربيته ﷺ لمؤمني أمته ، والتزكية مقدمة في مقام التربية على تعليم العلوم الحقة والمعارف الحقيقية وأما ما في دعوة إبراهيم عليه السلام فإنها دعاء وسؤال أن يتحقق في ذريته هذه الزكاة والعلم بالكتاب والحكمة ، والعلوم والمعارف أقدم مرتبة وأرفع درجة في مرحلة التحقق والاتصاف من الزكاة الراجعة إلى الأعمال والأخلاق .

وقوله : « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » « إن » محففة من الثقيلة والمراد أنهم كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال مبين ، والآية تحميد بعد تسبيح ومسوقة للامتنان كما سيأتي .

قوله تعالى : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » عطف على الاميين وضمير « منهم » راجع اليهم و « من » للتبويض والمعنى : بعث في الاميين وفي آخرين منهم لم يلحقوا بهم بعد وهو العزيز الذي لا يغلب في إرادته الحكيم الذي لا يلغو ولا يجازف في فعله .

قوله تعالى : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » الإشارة بذلك إلى بعث الرسول ﷺ - وقد فخم أمره بالإشارة البعيدة - فهو ﷺ المخصوص بالفضل ، والمعنى : ذلك البعث وكونه يتلو آيات الله ويزكي الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة من فضل الله وعطائه يعطيه من تعلقت به مشيته وقد شاء أن يعطيه محمد ﷺ والله ذو

الفضل العظيم كذا قال المفسرون .

ومن الممكن أن تكون الإشارة بذلك إلى البعث بما له من النسبة إلى أطرافه من المرسل والمرسل اليهم ، والمعنى : ذلك البعث من فضل الله يؤتیه من يشاء وقد شاء أن يخص بهذا الفضل محمداً ﷺ فاختره رسولا ، وأتمته فاخترهم لذلك فجعله منهم وأرسله اليهم .

والآية والآيتان قبلها أعني قوله : « هو الذي بعث - إلى قوله - العظيم » مسوقة سوق الامتنان .

قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » الخ ، قال الراغب : السفر - بالفتح فالسكون - كشف الغطاء ويختص ذلك بالأعيان نحو سفر العمامة عن الرأس والحمار عن الوجه - إلى أن قال - والسفر - بالكسر فالسكون - الكتاب الذي يسفر عن الحقائق قال تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفارا » انتهى .

والمراد بتحميل التوراة تعليمها ، والمراد بحملها العمل بها على ما يؤيده السياق ويشهد به ما في ذيل الآية من قوله : « بشئ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » ، والمراد بالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التوراة على رسولهم موسى ﷺ فعلمهم ما فيها من المعارف والشرائع فتروكوها ولم يعملوا بها فحملوها ولم يحملوها فضرب الله لهم مثل الحمار يحمل أسفارا وهو لا يعرف ما فيها من المعارف والحقائق فلا يبقى له من حملها إلا التعب بتحمل ثقلها .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه تعالى لما افتتح الكلام بما من به على المسلمين من بعث نبي أمي من بين الاميين يتلو عليهم آيات كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى ومن حضيض الجهل إلى أوج العلم والحكمة وسيدشير تعالى في آخر السورة إشارة عتاب وتوبيخ إلى ما صنعوه من الانقراض والإنسلاخ إلى اللهو والتجارة والنبي ﷺ قائم بخطبهم يوم الجمعة وهو من الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية ويكشف أنهم لم يقدروها حق قدرها ولا نزلوها منزلتها .

فاعترض الله سبحانه بهذا المثل وذكرهم بحال اليهود حيث حملوا التوراة ثم لم يحملوها فكانوا كالحمار يحمل أسفارا ولا ينتفع بما فيها من المعرفة والحكمة ، فعليهم أن يهتموا بأمر الدين ويراقبوا الله في حركاتهم وسكناتهم ويعظموا رسوله ﷺ ويوقروه ولا يستهينوا

بما جاء به ، وليحذروا أن يحل بهم من سخطه تعالى ما حل باليهود حيث لم يعملوا بما علموا فعدّهم الله حملة ظالمين وشبههم بالحمار يحمل أسفارا .

وفي روح المعاني : وجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الإشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله تعالى بما نعت به في التوراة وعلى السنة أنبياء بني إسرائيل كأنه قيل : هو الذي بعث المبشر به في التوراة المنعوت فيها بالنبي الامي المبعوث إلى أمة أميين ، مثل من جاءه نعته فيها وعلمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار . انتهى .
وأنت خبير بأنه تحكم لا دليل عليه من جهة السياق .

قوله تعالى : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » احتجاج على اليهود يظهر به كذبهم في دعواهم أنهم أولياء الله وأحبائهم ، وقد حكى الله تعالى ما يدل على ذلك عنهم بقوله : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبائهم » المائدة : ١٨ ، وقوله : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس » البقرة : ٩٤ ، وقوله : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً » البقرة : ١١١ .

ومحصل المعنى : قل لليهود مخاطباً لهم يا أيها الذين تهودوا إن كنتم اعتقدتم أنكم أولياء الله من دون الناس إن كنتم صادقين في دعواكم فتمنوا الموت لأن الولي يحب لقاء وليه ومن أيقن أنه ولي الله وجبت له الجنة ولا حاجب بينه وبينها إلا الموت أحب الموت وتمنى أن يحل به فيدخل دار الكرامة ويتخلص من هذه الحياة الدنيئة التي ما فيها إلا الهم والغم والحزن والمصيبة .

قيل : وفي قوله : « أولياء الله » من غير إضافة إشارة إلى أنه دعوى منهم من غير حقيقة .
قوله تعالى : « ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » أخبر تعالى نبيه ﷺ أنهم لا يتمنونه أبداً بعد ما أمره أن يعرض عليهم تمنى الموت .

وقد علل عدم تمنى الموت بما قدمت أيديهم وهو كناية عن الظلم والفسوق ، فعنى الآية : ولا يتمنون الموت أبداً بسبب ما قدمته أيديهم من الظلم فكانوا ظالمين والله عليم بالظالمين يعلم أنهم لا يحبون لقاءه لأنهم أعداؤه لا ولاية بينه وبينهم ولا محبة .

والآيتان في معنى قوله تعالى : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم

بالظالمين « البقرة : ٩٥ .

قوله تعالى : « قل إن الموت الذي تفرئون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » الفاء في قوله : « فإنه ملاقيكم » في معنى جواب الشرط ، وفيه وعيد لهم بأن الموت الذي يكرهونه كراهة أن يؤاخذوا بوبال أعمالهم فإنه سيلاقهم لا بحالة ثم تردون إلى ربهم الذي خرجوا من زي عبوديته بظالمهم وعادوه بأعمالهم وهو عالم بحقيقة أعمالهم ظاهرها وباطنها فإنه عالم الغيب والشهادة فينبئهم بحقيقة أعمالهم وتبعاتها السيئة وهي أنواع العذاب .

ففي الآية إيدانهم أولاً : أن فرارهم من الموت خطأ منهم فإنه سيدركهم ويلاقهم ، وثانياً : أن كراحتهم لقاء الله خطأ آخر فإنهم مردودون إليه محاسبون على أعمالهم السيئة ، وثالثاً : أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها ولا يحيق به مكرهم فإنه عالم الغيب والشهادة .

ففي الآية إشارة أولاً : إلى أن الموت حق مقضي كما قال : « كل نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ ، وقال : « نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين » الواقعة : ٦٠ . وثانياً : أن الرجوع إلى الله لحساب الأعمال حق لا ريب فيه .

وثالثاً : أنهم سيوقفون على حقيقة أعمالهم فيوفونها ، ورابعاً : أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وللإشارة إلى ذلك بدل اسم الجلالة من قوله : « عالم الغيب والشهادة » .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم » عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بعث اليهم رسول فنسبهم الله إلى الأميين .

وفيه في قوله تعالى : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال : دخلوا الإسلام بعدهم . وفي الجمع وروي أن النبي صلى الله عليه وآله قرأ هذه الآية فقليل له : من هؤلاء ؟ فوضع يده على كتف سلمان وقال : لو كان الإيمان بالثريا لئالته رجال من هؤلاء .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عسدة من جوامع الحديث منها صحيح البخاري

ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وفيه فوضع يده على رأس سلمان الفارسي وقال : والذي نفسي بيده لو كان العلم بالثريا لناله رجال من هؤلاء .

وروي أيضاً عن سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال : لو أن الإيمان بالثريا لناله رجال من أهل فارس .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار » قال : الحمار يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها ولا يعمل به كذلك بنو إسرائيل قد حملوا مثل الحمار لا يعملون ما فيه ولا يعملون .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفاراً والذي يقول له : أنصت ليس له جمعة .

أقول : وفيه تأييد لما قدمناه في وجه اتصال الآية بها قبلها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « قل يا أيها الذين هادوا ، الآية » قال : إن في التوراة مكتوب : أولياء الله يتمنون الموت .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاء رجل إلى أبي ذر فقال : يا أبا ذر ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمرتم الدنيا وخرتم الآخرة فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب .

(كلام في معنى تعليم الحكمة)

لا يحيص للإنسان في حياته المحدودة التي يعمرها في هذه النشأة من سنة يستن بها فيما يريد ويكره ، ويجري عليها في حركاته وسكناته وبالجملة جميع مشاعيه في الحياة .

وتتبع هذه السنة في نوعها ما عند الإنسان من الرأي في حقيقة الكون العام وحقيقة نفسه وما بينها من الربط ، ويدل على ذلك ما نجد من اختلاف السن والطرائق في الأمم باختلاف آرائهم في حقيقة نشأة الوجود والإنسان الذي هو جزء منها .

فمن لا يرى لما وراء المادة وجوداً ، ويقصر الوجود في المادي ، وينهى الوجود إلى الاتفاق ، ويرى الإنسان مركباً مادياً محدود الحياة بين التولد والموت لا يرى لنفسه من

السعادة إلا سعادة المادة ولا غاية له في أعماله إلا المزايا المادية من مال وولد وجاه وغير ذلك، ولا بغية له إلا التمتع بامتعة الدنيا والظفر بلذائذها المادية أو ما يرجع إليها وتنتهي جميعاً إلى الموت الذي هو عنده انحلال للتركيب وبطلان .

ومن يرى كينونة العالم عن سبب فوقه منزّه عن المادة ، وأن وراء الدار داراً وبعد الدنيا آخرة نجده يخالف في سنته وطريقته الطائفة المتقدم ذكرها فيتوخى في أعماله وراء سعادة الدنيا سعادة الأخرى ويختلف صور أعمالهم وغاياتهم وآراؤهم مع الطائفة الأولى . ويختلف سنن هؤلاء باختلافهم أنفسهم فيما بينهم كاختلاف سنن الوثنيين من البرهميين والبوذيين وغيرهم والملّتين من المجوسية والكليمية والمسيحية والمسلمين فلكل وجهة هو مولّيتها .

وبالجملة الملّتي يراعي في مساعيه جانب ما يراه لنفسه من الحياة الخالدة المؤبدة ويدّعي من الآراء بما يناسب ذلك كادّعاءه أنه يجب على الإنسان أن يمهّد لعالم البقاء وأن يتوجه إلى ربه ، وأن لا يفرط في الاشتغال بعرض الحياة الدنيا الفانية وغير الملّتي الخاضع للمادة يلوي إلى خلاف ذلك ، هذا كله مما لا ريب فيه .

غير أن الإنسان لما كان بحسب طبيعته المادي رهيناً للمادة متردداً بين الأسباب الظاهرية فاعلاً بها منفعل عنها لا يزال يدفعه سبب إلى سبب لا فراغ له من ذلك ، يرى - بحسب ما يخيّل إليه - أن الأصالة لحياته الدنيوية المنقطعة ، وأنها وما تنتهي إليه من المتصادم والمزايا هي الغاية الأخيرة والغرض الأقصى من وجوده الذي يجب عليه أن يسعى لتحصيل سعادته .

فالحياة الدنيا هي الحياة وما عند أهلها من القنية والنعمة والمنية والقوة والعزة هي هي بحقيقة معنى الكلمة ، وما يعدّونه فقرراً ونقمة وحرماناً وضعفاً وذلة ورزية ومصيبة وخسراناً هي هي وبالجملة كل ما تهواه النفس من خير معجل أو نفع مقطوع فهو عندهم خير مطلق ونفع مطلق ، وكل ما لا تهواه فهو شر أو ضرر .

فمن كان منهم من غير أهل الملة جرى على هذه الآراء ولا خبر عنده عما وراء ذلك ، ومن كان منهم من أهل الملة جرى عليها عملاً وهو معترف بخلافها قولاً فلا يزال في تدافع بين قوله وفعله قال تعالى : « كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » البقرة : ٢٠ . والذي تندب إليه الدعوة الإسلامية من الإعتقاد والعمل هو ما يطابق مقتضى الفطرة

الإنسانية التي فطر عليها الإنسان وثبتت عليه خلقته كما قال : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ .
ومن المعلوم أن الفطرة لا تهتدي علماً ولا تميل عملاً إلا إلى ما فيه كمالها الواقعي وسعادتها الحقيقية فما تهتدي إليه من الإعتقادات الأصلية في المبدأ والمعاد وما يتفرع عليها من الآراء والمقائد الفرعية علوم وآراء حقة لا تتعدى سعادة الإنسان وكذا ما تميل إليه من الأعمال .

ولذا سمى الله تعالى هذا الدين المبني على الفطرة بدين الحق في مواضع من كلامه كقوله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » الصف : ٩ . وقال في القرآن المتضمن لدعوته : « يهدي إلى الحق » الأحقاف : ٣٠ .

وليس الحق إلا الرأي والاعتقاد الذي يطابقه الواقع ويلازمه الرشد من غير غي ، وهذا هو الحكمة - الرأي الذي أحكم في صدقه فلا يتخلله كذب ، وفي نفعه فلا يعقبه ضرر - وقد أشار تعالى إلى اشتغال الدعوة على الحكمة بقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة » النساء : ١١٣ ، ووصف كلامه المنزل بها فقال : « والقرآن الحكيم » يس : ٢ ، وعد رسول الله ﷺ معلماً للحكمة في مواضع من كلامه كقوله : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » الجمعة : ٢ .

فالتعليم القرآني الذي تصداه الرسول ﷺ المبين لما نزل من عند الله من تعليم الحكمة وشأنه بيان ما هو الحق في أصول الإعتقادات الباطلة الخرافية التي دبّت في أفهام الناس من تصور عالم الوجود وحقيقة الإنسان الذي هو جزء منه - كما تقدمت الإشارة إليه - وما هو الحق في الإعتقادات الفرعية المترتبة على تلك الأصول مما كان مبدأ للأعمال الإنسانية وعناوين لغاياتها ومقاصدها .

فالناس - مثلاً - يرون أن الأصالة لحياتهم المادية حتى قال قائلهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » الجاثية : ٢٤ ، والقرآن ينبههم بقوله : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان » العنكبوت : ٦٤ ، ويرون أن العلل والأسباب هي المولدة للحوادث الحاكمة فيها من حياة وموت وصحة ومرض وغنى وفقر ونعمة ونقمة ورزق وحرمان « بل مكر الليل والنهار » سبأ : ٣٣ ، والقرآن يذكرهم بقوله : « ألا له الخلق والأمر » الأعراف : ٥٤ ، وقوله : « إن الحكم إلا لله » يوسف : ٦٧ ،

وغير ذلك من آيات الحكمة ، ويرون أن لهم الاستقلال في المشية يفعلون ما يشاؤون والقرآن يخطبهم بقوله : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » الإنسان : ٣٠ ، ويرون أن لهم أن يطيعوا ويعصوا ويهدوا ويمتدوا والقرآن ينبئهم بقوله : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » القصص : ٥٦ .

ويرون أن لهم قوة والقرآن ينكر ذلك بقوله : « أن القوة لله جميعاً » البقرة : ١٦٥ . ويرون أن لهم عزة ببال وبنين وأنصار والقرآن يحكم بخلافه بقوله : « أيبغون عندهم العزة إنا العزة لله جميعاً » النساء : ١٣٩ . وقوله : « والله العزة ولرسوله وللمؤمنين » المنافقون : ٨ .

ويرون أن القتل في سبيل الله موت وانعدام والقرآن يعدّ حياة إذ يقول : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » البقرة : ١٥٤ ، إلى غير ذلك من التعاليم القرآنية التي أمر النبي ﷺ أن يدعو بها الناس قال : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة » النحل : ١٢٥ .

وهي علوم وآراء همة صورت الحياة الدنيا خلافاً في نفوس الناس وزينه فنبه تعالى لها في كتابه وأمر بتعليمها رسوله وتدريب المؤمنين أن يتواصوا بها كما قال : « إن الإنسان لضيّ ضالّ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق » العصر : ٣ ، وقال : « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » البقرة : ٢٦٩ .

فالقرآن بالحقيقة يقلب الإنسان في قالب من حيث العلم والعمل حديث ويصوغه صوغاً جديداً فيحيى حياة لا يتعقبها موت أبداً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال : ٢٤ ، وقوله : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

وقد بينا وجه الحكمة في كل من آياتها عند التعرض لتفسيرها على قدر مجال البحث في الكتاب .

ومما تقدم يتبين فساد قول من قال : إن تفسير القرآن تلاوته ، وإن التعمق في مداليل آيات القرآن من التأويل الممنوع فما أبعد من قول .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ - ٩ .
فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ - ١٠ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ
لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنْ
التَّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ - ١١ .

(بيان)

تأكيد إيجاب صلاة الجمعة وتحريم البيع عند حضورها وفيها عتاب لمن انفض إلى اللهو والتجارة عند ذلك واستهجان لفعلهم .
قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » الخ ، المراد بالنداء للصلاة من يوم الجمعة الأذان كما في قوله : « وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا » المائدة : ٥٨ .
والجمعة بضمين أو بالضم فالسكون أحد أيام الأسبوع وكان يسمى أولاً يوم العروبة ثم غلب عليه اسم الجمعة ، والمراد بالصلاة من يوم الجمعة صلاة الجمعة المشروعة يومها ، والسعي هو المشي بالإسراع ، والمراد بذكر الله الصلاة كما في قوله : « وَلَذَكَرَ اللَّهُ أَكْبَرُ » العنكبوت : ٤٥ ، على ما قيل وقيل : المراد به الخطبة قبل الصلاة وقوله : « وَذَرُوا الْبَيْعَ » أمر بتركه ، والمراد به على ما يفيد السياق النهي عن الاشتغال بكل عمل يشغل عن صلاة الجمعة سواء كان بيعاً أو غيره وإنما علق النهي بالبيع لكونه من أظهر مصاديق ما يشغل عن الصلاة .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا أذن لصلاة الجمعة يومها فجدّوا في المشي إلى الصلاة واركبوا البيع وكل ما يشغلكم عنها .

وقوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » حثّ وتحريض لهم لما أمر به من الصلاة وترك البيع .

قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » الخ ، المراد بقضاء الصلاة إقامة صلاة الجمعة ، والانتشار في الأرض التفرق فيها ، وابتغاء فضل الله طلب الرزق نظراً إلى مقابلته ترك البيع في الآية السابقة لكن تقدم أن المراد ترك كل ما يشغل عن صلاة الجمعة ، وعلى هذا فابتغاء فضل الله طلب مطلق عطيته في التفرق لطلب رزقه بالبيع والشرى ، وطلب ثوابه بعبادة مريض والسعي في حاجة مسلم وزيارة أخ في الله ، وحضور مجلس علم ونحو ذلك .

وقوله : « فانتشروا في الأرض » أمر واقع بعد الحظر فيفيد الجواز والإباحة دون الوجوب وكذا قوله : « وابتغوا » واذكروا .

وقوله : « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي فيشمل ذكره تعالى قلباً بالتوجه إليه باطنياً ، والفلاح النجاة من كل شقاء ، وهو في المورد بالنظر إلى ما تقدم من حديث التزكية والتعليم وما في الآية التالية من التوبيخ والعتاب الشديد ، الزكاة والعلم وذلك أن كثرة الذكر يفيد رسوخ المعنى المذكور في النفس وانتقاشه في الذهن فتقطع به منابت الغفلة ويورث التقوى الديني الذي هو مظنة الفلاح قال تعالى : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » آل عمران : ٢٠٠ .

قوله تعالى : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » الخ ، الانفضاض — على ما ذكره الراغب — استعارة عن الانفضاض بمعنى انكسار الشيء وتفرق بعضه من بعض .

وقد اتفقت روايات الشيعة وأهل السنة على أنه ورد المدينة غير معها تجارة وذلك يوم الجمعة والنبي ﷺ قائم يخطب فضربوا بالطبل والدف لإعلام الناس فانفض أهل المسجد إليهم وتركوا النبي ﷺ قائماً يخطب فنزلت الآية . فالمراد باللهو استعمال المعازف وآلات الطرب ليجتمع الناس للتجارة ، وضمير « إليها » راجع إلى التجارة لأنها كانت المقصودة في نفسها واللهو مقصود لأجلها ، وقيل : الضمير لأحدهما كأنه قيل : انفضوا

اليه وانفضوا اليها وذلك أن كلا منها سبب لانفضاض الناس اليه وتجمعهم عليه ، ولذا ردد بينهما وقال : « تجارة أو لهو » ولم يقل : تجارة ولهو والضمير يصلح للرجوع إلى كل منهما لأن الله في الأصل مصدر يحوز فيه الوجهان التذكير والتأنيث .
ولذا أيضاً عد « ما عند الله » خيراً من كل منهما بحياله فقال : « من الله ومن التجارة » ولم يقل : من الله والتجارة .

وقوله : « قل ما عند الله خير من الله ومن التجارة والله خير الرازقين » أمر للنبي أن ينبههم على خطيئهم فيما فعلوا - وما أفضعه - والمراد بما عند الله الثواب الذي يستعقبه سماع الخطبة والموعظة .

والمعنى قل لهم : ما عند الله من الثواب خير من الله ومن التجارة لأن ثوابه تعالى خير حقيقي دائم غير منقطع ، وما في الله والتجارة من الخير أمر خيالي زائل باطل وربما استتبع سخطه تعالى كما في الله .

وقيل : خير مستعمل في الآية مجرداً عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى : « وأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » يوسف : ٣٩ ، وهو شائع في الاستعمال .

وفي الآية أعني قوله : « وإذا رأوا التفات من الخطاب إلى الغيبة » والنكته فيه تأكيد ما يفيد السياق من العتاب واستهجان الفعل بالإعراض عن تشريفهم بالخطاب وتركهم في مقام الغيبة لا يواجههم ربهم بوجهه الكريم .

ويلوح إلى هذا الإعراض قوله : « قل ما عند الله خير » حيث لم يشر إلى من يقول له ، ولم يقل : قل لهم كما ذكرهم بضميرهم أولاً من غير سبق مرجعه فقال : « وإذا رأوا » واكتفى بدلالة السياق .

وخير الرازقين من أسمائه تعالى الحسن كالرزاق وقد تقدم الكلام في معنى الرزق فيما تقدم .

(بحث روائي)

في الفقيه روي أنه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن يوم الجمعة نادى مناد : حرم البيع لقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون ابن مهران ولفظه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن من يوم الجمعة ينادون في الأسواق : حرم البيع حرم البيع .

وتفسير القمي وقوله : « فاسعوا إلى ذكر الله » قال : الإسراع في المشي ، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقال : فاسعوا أي امضوا ، ويقال : اسعوا اعملوا لها وهو قص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظفار والفسل ولبس أنظف الثياب والتطيب للجمعة فهو السعي يقول الله : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن » .

أقول : يريد أن السعي ليس هو الإسراع في المشي فحسب .

وفي الجمع وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض » الآية ليس بطلب الدنيا ولكن عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه .

وفيه وروي عن أبي عبد الله عليه السلام : أنه قال : الصلاة يوم الجمعة والانتشار يوم السبت .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر .

وفيه وروى عمر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إني لأركب في الحاجة التي كفاها الله ما أركب فيها إلا التماس أن يراني الله اضحي في طلب الحلال أما تسمع قول الله عز اسمه : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » ؟

أرأيت لو أن رجلاً دخل بيتاً وطين عليه بابه ثم قال : رزقي ينزل عليّ أكان يكون هذا ؟ أما إنه أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم .

قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : رجل يكون عنده المرأة فيدعو عليها فلا يستجاب له لأن عصمتها في يده لو شاء أن يخلي سبيلها ، والرجل يكون له الحق على الرجل فلا يشهد عليه فيجحد حقه فيدعو عليه فلا يستجاب له لأنه ترك ما أمر به ، والرجل يكون عنده الشيء فيجلس في بيته ولا ينتشر ولا يطلب ولا يلتمس حتى يأكله ثم يدعو فلا يستجاب له .

وفيه قال جابر بن عبد الله : أقبل غير ونحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فانفض الناس إليها فما بقي غير اثني عشر رجلاً أنا فيهم فنزلت الآية « وإذا رأوا تجارة أو لهواً » .

وعن عوالي اللثالي روى مقاتل بن سليمان قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية الكلبي من الشام بتجارة، وكان إذا قدم لم يبق في المدينة عاتق^(١) إلا أته، وكان يقدم - إذا قدم - بكل ما يحتاج إليه الناس من دقيق وبر وغيره ثم ضرب الطبل ليؤذن الناس بقدمه فيخرج الناس فيبتاعون منه.

فقدم ذات جمعة، وكان قبل أن يسلم، ورسول الله ﷺ يخطب على المنبر فخرج الناس فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر فقال النبي ﷺ: لولا هؤلاء لسومت عليهم الحجارة من السماء وأنزل الله الآية في سورة الجمعة.

أقول: والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة واختلفت الأخبار في عدد من بقي منهم في المسجد بين سبعة إلى أربعين.

وفيه «انفضوا» أي تفرقوا، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: انصرفوا إليها وتركوك قائماً تخطب على المنبر.

قال جابر بن ممرة: ما رأيت رسول الله ﷺ يخطب إلا وهو قائم فمن حدثك أنه خطب وهو جالس فكذب به.

أقول: وهو مروي أيضاً في روايات أخرى معلوم، وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال: خطب رسول الله ﷺ قائماً وأبو بكر وعمر وعثمان، وإن أول من جلس على المنبر معاوية بن أبي سفيان.

* * *

(سورة المنافقون مدنية ، وهي إحدى عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ - ١ . إِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ

(١) العاتق: الجارية أوائل ما أدركت.

سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ٢ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ
 عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ - ٣ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
 وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمُ خَشَبٌ مُسْتَدَّةٌ يُحْسَبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ
 عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ - ٤ . وَإِذَا
 قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ
 يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ - ٥ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ
 تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ - ٦ .
 هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا
 وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ - ٧ .
 يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذَلَّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ
 وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ - ٨ .

(بَيَان)

تصف السورة المنافقين وتسمهم بشدة العداوة وتأمر النبي ﷺ أن يحذرهم وتعظ
 المؤمنين أن يتحرزوا من خصائص النفاق فلا يقيموا في مهلكته ولا يجرّهم إلى النار ،
 والسورة مدنية .

قوله تعالى : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
 وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » المنافق اسم فاعل من النفاق وهو في عرف القرآن
 إظهار الإيمان وإبطان الكفر .

والكذب خلاف الصدق وهو عدم مطابقة الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق وربما اعتبرت مطابقة الخبر ولا مطابقته بالنسبة إلى اعتقاد المخبر فيكون مطابقته لاعتقاد المخبر صدقاً منه وعدم مطابقته له كذباً فيقال : فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج وفلان كاذب إذا أخبر بما يخالف اعتقاده ويسمى النوع الأول صدقاً وكذباً خبريين ، والثاني صدقاً وكذباً مخبريين .

فقرله : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، حكاية لإظهارهم الإيمان بالشهادة على الرسالة فإن في الشهادة على الرسالة إيماناً بما جاء به الرسول ﷺ ويتضمن الإيمان بوحدة الله تعالى وبالمعاد ، وهو الإيمان الكامل .

وقوله : « والله يعلم إنك لرسوله » تثبيت منه تعالى لرسالته ﷺ ، وإنما أوردته مع أن وحي القرآن ومخاطبته ﷺ كان كافياً في تثبيت رسالته ، ليكون قرينة مصرحة بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون وإن كان قولهم في نفسه صادقاً فهم كاذبون في قولهم كذباً مخبرياً لا خبرياً فقرله : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » أريد به الكذب المخبري لا الخبري .

قوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله » الخ ، الأيمان جمع يمين بمعنى القسم ، والجنة القرس والمراد بها ما يتقى به من باب الاستعارة ، والصد يحجب بمعنى الإعراض وعليه فالمراد إعراضهم أنفسهم عن سبيل الله وهو الدين وبمعنى الصرف وعليه فالمراد صرفهم العامة من الناس عن الدين وهم في وقاية من أيمانهم الكاذبة .

والمعنى : اتخذوا أيمانهم الكاذبة التي يحلفون وقاية لأنفسهم فأعرضوا عن سبيل الله ودينه - أو فصرفوا العمامة من الناس عن دين الله بما يستطيعونه من الصرف بتقليب الأمور وإفساد العزائم .

وقوله : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » تقبيح لأعمالهم التي استمروا عليها منذ نافقوا إلى حين نزول السورة .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » الظاهر أن الإشارة بذلك إلى سوء ما عملوا كما قيل ، وقيل : الإشارة إلى جميع ما تقدم من كذبهم واستجنانهم بالأيمان الفاجرة وصددهم عن سبيل الله ومساءة أعمالهم .

والمراد بأيمانهم - على ما قيل - أيمانهم بالسنتهم ظاهراً بشهادة أن لا إله إلا الله وأن

محمداً رسوله ثم كفرهم بخلو باطنهم عن الإيمان كما قال تعالى فيهم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن » البقرة : ١٤ . ولا يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقة ثم ارتد وكتم ارتداده فلعق بالمنافقين يترتب بالنبي ﷺ وبالمؤمنين الدوائر كما يظهر من بعض آيات سورة التوبة كقوله : « فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه » التوبة : ٧٧ ، وقد عبر تعالى عن لم يدخل الإيمان في قلبه منهم بمثل قوله : « وكفروا بعد إسلامهم » التوبة : ٧٤ . فالظاهر أن المراد بقوله : « آمنوا ثم كفروا » إظهارهم للشهادتين أعم من أن يكون عن ظهر القلب أو بظاهر من القول ثم كفرهم بإتيان أعمال تستصعب الكفر كالاستهزاء بالدين ورد بعض الأحكام .

وقوله : « فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » تبريع عدم الفقه على طبع القلوب دليل على أن الطبع ختم على القلب يستتبع عدم قبوله لورود كلمة الحق فيه فهو آتس من الإيمان محروم من الحق .

والطبع على القلب جعله بحيث لا يقبل الحق ولا يتبعه فلا محالة يتبع الهوى كما قال تعالى : « طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » سورة محمد : ١٦ ، فلا يفقه ولا يسمع ولا يعلم كما قال تعالى : « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » التوبة : ٨٧ ، وقال : « ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » الأعراف : ١٠٠ ، وقال : « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » التوبة : ٩٣ ، والطبع على أي حال لا يكون منه تعالى إلا مجازاة لأنه إضلال والذي ينسب إليه تعالى من الإضلال إنما هو الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي وقد مر مراراً .

قوله تعالى : « وإذا رأيتمهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم » الخ ، الظاهر أن الخطاب في « رأيتمهم » و « تسمع » خطاب عام يشمل كل من رآهم وسمع كلامهم لكونهم في أزياء حسنة وبلاغة من الكلام ، وليس خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ ، والمراد أنهم على صباغة من المنظر وتناسب من الأعضاء إذا رآهم الرائي أعجبه أجسامهم ، وفصاحة وبلاغة من القول إذا سمع السامع كلامهم مال إلى الإصغاء إلى قولهم لحلاوة ظاهره وحسن نظمه .

وقوله : « كأنهم خشب مسندة » ذم لهم بحسب باطنهم والخشب بضمين جمع خشبة ،

والتسنيّد نصب الشيء معتمداً على شيء آخر كحائط ونحوه .

والجملة مسوقة لذمتهم وهي متممة لسابقتها ، والمراد أن لهم أجساماً حسنة معجبة وقولاً رائعاً ذا حلاوة لكنهم كالخشب المسندة أشباح بلا أرواح لا خير فيها ولا فائدة تعترها لكونهم لا يفقهون .

وقوله : « يحسبون كل صيحة عليهم » ذم آخر لهم أي إنهم لإبطانهم الكفر وكتائبهم ذلك من المؤمنين يعيشون على خوف ووجل ووحشة يخافون ظهور أمرهم واطتلاع الناس على باطنهم ويظنون أن كل صيحة سمعوها فهي كائنة عليهم وأنهم المقصودون بها .
وقوله : « هم العدو فاحذرهم » أي هم كاملون في العداوة بالفن فيها فإن أعدى أعدائك من يعاديك وأنت تحسبه صديقك .

وقوله : « قاتلهم الله أنى يؤفكون » دعاء عليهم بالقتل وهو أشد شذائد الدنيا وكان استعمال المقاتلة دون القتل للدلالة على الشدة .

وقيل : المراد به الطرد والإبعاد من الرحمة ، وقيل : المراد به الإخبار دون الدعاء ، والمعنى : أن شمول اللعن والطرد لهم مقرر ثابت ، وقيل : الكلمة مفيدة للتعجب كما يقال : قاتله الله ما أشعره ، والظاهر من السياق ما تقدم من الوجه .
وقوله : « أنى يؤفكون » مسوق للتعجب أي كيف يصرفون عن الحق ؟ وقيل : هو توبيخ وتقريع وليس باستفهام .

قوله تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤسهم » الخ ، التلوية تفعليل من لوى يلوي لياً بمعنى مال .

والمعنى : وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله — وذلك عندما ظهر منهم بعض خياناتهم وفسوقهم — أمالوا رؤسهم إعراضاً واستكباراً ورآهم الرائي يعرضون عن القائل وهم مستكبرون عن إجابة قوله .

قوله تعالى : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » الخ ، أي يتساوى الاستغفار وعدمه في حقهم وتساوى الشيء وعدمه كناية عن أنه لا يفيد الفائدة المطلوبة منه ، فالمعنى : لا يفيدهم استغفارك ولا ينفعهم .

وقوله : « لن يغفر الله لهم » دفع دخل كأن سائلاً يسأل : لماذا يتساوى الاستغفار لهم وعدمه ؟ فاجيب : لن يغفر الله لهم .

وقوله : « إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » تعليل لقوله : « لن يغفر الله لهم » ، والمعنى : لن يغفر الله لهم لأن مغفرته لهم هداية لهم إلى السعادة والجنة وهم فاسقون خارجون عن زي العبودية لإبطانهم الكفر والطبع على قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين . قوله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » الخ ، الانفضاض التفرُّق ، والمعنى : المنافقون هم الذين يقولون : لا تنفقوا أموالكم على المؤمنين الفقراء الذين لازموا رسول الله واجتمعوا عنده لنصرته وإنفاذ أمره وإجراء مقاصده حتى يتفرقوا عنه فلا يتحكم علينا .

وقوله : « والله خزائن السماوات والأرض » جواب عن قولهم : لا تنفقوا الخ ، أي إن الدين دين الله ولا حاجة له إلى إنفاقهم فله خزائن السماوات والأرض ينفق منها ويرزق من يشاء كيف يشاء فلو شاء لأغنى الفقراء من المؤمنين لكنه تعالى يختار ما هو الأصلح فيمتحنهم بالفقر ويتعبد لهم بالصبر ليوجرهم أجراً كريماً ويهديهم صراطاً مستقيماً والمنافقون في جهل من ذلك .

وهذا معنى قوله : « ولكن المنافقين لا يفقهون » أي لا يفقهون وجه الحكمة في ذلك واحتمل أن يكون المعنى أن المنافقين لا يفقهون أن خزائن العالم بيد الله وهو الرازق لا رازق غيره فلو شاء لأغناهم لكنهم يحسبون أن الغنى والفقر بيد الأسباب فلو لم ينفقوا على أولئك الفقراء من المؤمنين لم يحدوا رازقاً يرزقهم .

قوله تعالى : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ، القائل هو عبد الله بن أبي بن سلول ، وكذا قائل الجملة السابقة : لا تنفقوا الخ ، وإنما عبر بصيغة الجمع تشريفاً لأصحابه الراضين بقوله معه .

ومراد به بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ويريد بهذا القول تهديد النبي ﷺ بإخراجه من المدينة بعد المراجعة إليها وقد رد الله عليه وعلى من يشاركه في نفاقه بقوله : « والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » فقصر العزة في نفسه ورسوله والمؤمنين فلا يبقى لغيرهم إلا الذلة ونفى عن المنافقين العلم فلم يبق لهم إلا الذلة والجهالة .

(بحث روائي)

في المجمع نزلت الآيات في عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية زوج النبي ﷺ .

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج اليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد الى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل منهم من قتل ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسانان الجهني من بني عوف بن خزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له : جعال وكان فقيراً فقال عبد الله ابن أبي جعال : إنك لهتك فقال : وما يمنعني أن أفعل ذلك ؟ واشتد لسان جعال على عبد الله . فقال عبد الله : والذي يحلف به لأزرنك ويهلك غير هذا .

وغضب ابن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم حديث السن فقال ابن أبي قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل : ستمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ثم أقبل على من حضره من قومه فقال : هذا ما جعلتم بأنفسكم أحللتهم بلادكم وقاسمتهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم ويلحقوا بعشائهم ومواليهم .

فقال زيد بن أرقم : أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين والله لا أحبك بعد كلامك هذا فقال عبد الله : امسكت فإنما كنت ألعب .

فشى زيد بن أرقم الى رسول الله ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل وأرسل الى عبد الله فأثاه فقال : ما هذا الذي بلغني عنك ؟ فقال عبد الله والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك قط وإن زيدا

لكاذب ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه .
فعذره رسول الله ﷺ وفشت الملامة من الأنصار لزيد .

ولما استقل رسول الله ﷺ فسار لقيه أسيد بن الحضير فحيّاه بتحية النبوة ثم قال : يا رسول الله لقد رحلت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها ، فقال رسول الله ﷺ : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ . فقال أسيد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجّوه وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل أبي فإن كنت لا بد فاعلاً فمروني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرّ بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ أن يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا . قالوا : وسار رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مساً الأرض وقعوا نياماً ، إنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي خرج من عبد الله بن أبيّ .

ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع يقال له : بقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتحوّفوها وضلّت ناقصة رسول الله ﷺ وذلك ليلاً فقال : مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة قيل : من هو ؟ قال : رفاعة . فقال رجل من المنافقين : كيف يزعم أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ؟ ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي ؟ فأناه جبريل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة ، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك أصحابه وقال : ما أزعجني أني أعلم الغيب وما أعلمه ولكن الله تعالى أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي . هي في الشعب فإذا هي كما قال فجاءوا بها وآمن ذلك المنافق .

فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد في التابوت أحد بني قينقاع وكان من عظماء اليهود مات ذلك اليوم .

قال زيد بن أرقم : فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فنزلت سورة المنافقون في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أبي . ثم أخذ رسول الله ﷺ باذن زيد فرفعه عن الرجل ثم قال : يا غلام صدق فوك ، ووعت أذاك ، ووعى قلبك ، وقد أنزل الله فيما قلت قرآناً .

وكان عبد الله بن أبي بقرب المدينة فلما أراد أن يدخلها جاء ابنه عبد الله بن عبد الله ابن أبي حتى أتاه على مجامع طرق المدينة فقال : ما لك ويلك ؟ فقال : والله لا تدخلها إلا بإذن رسول الله ولتعلن اليوم من الأعز ؟ ومن الأذل ؟ فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ﷺ فأرسل إليه أن خل عنه يدخل فقال : أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم فدخل فلم يلبث إلا أياماً قللاً حتى اشتكى ومات .

فلما نزلت هذه الآيات وبان كذب عبد الله قيل له : نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوئى رأسه ثم قال : أمرتوني أن أو من فقد آمنت وأمرتوني أن اعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزل : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوآ رؤسهم - إلى قوله - لا يعطون » .

أقول : ما أورده من القصة مأخوذ من روايات مختلفة مروية عن زيد بن أرقم وابن عباس وعكرمة ومحمد بن سيرين وابن إسحاق وغيرهم دخل حديث بعضهم في بعض . وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون » الآية قال : قال : نزلت في غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق في سنة خمس من الهجرة ، وكان رسول الله ﷺ خرج إليها فلما رجع منها نزل على بشر وكان الماء قليلاً فيها .

وكان أنس بن سيار حليف الأنصار ، وكان جهجاه بن سعيد الغفاري أجيئاً لعمر بن الخطاب فاجتمعوا على البشر فتعلق دلو سيار بدلو جهجاه فقال سيار : دلوي وقال جهجاه : دلوي فضرب جهجاه على وجه سيار فسأل منه الدم فنادى سيار بالخزرج ونادى جهجاه بقریش وأخذ الناس السلاح وكاد أن تقع الفتنة .

فسمع عبد الله بن أبي النداء فقال : ما هذا ؟ فأخبروه بالخبر فغضب غضباً شديداً ثم قال : قد كنت كارهاً لهذا المسير إني لأذل العرب ما ظننت أني أبقي إلى أن أسمع مثل هذا فلا يكن عندي تغيير .

ثم أقبل على أصحابه فقال : هذا عملكم أنزلتموهم منازلكم وواسيتموهم بأموالكم

ووقيتموهم بأنفسكم وأبرزتم نحوركم للقتل فأرمل نساؤكم وأيتم صبيانكم ولو أخرجتموهم لكانوا عيالاً على غيركم . ثم قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وكان في القوم زيد بن أرقم وكان غلاماً قد راهق ، وكان رسول الله ﷺ في ظل شجرة في وقت الهاجرة وعنده قوم من أصحابه من المهاجرين والأنصار فجاء زيد فأخبره بما قال عبد الله بن أبي فقال رسول الله ﷺ : لعلك وهمت يا غلام ، قال : لا والله ما وهمت . قال : فلعلك غضبت عليه ؟ قال : لا والله ما غضبت عليه ، قال : فلعله سفته عليك ، فقال : لا والله .

فقال رسول الله لشقران مولاه : أخرج فأحرج راحلته وركب وتسامع الناس بذلك فقالوا : ما كان رسول الله ﷺ ليرحل في مثل هذا الوقت ، فرحل الناس ولحقه سعد ابن عباد فقال : السلام عليك يا رسول الله وزحة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ، فقال : ما كنت لترحل في مثل هذا الوقت ، فقال : أو ما سمعت قولاً قال صاحبكم ؟ قال : وأي صاحب لنا غيرك يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال : يا رسول الله فإنك وأصحابك الأعز وهو وأصحابه الأذل .

فسار رسول الله ﷺ يومه كله لا يكلمه أحد فأقبلت الخزرج على عبد الله بن أبي يعذلونه فحلف عبد الله أنه لم يقل شيئاً من ذلك فقالوا : فقم بنا إلى رسول الله حتى نعتذر إليه فلوئى عنقه .

فلما جن الليل سار رسول الله ﷺ ليله كله فلم ينزلوا إلا للصلاة فلما كان من الغد نزل رسول الله ﷺ ونزل أصحابه وقد أمهدهم ^(١) الأرض من السفر الذي أصابهم فجاء عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ فحلف عبد الله له أنه لم يقل ذلك ، وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأنتك لرسول الله وإن زيدا قد كذب علي ، فقبل رسول الله ﷺ منه وأقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يشتمونه ويقولون له : كذبت على عبد الله سيدنا .

فلما رحل رسول الله ﷺ كان زيد معه يقول : اللهم إنك لتعلم أني لم أكذب على عبد الله بن أبي فما سار إلا قليلاً حتى أخذ رسول الله ﷺ ما كان يأخذه من البرحاء ^(٢)

(١) أمهدهم الأرض : أي صارت لهم مهاداً فناموا .

(٢) البرحاء : حالة شبه الإغماء كانت تأخذ النبي صلى الله عليه وآله عند نزول الوحي .

عند نزول الوحي فثقل حتى كادت ناقتة أن تبرك من ثقل الوحي فسري عن رسول الله ﷺ وهو يسكب العرق عن جبهته ثم أخذ بأذن زيد بن أرقم فرفعه من الرجل ثم قال: يا غلام صدق قولك ووعى قلبك وأنزل الله فيما قلت قرآنًا .

فلما نزل جمع أصحابه وقرأ عليهم سورة المنافقين: « بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاءك المنافقون - إلى قوله - ولكن المنافقين لا يعلمون » ففضح الله عبد الله بن أبي .

وفي تفسير القمي أيضاً في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: « كأنهم خشب مسندة » يقول: لا يسمعون ولا يعقلون « يحسبون كل صيحة عليهم » يعني كل صوت « هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

فلما أنبأ الله رسوله خبرهم مشى اليهم عشائرهم وقالوا افتضحتم ويلكم فأتوا رسول الله يستغفر لكم فلوّوا رؤوسهم وزهدوا في الاستغفار، يقول الله: « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون » .

وفي الكافي بإسناده إلى سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى فوّض إلى المؤمن أموره كلها ، ولم يفوض إليه أن يذل نفسه ألم تر قول الله سبحانه وتعالى هنا « لله العزة ولرسوله وللمؤمنين » والمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً .

أقول: وروى هذا المعنى بإسناده عن داود الرقي والحسن الأحمسي وبطريق آخر عن سماعة .

وفيه بإسناده عن مفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه . قلت: بما يذل نفسه؟ قال: يدخل فيما يعتذر منه .

(كلام حول النفاق في صدر الإسلام)

يهتم القرآن بأمر المنافقين اهتماماً بالغاً ويكرر عليهم كرة عنيفة بذكر مساوي أخلاقهم وأكاذيبهم وخدائهم ودسائسهم والفتن التي أقاموها على النبي ﷺ وعلى المسلمين ، وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والمنكبات والأحزاب والفتح والحديد والحشر والمنافقون والتحريم .

وقد أوعدهم الله في كلامه أشد الوعيد ففي الدنيا بالطبع على قلوبهم وجعل الفسادة

على سمعهم وعلى أبصارهم ولإذهاب نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون وفي الآخرة يجعلهم في الدرك الأسفل من النار .

وليس ذلك إلا لشدة المصائب التي أصابت الإسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع دسائسهم فلم ينل المشركون واليهود والنصارى من دين الله ما نالوه ، ونأهيك فيهم قوله تعالى لنبيه ﷺ يشير إليهم : « هم العدو فاحذرهم » المنافقون : ٤ .

وقد ظهر آثار دسائسهم ومكائدهم أوائل ما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فورد ذكرهم في سورة البقرة وقد نزلت - على ما قيل - على رأس ستة أشهر من الهجرة ثم في السور الأخرى النازلة بعد بالإشارة إلى أمور من دسائسهم وفنون من مكائدهم كانسلاهم من الجند الإسلامي يوم أحد وهم ثلثهم تقريباً ، وعقدتهم الحلف مع اليهود واستنهاضهم على المسلمين وبناءهم مسجد الضرار وإشاعتهم حديث الإفك ، وإثارتهم الفتنة في قصة السقاية وقصة العقبة إلى غير ذلك مما تشير إليه الآيات حتى بلغ أمرهم في الإفساد وتقليب الأمور على النبي ﷺ إلى حيث هددهم الله بمثل قوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » الأحزاب : ٦١ .

وقد استفاضت الأخبار وتكاثرت في أن عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين وهم الذين كانوا يقلبون الأمور على النبي ﷺ ويتربصون به الدوائر وكانوا معروفين عند المؤمنين يقربون من ثلث القوم وهم الذين خذلوا المؤمنين يوم أحد فأنمازوا منهم ورجعوا إلى المدينة قائلين لو تعلم قتالاً لاتبعناكم وهم عبد الله بن أبي وأصحابه .

ومن هنا ذكر بعضهم أن حركة النفاق بدأت بدخول الإسلام المدينة واستمرت إلى قرب وفاة النبي ﷺ .

هذا ما ذكره جمع منهم لكن التدبر في حوادث زمن النبي ﷺ والإمعان في الفتن الواقعة بعد الرحلة والاعتناء بطبيعة الاجتماع الفعالة يقضي عليه بالنظر :

أما أولاً : فلا دليل مقنعاً على عدم تسرب النفاق في متبعي النبي ﷺ المؤمنين بمكة قبل الهجرة ، وقول القائل : إن النبي ﷺ والمسلمين بمكة قبل الهجرة لم يكونوا من القوة ونفوذ الأمر وسعة الطول بحيث يهاجم الناس ويتقوهم أو يرجوا منهم خيراً حتى يظهروا لهم الإيمان ظاهراً ويتقربوا منهم بالإسلام ، وهم مضطهدون مفتنون معذبون

بأيدي صناديد قريش ومشركي مكة المعادين لهم المعاندين للحق بخلاف حال النبي ﷺ بالمدينة بعد الهجرة فإنه ﷺ هاجر إليها وقد كسب أنصاراً من الأوس والخزرج واستوثق من أقوياء رجالهم أن يدفعوا عنه كما يدفعون عن أنفسهم وأهليهم ، وقد دخل الإسلام في بيوت عامتهم فكان مستظهِراً بهم على العدة القليلة الذين لم يؤمنوا به وبقوا على شركهم ولم يكن يسعهم أن يعلنوا مخالفتهم ويظهروا شركهم فتوقوا الشر بإظهار الإسلام فأمنوا به ظاهراً وهم على كفرهم باطناً فسدوا الدسائس ومكروا ما مكروا .

غير تام ، فما القدرة والقوة المخالفة المهيبة ورجاء الخير بالفعل والاستدرار المعجل علة منحصرة للنفاق حتى يحكم بانتفاء النفاق لانتفائها فكثيراً ما نجد في المجتمعات رجالاً يتبعون كل داع ويتجمعون إلى كل ناعق ولا يعبئون بمخالفة القوى المخالفة القاهرة الطاحنة ، ويعيشون على خطر مصرين على ذلك رجاء أن يوفقوا يوماً لإجراء مرامهم ويتحكموا على الناس باستقلالهم بإدارة رضى المجتمع والعلو في الأرض وقد كان النبي ﷺ يذكر في دعوته لقومه أن لو آمنوا به واتبعوه كانوا ملوك الأرض .

فمن الجائز عقلاً أن يكون بعض من آمن به يتبعه في ظاهر دينه طمعاً في البلوغ بذلك إلى أمنيته وهي التقدم والرئاسة والاستعلاء ، والأثر المترتب على هذا النوع من النفاق ليس هو تقليب الأمور وتربص الدوائر على الإسلام والمسلمين وإفساد المجتمع الديني بل تقويته بما أمكن وتقديته بالمال والجاه لينتظم بذلك الأمور وينتهي لاستفادته منه واستدراجه لنفع شخصه . نعم يكرر مثل هذا المنافق بالمخالفة والمضادة فيما إذا لاح من الدين مثلاً ما يخالف أمنية تقدمه وتسليطه إرجاعاً للأمر إلى سبيل ينتهي إلى غرضه الفاسد .

وأيضاً من الممكن أن يكون بعض المسلمين يرتاب في دينه فيرتد ويكتم ارتداده كما مرّت الإشارة إليه في قوله تعالى : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا » الآية ، وكما يظهر من الحن مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم » المائدة : ٥٤ .

وأيضاً الذين آمنوا من مشركي مكة يوم الفتح لا يؤمن أكثرهم أن لا يؤمنوا إيمان صدق وإخلاص ومن البديهي عند من تدبر في حوادث سني الدعوة أن كفار مكة وما والاها وخاصة صناديد قريش ما كانوا ليؤمنوا بالنبي ﷺ لولا سواد جنود غشيتهم وبريق

سيوف مسلطة فوق رؤسهم يوم الفتح وكيف يمكن مع ذلك القضاء بأنه حدث في قلوبهم والظرف هذا الظرف نور الإيمان وفي نفوسهم الإخلاص واليقين فأمنوا بالله طوعاً عن آخرهم ولم يدبّ فيهم دبيب النفاق أصلاً .

وأما ثانياً: فلأن استمرار النفاق إلى قرب رحلة النبي ﷺ وانقطاعه عند ذلك ممنوع نعم انقطع الخبر عن المنافقين بالرحلة وانعقاد الخلافة وانمحي أثرهم فلم يظهر منهم ما كان يظهر من الآثار المضادة والمكائد والدسائس المشؤمة .

فهل كان ذلك لأن المنافقين وفقوا للإسلام وأخلصوا الإيمان عن آخرهم برحلة النبي ﷺ وتأثرت قلوبهم من موته ما لم يتأثر بحياته ؟ أو أنهم صالحوا أولياء الحكومة الإسلامية على ترك المزاحمة بأن يسمح لهم ما فيه امنيتهم مصلحة سرية بعد الرحلة أو قبلها ؟ أو أنه وقع هناك تصالح اتفاقي بينهم وبين المسلمين فوردوا جميعاً في مشرعة سواء فارتفع التصادم والتصادم ؟

ولعل التدبر الكافي في حوادث آخر عهد النبي ﷺ والفتن الواقعة بعد رحلته يهدي إلى الحصول على جواب شافٍ لهذه الأسئلة .
والذي أوردناه في هذا الفصل إشارة إجمالية إلى سبيل البحث .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ — ٩ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ — ١٠ . وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ — ١١ .

(بيات)

تنبيه للمؤمنين أن يتجنبوا عن بعض الصفات التي تورث النفاق وهو التلهي بالمال والأولاد والبخل .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » الخ ، الإلهاء الإشغال ، والمراد بإلهاء الأموال والأولاد عن ذكر الله إشغالها القلب بالتعلق بها بحيث يوجب الإعراض عن التوجه إلى الله بما أنها زينة الحياة الدنيا ، قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » الكهف : ٤٦ ، والاشتغال بها يوجب خلو القلب عن ذكر الله ونسيانه تعالى فلا يبقى له إلا القول من غير عمل وتصديق قلبي ونسيان العبد لربه يستعقب نسيانه تعالى له ، قال تعالى : « نسوا الله فأنسيهم » التوبة : ٦٧ ، وهو الخسران المبين ، قال تعالى في صفة المنافقين : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » البقرة : ١٦ .

وإليه الإشارة بما في ذيل الآية من قوله : « ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون » . والأصل هو نهى المؤمنين عن التلهي بالأموال والأولاد وتبديله من نهى الأموال والأولاد عن إلهائهم للتلويح إلى أن من طبعها الإلهاء فلا ينبغي لهم أن يتعلقوا بها فتلهيهم عن ذكر الله سبحانه فهو نهى كنائي أكد من التصريح .

قوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت » الخ ، أمر بالإنفاق في البر أعم من الإنفاق الواجب كالزكاة والكفارات أو المندوب ، وتقييده بقوله : « مما رزقناكم » للإشعار بأن أمره هذا ليس سؤالاً لما يملكونه دونه ، وإنما هو شيء هو معطيه لهم ورزق هو رازقه وملك هو ملكهم إياه من غير أن يخرج عن ملكه يأمرهم بالإنفاق شيء منه فيما يريد فله المنّة عليهم في كل حال .

وقوله : « من قبل أن يأتي أحدكم الموت » أي فينقطع أمد استطاعته من التصرف في ماله بالإنفاق في سبيل الله .

وقوله : « فيقول رب لولا أخرجتني إلى أجل قريب » عطف على قوله : « أن يأتي » الخ ، وتقييد الأجل بالقریب للإشعار بأنه قانع بقليل من التمديد - وهو مقدار ما يسمع

الإففاق من العمر - ليسهل إجابته ، ولأن الأجل أيتا ما كانت فهو قريب ، ومن كلامه عليه السلام : كل ما هو آتٍ قريب .

وقوله : « فأصدق وأكن من الصالحين » نصب « فأصدق » لكونه في جواب التمني ، وجزم « أكن » لكونه في معنى جزاء الشرط ، والتقدير إن أتصدق أكن من الصالحين .

قوله تعالى : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » إياس لهم من استجابة دعاء من يسأل تأخير الأجل بعد حلوله والموت بعد نزوله وظهور آيات الآخرة ، وقد تكرر في كلامه تعالى أن الأجل المسمى من مصاديق القضاء المحتوم كقوله : « وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » يونس : ٤٩ .

وقوله : « والله خير بما تعملون » حال من ضمير « أحذركم » أو عطف على أول الكلام ويفيد فائدة التعليل ، والمعنى : لا تلهوا وأنفقوا فإن الله عليم بأعمالكم يحازيكم بها .

(بحث روائي)

في الفقيه وسئل عن قول الله تعالى : « فأصدق وأكن من الصالحين » قال : « أصدق » من الصدقة ، و « أكن من الصالحين » أحج .

أقول : الظاهر أن ذيل الحديث من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق . وفي الجمع عن ابن عباس قال : ما من أحد يموت وكان له مال فلم يؤد زكاته وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت .

قالوا : يا ابن عباس اتق الله فإنما نرى هذا الكافر يسأل الرجعة فقال : أنا أقرأ به عليكم قرآناً ثم قرأ هذه الآية - يعني قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم - إلى قوله - من الصالحين » قال : الصلاح هنا الحج ، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس . وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » قال : إن عند الله كتباً موقوفة يقدم منها ما يشاء ويؤخر ما يشاء فإذا كان ليلة القدر أنزل الله فيها كل شيء يكون إلى مثلها فذلك قوله : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » إذا نزل الله وكتبه كتاب السماوات وهو الذي لا يؤخر .

* * *

(سورة التغابن مدنية ، وهي ثمانى عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — ١ . هُوَ
 الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ — ٢ .
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ
 الْمَصِيرُ — ٣ . يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ
 وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ — ٤ . أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ — ٥ . ذَلِكَ
 بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا
 وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ — ٦ . زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ
 لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
 يَسِيرٌ — ٧ . فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ — ٨ . يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ
 وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ — ٩ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا
وَبِشْرِ الْمَصِيرُ — ١٠ .

(بيان)

السورة شبيهة بسورة الحديد في سياق كسياقها ونظم كنظمها كأنها ملخصة منها
وغرضها تحريض المؤمنين وتمرغيبهم في الإنفاق في سبيل الله ورفع ما بهجس في قلوبهم
ويدب في نفوسهم من الأسى والأسف على المصائب التي تهجم عليهم في تحمل مشاق الإيمان
بالله والجهاد في سبيل الله والإنفاق فيها بأن ذلك كله بإذن الله .

والآيات التي أوردناها من صدر السورة مقدمة وتمهيد لبيان الغرض المذكور تبين أن
أسماءه تعالى الحسنی وصفاته العليا تقضي بالبحث ورجوع الكل إليه تعالى رجوعاً يساق
فيه أهل الإيمان والعمل الصالح إلى جنة خالدة ، وأهل الكفر والتكذيب إلى نار مؤبدة
فهي تمهيد للأمر بطاعة الله ورسوله والصبر على المصائب والإنفاق في سبيل الله من غير
تأثر من منع مانع ولا خوف من لومة لائم .
والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل
شيء قدير » تقدم الكلام في معنى التسبيح والملك والحمد والقدرة ، وأن المراد بما في
السماوات والأرض يشمل نفس السماوات والأرض ومن فيها وما فيها .

وقوله : « له الملك » مطلق يفيد إطلاق الملك وعدم محدوديته بحد ولا تقيده بقيد أو
شرط فلا حكم نافذ إلا حكمه ، ولا حكم له إلا نافذاً على ما أراد .

وكذا قوله : « وله الحمد » مطلق يفيد رجوع كل حمد من كل حامد — والحمد هو
الثناء على الجليل الاختياري — إليه تعالى لأن الخلق والأمر إليه فلا ذات ولا صفة ولا فعل
جيلاً محموداً إلا منه وإليه .

وكذا قوله : « وهو على كل شيء قدير » بما يدل عليه من عموم متعلق القدرة غير
محدودة ولا مقيدة بقيد أو شرط .

وإذ كانت الآيات - كما تقدمت الإشارة إليه - مسوقة لإثبات المعاد كانت الآية كالمقدمة الأولى لإثباته، وتفيد أن الله منزّه عن كل نقص وشين في ذاته وصفاته وأفعاله يملك الحكم على كل شيء والتصرف فيه كيفما شاء وأراد ، - ولا يتصرف إلا جيلاً - وقدرته تسع كل شيء فله أن يتصرف في خلقه بالإعادة كما تصرف فيهم بالإيذاء - الإحداث والإبقاء - فله أن يعذبهم إن تعلقت به إرادته ولا تتعلق إلا بحكمه .

قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير » الفاء في « فمنكم » تدل على مجرد ترتب الكفر والايان على الخلق فلا دلالة في التفريع على كون الكفر والايان مخلوقين لله تعالى أو غير مخلوقين ، وإنما المراد انشعابهم فرقتين : بعضهم كافر وبعضهم مؤمن ، وقدم ذكر الكافر لكثرة الكفار وغلبيتهم .

و « من » في قوله : « فمنكم ومنكم » للتبويض أي فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن . وقد نبه بقوله : « والله بما تعملون بصير » على أن انقسامهم قسمين وتفرقهم فرقتين حق كما ذكر ، وهم متميزون عنده لأن الملاك في ذلك أعمالهم ظاهرها وباطنها والله بما يعملون بصير لا تخفى عليه ولا تشبه .

وتتضمن الآية مقدمة أخرى لإثبات المعاد وتنجزه وهي أن الناس مخلوقون له تعالى متميزون عنده بالكفر والايان وصالح العمل وطالحه .

قوله تعالى : « خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير » المراد بالحق خلاف الباطل وهو خلقها من غير غاية ثابتة وغرض ثابت كما قال : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا » الأنبياء : ١٧ ، وقال : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » الدخان : ٣٩ .

وقوله : « وصوركم فأحسن صوركم » المراد بالتصوير إعطاء الصورة وصورة الشيء قوامه ونحو وجوده كما قال : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » التين : ٤ ، وحسن الصورة تناسب تجهيزاتها بعضها لبعض والمجموع لغاية وجودها ، وليس هو الحسن بمعنى صباحة المنظر وملاحظته بل الحسن العام الساري في الأشياء كما قال تعالى : « الذي أحسن كل شيء خلقه » الم السجدة : ٧ .

ولعل اختصاص حسن صورهم بالذكر للتنبيه على أنها ملائمة للغاية التي هي الرجوع إلى الله فتكون الجملة من جملة المقدمات المسوقة لإثبات المعاد على ما تقدمت الإشارة إليه :

وبهذه الآية تم المقدمات المنتجة للزوم البعث ورجوع الخلق إليه تعالى فإنه تعالى لما كان ملكاً قادراً على الإطلاق له أن يحكم بما شاء ويتصرف كيف أراد وهو منزّه عن كل نقص وشين محمود في أفعاله ، وكان الناس مختلفين بالكفر والإيمان وهو بصير بأعمالهم ، وكانت الخلقة لغاية من غير لغو وجزاف كان من الواجب أن يبعثوا بعد نشأتهم الدنيا لنشأة أخرى دائمة خالدة فيعيشوا فيها عيشة باقية على ما يقتضيه اختلافهم بالكفر والإيمان وهو الجزاء الذي يسعد به مؤمنهم ويشقى به كافرهم .
وإلى هذه النتيجة يشير بقوله : « واليه المصير » .

قوله تعالى : « يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور » دفع شبهة لشكري المعاد مبنية على الاستبعاد وهي أنه كيف يمكن إعادة الموجودات وهي فانية بآئدة وحوادث العالم لا تحصى والأعمال والصفات لا تعد ، منها ظاهرة علنية ومنها باطنة سرية ومنها مشهودة ومنها مغيبة ، فاجيب بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون .

وقوله : « والله عليم بذات الصدور » قيل : إنه اعتراض تذييلي مقرر لشمول علمه تعالى بما يسرون وما يعلنون والمعنى : أنه تعالى محيط علماً بالمضرات المستكنة في صدور الناس مما لا يفارقها أصلاً فكيف يخفى عليه شيء مما تسرونه وما تعلنونه .

وفي قوله : « والله عليم » الخ ، وضع الظاهر موضع الضمير والأصل « وهو عليم » الخ والنكتة فيه الإشارة إلى علة الحكم ، وليكون ضابطاً يجري مجرى المثل .

قوله تعالى : « ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » وبال الأمر تبعته السيئة والمراد بأمرهم كفرهم وما تفرع عليه من فسوقهم .
لما كان مقتضى أسائه الحسنى وصفاته العليا الممدودة في الآيات السابقة وجوب معاد الناس ومصيرهم إلى ربهم للحساب والجزاء فمن الواجب إعلامهم بما يجب عليهم أن يأتوا به أو يحتنبوا عنه وهو الشرع ، والطريق إلى ذلك الرسالة فمن الواجب إرسال رسول على أساس الإنذار والتبشير بعقاب الآخرة وثوابها وسخطه تعالى ورضاه .

ساق تعالى الكلام بالإنذار بالإشارة إلى نبي الذين كفروا من قبل وأنهم ذاقوا وبال أمرهم ولهم في الآخرة عذاب أليم ثم انتقل إلى بيان سبب كفرهم وهو تكذيب الرسالة ثم إلى سبب ذلك وهو إنكار البعث والمعاد .

ثم استنتج من ذلك كله وجوب إيمانهم بالله ورسوله والدين الذي أنزله عليه وختم التمهيد المذكور بالتبشير والإنذار بالإشارة إلى ما هيىء للمؤمنين الصالحين من جنة خالدة ولغيرهم من الكفار المكذبين من نار مؤبدة .

فقوله : « ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل » الخطاب للمشركين وفيه إشارة إلى قصص الأمم السالفة الهالكة كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، « ممن أهلكهم الله بذنوبهم » وقوله : « فذاقوا وبال أمرهم » إشارة إلى ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال وقوله : « ولهم عذاب أليم » إشارة إلى عذابهم الآخروي .

قوله تعالى : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدونا » الخ ، بيان لسبب ما ذكر من تعذيبهم بعذاب الاستئصال وعذاب الآخرة ، ولذلك جئىء بالفصل دون العطف كأنه جواب لسؤال مقدر كأن سائلا يسأل فيقول : لم أصابهم ما أصابهم من العذاب ؟ ف قيل : « ذلك بأنه كانت » الخ ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من العذاب . وفي التعبير عن إتيان الرسل ودعوتهم بقوله : « كانت تأتيهم » الدال على الاستمرار ، وعن كفرهم وقولهم بقوله : « فقالوا وكفروا وتولوا » الدال بالمقابلة على المرة دلالة على أنهم قالوا ما قالوا كلمة واحدة قاطعة لا معدل عنها وثبتوا عليها وهو العناد واللجاج فتكون الآية في معنى قوله تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » الأعراف : ١٠١ ، وقوله : « ثم بعثنا من بعده (أي بعد نوح) رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين » يونس : ٧٤ . وقوله : « فقالوا أبشر يهدونا » يطلق البشر على الواحد والجمع والمراد به الثاني بدليل قوله : « يهدونا » والتذكير للتحقير ، والاستفهام للإنكار أي قالوا على سبيل الإنكار : أآحاد من البشر لا فضل لهم علينا يهدونا ؟

وهذا القول منهم مبني على الاستكبار ، على أن أكثر هؤلاء الأمم الهالكة كانوا وثنيين وهم منكرون للنبوة وهو أساس تكذيبهم لدعوة الأنبياء ، ولذلك فرّع تعالى على قولهم : « أبشر يهدونا » قوله : « فكفروا وتولوا » أي بنوا عليه كفرهم وإعراضهم .

وقوله : « واستغنى الله » الاستغناء طلب الغنى وهو من الله سبحانه - وهو غني بالذات - إظهار الغنى وذلك أنهم كانوا يرون أن لهم من العلم والقوة والاستطاعة ما يدفع عن جمعهم

الفناء ويضمن لهم البقاء كأنه لا غنى للوجود عنهم كما حكى الله سبحانه عن قائلهم :
« قال ما أظن أن تبديد هذه أبداً » الكهف : ٣٥ ، وقال : « ولئن أذقناه رحمة منا من
بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة » حم السجدة : ٥٠ .

ومآل هذا الظن بالحقيقة إلى أن الله سبحانه حاجة اليهم وفيهم - وهو الغنى بالذات -
فإهلاكه تعالى لهم وإفنائهم إظهار منه لغناه عن وجودهم ، وعلى هذا فالمراد بقوله :
« واستغنى الله » استئصالهم المدلول عليه بقوله : « فذاقوا وبال أمرهم » .

على أن الإنسان معجب بنفسه بالطبع يرى أن له على الله كرامة كأن من الواجب عليه
أن يحسن إليه أينما كان كأن الله سبحانه حاجة إلى إسماعه والإحسان إليه كما يشير إليه قوله
تعالى : « وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » حم السجدة :
٥٠ ، وقوله : « وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً »
الكهف : ٣٦ .

ومآل هذا الزعم بالحقيقة إلى أن من الواجب على الله سبحانه أن يسعدهم كيفما كان
كأن له اليهم حاجة فإذاقته لهم وبإل أمرهم وتعذيبهم في الآخرة إظهار منه تعالى
لغناه عنهم ، فالمراد باستغنائه تعالى عنهم مجموع ما أفيد بقوله : « فذاقوا وبال أمرهم
ولهم عذاب أليم » .

فهذان وجهان في معنى قوله تعالى : « واستغنى الله » والثاني منها أشمل ، وفي الكلمة
على أي حال من سطوع العظمة والقدرة ما لا يخفى ، وهو في معنى قوله : « ثم أرسلنا
رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً
لقوم لا يؤمنون » المؤمنون : ٤٤ .

وقيل : المراد واستغنى الله بإقامة البرهان وإتمام الحجة عليهم عن الزيادة على ذلك
بإرشادهم وهدايتهم إلى الإيمان .

وقيل : المراد واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم أزلاً وأبداً لأنه غني بالذات ،
والوجهان كما ترى .

وقوله : « والله غني حميد » في محل التعليل لمضمون الآية ، والمعنى : والله غني في ذاته
محمود فيما فعل ، فما فعل بهم من إذاقتهم وبإل أمرهم وتعذيبهم بعذاب أليم على كفرهم
وقولهم من غناه وعدله لأنه مقتضى عملهم المردود اليهم .

قوله تعالى : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم وذلك على الله يسير » ذكر ركن آخر من أركان كفر الوثنيين وهو إنكارهم الدين السماوي بإنكار المعاد إذ لا يبقى مع انتفاء المعاد أثر للدين المبني على الأمر والنهي والحساب والجزاء ويصلح تعليلاً لإنكار الرسالة إذ لا معنى حينئذ للتبليغ والوعيد .

والمراد بالذين كفروا عامة الوثنيين ومنهم من عاصر النبي ﷺ منهم كأهل مكة وما والاها ، وقيل : المراد أهل مكة خاصة .

وقوله : « قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم » أمر النبي ﷺ أن يجيب عن زعمهم أن لن يبعثوا ، بإثبات ما نفوه بما في الكلام من أصناف التأكيد بالقسم واللام والنون . و « ثم » في « ثم لتنبؤن » للتراخي بحسب رتبة الكلام ، وفي الجملة إشارة إلى غاية البعث وهو الحساب وقوله : « وذلك على الله يسير » أي ما ذكر من البعث والإنباء بالأعمال يسير عليه تعالى غير عسير ، وفيه رد لإحالتهم أمر البعث على الله سبحانه استبعاداً ، وقد عبر عنه في موضع آخر من كلامه بمثل قوله : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » الروم : ٢٧ .

والدليل عليه ما عده في صدر الآيات من أسمائه تعالى وصفاته من الخلق والمملك والعلم وأنه مسبح محمود ، ويجمع الجميع أنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال . ويظهر من هنا أن التصريح باسم الجلالة في الجملة أعني قوله : « وذلك على الله يسير » للإيماء إلى التعليل ، والمفاد أن ذلك يسير عليه تعالى لأنه الله ، والكلام حجة برهانية لا دعوى مجردة .

وذكروا أن الآية ثالثة الآيات التي أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بربه على وقوع المعاد وهي ثلاث : إحداهما قوله : « ويستنبؤنك أحق هو قل أي وربي » يونس : ٥٣ ، والثانية قوله : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم » سبأ : ٣ ، والثالثة الآية التي نحن فيها .

قوله تعالى : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير » تفريع على مضمون الآية السابقة أي إذا كنتم مبعوثين لا محالة منبئين بما علمتم وجب عليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل على رسوله وهو القرآن الذي يهدي بنوره الساطع إلى مستقيم الصراط ، ويبين شرائع الدين .

وفي قوله : « والنور الذي أنزلنا » التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ولعل النكتة فيه تتمم الحجة بالسلوك من طريق الشهادة وهي أقطع للمذركم فرق بين قولنا : والنور الذي أنزل وهو إخبار ، وقوله : « والنور الذي أنزلنا » ففيه شهادة منه تعالى على أن القرآن كتاب سماوي نازل من عنده تعالى ، والشهادة آكد من الإخبار المجرد .

لا يقال : ماذا ينفع ذلك وهم ينكرون كون القرآن كلامه تعالى النازل من عنده ولو صدقوا ذلك كفاهم ما مر من الحجة على المعاد وأغنى عن التمسك بذيل الالتفات المذكور . لأنه يقال : كفى في إبطال إنكارهم كونه كلام الله ما في القرآن من آيات التحدي المثبتة لكونه كلام الله ، والشهادة على أي حال آكد وأقوى من الإخبار وإن كان مدللاً . وقوله : « والله بما تعملون خبير » تذكيرة بعله تعالى بدقائق أعمالهم ليتأكد به الأمر في قوله : « فآمنوا » والمعنى : آمنوا وجدوا في إيمانكم فإنه علم بدقائق أعمالكم لا يففل عن شيء منها وهو مجازيكم بها لا بحالة .

قوله تعالى : « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن » الخ ، « يوم » ظرف لقوله السابق : « لتبعثن ثم لتنبؤن » الخ ، والمراد بيوم الجمع يوم القيامة الذي يجمع فيه الناس لفصل القضاء بينهم قال تعالى : « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا » الكهف : ٩٩ ، وقد تكرر في القرآن الكريم حديث الجمع ليوم القيامة ، ويفسره أمثال قوله تعالى : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » الجاثية : ١٧ ، وقوله : « فالحق يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة : ١١٣ ، وقوله : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » السجدة : ٢٥ ، فالآيات تشير إلى أن جمعهم للقضاء بينهم . وقوله : « ذلك يوم التغابن » قال الراغب : الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء . قال : ويوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المعاملة المشار إليها بقوله : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله » ويقول : « إن الله اشترى من المؤمنين » الآية ، ويقول : « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا » فعلوا أنهم غبنوا فيما تركوا من المباينة وفيما تعاطوه من ذلك جميعا .

وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال : تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا . انتهى موضع الحاجة .

وما ذكره أولاً مبني على تفسير التغابن بسريان المغبونية بين الكفار بأخذهم لمعاملة

خسارة وتركهم معاملة رابحة ، وهو معنى حسن غير أنه لا يلائم معنى باب التفاعل الظاهر في فعل البعض في البعض .

وما نقله عن بعضهم وجه ثان لا يخلو من دقة ، ويؤيده مثل قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين » الم السجدة : ١٧ ، وقوله : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ ، وقوله : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » الزمر : ٤٧ . ومقتضى هذا الوجه عموم التغابن لجميع أهل الجمع من مؤمن وكافر أما المؤمن فلما أنه لم يعمل لآخرته أكثر مما عمل ، وأما الكافر فلأنه لم يعمل أصلاً ، والوجه المشترك بينهما أنها لم يقدّرا اليوم حق قدره .

ويرد على هذا الوجه ما يرد على سابقه .

وهناك وجه ثالث وهو أن يعتبر التغابن بين أهل الضلال متبوعيهم واتباعيهم فالمتبوعون وهم المستكبرون يغبنون تابعيهم وهم الضعفاء حيث يأمرونهم بأخذ الدنيا وترك الآخرة فيضلون ، والتابعون يغبنون المتبوعين حيث يعينونهم في استكبارهم باتباعهم فيضلون ، فكل من الفريقين غابن لغيره ومغبون من غيره .

وهناك وجه رابع وردت به الرواية وهو أن لكل عبد منزلاً في الجنة لو أطاع الله لدخله ، ومنزلاً في النار لو عصى الله لدخله . ويوم القيامة يعطى منازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة ، ويعطى منازل أهل الجنة في النار لأهل النار فيكون أهل الجنة وهم المؤمنون غابنين لأهل النار وهم الكفار والكفار هم المغبونون .

وقال بعض المفسرين بعد إيراد هذا الوجه : وقد فسر التغابن قوله ذيلًا : « ومن يؤمن بالله - إلى قوله - وبئس المصير » انتهى . وليس بظاهر ذاك الظهور .

وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً - إلى قوله - وبئس المصير » تقدم تفسيره مراراً .

(بحث روائي)

في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً . وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق العامة والخاصة وقد تقدم بعضها في تفسير أول سورة المؤمنون .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال : يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء والأرض ، ويوم التناد يوم ينادي أهل النار أهل الجنة ، أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، ويوم التغابن يوم يغبن أهل الجنة أهل النار ، ويوم الحسرة يوم يوثق بالموت فيذبح .

أقول : وفي ذيل آيات صدر السورة المبحوث عنها عدة من الروايات توجه الآيات بشؤون الولاية كالذي ورد أن الإيمان والكفر هما الإيمان والكفر بالولاية يوم أخذ الميثاق ، وما ورد أن المراد بالبينات الأئمة ، وما ورد أن المراد بالنور الإمام وهي جميعاً ظاهرة إلى بطن الآيات وليست بمفسرة البتة .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ - ١١ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ - ١٢ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ - ١٣ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا
وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - ١٤ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ
فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ - ١٥ . فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا
وَأَطِيعُوا وَأَنْتَقِبُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ - ١٦ . إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ - ١٧ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ١٨ .

(بيان)

شروع فيما هو الغرض من السورة بعد ما مر من التمديد والتوطئة وهو الندب إلى الإنفاق في سبيل الله والصبر على ما يصيبهم من المصائب في خلال المجاهدة في الله سبحانه . وقد تم ذكر المصيبة والإشارة إلى الصبر عليها ليصفوا المقام لما سيندب اليه من الإنفاق وينقطع العذر .

قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم » المصيبة صفة شاع استعمالها في الحوادث السوء التي تصحب الضر ، والإذن الإعلام بالرخصة وعدم المانع وبلازم علم الإذن بها إذن فيه ، وليس هو العلم كما قيل . فظهر بما تقدم أولاً أن إذنه تعالى في عمل سبب من الأسباب هو التخلية بينه وبين مسببه برفع الموانع التي تتخلل بينه وبين مسببه فلا تدعه يفعل فيه ما يقتضيه بسببته كالنار تقتضي إحراق القطن مثلاً لولا الفصل بينها والرطوبة فرفع الفصل بينها والرطوبة من القطن مع العلم بذلك إذن في عمل النار في القطن بما تقتضيه ذاتها أعني الإحراق .

وقد كان استعمال الإذن في العرف العام مختصاً بما إذا كان المأذون له من العناء لمكان أخذ معنى الإعلام في مفهومه فيقال : أذنت لفلان أن يفعل كذا ولا يقال : أذنت للنار أن تحرق ، ولا أذنت للفرس أن يعدو ، لكن القرآن الكريم يستعمله فيما يعم العقلاء وغيرهم بالتحليل كقوله : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ ، وقوله : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » الأعراف : ٥٨ ، ولا يبعد أن يكون هذا التعميم مبنياً على ما يفيد القرآن من سرعان العلم والإدراك في الموجودات كما قدمناه في تفسير قوله : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » حم السجدة : ٢١ .

وكيف كان فلا يتم عمل من عامل ولا تأثير من مؤثر إلا بإذن من الله سبحانه فما كان من الأسباب غير تام له موانع لو تحققت منعت من تأثيره فإذاً تعالى له في أن يؤثر رفعه

الموانع ، وما كان منها تاماً لا مانع له يمنع فإذنه له عدم جعله له شيئاً من الموانع فتأثيره يصاحب الإذن من غير انفكاك .

وثانياً: أن المصائب وهي الحوادث التي تصيب الإنسان فتؤثر فيه آثاراً سيئة مكروهة إنما تقع بإذن من الله سبحانه كما أن الحسنات كذلك لاستيعاب إذنه تعالى صدور كل أثر من كل مؤثر .

وثالثاً : أن هذا الإذن إذن تكويني غير الإذن التشريعي الذي هو رفع الحظر عن الفعل فإصابة المصيبة تصاحب إذناً من الله في وقوعها وإن كانت من الظلم الممنوع فإن كون الظلم ممنوعاً غير مآذون فيه إنما هو من جهة التشريع دون التكوين . ولذا كانت بعض المصائب غير جائزة الصبر عليها ولا مآذوناً في تحملها ويجب على الإنسان أن يقاومها ما استطاع كالمظالم المتعلقة بالأعراض والنفوس .

ومن هنا يظهر أن المصائب التي تدب إلى الصبر عندها هي التي لم يؤمر المصاب عندها بالذنب والامتناع عن تحملها كالمصائب العامة الكونية من موت ومرض بما لا شأن لاختيار الإنسان فيها ، وأما ما للاختيار فيها دخل كالمظالم المتعلقة نوع تعلق بالاختيار من المظالم المتوجهة إلى الأعراض فلإنسان أن يتوقاها ما استطاع .

وقوله : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » كان ظاهر سياق قوله : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله » يفيد أن الله سبحانه في الحوادث التي تسوء الإنسان علماً ومشية فليست تصيبه بمصيبة إلا بعد علمه تعالى ومشيته فليس لسبب من الأسباب الكونية أن يستقل بنفسه فيما يؤثره وإنما هو نظام الخلقة لا رب يملكه إلا خالقه فلا تحدث حادثة ولا تقع واقعة إلا بعلم منه ومشية فلم يكن ليخطئه ما أصابه ولم يكن ليصيبه ما أخطأه .

وهذه هي الحقيقة التي بينتها بلسان آخر في قوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » إن ذلك على الله يسير ، الحديد : ٢٢ . فالله سبحانه رب العالمين ولازم ربوبيته العمامة أنه وحده يملك كل شيء لا مالك بالحقيقة سواء ، والنظام الجاري في الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته في خلقه فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا عن إذن منه ، ولا يفعل فاعل ولا يقبل قابل إلا عن علم سابق منه ومشية لا يخطيء علمه ومشيته ولا يرد قضاؤه .

فالاذعان بكونه تعالى هو الله يستعقب اعتداء النفس إلى هذه الحقائق واطمئنان

القلب وسكونه وعدم اضطرابه وقلقه من جهة تعلقه بالأسباب الظاهرية وإسناده المصائب والنوائب المرّة اليها دون الله سبحانه .

وهذا معنى قوله تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .

وقيل : معنى الجملة : « ومن يؤمن بتوحيد الله ويصبر لأمر الله يهد قلبه للاسترجاع حق يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وفيه إدخال الصبر في معنى الإيمان .

وقيل : المعنى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه إلى مسأله أن يفعل فإن ابتلى صبر وإن أعطي شكر وإن ظلم غفر » ، وهذا الوجه قريب مما قدمناه .

وقوله : « والله بكل شيء عليم » تأكيد للاستثناء المتقدم ، ويمكن أن يكون إشارة إلى ما يفيدده قوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » الحديد : ٢٢ .

قوله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » ظاهر تكرار « أطيعوا » دون أن يقال : أطيعوا الله والرسول اختلاف المراد بالإطاعة ، فالمراد بإطاعة الله تعالى الانقياد له فيما شرعه لهم من شرائع الدين والمراد بإطاعة الرسول الانقياد له وامتنثال ما يأمر به بحسب ولايته للامة على ما جعلها الله له .

وقوله : « فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » التولي الإعراض ، والبلاغ التبليغ ، والمعنى : فإن أعرضتم عن إطاعة الله فيما شرع من الدين أو عن إطاعة الرسول فيما أمركم به بما أنه ولي أمركم ، فلم يكرهكم رسولنا على الطاعة فإنه لم يؤمر بذلك ، وإنما أمر بالتبليغ وقد بلغ .

ومن هنا يظهر أن أمر النبي ﷺ فيما وراء الأحكام والشرائع من تبليغ رسالة الله فأمره ونهيه فيما توليه من أمر الله ونهيه ، وطاعته فيها من طاعة الله تعالى كما يدل عليه إطلاق قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ . الظاهر في أن طاعة الرسول فيما يأمر وينهى مطلقاً مأذون فيه بإذن الله ، وإذنه في طاعته يستلزم علمه ومشيتته لطاعته ، وإرادة طاعة الأمر والنهي لإرادة لنفس الأمر والنهي فأمر النبي ﷺ ونهيه من أمر الله ونهيه وإن كان فيما وراء الأحكام والشرائع المجعولة له تعالى .

ولما تقدم من رجوع طاعة الرسول إلى طاعة الله التفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله :

« رسولنا » وفيه مع ذلك شيء من شائبة التهديد .

قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » في مقام التعليل لوجوب إطاعة الله على ما تقدم أن طاعة الرسول من طاعة الله ، توضيح ذلك أن الطاعة بمعنى الإنقياد والإلتزام للأمر والإنتهاء عن النهي من شؤون العبودية حيث لا أثر لملك المولى رقبة عبده إلا مالكيته لإرادته وعمله فلا يريد إلا ما يريد المولى أن يريده ولا يعمل إلا ما يريد المولى أن يعمل فإلطاعة نحو من العبودية كما يشير إليه قوله : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان » يس : ٦٠ ، يعاتبهم بعبادة الشيطان وإنما أطاعوه .

فطاعة المطيع بالنسبة إلى المطاع نوع عبادة له ، وإذ لا معبود إلا الله فلا طاعة إلا لله عز اسمه أو من أمر بطاعته فالمعنى : أطيعوا الله سبحانه إذ لا طاعة إلا لمعبود ولا معبود بالحق إلا الله فيجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به بطاعة غيره وعبادته كالشيطان وهوى النفس وهذا معنى كون الجملة في مقام التعليل .

وبما مر يظهر وجه تخصيص صفة الألوهية التي تفيد معنى المعبودية ، بالذكر دون صفة الربوبية فلم يقل : الله لا رب غيره .

وقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » تأكيد لمعنى الجملة السابقة أعني قوله : « الله لا إله إلا هو » .

توضيحه : أن التوكيل إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إدارة أموره ولازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكله وفعله مقام فعله فينطبق بوجه على الإطاعة فإن المطيع يجعل إرادته وعمله تبعاً لإرادة المطاع فتقوم إرادة المطاع مقام إرادته ويعود عمله متعلقاً لإرادة المطاع صادراً منها اعتباراً فترجع الإطاعة توكيلاً بوجه كما أن التوكيل إطاعة بوجه .

فإطاعة العبد لربه إتباع إرادته لإرادة ربه والإتيان بالفعل على هذا النمط وبعبارة أخرى إيثار إرادته وما يتعلق بها من العمل على إرادة نفسه وما يتعلق بها من العمل . فطاعته تعالى فيما شرع لعباده وما يتعلق بها نوع تعلق من التوكل عليه ، وطاعته واجبة لمن عرفه وآمن به فعلى الله فليتوكل المؤمنون وإياه فليطيعوا ، وأما من لم يعرفه ولم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعة .

وقد بان بما تقدم أن الإيمان والعمل الصالح نوع من التوكل على الله تعالى .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » الخ

« من » في « أزواجكم » للتبويض ، وسياق الخطاب بلفظ « يا أيها الذين آمنوا » وتعليق العداوة بهم يفيد التعليل أي أنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون ، والعداوة من جهة الإيمان لا تتحقق إلا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الإيمان أو عن الأعمال الصالحة كالإنفاق في سبيل الله والهجرة من دار الكفر أو أن يحملوهم على الكفر أو المعاصي الموبقة كالبلخل عن الإنفاق في سبيل الله شفقة على الأولاد والأزواج والغصب واكتساب المال من غير طريق حله .

فالله سبحانه يعد بعض الأولاد والأزواج عدواً للمؤمنين في إيمانهم حيث يحملونهم على ترك الإيمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقرار بعض الكبائر الموبقة وربما أطاعوهم في بعض ذلك شفقة عليهم وحباً لهم فأمرهم الله بالحذر منهم .

وقوله : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » قال الراغب : العفو القصد لتناول الشيء يقال : عفاه واعتفاه أي قصده متناولاً ما عنده - إلى أن قال - وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفاً عنه ، وقال : الصفح ترك التثريب وهو أبلغ من العفو ، ولذلك قال تعالى : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » وقد يعفو الإنسان ولا يصفح ، وقال : الغفر لباس ما يصونه عن الدنس ، ومنه قيل : اغفر ثوبك في الوعاء واصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب قال : « غفرانك ربنا » « ومغفرة من ربكم » « ومن يغفر الذنوب إلا الله » انتهى .

ففي قوله : « فاعفوا واصفحوا واغفروا » ندب إلى كمال الاغماض عن الأولاد والأزواج . إذا ظهر منهم شيء من آثار المعاداة المذكورة - مع الحذر من أن يفتتن بهم - .

وفي قوله : « فإن الله غفور رحيم » إن كان المراد خصوص مغفرته ورحمته للمخاطبين أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا كان وعداً جميلاً لهم تجاه عملهم الصالح كما في قوله تعالى : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » النور : ٢٢ .

وإن أريد مغفرته ورحمته العامتان من غير تقييد بمورد الخطاب أفاد أن المغفرة والرحمة من صفات الله سبحانه فإن عفوا وصفحوا وغفروا فقد اتصفوا بصفات الله وتخلقوا بأخلاقه .

قوله تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » الفتنة ما يبتلى ويمتحن

به ، وكون الأموال والبنين فتنة إنما هو لكونها زينة الحياة تنجذب اليها النفس انجذاباً فتفتن وتلهو بها عما يهملها من أمر آخرته وطاعة ربه ، قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » الكهف : ٤٦ .

والجملة كناية عن النهي عن التلهي بهما والتفريط في جنب الله باليأس اليها ويؤكد قوله : « والله عنده أجر عظيم » .

قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » الخ ، أي مبلغ استطاعتكم — على ما يفيد السياق فإن السياق سياق الدعوة والندب إلى السمع والطاعة والإنفاق والمجاهدة في الله — والجملة تفريع على قوله : « إنما أموالكم » الخ ، فالمعنى : اتقوه مبلغ استطاعتكم ولا تدعوا من الاتقاء شيئاً تسعه طاقتكم وجهدكم فتجري الآية مجرى قوله : « اتقوا الله حق تقاته » آل عمران : ١٠٢ ، وليست الآية ناظرة إلى نفي التكليف بالاتقاء فيما وراء الاستطاعة وفوق الطاقة كما في قوله : « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » البقرة : ٢٨٦ . وقد بان بما مر :

أولاً : أن لا منافاة بين الآيتين أعني قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » وقوله : « اتقوا الله حق تقاته » وأن الاختلاف بينهما كالاختلاف بالكمية والكيفية ، فقوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » أمر باستيعاب جميع الموارد التي تسعها الاستطاعة بالتقوى ، وقوله : « اتقوا الله حق تقاته » أمر بالتلبس في كل من موارد التقوى بحق التقوى دون شبحها وصورتها . وثانياً : فساد قول بعضهم : إن قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » ناسخ لقوله : « اتقوا الله حق تقاته » وهو ظاهر .

وقوله : « واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم » توضيح وتأكيد لقوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » والسمع الاستجابة والقبول وهو في مقام الالتزام القلبي ، والطاعة الانقياد وهو في مقام العمل ، والإنفاق المراد به بذل المال في سبيل الله .

و « خيراً لأنفسكم » منصوب بمحذوف — على ما في الكشف — والتقدير آمنوا خيراً لأنفسكم ، ويحتمل أن يكون « أنفقوا » مضمناً معنى قدّموا أو ما يقرب منه بقرينة المقام ، وفي قوله : « لأنفسكم » دون أن يقال : خيراً لكم زيادة تطيب لنفوسهم أي إن الإنفاق خير لكم لا ينتفع به إلا أنفسكم لما فيه من بسط أيديكم وسعة قدرتكم على رفع حوائج مجتمعكم .

وقوله : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » تقدم تفسيره في تفسير سورة الحشر .

قوله تعالى : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم » المراد بإقراض الله الإنفاق في سبيله سماء الله إقراضاً لله وسمى المال المنفق قرضاً حسناً حثاً وترغيباً لهم فيه .

وقوله : « يضاعفه لكم ويغفر لكم » إشارة إلى حسن جزائه في الدنيا والآخرة . والشكور والحليم وعالم الغيب والشهادة والمميز والحكيم خمسة من أسماء الله الحسنى تقدم شرحها ، ووجه مناسبتها لما أمر به في الآية من السمع والطاعة والإنفاق ظاهر .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » وذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامراته وقالوا : فنشدك الله أن تذهب عنا فنضيق بعمدك فمنهم من يطيع أهله فيقيم فحذرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاتهم عن طاعتهم ، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول : أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً . فلما جمع الله بينه وبينهم أمر الله أن يتوق بحسن وصله فقال : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن ابن عباس . وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » عن ابن مردويه عن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وآله : لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال . أقول : وروى مثله أيضاً عنه عن كعب بن عياض عنه عليه السلام .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وابن مردويه عن بريدة قال : كان النبي صلى الله عليه وآله يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قيصان أحمران يمشيان ويمثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق

وواحداً من ذا الشق تم صعد المنبر فقال : صدق الله قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت اليهما .

أقول : والرواية لا تخلو من شيء وأنى تنال الفتنة من النبي ﷺ وهو سيد الأنبياء المخلصين معصوم مؤيد بروح القدس .

وأفزع لحناً من هذا الحديث ما رواه عن ابن مردويه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب الناس على المنبر خرج الحسين بن علي فوطأ في ثوب كان عليه فسقط فبكى فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر .

فلما رأى الناس أسرعوا إلى الحسين يتعاطونه يعطيه بعضهم بعضاً حتى وقع في يد رسول الله ﷺ فقال : قاتل الله الشيطان إن الولد لفتنة ، والذي نفسي بيده ما دريت أني نزلت عن منبري .

ومثله ما عن ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال : سمع النبي ﷺ بكاء حسن أو حسين فقال النبي ﷺ الولد فتنة لقد قت إليه وما أعقل .
فألوجه طرح الروايات إلا أن تؤول .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع حدثنا سفيان بن مرة الهمداني عن عبد خير سألت علي بن أبي طالب عن قوله تعالى : « اتقوا الله سق تقاته » قال : والله ما عمل بها غير أهل بيت رسول الله ﷺ . نحن ذكرنا الله فلا ننساه ونحن شكرناه فلا ننكفراه ، ونحن أطمناه فلم نعصه .

فلما نزلت هذه قالت الصحابة : لا نطبق ذلك فأنزل الله : « فاتقوا الله ما استطعتم » الحديث .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن الفضل بن أبي مرة قال : رأيت أبا عبد الله عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول : اللهم وقني شح نفسي فقلت : جعلت فداك ما رأيتك تدعو بغير هذا الدعاء فقال : وأي شيء أشد من شح النفس ؟ إن الله يقول : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » .

* * *

(سورة الطلاق مدنية ، وهي اثنا عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ
لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ
وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ
يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ
أَمْرًا - ١ . فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ
بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا - ٢ . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا - ٣ .
وَاللَّائِي يَشْنَنُ مِنْ أَلْمَاحِضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ
أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأُنْحَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ
يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا - ٤ . ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا - ٥ . أَسْكِنُوهُنَّ
مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ
كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ

فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزِجْ
لَهُ أُخْرَى - ٦ . لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ
فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ
عُسْرٍ يُسْرًا - ٧ .

(بَيَان)

تتضمن السورة بيان كليات من أحكام الطلاق تعقبه عظة وإنذار وتبشير ، والسورة
مدنية بشهادة سياقها .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ » إلى
آخر الآية ، 'بُدىء الخطاب بنسباء النبي ﷺ لأنه الرسول إلى الأمة وإمامهم فيصلح
لخطابه أن يشملهم وأتباعه من أمته وهذا شائع في الاستعمال يخص مقدم القوم وسيدهم
بالنداء ويخاطب بما يعمله وقومه فلا موجب لقول بعضهم : إن التقدير يا أيها النبي قل
لامتك : إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ « الخ » .

وقوله : « إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ » أي إذا أردتم أن تطلقوا النساء وأشرفتم
على ذلك إذ لا معنى لتحقيق الطلاق بعد وقوع الطلاق فهو كقوله : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
فَاغْسِلُوا » الآية المائدة : ٦ .

والعدة قعود المرأة عن الزوج حتى تنقضي المدة المرتبسة شرعاً ، والمراد بتطليقهن
لعدتهن تطليقهن لزمان عدتهن بحيث يأخذ زمان العدة من يوم تحقق التطليقة وذلك بأن
تكون التطليقة في طهر لا واقعة فيه حتى تنقضي أقرؤها .

وقوله : « وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ » أي عدوها الأقرء التي تعتديها ، وهو الاحتفاظ عليها
لأن للمرأة فيها حق النفقة والسكنى على زوجها وللزوج فيها حق الرجوع .

وقوله : « وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ » ظاهر السياق كون « لَا تَخْرُجُوهُنَّ »
الخ ، بدلاً من « اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ » ويفيد ذلك تأكيد النهي في « لَا تَخْرُجُوهُنَّ » والمراد

ببيوتهن البيوت التي كن يسكنه قبل الطلاق أضيفت اليهن بعناية السكنى .
 وقوله : « ولا يخرجن » نهي عن خروجهن أنفسهن كما كان سابقه نهياً عن إخراجهن .
 وقوله : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » أي ظاهرة كالزنا والبذاء وإيذاء أهلها كما في
 الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقوله : « وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » أي الأحكام المذكورة
 للطلاق حدود الله حدتها أعمالكم ومن يتعد ويتجاوز حدود الله بأن لم يراعها وخالفها
 فقد ظلم نفسه أي عصى ربه .

وقوله : « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » أي أمراً يقضي بتغير الحال وتبدل
 رأي الزوج في طلاقها بأن يميل إلا الالتئام ويظهر في قلبه محبة حب الرجوع إلى
 سابق الحال .

قوله تعالى : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف - إلى
 قوله - واليوم الآخر » المراد من بلوغهن أجلهن اقتراهن من آخر زمان العدة وإشرافهن
 عليه ، والمراد بإمساكن الرجوع على سبيل الاستعارة ، وبفارقتهن تركهن ليخرجن من
 العدة وبين .

والمراد بكون الإمساك بمعروف حسن الصحبة ورعاية ما جعل الله لهن من الحقوق ،
 وبكون فراقهن بمعروف أيضاً استمرام الحقوق الشرعية فالتقدير بمعروف من الشرع .
 وقوله : « وأشهدوا ذوي عدو منكم » أي أشهدوا على الطلاق رجلين منكم صاحبي
 عدل ، وقد مر توضيح معنى العدل في تفسير سورة البقرة .

وقوله : « وأقيموا الشهادة لله » تقدم توضيحه في تفسير سورة البقرة .
 وقوله : « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » أي ما مر من الأمر بتقوى
 الله وإقامة الشهادة لله والنهي عن تعدي حدود الله أو مجموع ما مر من الأحكام والبحث
 إلى التقوى والإخلاص في الشهادة والزجر عن تعدي حدود الله يوعظ به المؤمنون ليركنوا
 إلى الحق وينقلعوا عن الباطل ، وفيه إيهام أن في الإعراض عن هذه الأحكام أو تغييرها
 خروجاً من الإيمان .

قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب - إلى
 قوله - قدرأ » أي « ومن يتق الله » ويتورع عن محارمه ولم يتعد حدوده واحترم

لشرائعه فعمل بها « يجعل له مخرجاً » من مضائق مشكلات الحياة فإن شريعته فطرية يهدي بها الله الإنسان إلى ما تستدعيه فطرته وتقضي به حاجته وتضمن سعاده في الدنيا والآخرة « ويرزقه » من الزوج والمال وكل ما يفتقر اليه في طيب عيشه وزكاة حياته « من حيث لا يحتسب » ولا يتوقع فلا يخف المؤمن أنه إن اتقى الله واحترم حدوده حرم طيب الحياة وابتلي بضنك المعيشة فإن الرزق مضمون والله على ما ضمنه قادر .

« ومن يتوكل على الله » باعتزاله عن نفسه فيما تهواه وتأمر به وإيثاره إرادة الله سبحانه على إرادة نفسه والعمل الذي يريده الله على العمل الذي تهواه وتريده نفسه وبعبارة أخرى تدين بدين الله وعمل بأحكامه « فهو حسب » أي كافية فيما يريده من طيب العيش ويتمناه من السعادة بفطرته لا بواهمة الكاذبة .

وذلك أنه تعالى هو السبب الأعلى الذي تنتهي اليه الأسباب فإذا أراد شيئاً فعله وبلغ ما أراد من غير أن تتغير إرادته فهو القائل : « ما يبدل القول لدي » ق : ٢٩ ، أو يحول بينه وبين ما أراد مانع فهو القائل : « والله يحكم لا معقب لحكمه » الرعد : ٤١ ، وأما الأسباب الأخر التي يتشبث بها الإنسان في رفع حوائجه فإنما تلك من السببية ما ملكها الله سبحانه وهو المالك لما ملكها والقادر على ما عليه أقدرها ولها من الفعل مقدار ما أذن الله فيه .

فالله كاف لمن توكل عليه لا غيره « إن الله بالغ أمره » يبلغ حيث أراد ، وهو القائل : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » « قد جعل الله لكل شيء قدراً » فما من شيء إلا له قدر مقدور وحد محدود والله سبحانه لا يحدّه حد ولا يحيط به شيء وهو المحيط بكل شيء .

هذا هو معنى الآية بالنظر إلى وقوعها في سياق آيات الطلاق وانطباقها على المورد .

وأما بالنظر إلى إطلاقها في نفسها مع الغض عن السياق الذي وقعت فيه فقوله : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » مفاده أن من اتقى الله بحقيقة معنى تقواه ولا يتم ذلك إلا بعرفته تعالى بأسمائه وصفاته ثم تورعه واثقاؤه بالاجتناب عن المحرمات وتحرز ترك الواجبات خالصاً لوجهه الكريم ، ولازمه أن لا يريد إلا ما يريده الله من فعل أو ترك ، ولازمه أن يستهلك إرادته في إرادة الله فلا يصدر عنه فعل إلا عن إرادة من الله .

ولازم ذلك أن يرى نفسه وما يترتب عليها من سمة أو فعل ملكاً طلقاً لله سبحانه يتصرف فيها بما يشاء وهو ولاية الله يتولى أمر عبده فلا يبقى له من الملك بحقيقة معناه شيء إلا ما ملكه الله سبحانه وهو المالك لما ملكه والملك لله عز اسمه .

وعند ذلك ينجيه الله من مضيق الوهم وسجن الشرك بالتعلق بالأسباب الظاهرية « ويجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » أما الرزق المادي فإنه كان يرى ذلك من عطايا سعيه والأسباب الظاهرية التي كان يطمئن إليها وما كان يعلم من الأسباب إلا قليلاً من كثير كقبس من نار يضيء للإنسان في الليلة الظلماء موضع قدمه وهو غافل عما وراءه ، لكن الله سبحانه محيط بالأسباب وهو الناظم لها ينظمها كيف يشاء ويأذن في تأثير ما لا علم له به من خباياها .

وأما الرزق المعنوي الذي هو حقيقة الرزق الذي يعيش به النفس الإنسانية وتبقى فهو مما لم يكن يحتسبه ولا يحتسب طريق وروده عليه .

وبالجملة هو سبحانه يتولى أمره ويخرجه من مهبط الهلاك ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولا يفقد من كماله والنعم التي كان يرجو نيلها بسعيه شيئاً لأنه توكل على الله وفوض إلى ربه ما كان لنفسه « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » دون سائر الأسباب الظاهرية التي تخطيء تارة وتصيب أخرى « إن الله بالغ أمره » لأن الأمور محدودة محاطة له تعالى و« قد جعل الله لكل شيء قدراً » فهو غير خارج عن قدره الذي قدره به . وهذا نصيب الصالحين من الأولياء من هذه الآية .

وأما من هو دونهم من المؤمنين المتوسطين من أهل التقوى النازلة درجاتهم من حيث المعرفة والعمل فلهم من ولاية الله ما يلائم حالهم في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وقد قال تعالى وأطلق : « والله ولي المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال وأطلق : « والله ولي المتقين » الجاثية : ١٩ .

وتدبيرهم بدين الحق وهي سنة الحياة وورودهم وصدورهم في الأمور عن إرادته تعالى هو تقوى الله والتوكل عليه بوضع إرادته تعالى موضع إرادة أنفسهم فينالون من سعادة الحياة بحسبه ويجعل الله لهم مخرجاً ويرزقهم من حيث لا يحتسبون ، وحسبهم ربهم فهو بالغ أمره وقد جعل لكل شيء قدراً .

وعليهم من حرمان السعادة قدر ما دب من الشرك في إيمانهم وعملهم وقد قال تعالى :

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ ، وقال وأطلق : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » النساء : ٤٨ .

وقال : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً » طه : ٨٢ ، أي لمن تاب من الشرك وقال وأطلق : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » المزمل : ٢٠ .

فلا يرقى المؤمن إلى درجة من درجات ولاية الله إلا بالتوبة من خفي الشرك الذي دونها .

والآية من غرر الآيات القرآنية والمفسرين في جملها كلمات متشقة أضربنا عنها .

قوله تعالى : « واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر » المراد بالارتباب الشك في يأسهن من المحيض أهو لكبر أم لمعارض ، فالمعنى : واللائي يئسن من المحيض من نسائكم وشككنكم في أمر يأسهن أهو لبلوغ سنهن سن اليأس أم لمعارض فعدتهن ثلاثة أشهر .

وقوله : « واللائي لم يحضن » عطف على قوله : « واللائي يئسن » النخ ، والمعنى : واللائي لم يحضن وهو في سن من تحيض فعدتهن ثلاثة أشهر .

وقوله : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » أي منتهى زمان عدتهن وضع الحمل .

وقوله : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » أي يسهل عليه ما يستقبله من الشدائد والمشاق ، وقيل : المراد أنه يسهل عليه أمور الدنيا والآخرة إما بفرج عاجل أو عوض آجل .

قوله تعالى : « ذلك أمر الله أنزله اليكم » أي ما بيئته في الآيات المتقدمة حكم الله أنزله اليكم ، وفي قوله : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » دلالة على أن اتباع الأوامر من التقوى كاجتناب المحرمات ولعله باعتبار أن امتثال الأمر يلزم اجتناب تركه .

وتكفير السيئات سترها بالمغفرة ، والمراد بالسيئات المعاصي الصغيرة فيبقى للتقوى كبائر المعاصي ، ويكون مجموع قوله : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » في معنى قوله : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا »

كريباً ، النساء : ٣١ ، ومن الآيتين يظهر أن المراد بالمحارم في قوله **عَلَيْكُمْ** في تعريف التقوى : أنها الورع عن محارم الله المعاصي الكبيرة .
ويظهر أيضاً أن مخالفة ما أنزله الله من الأمر في الطلاق والعدة من الكبائر إذ التقوى المذكورة في الآية تشمل ما ذكر من أمر الطلاق والعدة لا محالة فهو غير السيئات المكفرة وإلا اختل معنى الآية .

قوله تعالى : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم » إلى آخر الآية ، قال في المفردات : وقوله تعالى : « من وجدكم » أي تمكّنكم وقدر غناكم ، ويعبر عن الفنى بالوجدان والجدّة ، وقد حكي فيه الوجد والوجد والوجد - بالحركات الثلاث في الواو - انتهى .

وضمير « هن » للمطلقات على ما يؤيده السياق ، والمعنى : أسكنوا المطلقات من حيث سكنتم من المساكن على قدر تمكّنكم وغناكم على الموسر قدره وعلى المعسر قدره .
وقوله : « ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن » أي لا توجهوا اليهن ضرراً يشق عليهن تحمله من حيث السكنى والكسوة والنفقة لتوردوا الضيق والخرج عليهن .
وقوله : « وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » معناه ظاهر .
وقوله : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن » فلهن عليكم أجر الرضاعة وهو من نفقة الولد التي على الوالد .

وقوله : « واثمروا بينكم بمعروف » الاثمار بشيء تشاور القوم فيه بحيث يأمر بعضهم فيه بعضاً ، وهو خطاب للرجل والمرأة أي تشاوروا في أمر الولد وتوافقوا في معروف من العادة بحيث لا يتضرر الرجل بزيادة الأجر الذي ينفقه ولا المرأة بنقيصته ولا الولد بنقص مدة الرضاع إلى غير ذلك .

وقوله : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » أي وإن أراد كل منكم من الآخر ما فيه عسر واختلقتم فسترضع الولد امرأة أخرى أجنبية غير والدته أي فليسترضع الولد غير والدته الصبي .

قوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته » الإنفاق من سعة هو التوسعة في الإنفاق وهو أمر لأهل السعة بأن يوسعوا على نسائهم المطلقات المرضعات أولادهم .
وقوله : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » قدر الرزق ضيقه ، والإيتاء

الإعطاء ، والمعنى : ومن ضاق عليه رزقه وكان فقيراً لا يتمكن من التوسع في الإنفاق فلينفق على قدر ما أعطاه الله من المال أي فلينفق على قدر تمكنه .
 وقوله : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » أي لا يكلف الله نفساً إلا بقدر ما أعطاه من القدرة فالجملة تنفي الحرج من التكاليف الإلهية ومنها إنفاق المطلقة .
 وقوله : « سيجعل الله بعد عسر يسراً » فيه بشرى وتسلية .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت سورة النساء القصرى بعد التي في البقرة بسبع سنين .

أقول : سورة النساء القصرى هي سورة الطلاق .

وفيه أخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ثم يمسه حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » وقرأ النبي ﷺ : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن » .

أقول : قوله : « في قبل عدتهن » قراءة ابن عمر وما في المصحف « لعدتهن » .

وفيه أخرج ابن المنذر عن ابن سيرين في قوله : « لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » قال : في حفصة بنت عمر طلقها النبي ﷺ واحدة فنزلت « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء - إلى قوله - يحدث بعد ذلك أمراً » قال : فراجعها .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر ﷺ أنه قال : كل طلاق لا يكون على السنة أو على العدة فليس بشيء . قال زرارة فقلت لأبي جعفر ﷺ : فسنري طلاق السنة وطلاق العدة فقال : أمّا طلاق السنة فإذا أراد الرجل أن يطلق امرأته فينتظر بها حتى تطمئ وتطهر فإذا خرجت من طمئها طلقها تطليقة من غير جماع .

ويشهد شاهدين على ذلك ثم يدعها حتى تطمئطمئين فتتقضي عدتها بثلاث حيض وقد بانث منه ويكون خاطباً من الخطاب إن شاءت تزوجته وإن شاءت لم تزوجه ، وعليه نفقتها والسكنى ما دامت في مدتها ، وهما يتوارثان حتى تنقضي العدة .

قال : وأما طلاق العدة الذي قال الله تعالى : « فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة » فإذا أراد الرجل منكم أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض وتخرج من حيضتها ثم يطلقها تطليقة من غير جماع ويشهد شاهدين عدلين ويراجعها من نومه ذلك إن أحب أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض ويشهد على رجعتها ويواقعها وتكون معه حتى تحيض فإذا حاضت وخرجت من حيضها طلقها تطليقة أخرى من غير جماع ويشهد على ذلك ثم يراجعها أيضاً متى شاء قبل أن تحيض ويشهد على رجعتها ويواقعها وتكون معه إلى أن تحيض الحيضة الثالثة فإذا خرجت من حيضتها الثالثة طلقها التطليقة الثالثة بغير جماع ويشهد على ذلك فإذا فعل ذلك فقد بانث منه ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره . قيل له : فإن كانت ممن لا تحيض ؟ قال : مثل هذه تطلق طلاق السنة .

وفي قرب الأسناد بإسناده عن صفوان قال : سمعت يعني أبا عبد الله وجاء رجل فسأله فقال : إني طلقت امرأتي ثلاثاً في مجلس فقال : ليس بشيء . ثم قال : أما تقرأ كتاب الله تعالى « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

ثم قال : ألا تدري « لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » ثم قال : كلما خالف كتاب الله والسنة فهو يرد إلى كتاب الله والسنة .

وفي تفسير القمي في معنى قوله : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » قال : لا يحل لرجل أن يخرج امرأته إذا طلقها - وكان له عليها رجعة - من بيته وهي لا تحل لها أن تخرج من بيته إلا أن يأتين بفاحشة مبينة .

ومعنى الفاحشة أن تزني أو تسرق على الرجل ، ومن الفاحشة أيضاً السلاطة على زوجها فإن فعلت شيئاً من ذلك حل له أن يخرجها .

وفي الكافي بإسناده عن وهب بن حفص عن أحدهما عليها السلام في المطلقة تعتد في بيتها ، وتظهر له زينتها لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

أقول : وفي هذه المعاني ومعاني جمل الآيتين روايات أخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وفيه بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً : من أعطي الدعاء أعطي الإجابة ، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة ، ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية .

قال : أتلوت كتاب الله عز وجل ؟ « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال : « ولئن شكرتم لأزيدنكم » وقال : « ادعوني أستجب لكم » .

وفيه بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » قال : في دنياه .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سالم بن أبي الجعد قال : نزلت هذه الآية : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » في رجل من أشجع أصابه جهد وبلاء وكان العدو أسروا ابنه فأتى النبي صلى الله عليه وآله فقال : اتق الله واصبر ، فرجع ابن له كان أسيراً قد فكاه الله فأقام وقد أصاب أعزاً فجاء فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فنزلت فقال النبي صلى الله عليه وآله : هي لك .

وفيه أخرج أبو يعلى وأبو نعيم والديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » قال : من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة .

وفيه أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يتلو هذه الآية « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » فجعل يرددها حتى نعست . ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتمهم .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والخطيب عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من انقطع إلى الله كفافه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال : من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله .

أقول : وقد تقدم في ذيل الكلام على الآيات معنى هذه الروايات .
وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : عدة المرأة التي لا تحيض والمستحاضة التي لا تطهر ثلاثة أشهر ، وعدة التي تحيض ويستقيم حيضها ثلاثة قروء ، وسأله عن قول الله عز وجل : « إن ارتبتم » ما الريبة ؟ فقال : ما زاد على شهر فهو ريبة فلتعتد ثلاثة أشهر وليترك الحيض . الحديث .

وفيه بإسناده عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال : عدة الحامل أن تضع حملها وعليه نفقتها بالمعروف حتى تضع حملها .

وفيه بإسناده عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إذا طلق الرجل المرأة وهي حبلى أنفق عليها حتى تضع حملها فإذا وضعتها أعطاها أجرها ولا تضارها إلا أن يجد من هي أرخص أجراً منها فإن رضيت بذلك الأجر فهي أحق بابنها حتى تفضمه .

وفي الفقيه بإسناده عن ربعي بن عبد الله والفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » قال : إن أنفق عليها ما يقيم ظهرها مع الكسوة وإلا فرق بينهما .

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن أبي بصير عنه عليه السلام .

وفي تفسير القمي في قوله : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » قال : المطلقة الحامل أجلهن أن تضع ما في بطنها إن وضعت يوم طلقها زوجها فلها أن تتزوج إذا طهرت ، وإن تضع ما في بطنها إلى تسعة أشهر لم تتزوج إلا أن تضع .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن عليه السلام قال : سأله عن الحبلى إذا طلقها زوجها فوضعت سقطاً تمّ أو لم يتمّ أو وضعت مضغة ؟ قال : كل شيء وضعت يستبين أنه حمل تمّ أو لم يتمّ فقد انقضت عدتها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن مغيرة قال : قلت للشعبي : ما أصدق أن علي ابن أبي طالب كان يقول : عدة المتوفى عنها زوجها آخر الأجلين .

قال : بلى فصدق به كأشد ما صدقت بشيء كان علي يقول : إنما قوله : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » في المطلقة .

وفيه أخرج عبد الرزاق عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع علي إلى اليمن فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها ، وأمر لها الحارث بن هشام وعباس بن أبي ربيعة بنفقة فاستقلتها فقالا لها والله ما لك نفقة إلا أن تكوني حاملاً فأنت النبي ﷺ فذكرت له أمرها فقال لها النبي ﷺ : لا نفقة لك فاستأذنته في الانتقال فأذن لها .

فأرسل إليها مروان يسألها عن ذلك فحدثته فقال مروان : لم أسمع بهذا الحديث إلا من امرأة سناخذ بالمصمة التي وجدنا الناس عليها فقالت فاطمة : بيني وبينكم كتاب الله قال الله عز وجل : « ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » حتى بلغ « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » قالت : هذا لمن كانت له مراجعة فأمر يحدث بعد الثلاث؟ فكيف تقولون : لا نفقة إذا لم تكن حاملاً؟ فعلام تحبسونها؟

ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيض ، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملاً فعدتها أن تضع حملها وإن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد على ذلك رجلين كما قال الله : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » عند الطلاق وعند المراجعة .

فإن راجعها فهي عنده على طليقتين وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت عدتها منه بواحدة وهي أملك لنفسها ثم تزوج من شاءت هو أو غيره .

* * *

وَكَأَيُّنَ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا — ٨ . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا — ٩ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا — ١٠ . رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ
اللَّهُ لَهُ رِزْقًا - ١١ . اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ
اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا - ١٢ .

(بيان)

موعظة وإنذار وتبشير تؤكد التوصية بالتمسك بما شرع الله لهم من الأحكام ومن
جملتها ما شرعه من أحكام الطلاق والعدة ولم يوص القرآن الكريم ولا أكد في التوصية في
شيء من الأحكام المشرعة كما وصى وأكد في أحكام النساء ، وليس إلا لأن لها نبأ .

قوله تعالى : « وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً
وعذبناها عذاباً نكراً » قال الراغب : العتو الثبوء عن الطاعة انتهى . فهو قريب المعنى
من الاستكبار ، وقال : النكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف انتهى . والمراد
بالنكر في الآية المعنى الثاني ، وفي المجمع النكر المنكر الفظيع الذي لم ير مثله انتهى .

والمراد بالقرية أهلها على سبيل التجوز كقوله : « واسأل القرية » يوسف : ٨٢ ، وفي
قوله : « عنت عن أمر ربها ورسله » إشارة إلى أنهم كفروا بالله سبحانه بالشرك وكفروا
كفراً آخر برسوله بتكذيبهم في دعوتهم . على أنهم كفروا بالله تعالى في ترك شرائعه المشرعة
وكفروا برسوله فيما أمروا به بولايتهم لهم كما مر نظيره في قوله : « وأطيعوا الله وأطيعوا
الرسول فإن توليتم فلإنما على رسولنا البلاغ المبين » التغابن : ١٢ .

وشدة الحساب المناقشة فيه والاستقصاء لتوفية الأجر كما هو عليه ، والمراد به حساب
الدنيا غير حساب الآخرة والدليل على كونه حساب الدنيا قوله تعالى : « وما أصابكم من
مصيبة فيها كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » الشورى : ٣٠ ، وقوله : « ولو أن أهل القرى

آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ، الأعراف : ٩٦ .

فما يصيب الإنسان من مصيبة - وهي المصيبة في نظر الدين - هو حاصل بحاسبة أعماله والله يعفو عن كثير منها بالمساحة والمساهلة في المحاسبة غير أنه تعالى يحاسب العاتين المستكبرين عن أمره ورسله حساباً شديداً بالمنقشة والاستقصاء والتثريب فيعذبهم عذاباً نكراً .

والمعنى : وكمن أهل قرية عتوا واستكبروا عن أمر ربهم ورسله فلم يطيعوا الله ورسله فحاسبناهم حساباً شديداً ناقشنا فيه واستقصيناه ، وعذبناهم عذاباً صعباً غير معهود وهو عذاب الاستئصال في الدنيا .

وما قيل : إن المراد به عذاب الآخرة ، والتعبير بالفعل الماضي للدلالة على تحقق الوقوع غير سديد .

وفي قوله : « فحاسبناهم حساباً شديداً وعذبناهم » التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ، ونكتته الدلالة على العظمة .

قوله تعالى : « فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » المراد بأمرها عتوها واستكبارها ، والمعنى : فأصابتهم عقوبة عتوهم وكان عاقبة عتوهم خساراً كأنهم اشتروا العتو بالطاعة فانتهى إلى أن خسروا .

قوله تعالى : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » هذا جزاؤهم في الآخرة كما كان ما في قوله : « فحاسبناهم حساباً شديداً وعذبناهم عذاباً نكراً » فذاقت وبال أمرها ، جزاءهم في الدنيا .

والفضل في قوله : « أعد الله لهم » النخ ، لكونه في مقام دفع الدخيل كأنه لما قيل : « وكان عاقبة أمرها خسراً » ، قيل : ما المراد بخسرهم ؟ ف قيل : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » .

قوله تعالى : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله اليكم ذكراً » استنتاج مما تقدم خوطب به المؤمنون ليأخذوا حذرهم ويقوا أنفسهم أن يعتوا عن أمر ربهم ويطغوا عن طاعته فيبتلوا بوبال عتوهم وخسران عاقبتهم كما ابتليت بذلك القرى الهالكة . وقد وصف المؤمنين بأولي الألباب فقال : « اتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا »

استعداداً من عقولهم على ما يريد من التقوى فإنهم لما سمعوا أن قوماً عتو عن أمر ربهم فحوسبوا حساباً شديداً وعذبوا عذاباً نكراً وكان عاقبة أمرهم خسراً ثم سمعوا أن ذلك تكرر مرة بعد مرة وأباد قوماً بعد قوم ، قضت عقولهم بأن العتو والاستكبار عن أمر الله تعرض لشديد حساب الله ومنكر عذابه فتنبههم وتبعثهم إلى التقوى وقد أنزل الله اليهم ذكراً يذكرهم به ما لهم وما عليهم ويهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

قوله تعالى : « رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات » الخ ، عطف بيان أو بدل من « ذكراً » فالمراد بالذكر الذي أنزله هو الرسول سمي به لأنه وسيلة التذكير بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق ، والمراد بالرسول محمد ﷺ على ما يؤيده ظاهر قوله : « يتلو عليكم آيات الله مبينات » الخ .

وعلى هذا فالمراد بإنزال الرسول بعثه من عالم الغيب وإظهاره لهم رسولاً من عنده بعد ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ .

وقد دعى ظهور الإنزال في كونه من السماء بعضهم كصاحب الكشف إلى أن فسر « رسولاً » بجبريل ويكون حينئذ معنى تلاوته الآيات عليهم تلاوته على النبي ﷺ بما أنه متبوع لقومه ووسيلة الإبلاغ لهم لكن ظاهر قوله : « يتلو عليكم » الخ ، خلاف ذلك . ويحتمل أن يكون « رسولاً » منصوباً بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولاً يتلو عليكم آيات الله ، ويكون المراد بالذكر المنزل اليهم القرآن أو ما بين فيه من الأحكام والمعارف .

وقوله : « ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور » تقدم تفسيره في نظائره .

وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً » وعد جميل وتبشير .

وقوله : « قد أحسن الله له رزقاً » وصف لإحسانه تعالى اليهم فيما رزقهم به من الرزق والمراد بالرزق ما رزقهم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا والجنة في الآخرة ، وقيل المراد به الجنة .

قوله تعالى : « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » الخ ، بيان يتأكد به ما تقدم في الآيات من حديث ربوبيته تعالى وبعثه الرسول وإنزاله

الذكر ليطيعوه فيه وأن في تمرده ومخالفته الحساب الشديد والعذاب الأليم وفي طاعته الجنة الخالدة كل ذلك لأنه قدير عليم .

فقوله : « الله الذي خلق سبع سماوات » تقدم بعض الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة .

وقوله : « ومن الأرض مثلن » ظاهره المثلية في العدد ، وعليه فالمعنى : وخلق من الأرض سبعاً كما خلق من السماء سبعاً فهل الأرضون السبع سبع كرات ، من نوع الأرض التي نحن عليها والتي نحن عليها إحداها ؟ أو الأرض التي نحن عليها سبع طبقات محيطة بعضها ببعض والطبقة العليا بسيطها الذي نحن عليه ؟ أو المراد الأقاليم السبعة التي قسموا إليها المعمور من سطح الكرة ؟ وجوه ذهب إلى كل منها جمع وربما لاح بالرجوع إلى ما تقدم في تفسير سورة حم السجدة محتمل آخر غيرها .

وربما قيل : إن المراد بقوله : « ومن الأرض مثلن » أنه خلق من الأرض شيئاً هو مثل السماوات السبع وهو الإنسان المركب من المادة الأرضية والروح السماوية التي فيها نماذج سماوية ملكوتية .

وقوله : « يتنزل الأمر بينهن » الظاهر أن الضمير للسماوات والأرض جميعاً والأمر هو الأمر الإلهي الذي فسرهُ بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يس : ٨٣ ، وهو كلمة الإيجاد ، وتنزله هو أخذه بالنزول من مصدر الأمر إلى سماء بعد سماء حتى ينتهي إلى العالم الأرضي فيتكوّن ما قصد بالأمر من عين أو أثر أو رزق أو موت أو حياة أو عزة أو ذلة أو غير ذلك قال تعالى : « وأوحى في كل سماء أمرها » حم السجدة : ١٢ ، وقال : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ألم السجدة : ٥ .

وقيل : المراد بالأمر الأمر التشريعي يتنزل ملائكة الوحي به من السماء إلى النبي وهو بالأرض . وهو تخصيص من غير تخصص وذيل الآية « لتعلموا أن الله » الخ ، لا يلائمه .

وقوله : « أن الله على كل شيء قدير » وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، من الغايات المترتبة على خلقه السماوات السبع ومن الأرض مثلن وتنزيله الأمر بينهن ، وفي ذلك انتساب الخلق والأمر إليه واختصاصها به فإن المتفكر في ذلك لا يرتاب في قدرته على كل

شيء وعلمه بكل شيء فليتنق مخالفته أمره أولوا الألباب من المؤمنين فإن سنة هذا القدير العالم تجري على إثابة المطيعين لأوامره ، وبجازاة العاتين المستكبرين وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وكأين من قرية » قال : أهل القرية .
وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا عليه السلام في حديث المأمون قال : الذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن أهله وذلك بين في كتاب الله حيث يقول في سورة الطلاق : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله عليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات » قال : فالذكر رسول الله ونحن أهله .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت له : أخبرني عن قول الله عز وجل : « والسماء ذات الحجب » فقال : هي محبوبة إلى الأرض وشبك بين أصابعه فقلت : كيف تكون محبوبة إلى الأرض والله يقول : رفع السماوات بغير عمد ترونها ؟ فقال : سبحان الله أليس الله يقول : بغير عمد ترونها ؟ قلت : بلى . قال : فعمد ولكن لا ترونها .

قلت : فكيف ذلك جعلني الله فداك ؟ قال : فبسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال : هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة ، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة ، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة ، والأرض الرابعة فوق السماء الثالثة والسماء الرابعة فوقها قبة ، والأرض الخامسة فوق السماء الرابعة والسماء الخامسة فوقها قبة ، والأرض السادسة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق السماء السابعة وهو قول الله عز وجل : الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما .

فأما صاحب الأمر فهو رسول الله صلى الله عليه وآله والوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضين .

قلت : فما تحتنا إلا أرض واحدة ؟ فقال : ما تحتنا إلا أرض واحدة وإن الست
لهن (هي) فوقنا .

أقول : وعن الطبرسي عن العياشي عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام مثله .
والحديث نادر في بابيه ، وهو وخاصة ما في ذيله من تنزل الأمر أقرب إلى الحمل على
المعنى منه إلى الحمل على الصورة والله أعلم .

* * *

(سورة التحريم مدنية ، وهي اثنتا عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ
لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ — ١ . قَدْ فَرَضَ
اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ — ٢ . وَإِذْ
أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ
عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ
هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ — ٣ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ
قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ — ٤ . عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ
أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَائِمَاتٍ ثَابِتَاتٍ
عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا — ٥ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا
أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظُ

شِدَادُ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ - ٦ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ٧ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - ٨ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ - ٩ .

(بيات)

مركز تحقيق كتاب توطير علوم اسلامی

تبدأ السورة بالإشارة إلى ما جرى بين النبي ﷺ وبين بعض أزواجه من قصة التحريم فبعثت النبي ﷺ بتحريمه ما أحل الله له ابتغاء لمرضاة بعض أزواجه ومرجعه إلى عتاب تلك البعض والانتصار له ﷺ كما يدل عليه سياق الآيات .

ثم مخاطب المؤمنين أن يقوا أنفسهم من عذاب الله النار التي وقودها الناس والحجارة وليسوا يجزؤون إلا بأعمالهم ولا مخلص منها إلا للنبي والذين آمنوا معه ثم مخاطب النبي بجهاد الكفار والمنافقين .

وتختتم السورة بضربه تعالى مثلاً من النساء للكفار ومثلاً منهن للمؤمنين . وظهور السياق في كون السورة مدنية لا ريب فيه .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » خطاب مشوب بعتاب لتحريمه ﷺ لنفسه بعض ما أحل الله له ، ولم يصرح تعالى به ولم يبين أنه ما هو ؟ وماذا كان ؟ غير أن قوله : « تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ » يومي

أنه كانت عملاً من الأعمال المحللة التي يقترفها النبي ﷺ لا ترتضيه أزواجه فضيقتن عليه وآذينه حتى أراضاهن بالحلف على أن يتركه ولا يأتي به بعد .

فقوله : « يا أيها النبي » علق الخطاب والنداء بوصف النبي دون الرسول لاختصاصه به في نفسه دون غيره حتى يلائم وصف الرسالة .

وقوله : « لم تحرم ما أحل الله لك » المراد بالتحريم التسبب إلى الحرمة بالحلف على ما تدل عليه الآية التالية فإن ظاهر قوله : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » الخ ، أنه ﷺ حلف على ذلك ومن شأن اليمين أن يوجب عروض الوجوب إن كانت الحلف على الفعل والحرمة وإن كان الحلف على الترك ، وإذ كان ﷺ حلف على ترك ما أحل الله له فقد حرم ما أحل الله له بالحلف .

وليس المراد بالتحريم تشريعه ﷺ على نفسه الحرمة فيما شرع الله له فيه الحليلة فليس له ذلك .

وقوله : « تبتغي مرضاة أزواجك » أي تطلب بالتحريم رضاهن بدل من « تحرم » الخ ، أو حال من فاعله ، والجملة قرينة على أن العتاب بالحقيقة متوجه اليهن ، ويؤيده قوله خطاباً لهما : « إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكما » الخ ، مع قوله فيه : « والله غفور رحيم » .

قوله تعالى : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم » قال الراغب : كل موضع ورد فرض الله عليه ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه ، وما ورد من فرض الله له فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » وقوله : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » . انتهى . والتحلة أصلها تحللة على وزن تذكرة وتكرمة مصدر كالتحليل ، قال الراغب : وقوله عز وجل : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » أي بين ما تحل به عقدة أيمانكم من الكفارة .

فالمنى : قد قدر الله لكم - كأنه قدره نصيباً لهم حيث لم يمنهم عن حل عقدة اليمين - تحليل أيمانكم بالكفارة والله وليكم الذي يتولى تدبير أموركم بالتشريع والهداية وهو العليم الحكيم .

وفي الآية دلالة على أن النبي ﷺ كان قد حلف على الترك ، وأمر له بتحلة يمينه .

قوله تعالى : « وإذ أمر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله

عليه قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير، السر هو الحديث الذي تكتمه في نفسك وتخفيه، والإسرار إفضاؤك الحديث إلى غيرك مع إيصائك بإخفائه، وضمير «نبأت» لبعض أزواجه، وضمير «به» للحديث الذي أسره النبي ﷺ إليها، وضمير «أظهره» للنبي ﷺ، وضمير «عليه» لإنباؤها به غيرها وإفشاؤها السر، وضمير «عرف وأعرض» للنبي ﷺ، وضمير «بعضه» للحديث، والإشارة بقوله: «هذا» لإنباؤها غيره وإفشاؤها السر.

ومحصل المعنى: وإذا أفضى النبي إلى بعض أزواجه - وهي حفصة بنت عمر بن الخطاب - حديثاً وأوصاها بكتمانه فلما أخبرت به غيرها وأفشت السر خلافاً لما أوصاها به، وأعلم الله النبي ﷺ أنها نبأت به غيرها وأفشت السر عرف وأعلم بعضه وأعرض عن بعض آخر، فلما خبرها النبي ﷺ بالحديث قالت للنبي ﷺ: من أنبأك وأخبرك أني نبأت به غيري وأفشيت السر؟ قال النبي ﷺ: نبأني وخبرني العليم الخبير وهو الله العليم بالسر والعلانية الخبير بالسرائر.

قوله تعالى: «إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير» أي إن تتوبا إلى الله فقد تحقق منك ما يستوجب عليك التوبة وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه، الخ. وقد اتفق النقل على أنها عائشة وحفصة زوجا رسول الله ﷺ.

والصغو الميل والمراد به الميل إلى الباطل والخروج عن الاستقامة وقد كان ما كان منها من إيذائه والتظاهر عليه ﷺ من الكبائر وقد قال تعالى: «إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً» الأحزاب: ٥٧، وقال: «والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم» التوبة: ٦١.

والتعبير بقلوبكما وإرادة معنى التثنية من الجمع كثير النظير في الاستعمال.

وقوله: «إن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه» الخ، التظاهر التعاوان، وأصل «إن تظاهرا» وإن تظاهرا، وضمير الفصل في قوله: «فإن الله هو مولاه» للدلالة على أن الله سبحانه عناية خاصة به ﷺ ينصره ويتولى أمره من غير واسطة من خلقه، والمولى الولي الذي يتولى أمره وينصره على من يريد به سوء.

و«جبريل» عطف على لفظ الجلالة، و«صالح المؤمنين» عطف كجبريل، والمراد

بصالح المؤمنين على ما قيل الصلحاء من المؤمنين فصالح المؤمنين واحد أريد به الجمع كقولك : لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد به الجنس كقولك لا يفعله من صلح منه ومثله قولك : كنت في السامر والحاضر .

وفيه قياس المضاف إلى الجمع إلى مدخول اللام فظاهر صالح المؤمنين غير ظاهر « الصالح من المؤمنين » .

ووردت الرواية من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بصالح المؤمنين علي عليه أفضل السلام ، ومستوفيك إن شاء الله .

وفي المراد منه أقوال أخر أغمضنا عنها لعدم دليل عليها .

وقوله : « والملائكة بعد ذلك ظهير » أفراد الخبر للدلالة على أنهم متفقون في نصره متحدون صفاً واحداً ، وفي جعلهم بعد ذلك أي بعد ولاية الله وجبريل وصالح المؤمنين تعظيم وتقدير .

ولحن الآيات في إظهار النبي ﷺ على من يؤذيه ويريد به سوء وتشديد العتاب على من يتظاهر عليه عجيب ، وقد خوطب فيها النبي ﷺ أولاً وعوتب على تحريمه ما أحل الله له وأشير عليه بتحلة يمينه وهو إظهار وتأييد وانتصار له وإن كان في صورة العتاب . ثم التفت من خطابه إلى خطاب المؤمنين في قوله : « وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه » يشير إلى القصة وقد أتهمها إيهاماً وقد كان أيّد النبي وأظهره قبل الإشارة إلى القصة وإفشافها محتوماً عليها ، وفيه مزيد إظهاره .

ثم التفت من خطاب المؤمنين إلى خطابهها وقرر أن قلوبها قد صغت بما فعلتا ولم يأمرها أن تتوبا من ذنبها بل بين لها أنها واقعتان بين أمرين إما أن تتوبا وإما أن تظاهرا على من الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك أجمع ثم أظهر الرجاء إن طلقهن أن يرزقه الله نساء خيراً منهن . ثم أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلب عليهم .

وانتهى الكلام إلى ضربه تعالى مثلين مثلاً للذين كفروا ومثلاً للذين آمنوا .

وقد أدار تعالى الكلام في السورة بعد التعرض لحالهما بقوله : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه » الخ ، بين التعرض لحال المؤمنين والتعرض لحال الكفار

فقال : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ، الخ ، و « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا ، الخ ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا قوبوا ، الخ ، و « يا أيها النبي جاهد ، الخ ، وقال : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا ، ، « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا ، .

قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، إلى آخر الآية استغناء إلهي فإنهن وإن كن مشرفات بشرف زوجية النبي ﷺ لكن الكرامة عند الله بالتقوى كما قال تعالى : « فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ، الأحزاب : ٢٩ ، انظر إلى مكان « منكن » وقال : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ، الأحزاب : ٣١ .

ولذا ساق الاستغناء بترجي إبداله إن طلقهن أزواجاً خيراً منهن ، وعلق الخبر بما ذكر لأزواجه الجديدة من صفات الكرامة وهي أن يكنّ مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات سائحات - أي صائحات - ثيبات وأبكاراً .

فمن تزوج بها النبي ﷺ وكانت متصفة بمجموع هذه الصفات كانت خيراً منهن وليس إلا لأجل اختصاص منها بالقنوت والتوبة أو القنوت فقط مع مشاركتها لهن في باقي الصفات ، والقنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع .

ويتأيد هذا المعنى بما في مثل مريم الآتي في آخر السورة من ذكر القنوت « وكانت من القانتين » فالقنوت هو الذي يفقده وهو لزوم طاعة النبي ﷺ التي فيها طاعة الله واتقاؤه أن يعصين النبي ﷺ ويؤذنيه .

وبما مر يظهر فساد قول من قال إن وجه خيرية أزواجه اللاحقة من أزواجه السابقة إن طلقهن ، هو تزوج النبي ﷺ بهن وانفصال الأزواج السابقة وزوجيته ﷺ شرف لا يقدر قدره .

وذلك أنه لو كان ملاك ما ذكر في الآية من الخير هو الزوجية كان كل من تزوج ﷺ من النساء أفضل وأشرف منهن إن طلقهن وإن لم تتلبس بشيء مما ذكر من صفات الكرامة فلم يكن مورد لعد ما عد من الصفات .

قال في الكشف : فإن قلت : لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسط بين الثيبات والأبكار ؟ قلت : لأنها صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيها اجتماعهن في سائر الصفات . انتهى .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » الخ ، « قوا » أمر من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، والوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب ونحوه . والمراد بالنار نار جهنم وكون الناس المعذبين فيها وقوداً لها معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم كما في قوله تعالى : « ثم في النار يسجرون » المؤمن: ٧٢ . فيناسب تجسم الأعمال كما هو ظاهر الآية التالية « يا أيها الذين كفروا » الخ ، وفسرت الحجارة بالأصنام .

وقوله : « عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » أي وكتل عليها لإجراء أنواع العذاب على أهلها ملائكة غلاظ شداد .

والغلاظ جمع غليظ ضد الرقيق والأنسب للمقام كون المراد بالغلظة خشونة العمل كما في قوله الآتي : « جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » الآية ٩ من السورة ، والشداد جمع شديد بمعنى القوي في عزمه وفعله .

وقوله : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » كالمفسر لقوله : « غلاظ شداد » أي هم ملتزمون بما أمرهم الله من أنواع العذاب لا يعصونه بالخالفه والرد ويفعلون ما يؤمرون به على ما أمروا به من غير أن يفوت منهم فائت أو ينقص منه شيء لضعف فيهم أو فتور فهم غلاظ شداد . تحقيق كالمفسر علوم إسلامي

وبهذا يظهر أن قوله : « لا يعصون الله ما أمرهم » ناظر إلى التزامهم بالتكليف ، وقوله : « ويفعلون » الخ ، ناظر إلى العمل على طلبة فلا تكرر كما قيل .

قال في التفسير الكبير في ذيل الآية : وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه ، والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهي .

وفيه أن الآية وغيرها مما تصف الملائكة بمحض الطاعة من غير معصية مطلقة تشمل الدنيا والآخرة فلا وجه لتخصيص تكليفهم بالآخرة .

ثم إن تكليفهم غير سنخ التكليف المعهود في المجتمع الإنساني بمعنى تعليق المكلف - بالكسر - إرادته بفعل المكلف - بالفتح - تعليقا اعتباريا يستتبع الثواب والعقاب في ظرف الاختيار وإمكان الطاعة والمعصية بل هم خلق من خلق الله لهم ذوات طاهرة نورية لا يريدون إلا ما أراد الله ولا يفعلون إلا ما يؤمرون ، قال تعالى : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ ، ولذلك لا جزاء لهم

على أعمالهم من ثواب أو عقاب فهم مكلفون بتكليف تكويني غير تشريعي مختلف باختلاف درجاتهم ، قال تعالى : « وما منا إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ ، وقال عنهم : « وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا » مريم : ٦٤ .

والآية الكريمة بعد الآيات السابقة كالتعميم بعد التخصيص فإنه تعالى لما أدب نساء النبي ﷺ ببيان ما لإيذائهم النبي ﷺ من الأثر السيئ عم الخطاب فخطب المؤمنين عامة أن يؤدبوا أنفسهم وأهلهم ويقوهم من النار التي وقودها نفس الداخلين فيها أي أن أعمالهم السيئة تلزمهم وتعود تاراً تعذيبهم ولا تخلص لهم منها ولا مناص عنها .

قوله تعالى : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » خطاب عام للكفار بعدما جوزوا بالنار فإنهم يعتذرون عن كفرهم ومعاصيهم فيخطبون أن لا تعتذروا اليوم - وهو يوم الجزاء - إنما تجزون نفس ما كنتم تعملون أي إن العذاب الذي تعذبون بها هو عملكم السيئ الذي عملتموه وقد برز لكم اليوم حقيقته وإذ عملتموه فقد لزمكم أنكم عملتموه والواقع لا يتغير وما حق عليكم من كلمة العذاب لا يعود باطلاً فهذا ظاهر الخطاب .

وقيل : المعنى : لا تعتذروا - اليوم - بعد دخول النار فإن الاعتذار قوبة والتوبة غير مقبولة بعد دخول النار إنما تجزون ما لزم في مقابل عملكم من الجزاء في الحكمة . وفي إتباع الآيات السابقة بما في هذه الآية من خطاب القهر تهديد ضمني وإشعار بأن معصية الله ورسوله ربما أدى إلى الكفر .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توباً نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار » الخ ، النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه ، ويأتي بمعنى الإخلاص نحو نصحت له الود أي أخلصته - على ما ذكره الراغب - فالتوبة النصوح ما يصرف صاحبه عن العود إلى المعصية أو ما يخلص العبد للرجوع عن الذنب فلا يرجع إلى ما قاب منه .

لما أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهلهم من النار أمرهم جميعاً ثانياً بالتوبة وفرع عليه رجاء أن يستر الله سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

وقوله : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » قال الراغب : يقال : خزي الرجل يخزي من باب علم يعلم إذا لحقه انكسار إما من نفسه وإما من غيره فالذي يلحقه

من نفسه وهو الحياء المفرط مصدره الخزية ، والذي يلحقه من غيره ويعد ضرباً من الاستخفاف مصدره الخزي والإخزاء من الخزية والخزي جميعاً قال : وعلى نحو ما قلنا في خزي ذل وهان فإن ذلك متى كان من الإنسان نفسه يقال له الهون - بفتح الهاء - والذل ويكون محموداً ، ومتى كان من غيره يقال له : الهون - بضم الهاء - والهوان والذل ويكون مذموماً . انتهى ملخصاً .

« فقلوه : « يوم » ظرف لما تقدمه ، والمعنى : توبوا إلى الله عسى أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم الجنة في يوم لا يخزي ولا يكسر الله النبي ﷺ يجعلهم محرومين من الكرامة وخلفه ما وعدهم من الوعد الجميل .

وفي قوله : « النبي » والذين آمنوا معه « اعتبار المعية في الإيمان في الدنيا ولازمه ملازمتهم النبي ﷺ وطاعتهم له من غير مخالفة ومشاقة .

ومن المحتمل أن يكون قوله : « الذين آمنوا » مبتدأ خبره « معه » وقوله : « نورهم يسمى » الخ ، خبراً ثانياً ، وقوله : « يقولون » الخ ، خبراً ثالثاً فيفيد أنهم لا يفارقون النبي ولا يفارقهم يوم القيامة ، وهذا وجه جيد لازمه كون عدم الخزي خاصاً بالنبي ﷺ وسعي النور وسؤال إتمامه خاصاً بالذين آمنوا معه من المؤمنين وتؤيده آية الحديد الآتية . ومن الممكن أن يكون « معه » متعلقاً بقوله : « آمنوا » وقوله : « نورهم يسمى » الخ ، خبراً أولاً وثانياً للموصول .

وقوله : « يسمى نورهم بين أيديهم وبأيانهم » تقدم بعض الكلام في معناه في قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيانهم » الحديد : ١٢ ، ولا يبعد أن يكون ما بين أيديهم من النور نور الإيمان وما بأيانهم نور العمل .

وقوله : « يقولون ربنا أتم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » يفيد السياق أن المغفرة المسؤلة سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فيفيد أن في نورهم نقصاً والنور نور الإيمان والعمل فلمهم نقائص بحسب درجات الإيمان أو آثار السيئات التي خللت محالها في صحائفهم من العبودية في العمل فيسألون ربهم أن يتم لهم نورهم ويغفر لهم ، واليه الإشارة بقوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » الحديد : ١٩ .

قوله تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلاظ عليهم ومأواهم جهنم

وبش المصير ، المراد بالجهاد بذل الجهد في إصلاح الأمر من جهتهم ودفع شرهم ففي الكفار ببيان الحق وتبليغه فإن آمنوا وإلا فالحرب وفي المنافقين باستمالتهم وتآليف قلوبهم حتى تطمئن قلوبهم إلى الإيمان وإلا فلم يقاتل النبي ﷺ منافقاً قط .
وقيل : المراد اشدد عليهم في إقامة الحدود لأن أكثر من يصيب الحد في ذلك الزمان المنافقون . وهما كما ترى .

(بحث روائي)

في تفسير القمي بإسناده عن ابن سيار عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » قال : اطلعت عائشة وحفصة على النبي ﷺ وهو مع معاوية فقال النبي ﷺ : والله لا أقربها فأمر الله أن يكفر بها عن يمينه . وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن رجل قال لامرأته : أنت علي حرام فقال : لو كان لي عليه سلطان لأوجعت رأسه وقلت : الله أحلها لك فما حرمها عليك ؟ إنه لم يزد على أن كذب فزعم أن ما أحل الله له حرام ولا يدخل عليه طلاق ولا كفارة .

فقلت : قول الله عز وجل : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » فجعل فيه كفارة ؟ فقال : إنما حرم عليه جاريته مارية القبطية وحلف أن لا يقربها ، وإنما جعل على النبي ﷺ الكفارة في الحلف ولم يجعل عليه في التحريم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يشرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحاً فقال : أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه ، فأنزل الله : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » الآية .

أقول : والحديث مروي بطرق متشعبة وألفاظ مختلفة ، وفي انطباقها على الآيات - وهي ذات سياق واحد - خفاء .

وفيه أخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت عائشة وحفصة متحابتين فذهبت حفصة إلى بيت أبيها تحدث عنده فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته فطلت معه في بيت حفصة وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة فوجدتها في بيتها فجعلت تنتظر خروجها وغارت غيرة شديدة فأخرج النبي ﷺ جاريته ودخلت حفصة فقالت: قد رأيت من كان عندك والله لقد سوءتني، فقال النبي ﷺ: والله لأرضينك وإني مسرّ اليك سرّاً فأحفظيه، قالت: ما هو؟ قال: إني أشهدك أن سريتي هذه عليّ حرام رضاً لك .
فانطلقت حفصة إلى عائشة فأسرّت اليها أن أبشري إن النبي ﷺ قد حرم عليه فتاته فلما أخبرت بسرّ النبي ﷺ أظهر الله النبي ﷺ عليه فأنزل الله: « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » .

أقول: انطباق ما في الحديث على الآيات وخاصة قوله: « عرف بعضه وأعرض عن بعض » فيه خفاء .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: « وإذا أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً » قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يطمأ مارية، فقال لها رسول الله ﷺ: لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة فإن أباك يلي الأمر بعد أبي بكر إذا أمت .

فذهبت حفصة فأخبرت عائشة فقالت عائشة للنبي ﷺ: من أنباك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، فقالت عائشة: لا أنظر اليك حتى تحرم مارية فحرمها فأنزل الله: « يا أيها النبي لم تحرم » .

أقول: والآثار في هذا الباب كثيرة على اختلاف فيها، وفي أكثرها أنه ﷺ حرم مارية على نفسه لقول حفصة لا لقول عائشة، وأن التي قالت للنبي ﷺ: « من أنباك هذا » هي حفصة تريد من أخبرك أني أفشيت السر دون عائشة .

وهي مع ذلك لا تزال إبهام قوله تعالى: « عرف بعضه وأعرض عن بعض » . نعم فيما رواه ابن مردويه عن علي قال: ما استقصى كريم قط لأن الله يقول: « عرف بعضه وأعرض عن بعض »، وروي عن أبي حاتم عن مجاهد، وابن مردويه عن ابن عباس: أن الذي عرف أمر مارية والذي أعرض عنه قوله: إن أباك وأباها يليان الناس بعدي مخافة أن يفشو .

ويتوجه عليه أنه ما وجه الكرم في أن يعرف ﷺ ما قاله من تحريم مارية ويعرض عما أخبرها من ولايتها مع أن العكس أولى وأقرب .

وقد روي بعدة طرق عن عمر بن الخطاب سبب نزول الآيات ولم يذكر ذلك ففي عدة من جوامع الحديث منها البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال : لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله : « إن تتوبا فقد صفت قلوبكما » حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرز ثم أتى فصبت على يديه فتوضأ .

فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله : « إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكما » فقال : واعجباً لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة ثم أنشأ يحدثني .

فقال : كنا معشر قريش تغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطلق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت : ما تنكر من ذلك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . قلت : قد خابت من فعلت ذلك منهن وخسرت .

قال : وكان منزلي بالعوالي وكان لي جار من الأنصار كنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ فينزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره وأنزل يوماً فأتته بمثل ذلك .

قال : وكنا نحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فجاء يوماً فضرب على الباب فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم . فقلت : أجاءت غسان ؟ قال : أعظم من ذلك طلق رسول الله ﷺ نساءه . قلت في نفسي : قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أرى ذلك كأننا فلما صلينا الصبح شددت علي ثيابي ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت : اطلقكن رسول الله ﷺ ؟ قالت : لا أدري هو ذا معتزل في المشربة فانطلقت فأتيت غلاماً أسود فقلت : استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلى فقال : قد ذكرت لك له فلم يقل شيئاً فانطلقت إلى المسجد فإذا حول المسجد نفر يبكون فجلست إليهم .

ثم غلبني ما أجد فانطلقت فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال : قد ذكرت لك له فلم يقل شيئاً فوليت منطلقاً فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل فقد أذن لك فدخلت فإذا النبي ﷺ متكئ على حصير قد رأيت أثره في جنبه فقلت : يا رسول الله

أطلقت نساءك؟ قال : لا . قلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت ذلك فقالت : ما تنكر ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت : قد خاب من فعل ذلك منهن ، فدخلت على حفصة فقلت : أتراجع إحداكن رسول الله وتهجره اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . فقلت : قد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت أتاكن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت فتبسم رسول الله ﷺ .

فقلت لحفصة : لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني ما بدا لك ولا يفرنك إن كانت جارتك أوسم منك وأحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى . فقلت : يا رسول الله أستأنس قال : نعم . فرفعت رأسي فما رأيت في البيت إلا أهبة ثلاثة فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً وقال : أو في شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، وكان قد أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهراً فعاتبه الله في ذلك وجعل له كفارة يمين .

أقول : وهذا المعنى مروى عنه مفصلاً ومختصراً بطرق مختلفة ، والرواية - كما ترى - لا تذكر ما أسره النبي ﷺ إلى بعض أزواجه ؟ وما هو بعض النبي الذي عرفه وما هو الذي أعرض عنه وله شأن من الشأن .

وهي مع ذلك ظاهرة في أن المراد بالتحريم في الآية تحريم عامة أزواجه وذلك لا ينطبق عليها وفيها قوله تعالى : « لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » مضافاً إلى أنه لا تبين به وجه التخصيص في قوله : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه ، الخ .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين » قال : صالح المؤمنين علي عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس : سمعت رسول الله ﷺ

يقول : « وصالح المؤمنين » قال : علي بن أبي طالب .

أقول : ذكر صاحب البرهان بعد إيراد رواية أبي بصير السابقة أن محمد بن العباس أورد في هذا المعنى اثنين وخمسين حديثاً من طرق الخاصة والعامة ثم أورد نبذة منها .

وفي الكافي بإسناده عن عبيد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما نزلت هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » جلس رجل من المؤمنين يبكي وقال : أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك ، وتنههم عما تنهى عنه نفسك .

وفيه بإسناده عن سماعة عن أبي بصير في قوله : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » قلت : كيف أقيهم ؟ قال : تأمرهم بما أمر الله وتنههم عما نهى الله فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك .

أقول : ورواه بطريق آخر عن ذرعة عن أبي بصير عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والقاريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن علي بن أبي طالب في قوله : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبواهم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن زيد بن أسلم قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » فقالوا : يا رسول الله كيف نقى أهلنا ناراً ؟ قال : تأمروهم بما يحبه الله وتنهونهم عما يكره الله .

وفي الكافي بإسناده عن أبي الصباح الكتاني قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً » قال : يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه .

قال محمد بن الفضيل : سألت عنها أبا الحسن عليه السلام فقال : يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، الحديث .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال : أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

أقول : والروايات في هذا المعنى كثيرة من الفريقين .

وفي الكافي بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني قال : قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله : « يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمنهم » أغمة المؤمنين يوم القيامة يسمى ^(١) بين أيدي المؤمنين وبأيمنهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية : من كان له نور يومئذ نجى ، وكل مؤمن له نور .

* * *

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّائِخِينَ — ١٠ . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ — ١١ . وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّي وَكُتِبَ فِي كِتَابِ الْفَائِزِينَ — ١٢ .

(بيان)

تتضمن الآيات الكريمة مثلين يمثل بهما الله سبحانه حال الكفار والمؤمنين في أن شقاء الكفار وهلاكهم إنما كان بخيانتهم لله ورسوله وكفرهم ولم ينفعهم اتصال بسبب إلى الأنبياء المكرمين ، وأن سعادة المؤمنين وفلاحهم إنما كان بإخلاصهم الإيمان بالله ورسوله والقنوت وحسن الطاعة ولم يضرهم اتصال بأعداء الله بسبب فإنما ملاك الكرامة عند الله التقوى .

يمثل الحال أولاً : بحال امرأتين كانتا زوجين لنبين كريمين عدهما الله سبحانه عبدين صالحين - وبإله من كرامة - فخانتاهما قامراً بدخول النار مع الداخلين فلم ينفعهما زوجيتهما للنبين الكريمين شيئاً فهلكتا في ضمن الهالكين من غير أدنى تميز وكرامة .

وثانياً : بحال امرأتين إحداهما امرأة فرعون الذي كانت منزلته في الكفر بالله أن نادى في الناس فقال : أنا ربكم الأعلى ، فأمنت بالله وأخلصت الإيمان فأنجها الله وأدخلها الجنة ولم يضرها زوجية مثل فرعون شيئاً ، وثانيتهما مريم ابنة عمران الصديقة القانتة أكرمها الله بكرامته ونفع فيها من روحه .

وفي التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجي النبي ﷺ حيث خانتاه في إفشاء سره وتظاهرها عليه وآذاه بذلك ، وخاصة من حيث التعبير بلفظ الكفر والخيانة وذكر الأمر بدخول النار .

قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » الخ ، قال الراغب : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيض الخيانة الأمانة ، يقال : خنت فلاناً وخنت أمانة فلان . انتهى .

وقوله : « للذين كفروا » إن كان متعلقاً بالمثل كان المعنى : ضرب الله مثلاً يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالعباد الصالحين ، وإن كان متعلقاً بضرب كان المعنى : ضرب الله الامراتين وما انتهت اليه حالهما مثلاً للذين كفروا ليعتبروا به ويعلموا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالصالحين من عباده وأنهم بخيانتهم النبي ﷺ من أهل النار لا محالة .

وقوله : « امرأة نوح وامرأة لوط » مفعول « ضرب » ، والمراد بكونهما تحتهم زوجيتهما لهما .

وقوله : « فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً » ضمير التثنية الاولى للعبدين ، والثانية للامراتين ، والمراد أنه لم ينفع المرأتين زوجيتهما للعبدين الصالحين .

وقوله : « وقيل ادخلا النار مع الداخلين » أي مع الداخلين فيها من قوميتها كما يلوح من قوله في امرأة نوح : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلننا احمل فيها من كل زوجين

اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، هود : ٤٠ ، وقوله في امرأة لوط : « فأسر بها هلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم » هود : ٨١ ، أو المعنى مع الداخلين فيها من الكفار .

وفي التعبير بـ « قيل بالبناء للفعول » وإطلاق الداخلين إشارة إلى هوان أمرها وعدم كرامة لها أصلاً فلم يبال بها أين هلكتا .

قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، الخ » الكلام في قوله : « للذين آمنوا » كالكلام في قوله : « للذين كفروا » . وقوله : « إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » لخص سبحانه جميع ما كانت تبغيه في حياتها وترومه في مسير عبوديتها في مسألة سألت ربها وذلك أن الإيمان إذا كمل توطأ الظاهر والباطن وتوافق القلب واللسان فلا يقول الإنسان إلا ما يفعل ولا يفعل إلا ما يقول فيكون ما يرجوه أو يتمناه أو يسأله بلسانه هو الذي يريد كذا ذلك بعمله .

وإذ حكى الله فيما يمثل به حالها ويشير إلى منزلتها الخاصة في العبودية دعاء دعت به دل ذلك على أنه عنوان جامع لعبوديتها وعلى ذلك كانت تسير مدى حياتها ، والذي تتضمنه مسألتها أن يبني الله لها عنده بيتاً في الجنة وينجيها من فرعون وعمله وينجيها من القوم الظالمين فقد اختارت جوار ربه والقرب منه على أن تكون أنيسة فرعون وعشيقته وهي ملكة مصر وآثرت بيتاً يبنيه لها ربها على بيت فرعون الذي فيه مما تشبهه الأنفس وتتمناه القلوب ما تقف دونه الآمال فقد كانت عزفت نفسها ما هي فيه من زينة الحياة الدنيا وهي لها خاضعة وتعلقت بما عند ربها من الكرامة والزلفى فأمنت بالغيب واستقامت على إيمانها حتى قضت .

وهذه القدم هي التي قدمتها إلى أن جعلها الله مثلاً للذين آمنوا ولخص حالها وما كانت تبغيه وتعمل له مدى حياتها في مسير العبودية في مسألة حكى عنها وما معناها إلا أنها انتزعت من كل ما يلهوها عن ربها ولاذت بربها تريد القرب منه تعالى والإقامة في دار كرامته .

فقوله : « امرأة فرعون » اسمها على ما في الرواية آسية ، وقوله : « إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » الجمع بين كون البيت المبني لها عند الله وفي الجنة لكون الجنة

دار القرب من الله وجوار رب العالمين كما قال تعالى : « بل أحياء عند ربهم يرزقون » آل عمران : ١٦٩ .

على أن الحضور عنده تعالى والقرب منه كرامة معنوية والاستقرار في الجنة كرامة صورية ، وسؤال الجمع بينها سؤال الجمع بين الكرامتين .

وقوله : « ونجني من فرعون وعمله » تبر منها وسؤال أن ينجيها الله من شخص فرعون ومن عمله الذي تدعو ضرورة المصاحبة والمعاشرة إلى الشراكة فيه والتلبس به ، وقيل : المراد بالعمل الجماع .

وقوله : « ونجني من القوم الظالمين » وهم قوم فرعون وهو تبر آخر وسؤال أن ينجيها الله من المجتمع العام كما أن الجملة السابقة كانت سؤال أن ينجيها من المجتمع الخاص .

قوله تعالى : « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » النخ ، عطف على امرأة فرعون والتقدير وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم النخ .

ضربها الله مثلاً باسمها وأثنى عليها ولم يذكر في كلامه تعالى امرأة باسمها غيرها ذكر اسمها في القرآن في بضع وثلاثين موضعاً في نيف وعشرين سورة .

وقوله : « التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » ثناء عليها على عفتها ، وقد تكرر في القرآن ذكر ذلك ولعل ذلك بإزاء ما افعله اليهود من البهتان عليها كما قال

تعالى : « وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » النساء : ١٥٦ ، وفي سورة الأنبياء في مثل القصة : « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها » الأنبياء : ٩١ .

وقوله : « وصدقت بكلمات ربها » أي بما تكلم به الله سبحانه من الوحي إلى أنبيائه كما قيل ، وقيل : المراد بها وعده تعالى ووعيده وأمره ونهيه ، وفيه أنه يستلزم كون ذكر الكتب مستدر كاً .

وقوله : « وكتبه » وهي المشتعلة على شرائع الله المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل كما هو مصطلح القرآن ولعل المراد من تصديقها كلمات ربها وكتبه كونها صديقة كما في

قوله تعالى : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة » المائدة : ٧٥ .

وقوله : « وكانت من القانتين » أي من القوم المطيعين لله الخاضعين له الدائمين عليه غلب فيه المذكر على المؤنث .

ويؤيد هذا المعنى كون القنوت بهذا المعنى واقعاً فيما حكى الله من نداء الملائكة لها « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » آل عمران : ٤٣ ، وقيل : يجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت مريم منهم وكانوا أهل بيت صلاح وطاعة ، وهو بعيد لما تقدم .

على أن المناسب لكون المثل تعريضاً لزوجي النبي ﷺ أن يراد بالقانتين مطلق أهل الطاعة والخضوع لله تعالى .

(بحث روائي)

في تفسير البرهان عن شرف الدين النجفي رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط » الآية مثل ضربه الله لعائشة وحفصة أن تظاهرتا على رسول الله ﷺ وأفشتا سره .

وفي المجمع : عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرهما في القرآن « قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » .

وفيه أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى .

أقول : وامرأة فرعون على ما وردت به الروايات مقتولة قتلها زوجها فرعون لما اطلع أنها آمنت بالله وحده ، وقد اختلفت الروايات في كيفية قتلها .

ففي بعضها أنه لما اطلع على إيمانها كلفها الرجوع إلى الكفر فأبت إلا الإيمان فأمر بها أن ترمى عليها بصخرة عظيمة حتى ترضح تحتها ففعل بها ذلك .

وفي بعضها لما أحضرت للعذاب دعت بما حكى الله عنها في كلامه من قولها : « رب »

ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، الخ ، فاستجاب الله لها ورأت بيتها في الجنة وانتزعت منها الروح وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح .
وفي بعضها أن فرعون وقد لها أربعة أوتاد وأضجعها على صدرها وجعل على صدرها رحي واستقبل بها عين الشمس . والله أعلم .

* * *

(سورة الملك مكية ، وهي ثلاثون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - ١ . الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ - ٢ . الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ - ٣ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ - ٤ . وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ - ٥ . وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِشَّ الْمَصِيرِ - ٦ . إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ - ٧ . تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ - ٨ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ - ٩ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ - ١٠ .

فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ - ١١ . إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ - ١٢ . وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ - ١٣ . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ - ١٤ .

(بيان)

غرض السورة بيان عموم ربوبيته تعالى للعالمين تجاه قول الوثنية إن لكل شطر من العالم رباً من الملائكة وغيرهم وإنه تعالى رب الأرباب فقط .

ولذا يعد سبحانه كثيراً من نعمه في الخلق والتدبير - وهو في معنى الاحتجاج على ربوبيته - ويفتح الكلام بتباركه وهو كثرة صدور البركات عنه ، ويكرر توصيفه بالرحمان وهو مبالغ في الرحمة التي هي العطية قبل الاستدعاء فقراً وفيها إنذار يفتي إلى ذكر الحشر والبعث .

وتتلخص مضامين آياتها في الدعوة إلى توحيد الربوبية والقول بالمعاد .
والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » تبارك الشيء كثرة صدور الخيرات والبركات عنه .

وقوله : « الذي بيده الملك » يشمل بإطلاقه كل ملك ، وجعل الملك في يده استعارة بالكناية عن كمال تسلطه عليه وكونه متصرفاً فيه كيف يشاء كما يتصرف ذو اليد فيما بيده ويقبله كيف يشاء فهو تعالى يملك بنفسه كل شيء من جميع جهاته ، ويملك ما يملكه كل شيء .

فتوصيفه تعالى بالذي بيده الملك أوسع من توصيفه بالملك في قوله : « عند ملك مقدر » القمر : ٥٥ ، وأصرح وآكد من توصيفه في قوله : « له الملك » التغابن : ١ .

وقوله : « وهو على كل شيء قدير » إشارة إلى كون قدرته غير محدودة بحد ولا منتبهة

إلى نهاية وهو لازم إطلاق الملك بحسب السياق ، وإن كان إطلاق الملك وهو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدرة وهي من صفات الذات .

وفي الآية مع ذلك إيماء إلى الحجة على إمكان ما سيأتي من أمر المعاد .

قوله تعالى : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور » الحياة كون الشيء بحيث يشعر ويريد ، والموت عدم ذلك لكن الموت على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأة من نشأت الحياة إلى نشأة أخرى كما تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت - إلى قوله - فيما لا تعلمون » الواقعة : ٦١ ، فلا مانع من تعلق الخلق بالموت كالحياة .

على أنه لو أخذ عدمياً كما عند العرف فهو عدم ملكة الحياة وله حظ من الوجود يصحح تعلق الخلق به كالعنى من البصر والظلمة من النور .

وقوله : « ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » غاية خلقه تعالى الموت والحياة ، والبلاء الامتحان والمراد أن خلقكم هذا النوع من الخلق وهو أنكم تحيون ثم تموتون خلق مقدمي امتحاني يمتاز به منكم من هو أحسن عملاً من غيره ومن المعلوم أن الامتحان والتمييز لا يكون إلا لأمر ما يستقبلكم بعد ذلك وهو جزاء كل بحسب عمله .

وفي الكلام مع ذلك إشارة إلى أن المقصود بالذات من الحلقة هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل وامتياز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملاً هم المقصودون بالحلقة وغيرهم مقصودون لأجلهم .

وقد ذيل الكلام بقوله : « وهو العزيز الغفور » فهو العزيز لأن الملك والقدرة المطلقين له وحده فلا يغلبه غالب وما أقدر أحداً على مخالفته إلا بلاء وامتحاناً وسينتقم منهم وهو الغفور لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم في الدنيا وسيغفر كثيراً منها في الآخرة كما وعد .

وفي التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف وتطمين على ما يدعو إلى ذلك سياق الدعوة . واعلم أن مضمون الآية ليس بمجرد دعوى خالية عن الحجة يراد به التلقين كما ربما يتوهم بل هي مقدمة قريبة من الضرورة - أو هي ضرورية - تستدعي الحكم بضرورة البعث للجزاء فإن الإنسان المتلبس بهذه الحياة الدنيوية الملقوقة للموت لا يخلو من أن يحصل له وصف حسن العمل أو خلافه وهو مجهز بحسب الفطرة بما لولا عروض عارض السوء لساته .

إلى حسن العمل ، وقلما يخلو إنسان من حصول أحد الوصفين كالأطفال ومن في حكمهم .
والوصف الحاصل المترتب على وجود الشيء الساري في أغلب أفراده غاية في وجوده مقصودة في إيجاده فكما أن الحياة النباتية لشجرة كذا إذ كانت تؤدي في الغالب إلى إثمارها ثمرة كذا يعد ذلك غاية لوجودها مقصودة منها كذلك حسن العمل والصلاح غاية لخلق الإنسان ، ومن المعلوم أيضاً أن الصلاح وحسن العمل لو كان مطلوباً لكان مطلوباً لغيره لا لنفسه ، والمطلوب بالذات الحياة الطيبة التي لا يشوبها نقص ولا يعرضها لغو ولا تأثيم فالآية في معنى قوله : « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة » الأنبياء : ٣٥ .
قوله تعالى : « الذي خلق سبع سماوات طباقاً » الخ ، أي مطابقة بعضها فوق بعض أو بعضها يشبه البعض — على ما احتمل — وقد مر في تفسير حم السجدة بعض ما يمكننا من القول فيها .

وقوله : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » قال الراغب : الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه ، قال تعالى : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار » .
قال : والتفاوت الاختلاف في الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كل واحد منهما الآخر ، قال تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » أي ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة . انتهى .

فالمراد بنفي التفاوت اتصال التدبير وارتباط الأشياء بعضها ببعض من حيث الغايات والمنافع المترتبة على تفاعل بعضها في بعض ، فاصطكاك الأسباب المختلفة في الحلقة وتنازعها كتشاجر كفتي الميزان وتصارعها بالثقل والخفة والارتفاع والانخفاض فإنها في عين أنها تختلفان تتفقان في إعانة من بيده الميزان فيما يريده من تشخيص وزن السلعة الموزونة .

فقد رتب الله أجزاء الحلقة بحيث تؤدي إلى مقاصدها من غير أن يفوت بعضها غرض بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغاية المطلوبة .

والخطاب في « ما ترى » خطاب عام لكل من يمكنه الرؤية وفي إضافة الخلق إلى الرحمن إشارة إلى أن الغاية منه هي الرحمة العامة ، وتنكير « تفاوت » وهو في سياق النفي وإدخال « من » عليه لإفادة العموم .

وقوله : « فارجع البصر هل ترى من فطور » الفطور الاختلال والوهي ، والمراد بإرجاع البصر النظر ثانياً وهو كناية عن المداقعة في النظر والإمعان فيه .

قوله تعالى: «ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير» الخاسئ من خسأ البصر إذا انقبض عن مهانة كما قال الراغب، وقال أيضاً: الخاسر المعيا لانكشاف قواه، ويقال للمعيا: حاسر ومحسور: أما الخاسر فتصور أنه بنفسه قد حسر قوته، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره، وقوله عز وجل: «ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير» يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور. انتهى.

وقوله: «كرتين» الكرة الرجعة والمراد بالثنائية التكثير والتكرير، والمعنى: ثم ارجع البصر رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة ينقلب اليك البصر منقبضة مهينة والحال أنه قليل معيا لم يجد فطوراً. فقد أشير في الآيتين إلى أن النظام الجاري في الكون نظام واحد متصل الأجزاء مرتبط الأبعاد.

قوله تعالى: «ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح» إلى آخر الآية، المصابيح جمع مصباح وهو السراج سمي الكواكب مصابيح لإنارتها وإضاءتها وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير سورة حم السجدة.

وقوله: «وجعلناها رجوماً للشياطين» أي وجعلنا الكواكب التي زيننا بها السماء رجوماً يرم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى: «إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين» الحجر: ١٨، وقال: «إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب» الصافات: ١٠.

قيل: إن الجملة دليل أن المراد بالكواكب المزينة بها السماء مجموع الكواكب الأصلية والشهب السماوية فإن الكواكب الأصلية لا تزول عن مستقرها والكواكب والنجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصلية.

وقيل: تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوماً للشياطين أما الكواكب أنفسها فليست تزول إلا أن يريد الله إفناءها.

وهذا الوجه أوفق للأنظار العلمية الحاضرة، وقد تقدم بعض الكلام في معنى رمي الشياطين بالشهب.

وقوله: «وأعتدنا لهم عذاب السعير» أي وهبنا للشياطين وهم أشرار الجن عذاب النار المسعرة المشتعلة.

قوله تعالى : « والمذين كفروا برهم عذاب جهنم وبئس المصير » لما أورد بعض آيات ربوبيته تعالى عقبها بالوعيد على من كفر بربوبيته على ما هو شأن هذه السورة من تداخل الحجج والوعيد والإنذار .

والمراد بالذين كفروا بربوبيته أعم من الوثنيين النافين لربوبيته لغير أربابهم القائلين بأنه تعالى رب الأرباب فقط ، والنافين لها مطلقاً والمثبتين لربوبيته مع التفريق بينه وبين رسله كاليهود والنصارى حيث آمنوا ببعض رسله وكفروا ببعض .

والآية مع ذلك متصلة بقوله : « الذي خلق الموت والحياة ليبولكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور » لما فيها من الإشارة إلى البعث والجزاء متصلة بما قبلها كالتعميم بعد التخصيص .

قوله تعالى : « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ » قال الراغب : الشقيق طول الزفير وهو رد النفس والزفير مده انتهى ، والفوران كما في الجمع ارتفاع الغليان ، والتميز : التقطع والتفرق ، والغيظ : شدة الغضب ، والمعنى : إذا طرح الكفار في جهنم سمعوا لها شهيقاً - أي تجذهم إلى داخلها كما يجذب الهواء بالشهيق إلى داخل الصدر - وهي تغلي بهم فترفعهم وتخفضهم تكاد تتلاشى من شدة الغضب .

قوله تعالى : « كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » الفوج - كما قاله الراغب - الجماعة المارة بسرعة ، وفي قوله : « كلما ألقى فيها فوج » إشارة إلى أن الكفار يلقون في النار جماعة جماعة كما يشير إليه قوله : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » الزمر : ٧١ ، وإنما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمبتوعهم في الضلال كما قال تعالى : « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعلهم في جهنم » الأنفال : ٣٧ ، وقد تقدم بعض توضيحه في ذيل الآية من سورة الأنفال .

والخزنة جمع خازن وهو الحافظ على الشيء المدخر والمراد بهم الملائكة الموكلون على النار المدبرون لأنواع عذابها قال تعالى : « عليها ملائكة غلاظ شداد » التحريم : ٦ ، وقال : « وما أدراك ما سقر - إلى أن قال - عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » المدثر : ٣١ .

والمعنى : كلما طرح في جهنم جماعة من جماعات الكفار المسوقين إليها سألهم الملائكة الموكلون على النار الحافظون لها - توبيخاً - ألم يأتكم نذير ؟ وهو النسي المنذر .

قوله تعالى : « قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا ، إلى آخر الآية حكاية جوابهم لسؤال الحزنة ، وفيه تصديق أنهم قد جاءهم نذير فنسبوه إلى الكذب واعتراف .

وقوله : « ما نزل الله من شيء » بيان لتكذيبهم ، وكذا قوله : « إن أنتم إلا في ضلال كبير » وقيل : قوله : « إن أنتم » الخ ، كلام الملائكة يخاطبون به الكفار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا ، وهو بعيد من السياق ، وكذا احتمال كونه من كلام الرسل الذين كذبوهم تحكيه الملائكة لأولئك الكفار .

قوله تعالى : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » يطلق السمع ويراد به إدراك الصوت والقول بالجراحة وربما يراد به ما هو الغاية منه عند العقلاء وهو الالتزام بمقتضاء من الفعل والترك ، ويطلق العقل على تمييز الخير من الشر والنافع من الضار ، وربما يراد به ما هو الغاية منه وهو الالتزام بمقتضاء من طلب الخير والنافع واجتناب الشر والضرر ، قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل » الأعراف : ١٧٩ .

وأكثر ما ينتفع بالسمع عامة الناس لقصورهم عن تعقل دقائق الأمور وإدراك حقيقتها والاهتداء إلى مصالحها ومفاسدها وإنما ينتفع بالعقل الخاصة .

فقوله : « لو كنا نسمع أو نعقل » أريد بالسمع استجابة دعوة الرسل والالتزام بمقتضى قولهم وهم النصحاء الامناء ، وبالعقل الالتزام بمقتضى ما يدعون اليه من الحق بتعقله والاهتداء العقلي إلى أنه حق ومن الواجب أن يخضع الإنسان للحق .

وإنما قدم السمع على العقل لأن استعماله من شأن عامة الناس وهم الأكثرون والعقل شأن الخاصة وهم آحاد قليلون .

والمعنى : لو كنا في الدنيا نطيع الرسل في نصائحهم ومواعظهم أو عقلنا حجة الحق ما كنا اليوم في أصحاب السعير وهم مصاحبو النار المخلدون فيها .

وقيل : إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

قوله تعالى : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » كانوا إنما قالوا : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ندامة على ما فرطوا في جنب الله وفوتوا على

أنفسهم من الخير فاعترفوا بأن ما أتوا به كان تبعته دخول النار وكان عليهم أن لا يأتوا به ، وهذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم .

وإنما أفرد الذنب بناء على إرادة معنى المصدر منه وهو في الأصل مصدر .
وقوله : « فسحقاً لأصحاب السعير » السحق تفتيت الشيء كما ذكره الراغب وهو دعاء عليهم .

قوله تعالى : « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » لما ذكر حال الكفار وما يجازون به على كفرهم قابله بحال المؤمنين بالغيب لتبام التقسيم وذكر من وصفهم الخشية لأن المقام مقام الإنذار والوعيد .

وعدت خشيتهم خشية بالغيب لكون ما آمنوا به محجوباً عنهم تحت حجب الغيب .
قوله تعالى : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » رفع شبهة يمكن أن تختلج في قلوبهم مبنية على الاستبعاد وذلك أنه تعالى ساق الكلام في بيان ربوبيته لكل شيء المستتبع للبعث والجزاء وذكر ملكه وقدرته المطلقين وخلقه وتدبيره ولم يذكر علمه المحيط بهم وبأحوالهم وأعمالهم وهو مما لا يتم البعث والجزاء بدونه .
وكان من الممكن أن يتوهموا أن الأعمال على كثرتها الخارجة عن الإحصاء لا يتأتى ضبطها وخاصة ما تكنه الصدور منها فإن الإنسان يقيس الأشياء بنفسه ويزنها بزنة نفسه وهو غير قادر على إحصاء جزئيات الأعمال التي هي حركات مختلفة متقضية وخاصة أعمال القلوب المستكنة في زواياها .

فدفعه بأن إظهار القول وإخفائه سواء بالنسبة إليه تعالى فإنه عليم بذات الصدور ، والسياق يشهد أن المراد استواء خفايا الأعمال وجلالها بالنسبة إليه ، وإنما ذكر إسرار القول وجهره من حيث ظهور معنى الخفاء والظهور فيه بالجهر والإسرار .

قوله تعالى : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » استفهام إنكاري مأخوذ حجة على علمه تعالى بأعمال الخلق ظاهرها وباطنها وسرها وجهرها وذلك أن أعمال الخلق - ومن جملتها أعمال الإنسان الاختيارية - وإن نسبت إلى فواعلها لكن الله سبحانه هو الذي يريد لها ويوجد لها من طريق اختيار الإنسان واقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعيان الأشياء والمقدر لها آثارها كيفما كانت والرابط بينها وبين آثارها الموصل لها إلى آثارها ، قال تعالى : « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل » الزمر : ٦٢ ، وقال :

« الذي خلق فسوًى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ ، فهو سبحانه محيط بعين من خلقه وأثره ومن أثره أعماله الظاهرة والباطنة وما أسره وما جهر به وكيف يحيط به ولا يعلمه . وفي الآية إشارة إلى أن أحوال الأشياء وأعمالها غير خارجة عن خلقها لأنه تعالى استدلّ بعلمه بمن خلق على علمه بخصوصيات أحواله وأعماله ولولا كون الأحوال والأعمال غير خارجة عن وجود موضوعاتها لم يتم الاستدلال .

على أن الأحوال والأعمال من مقتضيات موضوعاتها والذي ينتسب إليه وجود الشيء ينتسب إليه آثار وجوده .

وقوله : « وهو اللطيف الخبير » أي النافذ في بواطن الأشياء المطلع على جزئيات وجودها وآثارها ، والجملة حالية تعلل ما قبلها والاسمان الكريمان من الأسماء الحسنى ذيلت بها الآية لتأكيد مضمونها .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن مفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » قال : ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والخشية . ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل .

ألا والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله ، والنية أفضل من العمل ألا وإن النية هي العمل . ثم تلا قوله : « قل كل يعمل على شاكلته » يعني على نيته . وفي الجمع قال أبو قتادة : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى : « أيكم أحسن عملاً » ما عنى به ؟ فقال : يقول : أيكم أحسن عقلاً . ثم قال : أتمسك عقلاً وأشدكم لله خوفاً ، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً .

وفيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه تلا قوله تعالى : « تبارك الذي بيده الملك » - إلى قوله - أيكم أحسن عملاً ، ثم قال : أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله وأمرع في طاعة الله .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « الذي خلق سبع سماوات طباقاً » قال : بعضها طبق لبعض .

وفيه في قوله تعالى : « من تفاوت » قال : من فساد .
 وفيه في قوله تعالى : « ثم ارجع البصر » قال : انظر في ملكوت السماوات والأرض .
 وفيه في قوله تعالى : « بمصابيح » قال : بالنجوم .
 وفيه في قوله تعالى : « سمعوا لها شهيقاً » قال : وقعاً .
 وفيه في قوله تعالى : « تكاد تميز من الغيظ » قال : على أعداء الله .
 وفيه في قوله تعالى : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » قال :
 قد سمعوا وعقلوا ولكنهم لم يطيعوا ولم يقبلوا ، والدليل على أنهم قد سمعوا وعقلوا ولم
 يقبلوا ، قوله : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .

أقول : يعني ~~بأنهم~~ أنه يدل على أن المراد من عدم السمع والعقل عدم الإطاعة
 والقبول بعد السمع والعقل أنه تعالى ستمى قولهم ذلك اعترافاً بالذنب ، ولا يعدّ فعل ذنباً
 من فاعله إلا بعد العلم بجهة مساءته بسمع أو عقل .

* * *

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا
 مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ — ١٥ . أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ
 الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ — ١٦ . أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ
 عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ — ١٧ . وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ — ١٨ . أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ
 صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُتَسَكَّنُ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ — ١٩ .
 أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ
 إِلَّا فِي غُرُورٍ — ٢٠ . أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ

لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ - ٢١ . أَفَنُ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى
أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - ٢٢ .

(بيان)

في الآيات كرّة بعد كرّة بآيات التدبير الدالة على ربوبيته تعالى مقرونة بالإنذار والتخويف أعني قوله : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » الآية ، وقوله : « أولم يروا إلى الطير » الآية بعد قوله : « الذي خلق الموت والحياة » الآية ، وقوله : « الذي خلق سبع سموات » الآية ، وقوله : « ولقد زيناها » الآية .

قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » الذلول من المراكب ما يسهل ركوبه من غير أن يضطرب ويجمع والمناكب جمع منكب وهو مجتمع ما بين العضد والكتف واستعير لسطح الأرض ، قال الراغب : واستعارته للأرض كاستعارة الظهر لها في قوله : « ما ترك على ظهرها من دابة » وتسمية الأرض ذلولاً وجعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها ويمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرفات الإنسانية من غير امتناع ، وقد وجّه كونها ذلولاً ذا مناكب بوجوه مختلفة تؤل جميعها إلى ما ذكرنا .

والأمر في قوله : « وكلوا من رزقه » للإباحة والنشور والنشر إحياء الميت بعد موته وأصله من نشر الصحيفة والثوب إذا بسطها بعد طيها .

والمعنى : هو الذي جعل الأرض مطاوعة متقادة لكم يمكنكم أن تستقروا على ظهورها وتمشوا فيها تأكلون من رزقه الذي قدره لكم بأنواع الطلب والتصرف فيها .

وقوله : « وإليه النشور » أي ويرجع إليه نشر الأموات بإخراجهم من الأرض وإحيائهم للحساب والجزاء ، واختصاص رجوع النشور به كناية عن اختصاص الحكم بالنشور به والإحياء يوم القيامة فهو ربكم المدبّر لأمر حياتكم الدنيا بالإقرار على الأرض والهداية إلى مآرب الحياة ، و ' الحكم بالنشور للحساب والجزاء .

وفي عدّ الأرض ذلولاً والبشر على مناكبها تلويح ظاهر إلى ما أدّت إليه الأبحاث العلمية

أخيراً من كون الأرض كرة سيارة .

قوله تعالى : « وأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور » إنذار وتخويف بعد إقامة الحجة وتوبيخ على مساھلتهم في أمر الربوبية وإھمالهم أمر الشكر على نعم ربهم بالخضوع لربوبيته ورقض ما اختلقوه من الأنداد .

والمراد بمن في السماء الملائكة المقيمون فيها الموكلون على حوادث الكون وإرجاع ضمير الأفراد إلى « من » باعتبار لفظه وخسف الأرض بقوم كذا شقها وتغييبهم في بطنها والمور على ما في المجمع التردد في الذهاب والجيء مثل الموج .

والمعنى : « أمنتم في كفركم بربوبيته تعالى الملائكة المقيمين في السماء الموكلين بأمور العالم أن يشقوا الأرض ويفتّبوكم فيها بأمر الله فإذا الأرض تضطرب ذهاباً ومجيئاً بزلزالتها .

وقيل : المراد بمن في السماء هو الله سبحانه والمراد بكونه في السماء كون سلطانه وتدبيره وأمره فيها لاستحالة أن يكون تعالى في مكان أو جهة أو محاطاً بعالم من العوالم ، وهذا المعنى وإن كان لا بأس به لكنه خلاف الظاهر .

قوله تعالى : « أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير » الحاصب الريح التي تأتي بالحصاة والحجارة ، والمعنى : « أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم ريحاً ذات حصاة وحجارة كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى : « إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط « القمر : ٣٤ .

وقوله : « فستعلمون كيف نذير » النذير مصدر بمعنى الإنذار والجملة متفرعة على ما يفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيته تعالى وأمنهم من عذابه والمعنى ظاهر .
وقيل : النذير صفة بمعنى المنذر والمراد به النبي ﷺ وهو سخيّف .

قوله تعالى : « ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير » المراد بالنكير العقوبة وتغيير النعمة أو الإنكار ، والآية كالشاهد يستشهد به على صدق ما في قوله : « فستعلمون كيف نذير » من الوعيد والتهديد .

والمعنى : ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم الهالكة رسلي وجحدوا بربوبيتي فكيف كان عقوبتي وتغيير النعمة عليهم أو كيف كان إنكاري ذلك عليهم حيث أهلكتهم واستأصلتهم .

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله : « من قبلهم » إشعاراً بسقوطهم

- لجہالتهم وإهمالهم في التدبر في آيات الربوبية وعدم مخافتهم من سخط ربهم - عن تشريف الخطاب فأعرض عن مخاطبتهم فيما يلقي اليهم من المعارف إلى خطاب النبي ﷺ .

قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكن إلا الرحمان » إنه بكل شيء بصير « المراد بكون الطير فوقهم طيرانه في الهواء ، وصيف الطير بسطه جناحه حال الطيران وقبضه قبض جناحه حاله ، والجمع في « صافات ويقبضن » لكون المراد بالطير استغراق الجنس .

وقوله : « ما يمسكن إلا الرحمان » كالجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً يسأل فيقول : ما هو المراد بإفادات نظرهم إلى صيف الطير وقبضه فوقهم ؟ فاجيب بقوله : « ما يمسكن إلا الرحمان » .

وقرار الطير حال الطيران في الهواء من غير سقوط وإن كانت مستنداً إلى أسباب طبيعية كقرار الإنسان على بسيط الأرض والسمك في الماء وسائر الأمور الطبيعية المستندة إلى علل طبيعية تنتهي إليه تعالى لكن لما كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان في بادي النظر سهل له إذا نظر إليه أن ينتقل إلى أن الله سبحانه هو السبب الأعلى الذي ينتهي إليه حدوثه ووجوده ، ولذا نبههم الله سبحانه في كلامه بإرجاع نظرهم إليها ودلائلهم على وحدانيته في الربوبية .

وقد ورد في كلامه تعالى شيء كثير من هذا القبيل كإمسك السماوات بغير عمد وإمسك الأرض وحفظ السفن على الماء واختلاف الأثمار والألوان والألسنة وغيرها مما كان سببه الطبيعي القريب خفياً في الجملة يسهل للذهن الساذج الانتقال إلى استناده إليه تعالى ثم إذا تنبه لوجود أسبابه القريبة بنوع من المجاهدة الفكرية وجد الحاجة بعينها في أسبابه حتى تنتهي إليه تعالى وأن إلى ربك المنتهى .

قال في الكشف : فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ولم يقل : وقابضات ؟ قلت : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة هو مد الأطراف وبسطها وأما القبض فطاريء على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهم صافات ويكون منهم القبض تارة كما يكون من السابح . انتهى .

وهو مبني على أن تكون الآية هي مجموع قوله : « صافات ويقبضن » وهو الطيران ،

ويمكن أن يستفاد أن الآية عدم سقوطهم ومن صفات ، وآية أخرى أنهم ربما يقبضن ولا يسقطن حيناً يقبضن .

ولا يخفى ما في ذكر طيران الطير في الهواء بعد ذكر جعل الأرض ذلولاً والإنسان على مناكبها من اللطف .

قوله تعالى : « أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان إن الكافرون إلا في غرور » توبيخ وتقريع لهم في اتخاذهم آلهة من دون الله لينصروهم ولذا التفت عن الغيبة إلى الخطاب فخطبهم ليستد عليهم التقريع .

وقوله : « أمن هذا الذي » الخ ، معناه بل من الذي يشار إليه فيقال : هذا جند لكم ينصركم من دون الرحمان إن أرادكم بسوء أو عذاب ؟ فليس دون الله من ينصركم عليه ، وفيه إشارة إلى خطإهم في اتخاذ بعض خلق الله آلهة لينصروهم في النوائب وهم مملوكون لله لا يملكون لأنفسهم نفعا وضراً ولا لغيرهم .

وإذ لم يكن لهم جواب أجاب تعالى بقوله : « إن الكافرون إلا في غرور » أي أحاط بهم الغرور وغشيم فخيّل اليهم ما يدعون من ألوهية آلهتهم .

قوله تعالى : « أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور » أي بل من الذي يشار إليه بأن هذا هو الذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه فينبوب مقامه فيرزقكم ؟ ثم أجاب سبحانه بقوله : « بل لجوا في عتو ونفور » أي إن الحق قد تبين لهم لكنهم لا يخضعون للحق بتصديقه ثم اتبعه بل تمادوا في ابتعادهم من الحق ونفورهم منه ، ولجوا في ذلك .

قوله تعالى : « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » إكباب الشيء على وجهه إسقاطه عليه ، وقال في الكشف : معنى أكب دخل في الكب وصار ذا كب .

استفهام إنكاري عن استواء الحالين تعريضاً لهم بعد ضرب حجاب الغيبة عليهم وتحريمهم من تشريف الحضور والخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم ، والمراد أنهم بلجاجهم في عتو عجيب ونفور من الحق كمن يسلك سبيلاً وهو مكب على وجهه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع وانخفاض ومزالق ومعائر فليس هذا السائر كمن يمشي سوياً على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه وما يواجهه من الطريق على استقامة ، وما يقصده من الغاية

وهؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياة وهم يعاندون الحق على علم به فيغضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه والعمل بما عليهم أن يعملوا به ولا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيرة من الأمر ويسلكوا سبيل الحياة وهم مستورون على صراط مستقيم فبأمنوا الهلاك . وقد ظهر أن ما في الآية مثل عام يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتأدي على جهله والمؤمن المستبصر الباحث عن الحق .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال : القلب أربعة : قلب فيه نفاق وإيمان ، وقلب منكوس ، وقلب مطبوع ، وقلب أزهر . فقلت : ما الأزهر ، قال : فيه كهيئة السراج .

فأما المطبوع فقلب المنافق ، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر ، وأما المنكوس فقلب المشرك ثم قرأ هذه الآية : « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » ، فأما القلب الذي فيه إيمان ونفاق فقوم كانوا بالطائف فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك وإن أدركه على إيمانه نجي .

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن الفضيل عن سعد الخفاف عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن القلوب أربعة ، وساق الحديث إلى آخره إلا أن فيه : وقلب أزهر أنور .

وقوله : « فهم قوم كانوا بالطائف » المراد به الطائف الشيطاني الذي ربما يمس الإنسان قال تعالى : « إن الدين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » ، الأعراف : ٢٠١ ، فالمعنى أنهم يعيشون مع طائف شيطاني يمسهم حيناً بعد حين فإن أدركهم الأجل والطائف معهم هلكوا وإن أدركهم وهم في حال الإيمان نجوا .

واعلم أن هناك روايات تطبق قوله : « أفمن يمشي مكباً على وجهه » الآية على من حاد عن ولاية علي عليه السلام ومن يتبعه ويواليه ، وهي من الجري والله أعلم .

* * *

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
 قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ — ٢٣ . قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
 تُحْشَرُونَ — ٢٤ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ — ٢٥ .
 قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ — ٢٦ . فَلَمَّا رَأَوْهُ
 زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ — ٢٧ .
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ
 مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ — ٢٨ . قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ — ٢٩ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ
 مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ — ٣٠ .

(بيان)

آيات أخر يذكرهم الله تعالى بها دالة على وحدانيته تعالى في الخلق والتدبير مقرونة
 بالإنذار والتخويف ، جارية على غرض السورة وهو التذكير بالوحدانية مع الإنذار غير
 أنه تعالى لما أشار إلى لجأهم وعنادهم للحق في قوله السابق : « بل لجئوا في عتو ونفور »
 غير السياق بالإعراض عن خطابهم والالتفات إلى خطاب النبي ﷺ بأمره أن يتصدى
 خطابهم ويقرع أسماعهم آياته في الخلق والتدبير الدالة على توحيده في الربوبية وإنذارهم
 بعذاب الله ، وذلك قوله : « قل هو الذي أنشأكم ، الخ » ، « قل هو الذي ذرأكم ، الخ » ،
 « قل إنما أعلم ، الخ » ، « قل أرايتم إن أهلكني الله ، الخ » ، « قل هو الرحمن ، الخ » ، « قل
 أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً ، الخ » .

قوله تعالى : « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » الإنشاء إحداث الشيء ابتداءً وتربيته .

ما في ذيل الآية من لحن العتاب في قوله : « قليلا » ما تشكرون ، وقد تكرر نظيره في غير موضع من كلامه كما في سورة المؤمنون ^(١) والسموات ^(٢) يدل على أن إنشاء تعالى الإنسان وتجهيزه بجهاز الحس والفكر من أعظم نعمه تعالى التي لا يقدر قدرها .

وليس المراد بإنشائه مجرد خلقه كيفما كان بل خلقه وإحداثه من دون سابقة في مادته كما أشار إليه في قوله يصف خلقه طورا بعد طور : « واقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة - إلى أن قال - ثم أنشأناه خلقا آخر » المؤمنون : ١٤ ، فصيورة المضغة إنسانا سمعيا بصيرا متفكرا بتركيب النفس الإنسانية عليها خلق آخر لا يسانخ أنواع الخلقة المادية الواردة على مادة الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفة ثم علقة ثم مضغة فإنما هي أطوار مادية متعاقبة بخلاف صيرورتها إنسانا ذا شعور فلا سابقة لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء .

ومثله قوله : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » الروم : ٢٠ (انظر إلى موضع إذا الفجائية) .

فقوله : « هو الذي أنشأكم » إشارة إلى خلق الإنسان .

وقوله : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » إشارة إلى تجهيزه بجهاز الحس والفكر ، والجعل إنشائي كجعل نفس الإنسان كما يشير إليه قوله : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » المؤمنون : ٧٨ .

فالإنسان بخصوصية إنشائه وكونه بحيث يسمع ويبصر يمتاز من الجماد والنبات - والاقتصار بالسمع والبصر من سائر الحواس كاللمس والذوق والشم لكونها العمدة ولا يبعد أن يكون المراد بالسمع والبصر مطلق الحواس الظاهرة من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل - وبالفؤاد وهو النفس المتفكرة يمتاز من سائر الحيوان .

(١) الآية ٧٨ .

(٢) الآية ٩ .

وقوله : « قليلاً ما تشكرون » أي تشكرون قليلاً على هذه النعمة - أو النعم - العظمى فما زائدة وقليلاً مفعول مطلق تقديره تشكرون شكراً قليلاً ، وقيل : ما مصدرية والمعنى : قليلاً شكركم .

قوله تعالى : « قل هو الذي ذرأكم في الأرض واليه تحشرون » الذرة الخلق والمراد بذريئهم في الأرض خلقهم متعلقين بالأرض فلا يتم لهم كمالهم إلا بأعمال متعلقة بالمادة الأرضية بما زينها الله تعالى بما تنجذب إليه النفس الإنسانية في حياتها المعجلة ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » الكهف : ٨ .

وقوله : « واليه تحشرون » إشارة إلى البعث والجزاء ووعد جازم .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » المراد بهذا الوعد الحشر الموعود ، وهو استعجال منهم استهزاء .

قوله تعالى : « قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » جواب عن قولهم : « متى هذا الوعد » النخ ، وحاصله أن العلم به عند الله لا يعلم به إلا هو كما قال : « لا يحليها لوقتها إلا هو » الأعراف : ١٨٧ ، وليس لي إلا أني نذير مبين أمرت أن أخبركم أنكم اليه تحشرون وأما أنه متى هو فليس لي بذلك علم .

هذا على ما يفيد وقوع الآية في سياق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر ، وعلى هذا تكون اللام في العلم للعهد ، والمراد العلم بوقت الحشر ، وأما لو كانت للجنس على ما تفيد جملة « إنما العلم عند الله » في نفسها فالمعنى : إنما حقيقة العلم عند الله ولا يحاط بشيء منه إلا بإذنه كما قال : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » البقرة : ٢٥٥ ، ولم يشأ أن أعلم من ذلك إلا أنه سيقع وأنذركم به وأما أنه متى يقع فلا علم لي به .

قوله تعالى : « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا » النخ ، الزلفة القرب والمراد به القريب أو هو من باب زيد عدل ، وضمير « رأوه » للوعد وقيل للعذاب والمعنى : فلما رأوا الوعد المذكور قريباً قد أشرف عليهم ساء ذلك وجوه الذين كفروا به فظهر في سيئاتهم أثر الخيبة والخسران .

وقوله : « وقيل هذا الذي كنتم به تدعون » قيل تدعون وتدعون بمعنى واحد

كندخرون وتندخرون والمعنى: وقيل لهم: هذا هو الوعد الذي كنتم تسألونه وتستعجلون به بقولكم: متى هذا الوعد، وظاهر السياق أن القائل هم الملائكة بأمر من الله، وقيل القائل من الكفار يقوله بعضهم لبعض.

قوله تعالى: « قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا فمن ينجي الكافرين من عذاب أليم » « إن » شرطية شرطها قوله: « أهلكني الله » وجزاؤها قوله: « فمن ينجي » الخ، والمعنى: قل لهم أخبروني إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين أو رحمتنا فلم يهلكنا فمن الذي ينجي ويبعد الكافرين - وهم أنتم كفرتم بالله فاستحققت أليم العذاب - من عذاب أليم يهددهم تهديداً قاطعاً أي إن هلاكي ومن معي وبقاؤنا برحمة ربي لا ينفعكم شيئاً في العذاب الذي سيصيبكم قطعاً بكفركم بالله.

قيل: إن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر ﷺ أن يقول لهم إن أهلكننا الله تعالى أو أبقانا فأمرنا إلى الله ونرجو الخير من رحمته وأما أنتم فما تصنعون؟ من ينجيكم من أليم العذاب على كفركم بالله؟

قوله تعالى: « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين » الضمير للذي يدعو إلى توحيده وهم يدعونه عليه، والمعنى: قل الذي أدعوكم إلى توحيده وتدعونه علي وعلى من معي هو الرحمن الذي عمت نعمته كل شيء آمنا به وعليه توكلنا من غير أن نميل ونعتمد على شيء دونه فستعلمون أي الكفار من هو في ضلال مبين؟ نحن أم أنتم؟

قال في الكشاف: فإن قيل: لم آخر مفعول « آمنا » وقدم مفعول « توكلنا »؟ قلت: لوقوع آمناً تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم كأنه قيل: آمناً ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكئون عليه من رجالكم وأهلككم.

قوله تعالى: « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر، والمعين الظاهر البخاري من الماء، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائراً ناضباً في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار.

وهناك روايات تطبق الآيات على ولاية علي عليه السلام ومحدثه، وهي من الجري ولست بمفسرة.

* * *

(سورة القلم مكية ، وهي اثنان وخمسون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ — ١ . مَا
أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ — ٢ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ — ٣ .
وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ — ٤ . فَسَتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ — ٥ . بِأَبْصَارِكُمُ
الْمَفْتُونُ — ٦ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ — ٧ . فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ — ٨ . وَذُوا لَوْ تَذَهْنُ
فَيَذَهَبُونَ — ٩ . وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ — ١٠ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ
بِنَمِيمٍ — ١١ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ — ١٢ . عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ
زَنِيمٍ — ١٣ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ — ١٤ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا
قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ — ١٥ . سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ — ١٦ . إِنَّا
بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ — ١٧ .
وَلَا يَسْتَنْثَوْنَ — ١٨ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ — ١٩ .
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ — ٢٠ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ — ٢١ . أَنْ أَعْدُوا
عَلَىٰ حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ — ٢٢ . فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ — ٢٣ .
أَنْ لَا يَدْخُلْنَاهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينُ — ٢٤ . وَغَدَا عَلَىٰ حَرْدٍ
قَادِرِينَ — ٢٥ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ — ٢٦ . بَلْ نَحْنُ

مَحْرُومُونَ - ٢٧ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ - ٢٨ .
 قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ - ٢٩ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
 يَتَلَوُمُونَ - ٣٠ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ - ٣١ . عَسَى
 رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبَّنَا رَاغِبُونَ - ٣٢ . كَذَلِكَ
 الْعَذَابُ وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ - ٣٣ .

(بيان)

السورة تعزّي النبي ﷺ إثر ما رماه المشركون بالجنوب وتطيتب نفسه بالوعد الجميل
 والشكر على خلقه العظيم وتنهاء نهياً بالفا عن طاعتهم ومداهنتهم ، وتأمره أمراً أكيداً
 بالصبر لحكم ربه .

وسباق آياتها على الجملة سياق مكي ، ونقل عن ابن عباس وقتادة أن صدرها إلى قوله :
 نسمة على الخرطوم - ستة عشرة آية - مكي ، وما بعده إلى قوله : « لو كانوا يعلمون »
 - سبع عشرة آية - مدني ، وما بعده إلى قوله : « يكتبون » - خمس عشرة آية - مكي ،
 وما بعده إلى آخر السورة - أربع آيات مدني .

ولا يخلو من وجه بالنسبة إلى الآيات السبع عشرة « إنا بلوناكم » إلى قوله - لو كانوا
 يعلمون » فإنها أشبه بالمدينة منها بالمكية .

قوله تعالى : « ن » تقدم الكلام في الحروف المقطعة التي في أوائل السور في تفسير
 سورة الشورى .

قوله تعالى : « والقلم وما يسطرون » القلم معروف ، والسطر بالفتح فالسكون وربما
 يستعمل بفتحين - كما في المفردات - الصف من الكتابة ، ومن الشجر المغروس ومن
 القوم الوقوف واطر فلان كذا كتب سطرّاً سطرّاً .

أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون به وظاهر السياق أن المراد بذلك مطلق القلم

ومطلق ما يسطرون به وهو المكتوب فإن القلم وما يسطر به من الكتابة من أعظم النعم الإلهية التي اهتدى إليها الإنسان يتلو الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار والمعاني المستكنة في الضمائر ، وبه يتيسر للإنسان أن يستحضر كل ما ضرب مرور الزمان أو بعد المكان دونه حجاباً .

وقد امتنَّ الله سبحانه على الإنسان بهدايته اليها وتعليمها له فقال في الكلام : « خلق الإنسان علمه البيان » الرحمن : ٤ ، وقال في القلم : « علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم الملق : ٥ .

فإقسامه تعالى بالقلم وما يسطرون إقسام بالنعمة ، وقد أقسم تعالى في كلامه بكثير من خلقه بما أنه رحمة ونعمة كالسما والأرض والشمس والقمر والليل والنهار إلى غير ذلك حتى التين والزيتون .

وقيل : « ما » في قوله : « وما يسطرون » مصدرية والمراد به الكتابة .
وقيل : المراد بالقلم القلم الأعلى الذي في الحديث أنه أول ما خلق الله وبما يسطرون ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون واحتمل أيضاً أن يكون الجمع في « يسطرون » للتعظيم لا للتكثير وهو كما ترى ، واحتمل أن يكون المراد ما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ واحتمل أن يكون المراد بالقلم وما يسطرون أصحاب القلم ومسطوراتهم وهي احتمالات واهية .

قوله تعالى : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » مقسم عليه والخطاب للنبي ﷺ ، والباء في « بنعمة » للسببية أو المصاحبة أي ما أنت بمجنون بسبب النعمة - أو مع النعمة - التي أنعمها عليك ربك .

والسياق يؤيد أن المراد بهذه النعمة النبوة فإن دليل النبوة يدفع عن النبي كل اختلال عقلي حتى تستقيم الهداية الإلهية اللازمة في نظام الحياة الإنسانية ، والآية ترد ما رموه به من الجنون كما يحكى عنهم في آخر السورة « ويقولون إنه لمجنون » .

وقيل : المراد بالنعمة فصاحته ﷺ وعقله الكامل وسيرته المرضية وبراهمه من كل عيب واتصافه بكل مكرمة فظهور هذه الصفات فيه ﷺ ينافي حصول الجنون فيه وما قدمناه أقطع حجة والآية وما يتلوها كما ترى تعزية للنبي ﷺ وتطبيب لنفسه الشريفة وتأييد له كما أن فيها تكذيباً لقولهم .

قوله تعالى : « وإن لك لأجر غير ممنون » الممنون من المن بمعنى القطع يقال : منته السير منّا إذا قطعه وأضعفه لا من المنة بمعنى تثقيل النعمة قولاً .
والمراد بالأجر أجر الرسالة عند الله سبحانه ، وفيه تطيب لنفس النبي ﷺ وأن له على تحمل رسالة الله أجراً غير مقطوع وليس يذهب سدى .

وربما أخذ المن بمعنى ذكر المنعم إنعامه على المنعم عليه بحيث يثقل عليه ويكدر عيشه بتقريب أن ما يعطيه الله أجر في مقابل عمله فهو يستحقه عليه تعالى فلا منة عليه وهو غير سديد فإن كل عامل مملوك لله سبحانه بحقيقة معنى الملك بذاته وصفاته وأعماله فما يعطيه العبد من ذلك فهو موهبة وعطية وما يملكه العبد من ذلك فإنما يملكه بتعميلك الله وهو المالك لما ملكه من قبل ومن بعد فهو تفضل منه تعالى ولئن سمى ما يعطيه بإزاء العمل أجراً وسمى ما بينه وبين عبده من مبادلة العمل والأجر معاملة فذلك تفضل آخر فله سبحانه المنة على جميع خلقه والرسول ومن دونه فيه سواء .

قوله تعالى : « وإنك لعلی خلق عظیم » الخلق هو الملكة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة وينقسم إلى الفضيلة وهي المدروحة كالعفة والشجاعة ، والرذيلة وهي المذمومة كالشره والجبن لكنه إذا أطلق فهم منه الخلق الحسن .

قال الراغب : والخلق - بفتح الخاء - والخلق - بضم الخاء - في الأصل واحد كالشرب والشرب والصرم والصرم لكن خص الخلق - بالفتح - بالهينات والأشكال والصور المدركة بالبصر ، وخص الخلق - بالضم - بالقوى والسجایا المدركة بالبصيرة قال تعالى : « وإنك لعلی خلق عظیم » انتهى .

والآية وإن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه ﷺ وتعظمه غير أنها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على أذى الناس وجفاء أجلافهم والعفو والإغماض وسعة البذل والرفق والمداواة والتواضع وغير ذلك ، وقد أوردنا في آخر الجزء السادس من الكتاب ما روي في جوامع أخلاقه ﷺ .

ومما تقدم يظهر أن ما قيل : إن المراد بالخلق الدين وهو الإسلام غير مستقيم إلا بالرجوع إلى ما تقدم .

قوله تعالى : « فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون » تفريع على محصل ما تقدم أي فإذا لم تكن مجنوناً بل متلبساً بالنبوة ومتخلفاً بالخلق ولك عظيم الأجر من ربك فسيظهر أمر دعوتك وينكشف على الأبصار والبصائر من المفتون بالجنون أنت أو المكذوبون الرامون لك بالجنون .

وقيل : المراد ظهور عاقبة أمر الدعوة له ولهم في الدنيا أو في الآخرة ؟ الآية تقبل الحمل على كل منها . ولكل قائل ، ولا مانع من الجمع فإن الله تعالى أظهر نبيه عليهم ودينه على دينهم ، ورفع ذكره ﷺ ومحا أثرهم في الدنيا وسيدوقون وبال أمرهم غداً ويعلمون ^(١) أن الله هو الحق المبين يوم هم ^(٢) على النار يفتنون ذوقوا فنتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون .

وقوله : « بأيكم المفتون » الباء زائدة للصلة ، والمفتون اسم مفعول من الفتنة بمعنى الإبتلاء يريد به المبتلى بالجنون وفقدان العقل ، والمعنى : فستبصر ويبصرون أيكم المفتون المبتلى بالجنون ؟ أنت أم هم ؟

وقيل : المفتون مصدر على زنة مفعول كعقول وميسور ومعسور في قولهم : ليس له معقول ، وخذ ميسوره ، ودع معسوره ، والباء في « بأيكم » بمعنى في والمعنى : فستبصر ويبصرون في أي الفريقين الفتنة .

قوله تعالى : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين لما أفيد بما تقدم من القول أن هناك ضللاً واهتداء ، وأشير إلى أن الرامين للنبي ﷺ بالجنون هم المفتونون الضالون وسيظهر أمرهم وأن النبي ﷺ مهتد وكان ذلك ببيان من الله سبحانه أكد ذلك بأن الله أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين لأن السبيل سبيله وهو أعلم بمن هو في سبيله ومن ليس فيه وإليه أمر الهداية .

قوله تعالى : « فلا تطع المكذبين » تفريع على المحصل من معنى الآيات السابقة وفي المكذبين معنى العهد والمراد بالطاعة مطلق الموافقة عملاً أو قولاً ، والمعنى : فإذا كانت هؤلاء المكذوبون لك مفتونين ضالين فلا تطعهم .

(١) النور : ٣٥ .

(٢) الذاريات : ١٤ .

قوله تعالى : « ودُّوا لو تدهن فيدهنون » الإدهان من الدهن يراد به التليين أي ودُّوا أحبُّ هؤلاء المكذِبون أن تليَنهم بالاقتراب منهم في دينك فيليَنوك بالاقتراب منك في دينهم ، ومحصله أنهم ودُّوا أن تصالحهم ويصالحوك على أن يتسامح كل منكم بعض المساحة في دين الآخر كما قيل : إنهم عرضوا عليه أن يكفَّ عن ذكر آلهتهم فيكفُّوا عنه وعن ربه .

وبما تقدم ظهر أن متعلق مودَّتْهم بمجموع « لو تدهن فيدهنون » وأن الفاء في « فيدهنون » للتفريع لا للسببية .

قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين - إلى قوله - زنيم » الحلاف كثير الحلف ، ولأزم كثرة الحلف والإقسام في كل يسير وخطير وحق وباطل أن لا يحترم الحالف شيئاً مما يقسم به ، وإذا كان حلفه بالله فهو لا يستشعر عظمة الله عز اسمه وكفى به رذيلة .
والمهين من المهانة بمعنى الحقارة والمراد به حقارة الرأي ، وقيل : هو المكثار في الشر ، وقيل : هو الكذاب .

والهمّاز مبالغة من الهمز والمراد به العيثاب والطعنان ، وقيل : الطعنان بالعين والإشارة وقيل : كثير الاغتياب .
والمشاء بنميم النميم : السعاية والإفساد ، والمشاء به هو نقال الحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم .

والمَناع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الذي ينال أهله .
والمعتدي من الاعتداء وهو المجاوزة للحدّ ظلماً .
والأثم هو الذي كثر إثمُه حتى استقر فيه من غير زوال والإثم هو العمل السيئ الذي يبطل به الخير .

والمعتلّ بضمّتين هو اللفظ الغليظ الطبع ، وفَسَّر بالفاسحش السيئ الخلق ، وبالجانبي الشديد الخصومة بالباطل ، وبالأكل المتنوع للغير ، وبالذي يعتلّ الناس ويجرّهم إلى حبس أو عذاب .

والزنيم هو الذي لا أصل له ، وقيل : هو الدعيّ المالحق بقوم وليس منهم ، وقيل : هو المعروف باللؤم ، وقيل : هو الذي له علامة في الشر يعرف بها وإذا ذكر الشر سبق هو إلى الدهن ، والمعاني متقاربة .

فهذه صفات تسع رذيلة وصف الله بها بعض أعداء الدين ممن كان يدعو النبي ﷺ إلى الطاعة والمداينة ، وهي جماع الرذائل .

وقوله : « عتل » بعد ذلك زعيم « معناه أنه بعدما ذكر من مثالبه ورذائله عتل زعيم قيل : وفيه دلالة على أن هاتين الرذيلتين أشد معايبه .

والظاهر أن فيه إشارة إلى أن له خباثت من الصفات لا ينبغي معها أن يطاع في أمر الحق ولو أغمض عن تلك الصفات فإنه فظ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغي أن يعبا بثله في مجتمع بشري فلا يطرد ولا يطع في قول ولا يتبع في فعل .

قوله تعالى : « أن كان ذا مال وبنين » الظاهر أنه بتقدير لام التعليل وهو متعلق بفعل محصل من مجموع الصفات الرذيلة المذكورة أي هو يفعل كذا وكذا لأن كان ذا مال وبنين فبطر بذلك وكفر بنعمة الله وتلبس بكل رذيلة خبيثة بدل أن يشكر الله على نعمته ويصلح نفسه ، فالآية في إفادة الذم والتهم تجري مجرى قوله : « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك » .

وقيل : إنه متعلق بقوله السابق « لا تطع » ، والمعنى : لا تطعه لكونه ذا مال وبنين أي لا يحملك كونه ذا مال وبنين على طاعته ، والمعنى المتقدم أقرب وأوسع .
قيل : ولا يجوز تعلقه بقوله : « قال » في الشرطية التالية لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله عند النحاة .

قوله تعالى : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » الأساطير جمع اسطورة وهي القصة الخرافية ، والآية تجري مجرى التعليل لقوله السابق : « لا تطع » .

قوله تعالى : « سنسمه على الخرطوم » الوسم والسمة وضع العلامة ، والخرطوم الأنف ، وقيل : إن في إطلاق الخرطوم على أنفه وإنما يطلق في الفيل والخنزير تهكاً ، وفي الآية وعيد على عداوته الشديدة لله ورسوله وما نزل على رسوله .

والظاهر أن الوسم على الأنف أريد به نهاية إذلاله بذلة ظاهرة يعرف بها كل من رآه فإن الأنف مما يظهر فيه العزة والذلة كما يقال : شبح فلان بأنفه وحمي فلان أنفه وأرغمت أنفه وجدع أنفه .

والظاهر أن الوسم على الخرطوم مما سيقع يوم القيامة لا في الدنيا وإن تكلف بعضهم في توجيه حمله على فضاحته في الدنيا .

قوله تعالى : « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة - إلى قوله - كالصريم » البلاء الاختبار وإصابة المصيبة ، والصريم قطع الثمار من الأشجار ، والاستثناء عزل البعض من حكم الكل وأيضاً الاستثناء قول إن شاء الله عند القطع بقول وذلك أن الأصل فيه الاستثناء فالأصل في قولك : أخرج غداً إن شاء الله هو أخرج غداً إلا أن يشاء الله أن لا أخرج ، والطائف العذاب الذي يأتي بالليل ، والصريم الشجر المقطوع ثمره ، وقيل : الليل الأسود ، وقيل : الرمل المقطوع من سائر الرمل وهو لا ينبت شيئاً ولا يفيد فائدة .

الآيات أعني قوله : « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة » إلى تمام سبع عشرة آية وعيد لمكذبي النبي ﷺ الرامين له بالجنون ، وفي التشبيه والتنظير دلالة على أن هؤلاء المكذبين معذبون لا محالة والعذاب الواقع عليهم قائم على ساقه ، غير أنهم غافلون وسيمعلون ، فهم مولعون اليوم بجمع المال وتكثير البنين مستكبرون بها معتمدون عليها وعلى سائر الأسباب الظاهرية التي توافقهم وتشايح أهواءهم من غير أن يشكروا ربهم على هذه النعم ويسلكوا سبيل الحق ويعبدوا ربهم حتى يأتيهم الأجل ويفاجئهم عذاب الآخرة أو عذاب دنيوي من عنده كما فاجأهم يوم بدر فيروا انقطاع الأسباب عنهم وأن المال والبنين سدى لا ينفعهم شيئاً كما شاهد نظير ذلك أصحاب الجنة من جنتهم وسيندمون على صنيعهم ويرغبون إلى ربهم ولا يرد ذلك عذاب الله كما ندم أصحاب الجنة وتلاوموا ورغبوا إلى ربهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، هذا على تقدير اتصال الآيات بها قبلها ونزولها معها .

وأما على ما رووا أن الآيات نزلت في القحط والسنة الذي أصاب أهل مكة وقريشاً إثر دعاء النبي ﷺ عليهم بقوله : اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلهم ساء عليهم سنين كسني يوسف ، فالمراد بالبلاء إصابتهم بالقحط وتناظر قصتهم قصة أصحاب الجنة غير أن في انطباق ما في آخر قصتهم من قوله : « فأقبل بعضهم على بعض ، الخ » على قصة أهل مكة خفاء .

وكيف كان فالمعنى : « إنا بلوناكم » أصبناهم بالبليّة « كما بلونا » وأصبنا بالبليّة « أصحاب الجنة » وكانوا قوماً من اليمن وجنتهم فيها وسيأتي إن شاء الله قصتهم في البحث الروائي الآتي « إذ ظرف لبلونا » أفسموا « وحلقوا » ليصرمنتها « أي ليقطعن » ويقطفن ثمار جنتهم « مصبحين » داخلين في الصباح وكأنهم ائتمروا وتشاوروا ليللاً فعزموا على

الصرم صبيحة ليلتهم « ولا يستثنون » لم يقولوا إلا أن يشاء الله اعتماداً على أنفسهم واتكأً على ظاهر الأسباب . أو المعنى : قالوا وهم لا يعزلون نصيباً من ثمارهم للفقراء والمساكين . « فطاف عليها » على الجنة « طائف » أي بلاء يطوف عليها ويحيط بها ليلاً « من » ناحية « ربك » فأصبحت « وصارت الجنة « كالصريم » وهو الشجر المقطوع ثمره أو المعنى : فصارت الجنة كالليل الأسود لما اسودت بإحراق النار التي أرسلها الله اليها أو المعنى : فصارت الجنة كالقطعة من الرمل لا نبات بها ولا فائدة .

قوله تعالى : « فتنادوا مصبحين - إلى قوله - قادرين » التنادي نداء بعض القوم بعضاً ، والإصباح الدخول في الصباح ، وصارمين من الصرم بمعنى قطع الثمار من الشجرة ، والمراد به في الآية القاصدون لقطع الثمار ، والحراث الزرع والشجر ، والخفت الإخفاء والكتمان ، والحرد المنع وقادرين من القدر بمعنى التقدير .

والمعنى : « فتنادوا » أي فنادى بعض القوم بعضاً « مصبحين » أي والحال أنهم داخلون في الصباح « أن أغدوا على حرثكم » تفسير للتنادي أي بكرروا مقبلين على جنتكم - فأغدوا أمر بمعنى بكرروا مضمن معنى أقبلوا ولذا عدي بعلى ولو كان غير مضمن عدي بآلى كما في الكشف - « إن كنتم صارمين » أي قاصدين عازمين على الصرم والقطع . « فانطلقوا » وذهبوا إلى جنتهم « وهم يتخافتون » أي والحال أنهم يأتمرون فيما بينهم بطريق الخفاقة والمكاتة « أن لا يدخلنها » أي الجنة « اليوم عليكم مسكين » أي أخفوا ورودكم الجنة للصرم من المساكين حتى لا يدخلوا عليكم فيحملكم ذلك على عزل نصيب من الثمر المصروم لهم « وغدوا » وبكرروا إلى الجنة « على حرد » أي على منع للمساكين « قادرين » مقدرين في أنفسهم أنهم سيصرونها ولا يساهمون المساكين بشيء منها .

قوله تعالى : « فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون » أي فلما رأوا الجنة وشاهدوها وقد أصبحت كالصريم بطواف طائف من عند الله قالوا : إنا لضالون عن الصواب في غدونا إليها بقصد الصرم ومنع المساكين .

وقيل : المراد إنا لضالون طريق جنتنا وما هي بها .

وقوله : « بل نحن محرومون » إضراب عن سابقه أي ليس مجرد الضلال عن الصواب بل حرماننا الزرع .

قوله تعالى : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون - إلى قوله - راغبون » أي

« قال أوسطهم » أي أعد لهم طريقاً وذلك أنه ذكرهم بالحق وإن تبعهم في العمل وقيل : المراد أوسطهم سناً وليس بشيء « ألم أقل لكم » وقد كان قال لهم ذلك وإنما لم يذكر قبل في القصة إيجازاً بالتعويل على ذكره هنا .

« لولا تسبحون » المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيهم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم وعلى سائر الأسباب الظاهرية فأقسموا ليصر منها مصبحين ولم يستثنوا الله مشية فعزلوه تعالى عن السببية والتأثير ونسبوا التأثير إلى أنفسهم وسائر الأسباب الظاهرية ، وهو إثبات للشريك ، ولو قالوا : لنصر منها مصبحين إلا أن يشاء الله كان معنى ذلك نفي الشركاء وأنهم إن لم يصرموا كان لمشية من الله وإن صرموا كان ذلك بإذن من الله فله الأمر وحده لا شريك له .

وقيل : المراد بتسبيحهم لله ذكر الله تعالى وتوحيته اليه حيث نوا أن يصرموها ويحرموا المساكين منها ، وله وجه على تقدير أن يراد بالاستثناء عزل نصيب من الثمار للمساكين .

قوله تعالى : « قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين » تسبيح منهم لله سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم ، أي ننزه الله تنزيهاً من الشركاء الذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربنا الذي يدبر بمشيئته أمورنا لأننا كنا ظالمين في إثباتنا الشركاء فهو تسبيح واعتراف بظلمهم على أنفسهم في إثبات الشركاء .

وعلى القول الآخر توبة واعتراف بظلمهم على أنفسهم وعلى المساكين .

قوله تعالى : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » أي يلوم بعضهم بعضاً على ما ارتكبوه من الظلم .

قوله تعالى : « قالوا يا ويلنا - إلى قوله - راغبون » الطغيان تجاوز الحد وضمير « منها » للجنة باعتبار ثمارها والمعنى : قالوا يا ويلنا إنا كنا متجاوزين حد العبودية إذ أثبتنا شركاء لربنا ولم نوحده ، ونرجو من ربنا أن يبدلنا خيراً من هذه الجنة التي طاف عليها طائف منه لأننا راغبون إليه معرضون عن غيره .

قوله تعالى : « كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » العذاب مبتدأ مؤخر ، وكذلك خبر مقدم أي إنما يكون العذاب على ما وصفناه في قصة أصحاب الجنة وهو أن الإنسان يتمتع بالمال والبنين فيطغى مغترأ بذلك فيستغنى بنفسه وينسى ربه ويشرك بالأسباب الظاهرية وبنفسه ويحتريء على المعصية وهو غافل عما يحيط به من وبال

عمله ويهيؤ له من العذاب كذلك حتى إذا فاجأه العذاب وبرز له بأهول وجوهه وأمرها انتبه من نومة الغفلة وتذكر ما جاءه من النصح قبلًا وندم على ما فرط بالطغيان والظلم وسأل الله أن يعيد عليه النعمة فيشكر كما انتهى إليه أمر أصحاب الجنة ، ففي ذلك إعطاء الضابط بالمثال .

وقوله : « وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » لأنه ناش عن قهر إلهي لا يقوم له شيء لا رجاء للتخلص منه ولو بالموت والفناء كما في شذائد الدنيا ، يحيط بالإنسان من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمدته كما في الابتلاءات الدنيوية .

(بحث روائي)

في المعاني بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام في تفسير الحروف المقطعة في القرآن قال : وأما ن فهو نهر في الجنة قال الله عز وجل : اجعد فجعد فصار مداداً ثم قال للقلم : اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فالمداد مداد من نور والقلم قلم من نور واللوح لوح من نور .

قال سفيان : فقلت له : يا بن رسول الله بين أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلمي مما علمك الله فقال : يا ابن سعيد لولا أنك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدي إلى القلم وهو ملك ، والقلم يؤدي إلى اللوح وهو ملك ، واللوح يؤدي إلى إسرافيل وإسرافيل يؤدي إلى ميكائيل وميكائيل يؤدي إلى جبرائيل وجبرائيل يؤدي إلى الأنبياء والرسل . قال : ثم قال : قم يا سفيان فلا آمن عليك .

وفيه بإسناده عن إبراهيم الكرخي قال : سألت جعفر بن محمد عليه السلام عن اللوح والقلم قال : هما ملكان .

وفيه بإسناده عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام : « ن والقلم وما يسطرون » القلم قلم من نور وكتاب من نور في لوح محفوظ يشهده المقربون وكفى بالله شهيداً . أقول : وفي المعاني المتقدمة روايات أخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الجاثية : ٢٩ ، حديث القمي عن عبد الرحيم القصير عن الصادق عليه السلام في اللوح والقلم وفيه : ثم ختم على قم القلم فلم ينطق بعد ذلك ولا ينطق أبداً وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن معاوية بن قرّة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ن والقلم وما يسطرون » قال : لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة .

أقول : وفي معناه روايات أخر ، وقوله : يجري بما هو كائن الخ ، أي منطبق على متن الكائنات من دون أن يتخلف شيء منها عما كتب هناك ونظيره ما في رواية أبي هريرة : ثم ختم على في القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة .

وفي المعاني بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل : « وإنك لعلی خلق عظیم » قال : هو الإسلام .

وفي تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « وإنك لعلی خلق عظیم » قال : على دين عظيم .

أقول : يريد اشتغال الدين والإسلام على كمال الخلق واستنانه ﷺ به ، وفي الرواية المعروفة عنه عليه السلام : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وفي الجمع بإسناده عن الحاكم بإسناده عن الضحاك قال : لما رأت قريش تقديم النبي ﷺ علياً وإعظامه له نالوا من علي وقالوا : قد افتنن به محمد فأنزل الله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » قسم أقسم الله به « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلی خلق عظیم - يعني القرآن - إلى قوله - بمن ضل عن سبيله » وهم النفر الذين قالوا ما قالوا « وهو أعلم بالمهتدين » يعني علي بن أبي طالب .

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن محمد بن العباس بإسناده إلى الضحاك وساق نحواً مما مر وفي آخره : وسبيله علي بن أبي طالب .

وفيه في قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف » الخ ، قيل : يعني الوليد بن المغيرة عرض على النبي ﷺ المال ليرجع عن دينه ، وقيل : يعني الأخنس بن شريق عن عطاء ، وقيل : يعني الأسود بن عبد يغوث عن مجاهد .

أقول : وفي ذلك روايات في الدر المنثور وغيره تركنا إيرادها من أرادها فليراجع جوامع الروايات .

وفيه عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة جواظ ولا جمعظري ولا عتل زنيم . قلت : فما الجواظ ؟ قال : كل جماع مناع . قلت : فما الجمعظري ؟

قال : اللفظ الغليظ . قلت : فما العتل الزنيم ؟ قال : كل رحيب الجوف سييء الخلق أكل شروب غشوم ظلوم زنيم .

وفيه في معنى الزنيم : قيل هو الذي لا أصل له .

وفي تفسير القمي في قوله : « عتل بعد ذلك زنيم » قال : العتل العظيم الكفر الزنيم الدعي .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة » إن أهل مكة ابتلوا بالجوع لما ابتلي أصحاب الجنة وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء .

وفيه بإسناده إلى ابن عباس أنه قيل له إن قوماً من هذه الأمة يزعمون أن العبد يذنب فيحرم به الرزق ، فقال ابن عباس : فوالله الذي لا إله إلا هو هذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية ذكره الله في سورة ن والقلم .

إنه كان شيخ وكان له جنة وكان لا يدخل إلى بيته ثمرة منها ولا إلى منزله حتى يعطي كل ذي حق حقه فلما قبض الشيخ ورثه بنوه وكان له خمس من البنين فحملت جنتهم في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملاً لم يكن حملته قبل ذلك فراحوا الفتية إلى جنتهم بعد صلاة العصر فأشرفوا على ثمرة ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم .

فلما نظروا إلى الفضل طغوا وبغوا وقال بعضهم لبعض : إن أبانا كان شيخاً كبيراً قد ذهب عقله وخرف فهاؤوا تتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي أحداً من فقراء المسلمين في عامنا شيئاً حتى نستغني ويكثر أموالنا ثم نستأنف الصنيعة فيما استقبل من السنين المقبلة فرضي بذلك منهم أربعة وسخط الخامس وهو الذي قال الله : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » .

فقال الرجل : يا ابن عباس كان أوسطهم في السن ؟ فقال : لا بل كانت أصغرهم سناً وأكبرهم عقلاً وأوسط القوم خير القوم ، والدليل عليه في القرآن قوله : إنكم يا أمة محمد أصغر الأمم وخير الأمم قوله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .

قال لهم أوسطهم : إتقوا وكونوا على منهاج أبيكم تساموا وتغنموا فبطشوا به وضربوه ضرباً مبرحاً فلما أيقن الأخ منهم أنهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارهاً لأمرهم غير طائع .

فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله ليصرمن* إذا أصبحوا ولم يقولوا إن شاء الله فابتلام الله بذلك الذنب وحال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه فأخبر عنهم في الكتاب فتسال : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » قال : كالحترق . فقال الرجل : يا ابن عباس ما الصريم ؟ قال : الليل المظلم ، ثم قال : لا ضوء له ولا نور .

فلما أصبح القوم « فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » قال : « فانطلقوا وهم يتخافتون » قال الرجل : وما التخافت يا ابن عباس ؟ قال : يتشاورون فيشاور بعضهم بعضاً لكيلا يسمع أحد غيرهم فقالوا : « لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين » في أنفسهم أن يصرموها ولا يعلمون ما قد حل بهم من سطوات الله ونقمته .

« فلما رأوها » وما قد حل بهم « قالوا إنا لضالئون بل نحن محرومون » فحرهم الله ذلك الرزق بذنب كان منهم ولم يظلمهم شيئاً .

« قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » قال : يلامون أنفسهم فيما عزموا عليه « قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » فقال الله : « كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

أقول : وقد ورد ما يقرب من مضمون هذا الحديث والذي قبله في روايات أخر وفي بعض الروايات أن الجنة كانت لرجل من بني إسرائيل ثم مات وورثه بنوه فكانت من أمرهم ما كان .

* * *

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ - ٣٤ . أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ
كَالْمُجْرِمِينَ - ٣٥ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ - ٣٦ . أَمْ لَكُمْ

كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ — ٣٧ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ — ٣٨ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ — ٣٩ . سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ — ٤٠ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ — ٤١ . يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ — ٤٢ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ — ٤٣ . فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ — ٤٤ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ — ٤٥ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ — ٤٦ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ — ٤٧ . فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ — ٤٨ . لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ — ٤٩ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ — ٥٠ . وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ — ٥١ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ — ٥٢ .

(يَاف)

فيها تذييل لما تقدم من الوعيد لمكذبي النبي ﷺ وتسجيل العذاب عليهم في الآخرة إذ المتقون في جنات النعيم ، وثبتت أنهم والمتقون لا يستون بحجة قاطعة فليس لهم أن

يرجوا كرامة من الله وهم مجرمون فما يجدونه من نعم الدنيا استدراج وإملاء .
وفيه تأكيد أمر النبي ﷺ بالصبر لحكم ربه .

قوله تعالى : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » بشرى وبيان لحال المتقين في الآخرة قبال ما بين من حال المكذبين فيها .

وفي قوله : « عند ربهم » دون أن يقال : عند الله إشارة إلى رابطة التدبير والرحمة بينهم وبينه سبحانه وأن لهم ذلك قبال قصرهم الربوبية فيه تعالى وإخلاصهم العبودية له . وإضافة الجنات إلى النعيم وهو النعمة للإشارة إلى أن ما فيها من شيء نعمة لا تشوبها نقمة ولذة لا يخالطها ألم ، وسيجيء إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » التكاثر : ٨ ، أن المراد بالنعيم الولاية .

قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » تحتل الآية في بادئ النظر أن تكون مسوقة حجة على المعاد كقوله تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالفاسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ ، وقد تقدم تفسيره .

وأن تكون رداً على قول من قال منهم للمؤمنين : لو كان هناك بعث وإعادة لكننا منعهم كما في الدنيا وقد حكى سبحانه ذلك عن قائلهم : « وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ .

ظاهر سياق الآيات التالية التي ترد عليهم الحكم بالتساوي هو الاحتمال الثاني ، وهو الذي رواه أن المشركين لما سمعوا حديث البعث والمعاد قالوا : إن صح ما يقوله محمد والذين آمنوا معه لم تكن حالنا إلا أفضل من حالهم كما في الدنيا ولا أقل من أن تتساوى حالنا وحالهم .

غير أنه يرد عليه أن الآية لو سبقت لرد قولهم ، سنساويهم في الآخرة أو نزيد عليهم كما في الدنيا ، كان مقتضى التطابق بين الرد والمردود أن يقال : أفنجعل المجرمين كالمسلمين وقد عكس .

والتدبر في السياق يعطي أن الآية مسوقة لرد دعواهم التساوي لكن لا من جهة نفي مساواتهم على إجرامهم للمسلمين بل تزيد على ذلك بالإشارة إلى أن كرامة المسلمين تأبى أن يساويهم المجرمون كأنه قيل : إن قولكم : سنتساوى نحن والمسلمون باطل فإن الله لا يرضى أن يجعل المسلمين بما لهم من الكرامة عنده كالمجرمين وأنتم مجرمون .

فالأية تقيم الحجة على عدم تساوي الفريقين من جهة منافاته لكرامة المسلمين عليه تعالى لا من جهة منافاة مساواة المجرمين للمسلمين عدله تعالى .
والمراد بالإسلام تسليم الأمر لله فلا يتبع إلا ما أَرَادَه سبحانه من فعل أو ترك يقابله الإجماع وهو اكتساب السيئة وعدم التسليم

والآية وما بعدها إلى قوله : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » في مقام الرد لحكمهم بتساوي المجرمين والمسلمين حالاً يوم القيامة تورد محتملات هذا الحكم من حيث منشئه في صور استفهامات إنكارية وتردها .

وتقرير الحجة : أن كون المجرمين كالمسلمين يوم القيامة على ما حكموا به إما أن يكون من الله تعالى موهبة ورحمة وإما أن لا يكون منه .
والأول إما أن يدل عليه دليل العقل ولا دليل عليه كذلك وذلك قوله : « ما لكم كيف تحكمون » .

وإما أن يدل عليه النقل وليس كذلك وهو قوله : « أم لكم كتاب » الخ ، وإما أن يكون لا لدلالة عقل أو نقل بل عن مشافهة بينهم وبين الله سبحانه عاهدوه وواثقوه على أن يسوي بينهما وليس كذلك فهذه ثلاثة احتمالات .

وإما أن لا يكون من الله فإما أن يكون حكمهم بالتساوي حكماً جدياً أو لا يكون فإن كان جدياً فإما أن يكون التساوي الذي يحكمون به مستنداً إلى أنفسهم بأن يكون لهم قدرة على أن يصيروا يوم القيامة كالمسلمين حالاً وإن لم يشأ الله ذلك وليس كذلك وهو قوله : « سلمهم أيهم بذلك زعيم » أو يكون القائم بهذا الأمر المتصدي له شركاؤهم ولا شركاء وهو قوله : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم » الخ .

وإما أن يكون ذلك لأن الغيب عندهم والامور التي ستستقبل الناس قدرها وقضاؤها منوطان بمشيئتهم تكون وتقع كيف يكتبون فكتبوا لأنفسهم المساواة مع المسلمين ، وليس كذلك ولا سبيل لهم إلى الغيب وذلك قوله : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » وهذه ثلاثة احتمالات .

وإن لم يكن حكمهم بالمساواة حكماً جدياً بل إنما تفوهوا بهذا القول تخلصاً وفراراً من اتباعك على دعوتك لأنك تسألهم أجراً على رسالتك وهدايتك لهم إلى الحق فهم مثقلون من غرامته ، وليس كذلك ، وهو قوله : « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون »

وهذا سابع الاحتمالات .

هذا ما يعطيه التدبر في الآيات في وجه ضبط ما فيها من التردد وقد ذكروا في وجه الضبط غير ذلك من أراد الوقوف عليه فليراجع المطبوعات .

فقوله : « ما لكم كيف تحكمون » مسوق للتعجب من حكمهم بكون المجرمين يوم القيامة كالمسلمين ، وهو إشارة إلى تأبّي العقل عن تجويز التساوي ، ومحصله نفى حكم العقل بذلك إذ معناه : أي شيء حصل لكم من اختلال الفكر وفساد الرأي حتى حكمتم بذلك ؟

قوله تعالى : « أم لكم كتاب فيه تدرسون إن لكم لما تحيرون » إشارة إلى انتفاء الحجة على حكمهم بالتساوي من جهة السمع كما أن الآية السابقة كانت إشارة إلى انتفائها من جهة العقل .

والمراد بالكتاب الكتاب السماوي النازل من عند الله وهو حجة ، ودرس الكتاب قراءته ، والتخيّر الاختيار ، وقوله : « إن لكم لما تحيرون » في مقام المفعول لتدرسون والاستفهام إنكاري .

والمعنى : بل ألكم كتاب سماوي تقرؤون فيه إن لكم في الآخرة - أو مطلقاً - لما تختارونه فاخترتم السعادة والجنة .

قوله تعالى : « أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون » إشارة إلى انتفاء أن يملكو الحكم بمعد ويمين شفاهي لهم على الله سبحانه .

والأيمان جمع يمين وهو القسم ، والبلوغ هو الانتهاء في الكمال فالأيمان البالغة هي المؤكدة نهاية التوكيد ، وقوله : « إلى يوم القيامة » على هذا ظرف مستقر متعلق بمقدر والتقدير : أم لكم علينا أيمان كائنة إلى يوم القيامة مؤكدة نهاية التوكيد ، الخ .

ويمكن أن يكون « إلى يوم القيامة » متعلقاً بالغة والمراد ببلوغ الأيمان انطباقها على امتداد الزمان حتى ينتهي إلى يوم القيامة .

وقد فسروا الأيمان بالعهود والمواثيق فيكون من باب إطلاق اللزوم وإرادة اللزوم كناية ، واحتمل أن يكون من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

وقوله : « إن لكم لما تحكمون » جواب القسم وهو المعاهد عليه ، والاستفهام للانكار .

والمعنى : بل ألكم علينا عهود أقسمنا فيها أقساماً مؤكدة إلى يوم القيامة إن سلمنا

لكم أن لكم لما تحكمون به .

قوله تعالى : « سلمهم أيتهم بذلك زعيم » إعراض عن خطابهم والتفات إلى النبي ﷺ بتوجيه الخطاب لسقوطهم عن درجة استحقاق الخطاب ولذلك أورد بقية السؤالات وهي مسائل أربع في سياق الغيبة أولها قوله : « سلمهم أيتهم بذلك زعيم » والزعيم القائم بالأمر المتصدي له ، والاستفهام إنكاري .

والمعنى : سل المشركين أيتهم قائم بأمر التسوية الذي يدعونه أي إذا ثبت أن الله لا يسوي بين الفريقين لعدم دليل يدل عليه فهل الذي يقوم بهذا الأمر ويتصداه هو منهم؟ فأيتهم هو؟ ومن الواضح بطلانه لا يتفوه به إلا مصاب في عقله .

قوله تعالى : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » رد لهم على تقدير أن يكون حكمهم بالتساوي مبنياً على دعواهم أن لهم آلهة يشاركون الله سبحانه في الربوبية فيشفعون لهم عند الله فيجعلهم كالمسلمين والاستفهام إنكاري يفيد نفي الشركاء . وقوله : « فليأتوا بشركائهم » الخ ، كناية عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما في قوله : « أم لهم شركاء » من النفي .

وقيل : المراد بالشركاء شركائهم في هذا القول ، والمعنى : أم لهم شركاء يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم فليأتوا بهم إن كانوا صادقين . وأنت خير بأن هذا المعنى لا يقطع الخصام .

وقيل : المراد بالشركاء الشهداء والمعنى : أم لهم شهداء على هذا القول فليأتوا بهم إن كانوا صادقين .

وهو تفسير بما لا دليل عليه من جهة اللفظ . على أنه مستدرك لأن هؤلاء الشهداء شهداء على كتاب من عند الله أو وعد بمهد ويمين وقد رد كلا الاحتمالين فيما تقدم .

وقيل : المراد بالشركاء شركاء الألوهية على ما يزعمون لكن المعنى من إتيانهم بهم إتيانهم يوم القيامة ليشهدوا لهم أو ليشفعوا لهم عند الله سبحانه . وأنت خير بأن هذا المعنى أيضاً لا يقطع الخصام .

قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون - إلى قوله - وهم سالمون » يوم ظرف متعلق بمحذوف كاذكر ونحوه ، والكشف عن الساق تمثيل في اشتداد الأمر اشتداداً بالغاً لما أنهم كانوا يشتمرون عن سوقهم إذا اشتد الأمر

للعمل أو للفرار قال في الكشف : فمعنى « يوم يكشف عن ساق » في معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغولة ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل انتهى .

والآية وما بعدها إلى تمام خمس آيات اعتراض وقع في البين بمناسبة ذكر شركائهم الذين يزعمون أنهم سيسعدونهم لو كان هناك بعث وحساب فذكر سبحانه أن لا شركاء لله ولا شفاعاة وإنما يحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية في الدنيا حتى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة .

وهؤلاء المكذبون المجرمون لم يسجدوا لله في الدنيا فلا يستطيعون السجود في الآخرة فلا يسعدون ولا تتساوى حالهم وحال المسلمين فيها البتة بل الله سبحانه يعاملهم في الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معاملة الاستدراج والإملاء حتى يتم لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم في الآخرة .

فقوله : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » معناه اذكر يوم يشتد عليهم الأمر ويدعون إلى السجود لله خضوعاً فلا يستطيعون لاستقرار ملكة الاستكبار في سرائرهم واليوم تبلى السرائر^(١) وتبين علومهم^(٢) وقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » حالان من نائب فاعل يدعون أي حال كون أبصارهم خاشعة وحال كونهم يغيثهم الذلة بقهر ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها .

وقوله : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » المراد بالسلامة سلامتهم من الآفات والعاهات التي لحقت نفوسهم بسبب الاستكبار عن الحق فسلبتهم التمكن من إجابة الحق أو المراد مطلق استطاعتهم منه في الدنيا .

والمعنى : وقد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود لله وهم سالمون متمكنون منه أقوى تمكن فلا يحيبون إليه .

وقيل : المراد بالسجود الصلاة وهو كما ترى .

(١) الطارق الآية ٩ .

قوله تعالى : « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » المراد بهذا الحديث القرآن الكريم وقوله : « فذرني ومن يكذب » الخ ، كناية عن أنه يكفيهم وحده وهو غير تاركهم وفيه نوع تسلية للنبي ﷺ وتهديد للمشركين .

قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » استئناف فيه بيان كيفية أخذه تعالى لهم وتعميده إياهم المفهوم من قوله : « فذرني » الخ .

والاستدراج هو استنزاهم درجة فدرجة حتى يتم لهم الشقاء فيقوموا في ورطة الهلاك وذلك بأن يؤتيهم الله نعمة بعد نعمة وكلما أوتوا نعمة اشتغلوا بها وفرطوا في شكرها وزادوا نسياناً له وابتعدوا عن ذكره .

فالاستدراج إيتاؤهم النعمة بعد النعمة الموجب لنزولهم درجة بعد درجة واقترابهم من ورطة الهلاك ، وكونه من حيث لا يعلمون إنما هو لكونه من طريق النعمة التي يحسبونها خيراً وسعادة لا شرف فيها ولا شقاء .

قوله تعالى : « وأملي لهم إن كيدي متين » الإملاء الإمهال ، والكيد ضرب من الاحتيال ، والمتين القوي ، والمعنى : وأمهلهم حتى يتوسعوا في نعمنا بالمعاصي كما يشاؤون إن كيدي قوي .

والنكته في الالتفات الذي في « سنستدرجهم » عن التكلم وحده إلى التكلم مع الغير الدالة على العظمة وأن هناك موكلين على هذه النعم التي تصب عليهم صباً ، والالتفات في قوله : « وأملي لهم » عن التكلم مع الغير إلى التكلم وحده لأن الإملاء تأخير في الأجل ولم ينسب أمر الأجل في القرآن إلى غير الله سبحانه قال تعالى : « ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده » الأنعام : ٢ .

قوله تعالى : « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » المغرم الغرامة ، والإثقال تحميل الثقل ، والجملة معطوفة على قوله : « أم لهم شركاء » الخ .

والمعنى : أم تسأل هؤلاء المجرمين - الذين يحكون بتساوي المجرمين والمسلمين يوم القيامة - أجراً على دعوتك فهم من غرامة تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلصاً من الغرامة دون أن يكون ذلك منهم قولاً جدياً .

قوله تعالى : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب

غيب الأشياء الذي منه تنزل الامور بقدر محدود فتستقر في منصة الظهور ، والمراد بالكتابة على هذا هو التقدير والقضاء ، والمراد بكون الغيب عندهم تسلطهم عليه وملكهم له .

فالمنى : أم بيدم أمر القدر والقضاء فهم يقضون كما شأوا فيقضون لأنفسهم أن يساوا المسلمين يوم القيامة .

وقيل : المراد بكون الغيب عندهم علمهم بصحة ما حكوا به والكتابة على ظاهر معناه والمنى : أم عندهم علم بصحة ما يدعون به اختصاصا به ولا يعلمه غيرهم فهم يكتبونه ويتوارثونه وينبغي أن يبرزوه .

وهو بعيد بل مستدرك والاحتمالات الاخر المذكورة مغنية عنه .
ولما أختار ذكر هذا الاحتمال عن غيره حتى عن قوله : « أم تسألهم أجراً » مع أن مقتضى الظاهر أن يتقدم عليه ، لكونه أضعف الاحتمالات وأبعدها .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » صاحب الحوت يونس عليه السلام والمكظوم من كظم الغيظ إذا تجرعه ولذا فسر بالمتنق بالغم حيث لا يجد لغيظه شفاء ، ونهى عليه السلام عن أن يكون كيونس عليه السلام وهو في زمن النداء مملوء بالغم نهى عن السبب المؤدي إلى نظير هذا الابتلاء وهو ضيق الصدر والاستعجال بالعذاب .

والمنى : فاصبر لقاء ربك أن يستدرجهم ويملى لهم ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم ولا تكن كيونس فتكون مثله وهو مملوء غماً أو غيظاً ينادي الله بالتسبيح والاعتراف بالظلم أي فاصبر واحذر أن تبطل بما يشبه ابتلاءه ، ونداءه قوله في بطن الحوت : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » كما في سورة الأنبياء .

وقيل : اللام في « لحكم ربك » بمعنى إلى وفيه تهديد لقومه ووعد لهم أن سيعكم الله بينه وبينهم ، والوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات السابقة .

قوله تعالى : « لولا أن تداركه نعمه من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » في مقام التعليل للنهي السابق : « لا تكن كصاحب الحوت » والتسدارك الإدراك والحق ، وفسرت النعمة بقبول التوبة ، والنبذ الطرح ، والعراء الأرض غير المستورة بسقف أو نبات ، والذم مقابل المدح .

والمعنى: لولا أن أدركته ولحقت به نعمة من ربه وهو أن الله قبل توبته لطرح بالأرض العراء وهو مذموم بما فعل .

لا يقال : إن الآية تنافي قوله تعالى : « فلو لا أنه كان من المسبحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون » الصافات : ١٤٤ ، فإن مدلوله أن مقتضى عمله أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة ومقتضى هذه الآية أن مقتضاه أن يطرح في الأرض العراء مذموماً وهما تبعتان متنافيتان لا تجتمعان .

فإنه يقال : الآيتان تحكيان عن مقتضيين مختلفين لكل منهما أثر على حدة فآية الصافات تذكر أنه ~~يكون~~ كان مداوماً للتسبيح مستمراً عليه طول حياته قبل ابتلائه - وهو قوله : كان من المسبحين - ولولا ذلك للبت في بطنه إلى يوم القيامة ، والآية التي نحن فيها تدل على أن النعمة وهو قبول توبته في بطن الحوت شملته فلم ينبذ بالعراء مذموماً . فمجموع الآيتين يدل على أن ذهابه مغاضباً كان يقتضي أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة فمنع عنه دوام تسبيحه قبل التقامه وبعده ، وقدر أن ينبذ بالعراء وكان مقتضى عمله أن ينبذ مذموماً فمنع من ذلك تدارك نعمة ربه له فنبذ غير مذموم بل اجتباه الله وجعله من الصالحين فلا مناقضتين للآيتين ~~في تحقيق كتاب تيسر علوم~~ وقد تكرر في مباحثنا السابقة أن حقيقة النعمة الولاية وعلى ذلك يتعين لقوله : « لولا أن تداركه نعمة من ربه » معنى آخر .

قوله تعالى : « فاجتبه ربه فجعله من الصالحين » تقدم توضيح معنى الاجتباء والصلاح في مباحثنا المتقدمة .

قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر » إن مخافة من الثقلية، والزلق هو الزلل، والإزلاق الإزال وهو الصرع كناية عن القتل والإهلاك . والمعنى : أنه قارب الذين كفروا أن يصرعوك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . والمراد بإزلاقه بالأبصار وصرعه بها - على ما عليه عامة المفسرين - الإصابة بالأعين ، وهو نوع من التأثير النفساني لا دليل على نفيه عقلاً وربما شوهد من الموارد ما يقبل الانطباق عليه ، وقد وردت في الروايات فلا موجب لإنكاره .

وقيل : المعنى أنهم ينظرون إليك إذا سمعوا منك الذكر الذي هو القرآن نظراً مليئاً بالعداوة والبغضاء يكادون يقتلونك بحديد نظرهم .

قوله تعالى : « ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين » رميهم له بالمجنون عندما سمعوا الذكر دليل على أن مرادهم به رمي القرآن بأنه من إلقاء الشياطين ، ولذا ردّ قولهم بأن القرآن ليس إلا ذكراً للعالمين .
وقد ردّ قولهم : « إنه لمجنون » في أول السورة بقوله : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » وبه ينطبق خاتمة السورة على فاتحتها .

(بحث روائي)

في المعاني بإسناده عن الحسين بن سعيد عن أبي الحسن عليه السلام في قوله عز وجل : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود » قال : حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجداً وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود .

وفيه بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله عز وجل : « يوم يكشف عن ساق » قال : كشف إزاره عن ساقه فقال : سبحان ربي الأعلى . أقول : قال الصدوق بعد نقل الحديث : قوله : سبحان ربي الأعلى تنزيه الله سبحانه أن يكون له ساق . انتهى . وفي هذا المعنى رواية أخرى عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام . وفيه بإسناده عن معلى بن خنيس قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ما يعني بقوله : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » قال : وهم مستطيعون .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد : سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول : يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً .

وفيه أخرج ابن مندة في الرد على الجهمية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يوم يكشف عن ساق » قال : يكشف الله عن ساقه .

وفيه أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا والطبراني والآنباري في الشريعة والدارقطني في الرؤية والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله قال : يجمع الله الناس يوم القيامة وينزل الله في ظلال من الغمام فينادي منادياً أيها الناس ألم ترضوا من ربكم [الذي] خلقكم وصوركم

ورزقكم أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا ويتولى ؟ أليس ذلك من ربكم عدلاً ؟ قالوا : بلى .

قال : فينطلق كل إنسان منكم إلى ما كان يعبد في الدنيا ويتمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويتمثل لمن كان يعبد عزيزاً شيطان عزيز حتى يمثل لهم الشجرة والعمود والحجر .

ويبقى أهل الإسلام جثوماً فيتمثل لهم الرب عز وجل فيقول لهم : مالكم لم تطلقوا كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا رباً ما رأيناه بعد فيقول : فم تعرفون ربكم إن رأيتموه ؟ قالوا : بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه ؟ قال : وما هي ؟ قالوا : يكشف عن ساق .

فيكشف عند ذلك عن ساق فيخر كل من كان يسجد طائعاً ساجداً ويبقى قوم ظهورهم كصيافي للبقر يريدون السجود فلا يستطيعون . الحديث .

أقول : والروايات الثلاث مبنية على التشبيه المخالف للبراهين العقلية ونص الكتاب العزيز فهي مطروحة أو مؤولة .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن السط قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنّب ذنباً أتبعه بنعمة وذكره الاستغفار ، فإذا أراد بعبد شراً فأذنّب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتهادى بها ، وهو قول الله عز وجل : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » بالنعم والمعاصي .

أقول : وقد تقدم بعض روايات الاستدراج في ذيل قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » الآية ١٨٢ من سورة الأعراف .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إذ نادى وهو مكظوم » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام : يقول : مغموم .

وفيه في قوله تعالى : « لولا أن تداركه نعمة من ربه » قال : النعمة للرحمة .

وفيه في قوله تعالى : « لنبذ بالعراء » قال : الموضع الذي لا سقف له .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا » أخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : العين حق .

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي ﷺ قال : العين تدخل الرجل القبر والجلل القدر .
أقول : وهناك روايات تطبق الآيات السابقة على الولاية وهي من الجري دون التفسير ولذلك لم نوردتها .

* * *

(سورة الحاقة مكية ، وهي اثنتان وخمسون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَاقَّةُ - ١ . مَا الْحَاقَّةُ - ٢ .
وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ - ٣ . كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى - ٤ .
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطُغْيَانِهِ - ٥ . وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ
صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ - ٦ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفِجَافٍ غِثًّا - ٧ . فَهَلْ تَرَى
فَتْرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا بِخُلَاؤِهَا - ٨ . وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ
بِالْخَاطِئَةِ - ٩ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً - ١٠ .
إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ - ١١ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَتَعْيِبَهَا أُذُنُ وَاِئْتِ - ١٢ .

(بيان)

السورة تذكر الحاقة وهي القيامة وقد سميتها أيضاً بالقارعة والواقعة .
وقد ساقى الكلام فيها في فصول ثلاثة : فصل تذكر فيه إجمالاً الأمم الذين كذبوا بها

فأخذهم الله أخذة رابية ، وفصل تصف فيه الحاقة وانقسام الناس فيها إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال واختلاف حالهم بالسعادة والشقاء ، وفصل تؤكد فيه صدق القرآن في إنبائه بها وأنه حق اليقين ، والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة » المراد بالحاقة القيامة الكبرى سميت بها لثبوتها ثبوتاً لا مرد له ولا ريب فيه ، من حق الشيء بمعنى ثبت وتقرر ، تقررأ واقعياً .

و « ما » في « ما الحاقة » استفهامية تفيد تفخيم أمرها ، ولذلك بعينه وضع الظاهر موضع الضمير ولم يُقل : ما هي ، والجملة الاستفهامية خبر الحاقة .

فقوله : « الحاقة ما الحاقة » مسوق لتفخيم أمر القيامة يفيد تفخيم أمرها وإعظام حقيقتها إفادة بعد إفادة .

وقوله : « وما أدراك ما الحاقة » خطاب بنفي العلم بحقيقة اليوم وهذا التعبير كناية عن كمال أهمية الشيء وبلوغه الغاية في الفخامة ولعل هذا هو المراد مما نقل عن ابن عباس : أن ما في القرآن من قوله تعالى : « ما أدراك » فقد أدراه وما فيه من قوله : « ما يدريك » فقد طوى عنه ، يعني أن « ما أدراك » كناية و « ما يدريك » تصريح .

قوله تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » المراد بالقارعة القيامة وسميت بها لأنها تفرع وتذك السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ بتبديلها والجبال بتسييرها والشمس بتكويرها والقمر بخسفها والكواكب ببنثرها والأشياء كلها بقهرها على ما نطقت به الآيات ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : كذبت ثمود وعاد بها فوضع القارعة موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها .

وهذه الآية وما يتلوها إلى تمام تسع آيات وإن كانت مسوقة للإشارة إلى إجمال قصص قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وإهلاكهم لكنها في الحقيقة بيان للحاقة ببعض أوصافها وهو أن الله أهلك أمما كثيرة بالكذب بها فهي في الحقيقة جواب للسؤال بما الاستفهامية كما أن قوله : « فإذا نفخ في الصور » الخ ، جواب آخر .

ومحصل المعنى : هي القارعة التي كذبت بها ثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وقوم نوح فأخذهم الله أخذة رابية وأهلكهم بعذاب الاستئصال .

قوله تعالى : « فأما ثمود فهلكوا بالطاغية » بيان تفصيلي لأثر تكذيبهم بالقارعة ،

والمراد بالطاغية الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة على اختلاف ظاهر تعبير القرآن في سبب هلاكهم في قصتهم قال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » هود : ٦٧ ، وقال أيضاً : « فأخذتهم الرجفة » الأعراف : ٨٧ ، وقال أيضاً : « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » حم السجدة : ١٧ .

وقيل : الطاغية مصدر كالطغيان والطفوى والمعنى : فأما ثمود فاهلكوا بسبب طغيانهم ، ويؤيده قوله تعالى : « كذب ثمود بطغواها » الشمس : ١١ .
وأول الوجهين أنسب لسياق الآيات التالية حيث سيقت لبيان كيفية إهلاكهم من الإهلاك بالريح أو الأخذ الرابي أو طغيان الماء فليكن هلاك ثمود بالطاغية ناظراً إلى كيفية إهلاكهم .

قوله تعالى : « وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية » الصرصر الريح الباردة الشديدة الهبوب ، وعاتية من العتو بمعنى الطغيان والابتعاد من الطاعة والملاءمة .

قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » تسخيرها عليهم تسليطها عليهم ، والحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكي مرات متتالية ، وهي صفة لسبع أي سبع ليال وثمانية أيام متتالية متتابعة وصرعى جمع صريع وأعجاز جمع عجز بالفتح فالضم آخر الشيء ، وخاوية الخالية الجوف الملقاة والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » أي من نفس باقية ، والجملة كناية عن استيعاب الهلاك لهم جميعاً ، وقيل : الباقية مصدر بمعنى البقاء وقد أريد به البقية وما قدمناه من الممنى أقرب .

قوله تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » المراد بفرعون فرعون موسى ، ومن قبله الأمم المتقدمة عليه زماناً من المكذبين ، وبالمؤتفكات قرى قوم لوط والجماعة القاطنة بها ، « وخاطئة » مصدر بمعنى الخطاء والمراد بالجهي بالخاطئة إخطاء طريق العبودية ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » ضمير « عصوا » لفرعون

ومن قبله والمؤتفكات ، والمراد بالرسول جنسه ، والرابية الزائدة من ربا يربو ربوة إذا زاد ، والمراد بالأخذه الرابية العقوبة الشديدة وقيل : العقوبة الزائدة على سائر العقوبات وقيل : الحارقة للعادة .

قوله تعالى : « إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية » إشارة إلى طوفان نوح والجارية السفينة ، وعد المخاطبين محمولين في سفينة نوح والمحمول في الحقيقة أسلافهم لكون الجميع نوعاً واحداً ينسب حال البعض منه إلى الكل والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » تعليل لحملهم في السفينة فضمير « لنجعلها » للحمل باعتبار أنه فعلة أي فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمراً تتذكرون به وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتعظون بها .

وقوله : « وتعيها أذن واعية » الوعي جعل الشيء في الوعي ، والمراد بوعي الأذن لها تقريرها في النفس وحفظها فيها لترتب عليها فائدتها وهي التذكر والاتعاظ . وفي الآية يحملتها إشارة إلى الهداية الربوبية بكلا قسميها أعني الهداية بمعنى إراءة الطريق والهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب .

توضيح ذلك أن من السنة الربوبية العامة الجارية في الكون هداية كل نوع من أنواع الخليقة إلى كماله اللائق به بحسب وجوده الخاص بتجهيزه بما يسوقه نحو غايته كما يدل عليه قوله تعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقوله : « الذي خلق فسوَّى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ ، وقد تقدم توضيح ذلك في تفسير سورتي طه والأعلى وغيرهما .

والإنسان يشارك سائر الأنواع المادية في أن له استكمالاً تكوينياً وسلوكاً وجودياً نحو كماله الوجودي بالهداية الربوبية التي تسوقه نحو غايته المطلوبة ويختص من بينها بالاستكمال التشريعي فإن للنفس الإنسانية استكمالاً من طريق أفعالها الاختيارية بما يلحقها من الأوصاف والنعوت وتلبس به من الملكات والأحوال في الحياة الدنيا وهي غاية وجود الإنسان التي تعيش بها عيشة سعيدة مؤبدة .

وهذا هو السبب الداعي إلى تشريع السنة الدينية بإرسال الرسل وإنزال الكتب والهداية إليها « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » النساء : ١٦٥ ، وقد تقدم تفصيله في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وغيره ، وهذه هداية بمعنى إراءة

الطريق وإعلام الصراط المستقيم الذي لا يسع الإنسان إلا أن يسلكه ، قال تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » الدهر : ٣ ، فإن لزم الصراط وسلكه حيّ بحياة طيبة سعيدة وإن تركه وأعرض عنه هلك بشقاء دائم وتمت عليه الحجة على أي حال ، قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة » الأنفال : ٤٢ .

إذا تقرر هذا تبين أن من سنة الربوبية هداية الناس إلى سعادة حياتهم بإراءة الطريق الموصل إليها ، وإليها الإشارة بقوله : « لنجعلها لكم تذكرة » فإن التذكرة لا تستوجب التذكر ممن ذكر بها بل ربما أثرت وربما تخلفت .

ومن سنة الربوبية هداية الأشياء إلى كمالاتها بمعنى إنهاؤها وإيصالها إليها بتحريكها وسوقها نحوه ، وإليها الإشارة بقوله : « وتعيها أذن واعية » فإن الوعي المذكور من مصاديق الاهتداء بالهداية الربوبية وإنما لم ينسب تعالى الوعي إلى نفسه كما نسب التذكرة إلى نفسه لأن المطلوب بالتذكرة إتمام الحجة وهو من الله وأما الوعي فإنه وإن كان منسوباً إليه كما أنه منسوب إلى الإنسان لكن السياق سياق الدعوة وبيان الأجر والثوبة على إجابة الدعوة والأجر والثوبة من آثار الوعي بها أنه فعل للإنسان منسوب إليه لا بما أنه منسوب إلى الله تعالى .

ويظهر من الآية الكريمة أن للحوادث الخارجية تأثيراً في أعمال الإنسان كما يظهر من مثل قوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الأعراف : ٩٦ أن لأعمال الإنسان تأثيراً في الحوادث الخارجية وقد تقدم بعض الكلام فيه .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : « لنجعلها لكم تذكرة » قال : لأمة محمد ﷺ ، وكم من سفينة قد هلك وأثر قد ذهب يعني ما بقي من السفينة حتى أدركته أمة محمد ﷺ فرأوه كانت ألواحها ترى على الجودي .

أقول : وتقدم ما يؤيد ذلك في قصة نوح في تفسير سورة هود .

وفيه أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن مكحول قال : لما نزلت « وتعيها أذن واعية » قال رسول الله ﷺ : سألت ربي أن يجعلها

أذن علي . قال مكحول : فكان علي يقول : ما سمعت عن رسول الله شيئاً فنسيته .
وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن
النجاري عن بردة قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : إن الله أمرني أن أدينك ولا أقصيك وأن
أعلمك وأن تعي وحق لك أن تعي فنزلت هذه الآية « وتعيها أذن واعية » .
وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : يا علي : إن الله
أمرني أن أدينك وأعلمك لتعي فانزلت هذه الآية « وتعيها أذن واعية » فانت أذن
واعية لعلي .

أقول : وروى هذا المعنى في تفسير البرهان عن سعد بن عبد الله بإسناده عن أبي
عبد الله عليه السلام ، وعن الكليني بإسناده عنه عليه السلام ، وعن ابن بابويه بإسناده عن جابر عن
أبي جعفر عليه السلام .

ورواه أيضاً عن ابن شهر آشوب عن حلية الأولياء عن عمر بن علي ، وعن الواحدي
في أسباب النزول عن بريدة ، وعن أبي القاسم بن حبيب في تفسيره عن زر بن حبيش
عن علي عليه السلام .

وقد روى في غاية المرام من طرق الفريقين ستة عشر حديثاً في ذلك وقال في البرهان
إن محمد بن العباس روى فيه ثلاثين حديثاً من طرق العامة والخاصة .

* * *

فَإِذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ — ١٣ . وَحُلَّتِ الْأَرْضُ
وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً — ١٤ . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ — ١٥ .
وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍئِذٍ وَاهِيَةً — ١٦ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا
وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ — ١٧ . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ
لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ — ١٨ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ
هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ — ١٩ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ — ٢٠ .

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ - ٢١ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ - ٢٢ . قُطُوفُهَا
 ذَانِيَةٌ - ٢٣ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أُسْلِفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ - ٢٤ .
 وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهُ - ٢٥ .
 وَلَمْ أَذَرَ مَا حِسَابِيَهُ - ٢٦ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ - ٢٧ . مَا أَغْنَىٰ
 عَنِّي مَالِيَهُ - ٢٨ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ - ٢٩ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ - ٣٠ .
 ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ - ٣١ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا
 فَاسْلُكُوهُ - ٣٢ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ - ٣٣ . وَلَا
 يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ - ٣٤ . فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ - ٣٥ .
 وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ - ٣٦ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِثُونَ - ٣٧ .

(بيات)

هذا هو الفصل الثاني من الآيات يعرف الحاقة ببعض أشراتها ونبذة مما يقع فيها .
 قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة » قد تقدم أن النفخ في الصور كناية
 عن البعث والإحضار لفصل القضاء ، وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضي الأمر
 ونفوذ القدرة فلا هن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخة ، والذي يسبق إلى الفهم من
 سياق الآيات أنها النفخة الثانية التي تحيي الموتى .

قوله تعالى : « وحملت الأرض والجبال فدكة دكة واحدة » الدك أشد الدق وهو
 كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار ، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها ، وتوصيف
 الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية .

قوله تعالى : « فيومئذ وقعت الواقعة » أي قامت القيامة .

قوله تعالى : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » انشقاق الشيء انفصال شطر منه من شطر آخر ، وواهية من الوهي بمعنى الضعف ، وقيل : من الوهي بمعنى شق الأديم والثوب ونحوهما .

ويمكن أن تكون الآية أعني قوله : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها » في معنى قوله : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً » الفرقان : ٢٥ .
قوله تعالى : « والملك على أرجائها » ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، قال الراغب : رجا البشر والسماء وغيرهما جانبها والجمع أرجاء قال تعالى : « والملك على أرجائها » انتهى ، والملك - كما قيل - يطلق على الواحد والجمع والمراد به في الآية الجمع .
وقوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ضمير « فوقهم » على ظاهر ما يقتضيه السياق للملائكة ، وقيل : الضمير للخلائق .

وظاهر كلامه أن للعرش اليوم حملة من الملائكة قال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » المؤمن : ٧ ، وقد وردت الروايات أنهم أربعة ، وظاهر الآية أعني قوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » أن الحملة يوم القيامة ثمانية وهل هم من الملائكة أو من غيرهم ؟ الآية ساكتة عن ذلك وإن كان لا يخلو السياق من إشعار ما بأنهم من الملائكة .

ومن الممكن - كما تقدمت الإشارة إليه - أن يكون الغرض من ذكر انشقاق السماء وكون الملائكة على أرجائها وكون حملة العرش يومئذ ثمانية بيان ظهور الملائكة والسماء والعرش للإنسان يومئذ ، قال تعالى : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم » الزمر : ٧٥ .

قوله تعالى : « يومئذ تعرضون لا يخفى منكم خافية » الظاهر أن المراد به العرض على الله كما قال تعالى : « وعرضوا على ربك صفا » الكهف : ٤٨ ، والعرض إراءة البائع سلعته للمشتري ببسطها بين يديه ، فالعرض يومئذ على الله وهو يوم القضاء إبراز ما عند الإنسان من اعتقاد وعمل إبرازاً لا يخفى معه عقيدة خافية ولا فعلة خافية وذلك بتبدل الغيب شهادة والسر علناً قال : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ٩ ، وقال : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ .

وقد تقدم في أبحاثنا السابقة أن ما عدا في كلامه تعالى من خصائص يوم القيامة

كاختصاص الملك بالله ، وكون الأمر له ، وأن لا عاصم منه ، وبروز الخلق له وعدم خفاء شيء منهم عليه وغير ذلك ، كل ذلك دائمة الثبوت له تعالى ، وإنما المراد ظهور هذه الحقائق يومئذ ظهوراً لا ستر عليه ولا مرية فيه .

فالمعنى : يومئذ يظهر أنكم في معرض على علم الله ويظهر كل فعلة خافية من أفعالكم . قوله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه » قال في الجمع : هاؤم أمر للجماعة بمنزلة هاكم ، تقول للواحد : هاء يا رجل ، وللاثنتين : هاؤما يا رجلان ، وللجماعة : هاؤم يا رجال ، وللمرأة : هاء يا امرأة بكسر الهمزة وليس بعدها ياء ، وللمرأتين : هاؤما ، وللنساء : هاؤن . هذه لغة أهل الحجاز .

ونميم وقيس يقولون : هاء يا رجل مثل قول أهل الحجاز ، وللاثنتين : هاء آ ، وللجماعة : هاؤا ، والمرأة : هائي ، والنساء : هاؤن .

وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً فيقول : هاك هاكما هاكم هاك هاكما هاكن ، ومعناه : خذ وتناول ، ويؤمر بها ولا ينهى . انتهى .

والآية وما بعدها إلى قوله : « الخاطئون » بيان تفصيلي لاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعادة والشقاء ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « فمن أوتي كتابه بيمينه » أسرى : ٧١ كلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين ، والظاهر أن قوله : « هاؤم اقرؤا كتابيه » خطاب للملائكة ، والهاء في « كتابيه » وكذا في أواخر الآيات التالية للوقف وتسمى هاء الاستراحة .

والمعنى : فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول للملائكة : خذوا واقرأوا كتابيه أي إنها كتاب يقضي بسعادتي .

قوله تعالى : « إني ظننت أني مُلاقٍ حسابي » الظن بمعنى اليقين ، والآية تعليل لما يتحصل من الآية السابقة ومحصل التعليل إنما كان كتابي كتاب اليمين وقاضياً بسعادتي لأنني أبقيت في الدنيا أني سالاقي حسابي فأمنت بربي وأصلحت عملي .

قوله تعالى : « فهو في عيشة راضية » أي يعيش عيشة يرضاها فنسبة الرضا إلى العيشة من المجاز العقلي .

قوله تعالى : « في جنة عالية » إلى قوله - الخالية ، أي هو في جنة عالية قدراً فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : « قطوفها دانية » القطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو ما يحتنى من الثمر والمعنى : أثمارها قريبة منه يتناولها كيف يشاء .

وقوله : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » أي يقال لهم : كلوا واشربوا من جميع ما يؤكل فيها وما يشرب حال كونه هنيئاً لكم بما قدمتم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا التي تقضت أيامها .

قوله تعالى : « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابه ولم أدر ما حسابه » وهؤلاء هم الطائفة الثانية وهم الأشقياء المجرمون يؤتون صحيفة أعمالهم بشمالهم وقد مر الكلام في معناه في سورة الإسراء ، وهؤلاء يتمنون أن لو لم يكونوا يؤتون كتابهم ويدرون ما حسابهم يتمنون ذلك لما يشاهدون من أليم العذاب المعد لهم .

قوله تعالى : « يا ليتها كانت القاضية » ذكروا أن ضمير « ليتها » للموتة الأولى التي ذاقها الإنسان في الدنيا .

والمعنى : يا ليت الموتة الأولى التي ذقتها كانت قاضية على تقضي بعدي فكنت انعدمت ولم أبعث حياً فأقع في ورطة العذاب الخالد وأشهد ما أشاهد .

قوله تعالى : « ما أغنى عني ماليه ذلك عني سلطانيه » كلمتا تحسر يقولها حيث يرى خيبة سعيه في الدنيا فإنه كان يحسب أن مفتاح سعادته في الحياة هو المال والسلطان يدفعان عنه كل مكروه ويسلطانه على كل ما يحب ويرضى فبذل كل جهده في تحصيلها وأعرض عن ربه وعن كل حق يدعى إليه وكذب داعيه فلما شاهد تقطع الأسباب وأنه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ذكر عدم نفع ما له وبطلان سلطانه تحسراً وتوجعاً وماذا ينفع التحسر ؟

قوله تعالى : « خذوه فغلوه » إلى قوله - فاسلكوه » حكاية أمره تعالى الملائكة بأخذه وإدخاله النار ، والتقدير يقال للملائكة خذوه الخ ، و « غلوه » أمر من اغل بالفتح وهو السد بالغل الذي يجمع بين اليد والرجل والعنق .

وقوله : « ثم الجحيم صلوه » أي أدخلوه النار العظيمة وألزموه إياها .
وقوله : « ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » السلسلة القيد ، والذرع الطول ، والذراع بُعد ما بين المرفق ورأس الأصابع وهو واحد الطول وسلوكه فيه جملة فيه ، والمحصل ثم اجعلوه في قيد طوله سبعون ذراعاً .

قوله تعالى : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » الحضر التعريض والترغيب ، والآيتان في مقام التعليل للأمر بالأخذ والإدخال في النار أي إن الأخذ ثم التصلية في الجحيم والسلوك في السلسلة لأجل أنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضر على طعام المسكين أي يساهل في أمر المساكين ولا يبالي بما يقاسونه .

قوله تعالى : « فليس له اليوم هنا حميم » - إلى قوله - الحاطون ، الحميم الصديق والآية تفريع على قوله : « إنه كان لا يؤمن » الخ ، والمحصل : أنه لما كان لا يؤمن بالله العظيم فليس له اليوم هنا صديق ينفعه أي شفيح يشفع له إذ لا مغفرة لكافر فلا شفاعة . وقوله : « ولا طعام إلا من غسلين » الغسلين الغسالة وكأن المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح ونحوه والآية عطف على قوله في الآية السابقة : « حميم » ومتفرع على قوله : « ولا يحض » الخ ، والمحصل : أنه لما كان لا يحضر على طعام المسكين فليس له اليوم هنا طعام إلا من غسلين أهل النار . وقوله : « لا يأكله إلا الحاطون » وصف لغسلين والحاطون المتلبسون بالخطيئة والإثم .

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : يحمله اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية . أقول : وفي تقييد الحاملين في الآية بقوله : « يومئذ » إشعار بل ظهور في اختصاص العدد بالقيامة .

وفي تفسير القمي وفي حديث آخر قال : حمله ثمانية أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين فأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وأما الأربعة من الآخرين فمحمد وعلي والحسن والحسين عليهم السلام .

أقول : وفي غير واحد من الروايات أن الثمانية مخصوصة بيوم القيامة ، وفي بعضها أن حملة العرش - والعرش العلم - أربعة منا وأربعة ممن شاء الله .

وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أنه إذا كان يوم القيامة يدعى كل أناس بإمامه الذي مات في عصره فإن أثبتته أعطي كتابه بيمينه لقوله : « يوم ندعو

كل أناس بإمامهم ، فمن أوتي كتابه بيمينه فاولئك يقرأون كتابهم ، واليمين إثبات الإمام لأنه كتابه يقرؤه - إلى أن قال - ومن أنكر كان من أصحاب الشمال الذين قال الله : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم » الخ .

أقول : وفي عدة من الروايات تطبيق قوله : « فأما من أوتي كتابه بيمينه » الخ ، على علي عليه السلام ، وفي بعضها عليه وعلى شيعته ، وكذا تطبيق قوله : « وأما من أوتي كتابه بشماله » الخ ، على أعدائه ، وهي من الجري دون التفسير

وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله قال : لو أن دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن بأهل الدنيا .

وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن صعصعة بن صوحان قال : جاء أعرابي إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذا الحرف : لا يأكله إلا الخاطئون ؟ كل والله يخطو . فتبسم علي وقال : يا أعرابي « لا يأكله إلا الخاطئون » قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان الله ليسم عبده .

ثم التفت علي إلى أبي الأسود فقال : إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلون به على صلاح ألسنتهم فريسم لهم الرفع والنصب والخفض .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه في الدروع الواقية في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله : ولو أن ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله في كتابه وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن حرها .

* * *

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ - ٣٨ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ - ٣٩ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ - ٤٠ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ - ٤١ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ - ٤٢ . تَنْزِيلُ مَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ - ٤٣ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ - ٤٤ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ - ٤٥ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ - ٤٦ . فَمَا

مِنْكُمْ مَنْ أَحَدِرَ عَنْهُ حَاجِزِينَ - ٤٧ . وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ - ٤٨ .
وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ - ٤٩ . وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ - ٥٠ .
وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ - ٥١ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ - ٥٢ .

(بيان)

هذا هو الفصل الثالث من آيات السورة يؤكد ما تقدم من أمر الحاقة بلسان تصديق القرآن الكريم ليثبت بذلك حقيقة ما أنبأ به من أمر القيامة .

قوله تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ظاهر الآية أنه إقسام بما هو مشهود لهم وما لا يشاهدون أي الغيب والشهادة فهو إقسام بمجموع الخليقة ولا يشمل ذاته المتعالية فإن من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والخلق في صف واحد ويعظمه تعالى وما صنع تعظيماً مشتركاً في عرض واحد .

وفي الإقسام نوع تعظيم وتجليل للتقسيم به وخلق تعالى بما أنه خلقه جليل جميل لأنه تعالى جميل لا يصدر منه إلا الجميل وقد استحسن تعالى فعل نفسه وأثنى على نفسه بخلقها في قوله : « الذي أحسن كل شيء خلقه » الم السجدة : ٧ ، وقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » المؤمنون : ١٤ . فليس للموجودات منه تعالى إلا الحسن وما دون ذلك من مساواة فمن أنفسها وبقياس بعضها إلى بعض .

وفي اختيار ما يبصرون وما لا يبصرون للإقسام به على حقيقة القرآن ما لا يخفى من المناسبة فإن النظام الواحد المتشابه أجزاءه الجاري في مجموع العالم يقضي بتوحيده تعالى ومصير الكل إليه وما يترتب عليه من بعث الرسل وإنزال الكتب والقرآن خير كتاب سماوي يهدي إلى الحق في جميع ذلك وإلى طريق مستقيم .

وما تقدم يظهر عدم استقامة ما قيل : إن المراد بما تبصرون وما لا تبصرون الخلق والخالق فإن السياق لا يساعد عليه ، وكذا ما قيل : إن المراد النعم الظاهرة والباطنة ، وما قيل : إن المراد الجن والإنس والملائكة أو الأجسام والأرواح أو الدنيا والآخرة أو ما يشاهد من آثار القدرة وما لا يشاهد من أسرارها فاللفظ أعم مدلولاً من جميع ذلك .

قوله تعالى : « إنه لقول رسول كريم » الضمير للقرآن ، والمستفاد من السياق أن المراد برسول كريم النبي ﷺ وهو تصديق لرسالته قبـال ما كانوا يقولون إنه شاعر أو كاهن .

ولا ضمير في نسبة القرآن إلى قوله فإنه إنما ينسب إليه بما أنه رسول والرسول بها أنه رسول لا يأتي إلا بقول مرسله ، وقد بيّن ذلك فضل بيان بقوله بعد : « تنزيل من رب العالمين » .

وقيل : المراد برسول كريم جبريل ، والسياق لا يؤيده إذ لو كان هو المراد لكانت الأنسب نفى كونه مما نزلت به الشياطين كما فعل في سورة الشعراء .
على أن قوله بعد : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل » وما يتلوه إنما يناسب كونه ﷺ هو المراد برسول كريم .

قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » نفى أن يكون القرآن نظماً ألفه شاعر ولم يقل النبي ﷺ شعراً ولم يكن شاعراً .
وقوله : « قليلاً ما تؤمنون » توبيخ لجهنميين حيث إن الأكثرين منهم لم يؤمنوا وما آمن به إلا قليل منهم .

قوله تعالى : « ولا تقول كاهن قليلاً ما تذكرون » نفى أن يكون القرآن كهانة والنبي ﷺ كاهناً يأخذ القرآن من الجن وهم يلقونه إليه .
وقوله : « قليلاً ما تذكرون » توبيخ أيضاً لجهنميين .

قوله تعالى : « تنزيل من رب العالمين » أي منزل من رب العالمين وليس من صنع الرسول نسبة إلى الله كما تقدمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل — إلى قوله — حاجزين » يقال : تقول على فلان أي اختلق قولاً من نفسه ونسبه إليه ، والوتين — على ما ذكره الراغب — عرق يسقي الكبد وإذا انقطع مات صاحبه ، وقيل : هو رباط القلب .

والمعنى : « ولو تقول علينا » هذا الرسول الكريم الذي حملناه رسالتنا وأرسلناه إليكم بقرآن نزلناه عليه واختلق « بعض الأقاويل » ونسبه إلينا « لأخذنا منه باليمين » كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانتقمنا منه بالقوة كما في رواية القمي « ولقطعنا منه الوتين » وقتلناه لتقول علينا « فما منكم من أحد عنه

حاجزين ، تحجبونه عنا وتنجونه من عقوبتنا وإهلاكنا .
وهذا تهديد للنبي ﷺ على تقدير أن يفترى على الله كذباً وينسب إليه شيئاً لم يقله
وهو رسول من عنده أكرمه بنبوته واختاره لرسالته .
فالآيات في معنى قوله : « لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذن
لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » أسرى : ٧٥ ، وكذا
قوله في الأنبياء بعد ذكر نعمه العظمى عليهم : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون »
الأنعام : ٨٨ .

فلا يرد أن مقتضى الآيات أن كل من ادعى النبوة وافترى على الله الكذب أهلكه الله
وعاقبه في الدنيا أشد العقاب وهو منقوض ببعض مدعى النبوة من الكذابين .
وذلك أن التهديد في الآية متوجبة إلى الرسول الصادق في رسالته لو تقول على الله
ونسب إليه بعض ما ليس منه لا مطلق مدعى النبوة المفترى على الله في دعواه النبوة
وإخباره عن الله تعالى .

قوله تعالى : « وإنا لتذكرة للمتقين » بذكرهم كرامة تقوam ومعارف المبدأ والمعاد
بحقائقها ، ويعرفهم درجاتهم عند الله ومقاماتهم في الآخرة والجنة وما هذا شأنه لا يكون
تقولاً وافتراء فالآية مسوقة حجة على كون القرآن منزهاً عن التقول والفرية .
قوله تعالى : « وإنا لنعلم أن منكم مكذابين وإنا لحسرة على الكافرين » ستظهر لهم
يوم الحسرة .

قوله تعالى : « وإنا لحق اليقين فسيح باسم ربك العظيم » قد تقدم كلام في نظيرتي
الآيتين في آخر سورة الواقعة ، والسورتان متحدتان في الغرض وهو وصف يوم القيامة
ومتحدتان في سياق خاتمتها وهي الإقسام على حقيقة القرآن المنبىء عن يوم القيامة ، وقد
ختمت السورتان بكون القرآن وما أنبأ به عن وقوع الواقعة حق اليقين ثم الأمر بتسبيح
اسم الرب العظيم المنزه عن خلق العالم باطلا لا معاد فيه وعن أن يبطل المعارف الحقّة
التي يعطيها القرآن في أمر المبدأ والمعاد .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بعض المواضيع المبحوث عنها في الكتاب

السورة	الموضوع	نوع البحث	الصحيفة
سورة القمر ٨ - ١	كلام فيه إجمال القول في شق القمر	قرآني وعقلي وثاريخي	٦٠
٤٢ - ٩	كلام في سعادة الأيام ونحوستها في فصول : ١ - في سعادة الأيام ونحوستها ٢ - في سعادة الكواكب ونحوستها ٣ - في التفاؤل والتفكير	قرآني وروائي وعقلي	٧١
٥٥ - ٤٣ الجمعة	كلام في القدر	قرآني وروائي وعقلي	٩٠
٨ - ١ المنافقون	كلام في معنى تعليم الحكمة	قرآني وعقلي	٢٦٩
٨ - ١	كلام حول النفاق في صدر الإسلام	قرآني وثاريخي	٢٨٧



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

AL-MIZAN

FI

TAFSIR AL-KOR'AN

BY

AL-ALLAMA AB-SAJJID

MOHAMMAD HOSAIN AL-TABATABAI

PUBLISHED BY

Al-Atami Library

BEIRUT - LEBANON

P.O. BOX 7120